وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

حسيب كيالي



الأعمال الروائية والقصصية

(الجزء الثالث)

الأعمال الروائية والقصصية

حسيب كيالي

(الجزء الثالث)

تصميم الغلاف
فراس نعوف

الأعمال الروائية والقصصية

حسيب كيالي

(١٩٢١-١٩٩٣م)

(الجزء الثالث)

المطارد

قصة الأشكال

نعيمة زعفران

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٢م

صدرت الطبعة الأولى

عام ٢٠٠٧م

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

(سلسلة الأعمال الكاملة؛ ١٠)

الأعمال الروائية والقصصية: المطارد – قصة الأشكال – نعيمة زعفران / حسيب كيالي .- ط٢ .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢ .- ج٣ (٤٨٠ ص)؛ ٢٤ سم .-

(الأعمال الكاملة؛ ١٠)

١ - ٨١٣,٠٠٨ ك ي ا أ ٢ - ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ك ي ا أ

٣ - العنوان ٤ - كيالي ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

المطـــارد

مجموعة قصص

عيد ميلاد

الزمن، أواسط نيسان، الأولاد يستعدون للامتحانات، الميسورون منهم يأخذون دروساً خصوصية في الرياضيات واللغات الأجنبية بخاصة. طلاب شهادتي الإعدادية والثانوية بدؤوا يسهرون على الشرفات، إذا أمنوا لذع البرد، حتى الساعات الأولى من الصباح. في الحدائق العامة والشوارع الجانبية، ترى يافعين وشباناً، الكتب في أيديهم يروحون ويجيئون وأعينهم غائصة في الأسطر. وقد يرفعون أعينهم إذا مرَّت فتاة ثوبها له شقة عن الجانب، ويزلقون نظرة خاصة ثم يزجرون أنفسهم ويعودون إلى القراءة والمشورة.

وأما هو فقد كان يحلم أن يكون له، هذه السنة، عيد ميلاد مطنطن. الأعياد الماضية كانت متواضعة. وأما هذا العيد فيجب أن يختلف: إنه في السادسة عشرة. شاب مشورب. ومع معونة ماكنة حلاقة أبيه ذات الحد الواحد لن يلبث أن يصبح ملتحياً أيضاً. وسيدعو أحمد وحساما، وعلى رأس القائمة سوزي، خفيفة الدم، التي تدخِّن مثله. أحمد وحسام لهما، أيضاً، رفيقتان. فإذا وافق عصام ورفيقته سامية على الحضور كانت الحفلة فخمة. ينبغي إحضار عدد من الأشرطة، موسيقى راقصة. وقد يوافق الأب فيمنح بعض المال فيشتري بضع قناني من البيرة. وتحضِّر له أمه قالبين عرمرمين من الغاتو اللذيذ، تصنعه على طريقتها الفذة وتقبسه منها نسوة الحارة جميعهن: ثماني بيضات للقالب الواحد مع طحين وكاكاو ومبشور قشر الليمون وجوز هند ولوز ومربى المشمش وزبدة... كلها موزونة بالغْرام.

الأم، على الرغم من أنه يُريها كل يوّم نجوم الظهر من أين تطلع، سَهْلْ تطبيقها. إنها تفور مثل الحليب حتى تطف. وتأخذ عليه أنه عفش، مهمل، كسول، ينام حتى الظهر، ويسهر على التلفزيون حتى النشيد العربي السوري والعلم. ولكن، يكفي أن يدس أنفه في عنقها ويشمَّها وإذا هي مشرقة مثل عروس في أول حمل لها، تقول له في تمنع راض:

- رح من وجهي. لا تحك معي.

قبلة أخرى تفرط كلَّ شيء وتبدد حتى التمنع التمثيلي ولا يبقى غير الرضى.

- يا أمي، يا أمي، أنت تعذبني يا ماما.

- أنا؟ إن شاء الله أموت وألحق عمي إذا كنت أعذبك.

- يوه، بعيد الشر! تقبرني بيديك الاثنتين إن شاء الله. إياك أن تعود إلى مثل هذا الكلام. أنا أزعل منك هاه.

- ماما.

- روح قلب الماما؟

المشكلة في الأب.. هذا، قبل عيد الميلاد بشهرين أُجري له سَبْر.

- بابا.

الأب في لهجة جافة:

- نعم؟

- أنا عيد ميلادي ١٦ حزيران. أما زلت تتذكر (ضحكة) أم أنك نسيت؟

- أتذكر ولكن أيش يعني؟

- يعني أن هذه السنة سيكون عيد ميلاد حقيقياً لا كالأعياد السابقة، ما فيها غير عمتي أم عمار وبنت عمي سلام وأمي وأنت.

الأب، باللهجة الناشفة ذاتها:

- الاحتفال بأعياد الميلاد بدعة جاءتنا من الغرب. هل رأيتني في عمرك كله أحتفل بعيد ميلادي، أنا؟

- بابا، أنت مجهول يوم الميلاد. أما قلت لي، أنت ذاتك، أن السرايا في بلدتكم قد أُحرقت في أثناء مبارزة بالمدفعية بين الفرنسيين والثوار، وكان بين ما احترق أوراق السجل المدني؟

- بلى، قلت.

- أما قلت لي أيضاً أنك بقيت مكتوماً حتى صرت على أبواب سن المدرسة، عندئذ قال لك المرحوم جدي: رح عند عمك أبي عبد الكافي، مأمور النفوس، وقل له أن يسجلك في خانة الأسرة؟

- بلى، قلت.

- ألست تعيد هذه الحادثة كلما زارتنا بنت حلوة وتقول أنك، مثل كل الأطفال الذين يحبون أن يكبروا أنفسهم، كبرت نفسك سنتين أو ثلاثاً؟

هذه الفقرة الأخيرة لم يكن الأب يزعمها لما كان يمشي في الأرض مرحاً ويخرق الأرض طولاً وعرضاً كأنه المهر الأصيل البطر ابن ثلاث السنوات. إنه ما اخترعها إلا بعد أن غزا الشيب فوديه، وصارت الصبايا الصغيرات يصحن له: «عمو»! وظل يرددها حتى صدقها من كل عقله قال:

- بلى، وإن كنت أنت تزيِّد في نقل أقوالي وتفلفلها وتبهرها.

رف الولد. عيناه، ظريفتان حينما ترفان. تجاهل الملاحظة التي أبداها الأب. قال:

- وأما أنا فقد ولدت في دار التوليد، على يدي الدكتور إبراهيم حقي، الساعة الحادية عشرة من يوم السادس عشر من حزيران لعام ١٩٢٦. وبالعلامة كنت سنتها بطالاً: مسرَّحاً من وظيفتك.

- هذا صحيح.

- ومع ذلك استدنت لكي تعمل لأمي ولادة مطنطة، فاستأجرت لها غرفة خصوصية مع حمام، ورحت فقعدت في قهوة الهافانا تنتظر هاتفاً من ستي أمّ أمي وعمتي أم عمار...

- إلى أين تريد أن تصل من هذه الثرثرة كلها؟

- حلمك عليَّ. ولما رأيت النور، أنا بكرك، جاءك إلى القهوة صوتا ستي وعمتي يزلغطان: عجل شرف ولي العهد.

- كدت أنفلق. ألا تستطيع أن تقول لي ما تريده بكلمتين ورد غطاهما؟

- برحمة عمي اتركني أكمل.

- أكمل.

- وتركت القهوة وركضت إلى دار التوليد. أليس هذا ما جرى؟

- بلى.

- قامت أمي، التي كانت ولادتها طبيعية مئة بالمئة، ما أن رأتك تدخل عليها الغرفة حتى تظاهرت بالإغماء، وراحت تئن وتعن..

الأب تغلبه الابتسامة.

- حصل.

- قامت حتى ستي، أمها، قالت لها في شبه ملامة وشبه رضى: «أي تضربي، الآن ما كان فيك شي!» والتفتت إليك وهي تقول على طريقتها في الردح: «هذا دلال يا مو».

- أختنقت وانتهى أمري. لو أنك تحفظ درس التاريخ وكتاب الفيزياء ومسائل الجبر بمثل هذه الدقة أما كان خيراً لي وأبقى؟

ولكنه كان يدركه تحنن يجاهد كي يكبحه، لأن تلك التي كانت «هذا دلال يامو». تخلت عنه، وظل مدة طويلة لا يعرف له أماً غير هذه التي ربته مذ هو شحيم ولحيم: ولا ترى الدنيا إلا سخاماً لولاه.

واستمرت مَطْرَقَةُ الولد:

- أما قلت لي يا بابا أيضاً أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يقول: لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم ولدوا لزمان غير زمانكم؟

- ما زلنا في المقدمات... الحقني بالنتائج يدي في زنارك.

- النتائج أنكم لم تعتادوا أنتم أن يقام لكم احتفالات بأعياد ميلادكم، وأما جيلنا نحن، الذي لم تحترق أوراق نفوسه في أية ثورة، فقد اعتاد.

- كله؟!

- كله. ألم يدعني حسام إلى عيد ميلاده الشهر الماضي؟

- حسام يستحق. حسام ينهض كل صباح قبل الساعة الخامسة ويطُبُّ نفسه، يا هالك يا مالك، على الكتاب. وأما أنت فتنام حتى الظهر.

- لأني أسهر حتى طلوع الضوء.

- في التدخين، وكتابة موضوعات سخيفة عن الحب والليل، واللقاء والفراق: واليأس والأمل، وما لست أدري من ترهات.

- بابا، أنا أكتب ترَّهات؟

- طبيعي، ما دمت تخربط حتى الآن بين الفاعل والمفعول به، وتعرب «يسقي» على أنه فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم وعلامة رفعه اشتغال المحل بالحركة المناسبة للياء.. مع أني قلت ألف مرة إن اشتغال المحل لا يكون إلا في الاسم الذي تصل به ياء المتكلم مثل كتابي. وأما ياء «يسقي» فأصلية، لأنه فعل معتل الآخر بالياء.

- بابا، والله بطّلت.

- وأنت في الجغرافيا ضعيف.

- أنا بابا؟

- طبيعي: قل لي أين تقع الأرجنتين هذه التي ستقام فيها بطولة كأس العالم لكرة القدم وتشترك فيها دولة عربية واحدة هي تونس.

- بابا، هذه ما أخذناها بعد.

- طيب، هل في السعودية أنهار؟

- فيها.

- لا يوجد فيها أنهار من أجل خاطرك بل واحات ومسيلات وينابيع. طيب، محمد علي متى ذبح المماليك في قلعة صلاح الدين في القاهرة؟

- ؟

- العام ١١٨١ يا فهيم، ولم ينج من نحو: أربعمئة مملوك إلا واحد هرب على صهوة حصانه وسمي لذلك «المملوك الشارد». ولما تزوج الملك فاروق من فريدة، وجد «مؤرخون» جرائديون أن فريدة من أحفاد المملوك الشارد، على طريقة روميو وجولييت.

- بابا، بابا، ما علاقة هذا كلّه بعيد ميلادي؟

العلاقة ذاتها بين جهلك ما ينفعلك علمه في الفحص، وتبحّرك في دنيس دوسس ودليلا وبوب آرت..

- دليدا وبوب عزام، بابا.

- هه، أرأيت؟ هذا أهم من الأنهار في السعودية، أليس كذلك؟

والله يا بابا سأدرس. وسأنجح في الشهادة الإعدادية، وسترى.

- إذن هات الشهادة الإعدادية وخذ عيد ميلاد يشتهيه ابن ملك على عرشه.

- ولكن عيد ميلادي يصادف قبل ظهور نتائج الفحص.

- تؤجل العيد.

- أسمعت في عمرك عيداً يؤجل؟

وبقيت المشكلة معلقة. استطاع الأب أن يصمد حتى النهاية أمام الولد الملحاح الذي لا يكل من المماحكة، بل يحبُّها مهما تكن فارغة ويؤثرها على جِدّ الأمور وعزمها.

طوال المدة الفاصلة بين هذا الحوار وفحص الشهادة الإعدادية، كان الولد يحاول أن يُضْفي على تحركاته جميع مظاهر الطالب المجتهد، الذي يقبض الدراسة جدياً، ويتحرق شوقاً، مثل المهر الأصيل، إلى خوض المعمان ومنازلة الأقران. ولكن تَضَعيِّه في النوم، إدمانه على التلفزيون ولصوقه به

منذ النشيد السوري إلى النشيد السوري أعقاب السيكارات على الشرفة، اهتمامه الأبدي بالنافل، هَوسَه بالمناكدة والنقار مع أمه، تدلُّعه وعدم مسؤوليته، إهماله وتبديله القمصان كل يوم عدة مرات من غير أن يجشِّم نفسه عناء الاستحمام... كل أولئك أسلم الأب إلى إحدى الراحتين: لا نصائح ما دامت غير مجدية، لا اهتمام، لا غضب، لا عصبية... الكلب الذي تريد أن تسوقه إلى الصيد سوقاً بئس منه وبئس من صيده. المثل العامي على هذا. إن عبد السلام، زميل الأب في العمل، له ولد في الرابعة عشرة من عمره نجح إلى الصف التاسع. قارئ مذهل، لا تكفيه مكتبة البيت، ولكنه يروح يستأجر كتباً، بالخرجية التي يعطيه إياها أبوه، من المكتبات التي تؤجره، يلتهمها. وكلما تقدم إلى فحص كان الأول. وليس أبوه متبحراً في النحو أو العلوم. وأمه ليست فاضية له لأن لديها تسعة أولاد غيره. وأما هذا المدلل، الوحيد، ففي عمره لم يقرأ كتاباً من الدفة إلى الدفة. هو الآن في السادسة عشرة وما يزال يقرأ «أسامة» قل «أسامة» عظيمة ولكنّه يقرأ ميكي، وتان وتان، للنكاية!...

العام الماضي ظن الأب أن هوى ابنه إلى الصناعة فوضعه عند خراط إفرنجي. اشترى له آفاروليَن اثنين. ظلت الأم تغسل كلَّ يوم، لأن الولد كان يأتي وكأنك غمسته في برميل قطران. من اليوم الأول أعلن على الملأ أنه خطا خطوات شاسعة في الصناعة، وأن على الأب أن يتدبر - حتى ولو استدان - حركة عشرين، ثلاثين ألف ليرة لشراء مخرطة بلغارية. إنه - أي الأب - إن فعل أصاب عصفورين بحجر واحد: أولاً، لأن الخراطين يربحون بالمئات يومياً ولا يعطون للأُجراء غير العظام المعروفة. ثانياً، يستطيع من يملك مخرطة أن يظفر باستقلاله، ولهذا ما له من الأثر في شخصيته (دخلنا في علم النفس!).

اعترض الأب: «والمحل؟ المحلات هذه الأيام أندر من الكبريت الأحمر، فإذا وجدت، وجب عليك أن تدفع مئات الألوف في شقفة دكان قربوعة قد قن الدجاج».

لم يَثْنِ هذا الاعتراض الولد عن مشاريعه. كانت له دفوع كثيرة ليس أقلها أن نبيع البيت ونسكن بيتاً بالأجرة لأنه حرام أن تُجمد حق البيت ولا نستفيد منه فنجعله رأس مال سائل يدر علينا أضعاف أضعافه شهرياً لا سنوياً!

بلا طول سيرة، لم يدم «التدريب» أكثر من أسبوع.

قال المعلم للأب:

- خذ ابنك من عندي بريحة طيبة أحسن لي ولك..

- ليش حضرة الأخ؟

- إذا استمر «تدريبه» أسبوعين آخرين خرجت لا من المحل وحسب، ولكن من ديني، والعياذ بالله، أيضاً!

وقال الأب في نفسه:

«أنت نفسك كذلك لما كنت في عمره. لم تكن لامعاً في شيء إلا في النحو، وليس كل اللمعان، إذا أردت الإنصاف، وهذا لم يكن لك فيه يد، لأن مجلس أبيك - وقد كان مفتيَّ البلد - مجلس نحو وفقه وأدب بجماعة. كنت، طوال سني يفاعتك وفتوتك، كالمصاب بمرض السير في النوم أصلاً، وأنت طفل «كنت تسير في نومك حقاً. وشهيرةٌ هي تلك الليلة لمّا قمت من فرشتك (لم يكن للأولاد تلك الأيام تخوت) واجتزت جداراً تخاف حتى القطط أن تسير عليه، إلى سطح القاعة الشرقية، وقطعت سفحها، ونزلت من الدرج إلى صحن الدار فالقبو - بيت المونة - حيث وجدت صباحاً مستغرقاً في النوم بين أكياس الرز والبصل وتحت قلادات الفليفلة الحارمية الحمراء والبامية واللوبياء والباذنجان الميبَّسة. منذ ذلك اليوم، صاروا يقفلون عليك باب غرفة نومك بالمفتاح.

«ولما صرت في سن البلوغ، ركبك مرض الحرمان، ولولا لست تدري أية قوى عارمة تدخلت لكنت بين الجانحين انتقاماً لحرمانك من أن يكون لك اكتفاؤك الجنسي. كنت لا تطالب بأكثر من أن يكون لك حظ الحمير والخيل

والديكة الهندية في خان عمك الحاج صالح، حيث لا يقف أحدٌ أداة قهر، ولا يماري أحد هذه الحيوانات في «حق تقرير مصيرها» الجنسي! أكثر من ذلك أن أصحاب الأفراس يأتون إلى خان العم الحاج صالح بأفراسهم الناضجة للنزوة فيشبُّونها من حمير المطاربة (فصيل من القرباط، النَوَرْ، وهم ميسورون أكثر، وحميرهم ضخمة كالكدش، تستخدم لاستيلاد البغال التي لا غنى عنها في تلك المناطق الجبلية الوعرة)... إي نعم، صباك قد تقضي إلا أقله في التفكير في ثياب النساء الداخلية، ففيم شكواك من ابنك من فضلك؟

قال الآخر الذي فيه:

«أنا لا أنكر ذلك التبذير، التسيّب، الهدر، البعزقة التي أصابت صباناً. ولكننا، في الأقل. صنعنا شيئاً...

- صنعنا ماذا؟

الآخر يستمر:

- «ولا تنس مرضنا المزمن الملاريا. ألا تذكر أننا في إحدى السنين الدراسية، كنا نداوم يوماً واحداً في المدرسة، وخمسة عشر يوماً أو أكثر في الفرشة، أو نجر أقدامنا العجفاء الواهنة تحت شمس الشتاء في صحن الدار؟ كليلين كنّا، مُتَقَصِّفين، صفراً، كأننا جلد شاحب رُكِّب على هيكل عظمي دارس لمستحاثة! ولا تَنْسَ أبانا الذي كان منصرفاً بكليته عن الاهتمام لنا إلى تحليقاته في أفلاك الميتافيزيك كلما أمن من خوف على الرغيف في أسرة عارمة مكونة من اثني عشر فماً في الأقل؟

- «أهذه كلُّها حجج لك أو عليك؟ لا تنسرب مع سيولة الحديث ويسره. واجه كل شيء كأنك قدام حد سكين انشق عنها الظلام في وجهك بغتة، كأنما من جوف الأرض.

- «عفواً، هل تظن نفسك وأنت تقول هذا الهراء إنما تفتح فتحاً مبيناً وتأتي بفصل الخطاب في دنيا قص القصص وحكاية الحكايات؟ آن لك أن تعرف حدودك، انساناً عادياً تجرف بالمجرفة كُوَمٌ خير منك فاشل أنت. فاشل أباً، فاشل عائشاً، فاشل محباً وزوجاً فا ...

نحن الآن في مساء السادس عشر من حزيران.

الولد قدَّم فحص الكفاءة، ولكن النتيجة لما تظهر. إذن ما من احتفال كما قرر الأب متحرِّفاً لقتال ومتحيزاً إلى فئة! الأم كان لديها شواغل كثيرة، ومع ذلك طبخت قالب غاتو واحداً.

تعمد الأب أن يعود إلى البيت متأخراً مساء.

سأل الأم عن الولد قالت:

- في غرفة الضيوف.

- وحده؟

- لا، معه أحمد وبسام.

- فيه بنات؟

- لا.

خلع ثيابه. أخذ كتاباً. تمدد على القاطع في الصوفه، تحت رأسه وسادتان.

لا موسيقى. لا ضجة تنبعث من غرفة الضيوف. أحس أن شيئاً كالكماشة يلز قلبه.

كان الولد يخرج من غرفة الضيوف ويغلق الباب خلفه ثم يعود فيدخل ويغلق خلفه.

عاد لا يفهم ما يقرأ. ازداد ضيقه وكآبته.

في إحدى المرات دنا الولد من أبيه:

- بابا.

أجاب متصنعاً الجفاف:

- نعم؟

- أحمد وحسام يريدان أن يرياك.

- أخاف أن أحجز حريتكما.

- على العكس. هما يحبانك كثيراً، ويقرآن كل ما تكتب. إنهما معجبان بك. - أي طيب، أنا آت. ولكن اسمح لي أن استبدل بالجلابية قميصاً وبنطالاً.

وقال في نفسه: «انه لن ينجح، وماذا في هذا؟ هل تسقط السماء على الأرض؟

أنت، حضرتك، كم كان عمرك لما ظفرت بالشهادة الإعدادية؟

قال الآخر: «أيامنا كان في الابتدائي رفاق متزوجون وعندهم أولاد، ولا تَنْسَ الملاريا و...».

قال الولد:

- ما فيه لزوم بابا، تعال مثلما أنت..

كانت المائدة منضدة الوسط، وكل ما عليها صحن فيه قالب الغاتو اليتيم. وقزازة بيرة الشرق غير مفتوحة. لا شموع، لا بالونات، لا شرائط، ولا موسيقى إلا نغمة واطئة، تشبه أن تكون راقصة، تنبعث من المسجلة.

حاصر الأب ضيق خانق وجثمت على صدره كآبة ثقيلة، حتى في السنوات السابقة كانت تستخدم المائدة الرئيسية التي في الصوفة، ويطبخ قالبا غاتو أو ثلاثة، ويشتري معمول وبرازق ويدعى أولاد العمة والعم وبعض اللدات من الجيران. وكان هو، الأب، يشتري قنينة ويسكي احتفالاً بالمناسبة. أنت تعلم: ابنه الوحيد، ومع ذلك كان ابنه يزقزق ويلعب بنجاح دور المحتفى به ورب البيت الداعي، فهو مثل المكوك بين المطبخ وغرفة الضيوف: لماذا؟ لجلب صحن سيكارة أو بقايا خيار من البراد!

وتكلم الأب لكي يقول شيئاً. قال موجهاً الخطاب إلى أحمد، ضخم على صغر سنه، شديد السمرة طويل:

- أهلاً، ألست أنت أحمد؟

- بلى عم.

- أنت تأتينا قليلاً، وأما حسام فقد درس كثيراً مع ابني محمد، كيف أنت يا حسام؟

حسام، على عكس أحمد، نحيف، خجول صموت. أيام الدراسة كان يوقظ محمد كل صباح نحو الخامسة صباحاً، فلا يستيقظ هذا إلا بالعسر وقد

لا يستيقظ، حتى أن الأب قال في نفسه: «ما لي حظ، حسام وأحمد سينجحان في الشهادة وأما محمد فسيرسب قولاً واحداً»:

قال حسام ما يشبه أن يكون:

- شكراً لكم.

صَمت، كسره أحمد:

- عم، ما رأيك في نجيب محفوظ؟

الرجل لم يكن يحب مثل هذه الأسئلة، أن يتحدث عن كاتب مثل نجيب محفوظ، عن كون. ما عساك أن تقول عن همنغوي أو عن تشيخوف؟ ما عسى أن تقول عن ورق الورد؟

قال في اثارة خفيفة من التهكم:

- مليح.

- ولكنه لا يسير في الخط الاشتراكي.

- ما هو الخط الاشتراكي في الأدب برأيك؟

- لم يهتم لقضية فلسطين مثلاً.

هذا قول بديع، شكسبير ذاته لا أعتبره شكسبيراً لو لم يكتب «تاجر البندقية». لا يغتفر بعدما حصل خلال الثلاثين السنة الماضية، أن يقف أحد على الحياد. الحياد في هذه القضية يعني الانحياز إلى صف الاعداء، إلى المجازر وطرد الناس من ديارهم أو هدمها على رؤوسهم.

ما عساه أن يقول؟ صَمَت ملياً، عاد يتأمل «المائدة» في حزن، وطاف بعينيه على المدعويْن الاثنين ثم على صاحب الدعوة. كل شيء حزين، كل شيء يغرق في كآبة لا قرار لها. قال أخيراً:

- قل لي يا أحمد، من أين أنت في فلسطين؟

- أنا من طبريا عم.

- حدثني عنها قليلاً.

- طبريا أجمل مدينة في العالم، تنخفض عن سطح البحر ٢١٦ متراً دافئة معظم أيام السنة. مياه الحمة قريبة منها. بحيرتها هادئة دائماً، ولذلك كان الانكليز يعتبرونها مشتى. أول طائرة برمائية في العالم هبطت فيها: الناظر إليها من الجولان يراها عند قدمي جبل ضخم. المنطقة مشهورة بأنها أجمل منطقة جبلية في الدنيا. أهاليها يصيدون السمك. على طول الشط تنتشر المقاهي. على مياه البحيرة مشى المسيح وأطعم السماكين. عند المساء يجتمع كل أهل البلد على الكورنيش ويسمونه «الليدو». في البلد حصن قديم، مثل قلعة المضيق هنا في سورية، بيتنا فيه. سنة ٤٨ قرر اليهود نسف الحصن، لأنه يسيطر على منطقة مهمة عسكريا، وأرسلوا رجالهم لوضع متفجرات ناسفة تحت البرج الأكبر، لأن القناصة من مجاهدينا العرب كانوا فيه، قامت امرأة يهودية عربية تسللت إلى الحصن وأخبرتنا بنية الصهاينة، قمنا أخليناه من الأطفال والنساء والشيوخ. هناك أيضاً حمام اسمه النبي يعقوب، من يستحم فيه لا تؤذيه الحيات أو العقارب. كان همُّ اليهود أخذ بلدنا لأن فيه جالية لا بأس بعددها منهم، ولما بدأت الحرب شنوا علينا هجمات نفسية، أشاعوا أن كل امرأة تخرج من طبريا ومعها أسوار ذهب أو طوق ذهب سيقطعون يديها أو رقبتها ويأخذون الذهب.

«كل الناس عندنا يسبحون حتى البنات. أهل البلد يحبون البسط والسمك والجمال».

حسام الخجول، كان يصغي وعيناه تلتمعان. سأله الأب خفياً:

- وأنت يا حسام. من أين؟

فجاءة، فرقه خجله، واندفع يقول في حرارة:

- أنا من الطيرة، أجمل بلد في فلسطين.

- أين تقع؟

- على بعد سبع كيلو مترات جنوب مدينة حيفا، عدد سكانها ثلاثة عشر ألفاً. سكانها جميعهم عرب. موقعها على سفح جبل الكرمل. تبعد عن

شاطئ البحر ستة كيلو مترات، مما جعلها تتحلى بمزيتي المدينة الساحلية والمدينة الداخلية في آن معاً. اشتهرت بالزيتون، وهي ثالث مدينة في فلسطين بثرواتها ولاسيما الزيتون، لأن كرومه تمتد مباشرة غرب البلدة بعرض ثلاث كيلو مترات وأطول من عشرة إلى خمسة عشر كيلو متراً من حيفا إلى عتليت.

«غالبية سكانها مزارعون، وهي مدينة قديمة جداً، وما تزال فيها بعض الأديرة وبوابة قديمة اسمها «بوابة الدير». أيام الانتداب البريطاني اكتسبنا خبرة في الصناعات الميكانيكية والتجارة. في الطيرة ثلاث معاصر زيت أوتوماتيكية، ما عدا المعاصر القديمة اليدوية. مناخ بلدنا أجمل مناخ، وأرضها تصلح لزراعة كل شيء. وفيها أشجار جميلة. غير المثمرة بأنواعها كالبطم والخروب: وفيها العنب والتين. الخروب يثمر ثمراً يشبه البزاليا يصنع منه مربى طيب جداً».

- هل بقي عرب فيها بعد الاحتلال الصهيوني؟

- ولا واحد. بعد سقوط اللد والرملة بثلاثة أيام بدأ هجوم الصهاينة على الطيرة. ومنذ سقوط حيفا تقرر مصير الطيرة، لأنها فقدت سوقها الطبيعية، وقدرتها على الدفاع. ذلك بأن اليهود كانوا يحاصرونها من الكرمل الذي ملَّكهم إياه الانكليز على اعتباره «أملاك دولة».

- التعليم؟

- ابتدائي في البداية، وثانوي فيما بعد، كان فيها مدرسة اسمها «مدرسة سنبل»، خاصة، تدريس الانكليز فيها قوي. المدارس تبنى على حساب البلد. والأرض تمنحها البلدية، وكل شيء حتى رواتب المعلمين. ومن ينجح فائزاً بالدرجة الأولى، في الصف الأخير: يرسل إلى حيفا مجاناً. في حيفا لا يوجد مدارس حكومية، والتدريس حتى الثاني الثانوي، ومن بعد يجب الانتقال إلى القدس. والدراسة الثانوية تكلف جنيها في اليوم، يعني أن الفقراء محرمون من الدراسة، هذه كانت خطة المحتل البريطاني.

لما احتلها اليهود أحرقوا ستة وعشرين عاجزاً ومريضاً في البيادر.

البلدة كلها لا تتجاوز أسَرُها الثلاثين، أسرتنا نحن، يعود تاريخها إلى الظاهر عمر وما يزال في المنطقة تل يحمل اسم أسرتنا.

فيها أيضاً كهوف حجرية قديمة، وبناء في قلب البلدة قديم جداً. وحجارته ضخمة، يظهر عليها القدم واسمه المنزول.

«اشتهر فيها موضع يسمى كم الحديد «أي كمب» كان يحوي ثلاثة عشر معسكراً ومستودعات لجميع قوات الشرق الأوسط البريطانية فلما كان العام ١٩٤٨ انتزعت ملكيته وسلم كله لليهود».

ساد وجوم. لم يمدَّ أحدٌ يده إلى قالب الغاتو أو قزازة البيرة فيفتحها. تهامس الأولاد ثانية خاطفة ففقئت ضحكة خجول مظلمة كأنها شهقة انتحاب.

نهض الأب وانصرف، وهو يغتصب ابتسامة تشبه أن تكون تكشيرة وتحية وداع!

* * *

أمي، أبي والأسرة

المدينة، المدينة. كم ذا تسمم أهلها، وتسمم أكثر منهم أولئك الوافدين إليها من الريف، الذين يذوقون كأسها الأولى فسرعان ما تسري في دمائهم حتى الإدمان.

كنت أفكر على هذا النحو وأنا أرى إلى أخي عيد وهو متمطرق في التخت يقرأ في مجلة قديمة وينعس، بينما امرأته، ابنة المدينة، تقص وتشبر مع ضيفة هي أيضاً بنت مدينة، وتملأ فمها بكلمات «بيتي»، «زوجي»، «حماتي»... وتتأفف من كل شيء في الضيعة:

- موت يا أختي موت. أنت طول النهار والليل مع البقر والخرفان والكلاب والدجاج. وما أن يمسي المساء حتى يموت كل شيء إلا نباح كلب هنا ونحيب بومة في خربة بعيدة. كل شيء كان يمكن أن يحتمل، ولكن الله، يقبرني اسمه، حرمني من الأولاد. هذه هي السنة الخامسة وأنا متزوجة وما رزقني الله بصوص ابن يوم أتسلى به. القطط تحمل وتلد. الغنمات. الحرادين. وأما أنا فرأسي ورأس زوجي وهذا الشيخ عمي، وهذه العجوز حماتي. ويا ليتني أعجبها، الختيارة! حضرتها لا يرضيها أني أعمل البيت كل يوم مثل النفَّجة. غسيلي مثل الثلج. طبختي تؤكل الأصابع وراءها. جليي مثل المسك. إنها تريدني أن أعاونها في الكرم أيضاً! كيف تريدني أن أعاونها؟ أنا أولا لست فلاحة. أنا بنت مدن، معلمة على الدلال، وحيدة أهلي. وأنا بنت ما كنت ألم الورد بيدي، وعلى كل ضرس لون، والشور شوري والقول قولي... وأما هي فمن أين لي قوتها خزيت العين؟ صدقيني تستطيع أن تحملني من هنا إلى الكرم وتعود بي... عندما نذهب إلى الشام أعجز فيها وفي عمي أن تأخذ

تكسي عندما ينزلنا الباص في القابون. مستحيل. إنهما يحملان أغراضهما ويطرقان الطريق إلى بيتنا في برج الروس مشياً. الشيء نفسه عندما نذهب إلى الضيعة.

لم تكن تنقطع عن الحديث، تتابعه حتى ولو حاصت لتقديم سيكارة للضيفة أو قربت منها المنفضة. وكانت الضيفة امرأة ممتلئة صموتا، يقع لها أن تفتح فمها لتعلق على بعض كلام امرأة أخي، ولكن انصباب هذه عليها من كل جانب لا يلبث أن يسكتها فتفعل عن طيب خاطر... كانتا تجلسان أمام النافذتين المطلتين على الفناء تجللهما ستارتان منفرجتان رقيقتا النسج.

أنا كنت في المطبخ المطلّة نافذته هي أيضاً على الفناء.. وإذا أنا أرى أمي تروح وتجيء أمام النوافذ. وكلما مرت بنافذتي غرفة القعود حيث الضيفة وامرأة أخي، رفعت يديها ورأسها إلى السماء!... أسرعت في عمل القهوة، ونقرت على امرأة أخي الباب، وأعطيتها إياها، ثم هرعت إلى الفناء وقلت لأمي همساً:

- ماذا تصنعين؟

- أدعو على مقصوفة الرقبة هذه.

- أليس عيباً عليك؟

كتمت ضحكة وأضفت:

- ألا تستطيعين الدعاء عليها في قلبك، من غير إشارات؟ إنها قد تراك!

- وإذا رأتني. هل تنزل صاعقة من السماء على الأرض؟ تضرب ما أقل طعمتها. يخرب بيتها، لا تقولين إلا ماكنة مزيَّتة. حطيها عشر ساعات على كر، كر، كر... وكله حكي من فوق الأساطيح، قطع ولحش. الله يكون في عونك يا بنيّ. تعالي ولك بنتي تعالي معي.

- إلى أين؟

- تعالي نذهب إلى الكرم.

وفكت خروفيها اللذين فرحا بالحرية وأخذا يشمشمانها ويتراكضان هنا وهناك، ويقلدان وضعية التناطح، والجرسان الصغيران اللذان زينت أمي بهما رقبتيهما يوسوسان.

أحد الخروفين هادئ الطبع، لطيف، يلحوس يديْ أمي حتى يزداد اختفاء عينيه وراء صوفهما الأبيض إلا عند الجبهة. وأما الآخر فقد ولد ملعوناً، كثير الحركة، ونما أكثر مما نما الأول. وهو يحب أن يعاكس أمي، وله غرام عجيب بالابتعاد عنها قليلاً ثم نطحها في مؤخرتها. كان ذلك منه محبباً قبل أن ينبت له قرنان ويُضحي، أو يكاد كبشاً مكتملاً، وأما الآن فإنه يذكِّر بالولد الذي أدرك سن البلوغ، ودرش صوته واجتش وهو ما يزال يَـــتَولدَن... المهم أن هذين الخروفين، على الرغم من دنوهما من اليفاع، يزدادان تشبثاً بأمي، يلحقانها عندما يكونان طليقين حتى ولو خطت خطوة. ليس في ذلك عجب: لقد ألفاها منذ أن كانت تحضّر لهما الحليب وهما رضيعان.

قدام المدخل الخارجي، كان أبي والخوري عبود على كرسيين واطئين من القش،يتحدثان بصوت عال ويقهقهان. كان أبي يقول له:

- لماذا لا يكون للخوارنة غير هذا الثوب في كل فصول السنة؟ لماذا لا يعرِّضون بناطيلهم مثلاً عندما تكون الموضة موضة العريض؟

فيجيبه الخوري:

- ولماذا لا تغير أنت شروالك؟ لماذا لا تعرض كمه؟

أبي يضحك بقوة ضحكته الرفيعة النقية:

- هذه سمعة جديدة. في حياتك سمعت أن الشروال يعرض؟ فيقول الخوري:

- من جهة أخرى، على أيش من فضلك تريدنا أن نلحق الموضة؟ على الثروة التي قلفطناها من وراكم يوم عرس ابنك عيد، أم على صرر الذهب التي انصبت علينا يوم عماد أولادك؟ ولك يوم عرسك أنت ذاتك على أم عيد قديش طلع لي؟

وقهقهة أبي، وقال:

- أبونا، أنت تنسى أن نبيذاتك من خمسين سنة حتى الآن على أم عيد؟

لما خرجنا، أمي وأنا والخروفان، رفع أبي عينيه الصغيرتين الواهنتين إلينا:

- إلى أين يا صبايا؟ إلى أين أم عيد؟

قالت أمي في نزق:

- إلى الكرم. إلى أين تريدنا أن نذهب. صباح الخير أبونا.

قال أبي:

- وأنت يا وصال؟

- أنا رايحة مع أمي؟

- أي لا تتعوقي. بدنا نسافر هاه.

- أما اعتمدنا أن نتغدى ونسافر؟

- بلى، روحي حبيبتي، روحي.

طول الطريق لم تنقطع أمي عن تكليم الخروف الورش، الذي لم يكن يَمَلُّ لعبة نطحها والهرب بعيداً وهو يتقنطر كأنه مهر شركسي، وهي تقول له متأففة:

- تضرب ما أغلظك! ولك من أين تعلمت هذه العلوم كلها ولك يا عفريت؟ والله إن عدت إلى هذه العادة يا سعدان...

ولكنه اعترض طريقها مثل طفل يريد أن يمنع أمه من التقدم إذا هي لم تحمله. وجعل يحرك رقبته فيهتز الجرس الصغير الأبيض، تصدر عنه رنات صغيرة كأنها المأماة، فنظرت إلي متعجبة:

- ولك وصال كرمى لله شوفي لي هذا الغليظ هذا. يظن أنه رضيع ما يزال!

ووجهت الكلام إليه:

- الآن نصل يا مشطوط إلى الكرم وأريك. يا رب لا تخلني أحكي كلمة كبيرة. ولكن، وحياة الرب، لا يقول لي عقلي إلا أن... أربطك!

التهديد لا ينفع. أمي تخانق حقاً هذه المرة، وتحاول أن تمسكه من طوقه ولكنه، بعد أن تكاد تقبض عليه، ينفر منها لاعباً ويبتعد قليلاً ثم يعود فيلحقها. وتتابع طريقها وهي تحكي في حقه:

- خلص، أنت عدت لا ينفع معك إلا أن.. يا رب صبرني!

وقذفتها مرة واحدة:

- إذا بقيت على هذه الضوجة ربطتك في البيت، وخلصت منك هاه. كرم ما فيه بعد اليوم هاه!

من أين تستمد أمي هذه الحيوية التي لا تفتر؟ امرأة تدنو من السبعين، وتستيقظ كل يوم مع الديكة، وتبدأ كدحاً دائباً يفيض على كل أحد، على الدجاج، والبقرة الشهباء، والخروفين وأبي وأخي وحتى امرأة أخي ذاتها.

كيف استبدلت، أنا القروية أبا عن جد، بهذه البرية الملوَّنة الشفافة السمحاء، بهذه الدوالي، بهذين الخروفين الأزعرين، بأمي بالخوري عبود، بأبي واللبلاب، والعطرة والريحان تحف بالفناء من جهاته الأربع، بهذا الهواء الصباحي المنعش، بخوابي النبيذ عصرته أمي... دواماً بليداً في مصرف لا أصنع فيه، من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثانية والنصف. (أحياناً يأمرننا بالعودة بعد الظهر)، غير أن ألصق طوابع، وأحك دفاتر وسجلات، وأشخبر على قوائم، وأكابر مع الناس في جو محبوس مخنوق صيفاً وشتاء... كل هذا في سبيل ماذا؟ في سبيل أن أتزوج واحداً من المدينة، يستولدني ولدين ثم يحمل نفسه ويرحل إلى أوروبا، ثم يرجع خمسة عشر يوماً فقط يطلقني خلالها ويعود مرة ثانية وأنكب أنا بالولدين وبحياة المدينة التي تشبه قرط الصوان! وماذا كانت النتيجة؟ هأنذى، التي كان رفيقاتي أيام الطفولة يسمينني، «السنديانة» مصابة بمرض الشقيقة، أتعب إذا حملت كرسياً، مشغوفة بالنوم، متبلدة، لا يدهشني شيء ولا يفرضِ شيء، متيقنة أن اليوم أشبه الأمس وسيشبه الغد!

موظفة! شيء مقرف. وأتصور لو أن هذه المرأة العجوز الطيبة التي تعزق الأرض، الآن، ومن حولها - في هذا الخريف العذب - ألف تدرج لوني للأحمر، للأصفر، للأخضر، في الأرض كما في قزعات الغمامات المتناثرة في سماء من اللازورد.. لو أن هذه المرأة أجبرت على العمل في المصرف، أما كانت تكفيها بضعة أيام لكي تموت وتشبع موتاً؟.

أنا لا أنكر أن للضغطة على أكْرة الجرس التي عن يمينك وحضور الآذن أبي إسماعيل، وقولتك له في لهجة آمرة قليلاً: «ثلاثة قهوة يا أبو إسماعيل اعمل معروفاً»، «تعال خذ هذه الاضبارة للحوالات»... سحراً كبيراً. ولكن، انظر لك نظرة إلى هذه الورقة الصفراء التي تكاد تسقط عن تينتها، إلى بقايا العناقيد في هذه الدالية، إلى الخروف ينطح أمي دائماً وهي مستمرة على رفع التهديدات بأقصى العقوبات إلى حد إنذاره بالـــ.. بيع هذه المرة!... وأنا أعلم أنها لن تبيعه. إن خناقها معه يشبه إلى حد مدهش خناقها مع عيد. وأما امرأة عيد فشيء آخر، شيء يجري مجرى الدم. ترى لو لم تكتشف أمي تحت تختها تلك الورقة أكانت تكون خيراً منها الآن مع سامية؟.

بادئ الأمر ظنتْها ورقة سقطت سهواً من عيد. كان هذا وسامية في دمشق، وأختي فريدة وزوجها باسل في زيارة الوالدين في الضيعة. وبينما أمي تكنس غرفتها عثرت على الورقة. ظنتها ورقة حسابات فبسطت يدها بها إلى فريدة:

- خذي ولك بنتي شوفي هذه الورقة. أخاف أن تكون مهمة.

فريدة انمزع عقلها. القراءة الأولى لم تفهم شيئاً ولكن بدأ يتضح لها كل شيء رويداً رويداً. كانت الورقة مكتوبة على النحو التالي:

«مريم بنت حواء، امرأة أبو عيد، تعمى وتتكرسح ويموت كل يوم فيها عرق وتطرش وتخرس. عمي أبو عيد بن حواء يشوفني بدر الدجى ليلة التمام. زوجي عيد ابن مريم يدخل يشوفني أجمل من القمر المصوّر ويخرج يشوفني شمس الضحى. بنات عمي وصال وهدى وفريدة، بنات مريم، الله يكرِّههن ببيتنا حتى يصير في عيونهم مثل قفا الطنجرة»..

لما اجتمع شمل الأسرة في بيت أهلي في الشام، أعربت عن حيرتي من أننا نحن ذُكر اسم أُمنا، في حين أن أبي وأمي نُسبا إلى أم واحدة هي حواء! فريدة هي التي عثرت على التفسير المعقول: السحر، كما يدل قدم الورقة، يعود عهده إلى بضع سنوات خلون، أي إلى الأيام الأولى من زواج سامية وعيد، حين كانت تجهل أغلب الظن اسم ستي لأبي وستي لأمي. ولما كان أبي وأمي من أبناء حواء فقد وجد الساحر لها المخرج!

وأما كيف وصلت تلك الورقة إلى تحت تخت أمي، فالأرجح أنها كانت مدسوسة في إحدى ثنايا التخت الحديدي، ومخبأة بحرص، ولكن طول جره ودفعه للكناسة والمسح أخرجها من «وكرها» الحريز!

ما عسى أن يحدث لو لم تكن أمي غارقة حتى شوشتها في هذه الأعمال التي لا تنتهي سواء في البيت أو الحقل أو في تدبير المونة لبناتها الثلاث، ونقلها من الضيعة إلى دمشق؟!.

تصور: شابين، نخلتين، يبعزقان أيامهما هكذا من غير أن يقدما فائدة لأحد، إنهما لم يشدّا الهمة حتى ليصنعا حفيداً صغيراً لهذين الشيخين يلعبان عليه في أيامهما الهرمة. من هو العقيم من الاثنين؟ عيد أم سامية؟ أهل هذه يقولون أنه هو العقيم. وأما نحن فالدكتور سيف الدين، بعد مئة تحليل، سخر من مزاعم أهلها وقال أن عيد قادر على أن يملأ الدنيا أولاداً.

ومع ذلك فقد تعمد أن يمر بجدار الغرفة القبلية الشمالي بعربة موسوقة حتى انبقر الجدار، وظهر باطن الغرفة من الزقاق. حجته أن البيت مصوفن، قديم، يقف على أقدامه من القدرة، ويجب إعادة بنائه. وهذا يعني أنه يحتاج إلى رخصة، ومع إخراج الرخصة يعمل المدينة من باب واحد فيكتبه باسمه في العقارية. المسألة مفهومة. انه يريد أن يحرمنا من الميراث نحن البنات لأنه الصبي الوحيد. المسكين هو لا يعلم أن الميراث كله، لا بعضه، لا يعلق على فردة من أحذيتنا. إننا نحن البنات الثلاث شققنا طريقنا، بالعسر أو باليسر، واستغنينا عن أي ميراث مرة واحدة وإلى الأبد. نحن ليس لنا ما يُنَغِّصنا غير فريدة، صغرانا. إنها وزوجها فقيران على نبالتهما. ما ذنبهما،

هذين؟. ولكن حتى فريدة وزوجها يتقدمان، يستغنيان، ويعمران لبنة بطيئة بعد لبنة بطيئة مستقبلاً موفوراً.

لما صعدنا إلى الباص كان أبي محملاً مزملاً: ربطات الثوم الثلاث التي أوصى عليها حسين زميلنا في الوزارة، جبن، فروجان حيّان لبيت أهلي في دمشق، سطل لبن مصفى، كيس سماق، بضعة أقراص شنكليش...

وما أن استقر بنا المجلس قرب النافذة حتى مال رأس أبي على صدره، وغرق في النوم تماماً. حوَّلتُ نظري إليه أتأمله. درّ صدري حناناً. لقد أصبح شيخاً كبيراً، وعيناه ساء بصرهما هذه السنوات الأخيرة. ولكن أي صفاء! أي ملاك! أية طهارة! أية قوة! وما أشد ما يشبه أمي! يقولون إن الازواج، مع طول العشرة، يتشابهون. هذان يتشابهان حتى من حيث الملامح. أختي فريدة تقول أنهما مثل الدجاج ينامان من العشاء. في بعض الليالي، في الشهر مرة، مرتين، يروحان يسهران عند بعض معارفنا أو أقاربنا، فتقول فريدة وهما يستعدان للرواح. كلمة يستعدان هنا لا تعني شيئاً جديداً يضاف إلى هندامهما أبدا!) تقول بلهجة متخابثة:

- رائحان تنامان عند من الليلة؟

فيضحكان في براءة مثل طفل رضيع.

قبل أن يتخرج خالي جرجس من كلية الطب، قبل سنتين أو ثلاث، لم يدعس أبي برطاش طبيب ما خلا طبيباً للعيون. وأما بعد أن تخرج جرجس فقد صار في حالات الرشح الشديد (أمي وأبي يسمون الأمراض كلها «السعر») يتقبل، بصعوبة، فكرة الذهاب إلى عيادة جرجس في الصوفانية ولكن بعد إلحاح من أمي؟

- ماذا تنتظر حتى تذهب عند جرجس؟

- أنا شايف لك انه ما بي شي.

- على كل حال رح.

- والله يا أم عيد إذا شئت الصدق أنا أخاف أن أزعجه.

وأخيراً يذهب. لا ينقر على خالي الصغير الباب ولكنه يجلس في غرفة الانتظار، ليس هكذا معرضاً نفسه لأية نظرة تحين من خالي إذا فتح غرفة المعاينة، ولكن في ركن منزو، قرب الباب على الأغلب.

ويعود إلى البيت ومعه ورقة مصرورة كتلك التي يصر بها السمان حبة كمون، ويقول مغتطبا، مزهواً بأخي أم عيد الصغير الفذ، الدكتور جرجس على سن ورمح، مطلقاً ضحكاته الرفيعة البريئة المتلاحقة:

- جرجس أعطاني هذا الدواء الله يرضى عليه.

ويفتح الصرة في حرص كأنها أيقونة نادرة، وهو يقرب عينيه من محتوياتها، ويسأل:

- فريدة حَبّ ايش هذا؟

وننظر فنرى حبوباً مثلها مثل غيرها، لا اسم مطبوع عليها ولا ماركة، ويقول في الزهو نفسه بابن حميه:

- حكمته عظيمة هذا الشعب. ولد قليل مثاله وحياة الله.

ويضيف موضحاً:

- وقال لي: ثلاث حبات في اليوم.

وتسأل فريدة في ملعنة:

- قبل الأكل أو بعده؟

فينظر من واحدة إلى واحدة محيَّراً، عيناه تتلاحق رفاتهما:

- والله أنا ما سألته. يمكن بعد الأكل ما يدريني. جرجس كل حبوبه بعد الأكل آمنت بالله!

- ماذا لو كانت هذه بعده؟

- والله أنا لا أعلم. أنا أعلم فقط أن حكمته ظريفة الله يسلمه.

نزلنا عند كراجات مركز الانطلاق. قلت لأبي:

- نأخذ تكسي. قال:

- ليش التكسي، من بعد المشوار؟

- من القابون إلى باب توما ما هو مشوار بعيد؟

- والله يا بنتي في الروحة كان معنا، أمك وأنا، أغراض قد هذه ومرتين وجينا ماشيين.

وضحك مدارياً:

- أنتم المتوظفين اعتدتم على رخي البدن. لا تواخذيني، هذه ليست من عندي. كل واحد في الضيعة يقولها لابنه إذا كان متوظفاً.

وحمل كيس السماق والفروجين، وانحنى ليأخذ الأغراض الباقية فلم أتركه وحملتها أنا.

آخ يا ظهري، ورجلاي أوجعتاني. يداي أيضاً شعرت أنهما تتملخان. منذ متى لم أحمل أخت هذه الحملة؟ لا بد أني سأحتاج إلى أسبوع أتمدد طواله في التخت حتى أريح عظامي! وتذكرت لما ذهبت عند حسين وصحبته في دورة النجارين. يومها سألني: «لماذا تريدين أن نطوف عليهم»؟ قلت له: «ستة قلاطق وكنبة كم رجلاً لها»؟ قال مدهوشاً: «حوالي ثلاثين، لماذا هذا السؤال»؟ قلت: «ما من رجل كنبة أو مقعد إلا وهي مكسورة عندي!» انفجر ضاحكاً وهو يقول: «طبيعي ما دمت تتسطحين عليها أو تتمطرقين خمس عشرة ساعة في اليوم»!.

وأما أبي، خزيت العين، فقد كان، على الرغم من أنه تجاوز السبعين، يسبقني. أنا متأكدة أنه لولا ضعف عينيه لكان يعمل في البيتون حتى الآن.

لما وصلنا إلى البيت تكوَّمت أنا مثل العدل على القاطع لا من يدي ولا من رجلي. لم تكن نفسي تشتهي حتى فنجان القهوة والسيكارة، فريدة جعلت تعبث بي:

- طرَّقك الطريق على القدمين، أليس كذلك؟ بكرة خذي إجازة مرضية مدتها شهر في القليل. المسكينة مصابة برضوض في كل جسدها، على قامتي إن شاء الله! وأما أبي فلم يكد يضع عنه أحماله حتى رأيناه يستعد للخروج. قالت له فريدة مستفهمة:

- إلى أين يا ميسر؟

قال ضاحكاً:

- نجبي أجرة البيت.

كان لأبي بيت في زقاق الخمارات، غير بعيد من سفل التلة، مؤلف من عشرة غرف كل غرفة مؤجرة لعيلة كاملة. الأبواب كلها، بما فيها باب الزقاق، مفتوحة طوال النهار. تدخل أحياناً لتزور أم الياس مثلاً فترى باب غرفة جارتها مفتوحاً على مصراعيه، وكل شيء في الغرفة مكشوف للعيان، التخت، القواطع، البراد المطرز بابه بالصور الطفلية التي يعثر عليها الأطفال في علب الجبنة الإفرنجية، مهد طفل، منضدة مما يطوى وينشر جلس إليها ولد في السابعة أو الثامنة يكتب وظيفته، بينا أخوه الصغير في الشباك، مؤخرته إلى أرض الديار عارية وأمه تبدل له لباسه... وقد تدخل عليك بنت صاحبة الغرفة باكية ويداها مربوطتان بشريط من النايلون، وتقول لأمها:

«ثوفي ثو عمل لي دعاث»... وتعلم من الأم أن دعاس هذا أخ لجارتها وله هواية تقييد يدي هذه الحسونة الصغيرة كلما رآها، أينما رآها!

مرة رافقت أبي في إحدى روحاته الشهرية للجباية، كان قد مضى أكثر من عشرين عاماً لم أر خلالهما بيتنا القديم. باب البيت الخارجي ما يزال على الدخان الذي دهنته أنا لونين... أبو علي السمان على حطة يدي، بقاليته لا ينقصها شيء من محارم الورق إلى زيت المزولا. جارتنا امتثال، ربة البيت المجاور. الفيجة، ملتقى العشاق تلك الأيام... كل شيء. لم يتغير أي شيء.

بدأ أبي بأم فؤاد. هذه زوجها أول المستأجرين بعد انتقالنا إلى بيت باب توما، كان يومئذ أعزب ما يزال، ولذلك استأجر غرفتين. فلما تزوج وصار عنده أولاد اكتفى بغرفة واحدة! أبو فؤاد وزوجه هما عميدا المستأجرين. وأهَّلت أم فؤاد بنا وسهلت، ودعتنا إلى الجلوس. كانت امرأة ضخمة الثديين، متوردة الوجنتين، وقالت لأبي:

- جيت في وقتك يا أبو عيد. والله لن تقبض الخمس عشرة ورقة أجرة الغرفة قبل أن تشرب أنت ووصال الكراوية.

قال أبي ضاحكاً ومظهراً العجب:

- لأية مناسبة الكراوية يا أم فؤاد؟

وازداد ضحكاً وهو يقول متخابثاً:

- ولماذا لا تكون صفيحة مثلاً؟

قالت المرأة متهللة:

- إي إذن ما صار عندك خبر أن الله أنعم علينا بصبي صغير مثل القط عقبى لعيد! انظر، انه في السرير هناك. يقبر قلبي، هادئ مثل النعجة. أكيد أنه يعلم مشغوليتي، ولذلك لا يفتح فمه إلا عندما يجوع أو يعملها تحته. صبي مثل فرحة القلب يا عمي أبو عيد.

وفرح أبي من جوة قلبه وزغول:

- لُكْ، لُكْ، لُكْ، الله يبشرك بالخير. انسر قلبي وحياة الرب.

وقدمت لي أم فؤاد سيكارة. ولم تلبث أن جاءتنا بصينية الكراوية الغاصة بالبندق والفستق الحلبي واللوز والصنوبر.

لما صرنا في العتبة منصرفين مدت المرأة ذراعها العبلة إلى الكتيبة ودنت من أبي:

- تفضل عمي أبو عيد.

- أتفضل ماذا عين العم؟

وضحك. قالت:

- الخمس عشرة ليرة أجرة الغرفة، عم أبو عيد. أبو فؤاد هيأها لك من البارح. قال لي حطيها وراء الشيشة المحجَّرة، قلم طراش، في الكتبية حتى لا يراها الأولاد. ومتى ما جاء عمك أبو عيد...

قال أبي في زجر حاول أن يكون حازماً:

- ضبي مصرياتك يا بنت. ألا تستحين؟.

- ولكن أبو فؤاد، عم أبو عيد...

- انضبي أقول لك. أجرة شهر هذه المرة ما فيه. أجرة الشهر نقوط للصبي الجديد. ماذا أسميتيه الله يسلم؟

ولم يقبض من الجارة الأخرى، أم علي، لأنها طَهَّرت ابنها عقبى لصبيانكم.هذه المرة أيضاً كاد يجن من الفرح:

- بالله عليك؟ إذن قطشوا له إياه، لعلو. إن شاء الله مبارك. والله أنسر قلبي من جــوه.

وكان قد اجتمع أمام باب غرفتها أولاد البيت على لم الفراش، من صغيرهم إلى كبيرهم، ينظرون إلى الوافدين الغريبين. فلما سمعوا الخبر، الذي يعلمون به جيداً، رفعوا عقيرتهم بهذه الشدية:

«علي علعل
طبخ برغل
أجا ليصبه
حرق...!»

ولم يقبض من أم تيسير، لأن زوجها خرج من الحبس قبل يومين. الغلة كلها لم تتجاوز المئة ليرة لأني، أنا بدوري، «نقطت» نفسي بخمس ليرات، نقوطاً ضحك له أبي حتى مسح عينيه بسلكه الأزرق المنقَّط...

فجأة نسمع من الشارع ابن جيراننا عادل يصرخ بصوت مقلوب:

- باسل، فريدة، وصال، هدى، أم عيد، يا جيراننا افتحوا الباب.

ركضنا نتسابق على السلم الخشبي المؤدي إلى الباب الخارجي. كان شابان ينزلان أبي من سيارة نصف شحن وهو في حال سيئة من الإعياء. وقفز إلى عيني أول شيء جرح طفيف في صدغه.

عرفنا الشابين. كانا من أولاد الحارة ومن رفاق أخي عيد. شرحا لنا الأمر ونحن نحف بأبي ونتقدم جميعاً من المدخل.. (البيت يقع في زنقة لا تدخلها السيارات) فهمنا أن أبي خطا خطوة خاطئة فصدماه صدمة خفيفة

أوقعته على الأرض: وأحدثت هذا الجرح في صدغه. حاولا، بعد أن لماه أخذه إلى المستشفى الفرنسي القريب فأبى، قال إنه يريد أن يذهب إلى البيت.

عند الباب قال لهما بصوته الرفيع المواسي:

- كثر الله خيركم. أنا لبكتكم، لا تواخذوني. شكراً لكم. والله أنا أزعجتكم... وهما يختلط كلامهما أحدهما بالآخر، ويقولان في غير قليل من دهشة:

- عم أبو عيد ماذا تقول! والله كان في فكرنا أن نأخذك إلى المستشفى.

- ما بي شي. أنا قصدي أني ارتاح فقط. شكراً، شكراً.

صعدا معنا إلى فوق. ولم ينصرفا إلا بعد أن اطمأنا عليه. وأضجعناه على القاطع ومسحنا له جرحه بالكحول، وصنعنا نصف دائرة من حوله، وأخذنا نمازحه حتى يذهب عنه الحزن.

بغتة استخرط في بكاء له نشيج وانتحاب يقطع القلب مثل بكاء الأطفال. رُوِّعنا. وَثَبْنا كلُّنا وانحنينا عليه نسأله عن سبب بكائه. نظر إلينا متعجباً، وسرعان ما كفكف دموعه وقال لنا في لهجة من يعزي حبيباً:

- ما بي شي، ما بي شي، لا تخافوا. أنا هكذا، هذه طفرت هكذا غصبا عني.

وأفرخ روعنا جميعاً. أول من التقط أنفاسه فريدة. أخذت تضاحكه وتكاغيه. قالت:

- يوه خرَّطت لنا مصاريننا. والله أنا تقصفت ركبي يمكن انقطع نسلي. ضحكنا حتى الدموع. وعادت تقول:

- أبو عيد يظهر انك خفت. أنت خفت. ألم تخف؟ قلها صراحة!

اختفت الدموع تماماً، دموع أبي، وعادت الابتسامة العذبة التي ليس لأي ملاك في الدنيا مثلها.

* * *

أربعة أزواج

- ١ -

الحر الجاثم. الحر المنيخ بكلكل ثقيل يستدعي الهروب إلى الضفاف. قرَّرا الهرب. تواعدا. أعطاها بوقا من تحت، من الشارع. نزلت، كانت بالديكولتيه. تلك كانت المرة الأولى التي يراها كذلك. الشارع كان في شبه ظلمة. الأشجار - الخيم تسرق أضواء المصابيح العالية وتعكسها إلى أعلى فيمسي الشارع مشاء إضاءة غير مباشرة، إضاءة خضراء كأنما في ستيريو. زقزقت:

- حبيبي، إلى الأمام سر إلى الستيريو.

خطف منها قبلة قبل أن يقلع. قالت:

- ما استطعمت، بدي كمان.

- بدك كمان يا ريري.

ضحكا.

في مدخل الستيريو كانا متخاصرين.

- ٢ -

دنت منه. ترجرج صدرها العرم. قالت:

- ابن عمي.

لصق صدرها على كتفيه فلبسهما لبسا شديداً. بدأ يشتعل:

- عين ابن عمك؟

- أنا زعلانة منك.

- ليش يا قلبي؟

- أنت لا تطلعني أبداً.

- إلى أين مثلا؟

- الدنيا حريق. خذني برة البلد.

- أي على عيني.

- أنا أريد أن أذهب إلى الهستريو.

- ولكن الهستريوهات مسقوفة كلها.

-لا، بنت جيراننا قالت لي أنه فيه هستريو مكشوف.

- مائة هستريو تخدم هاتين العينين الحلوتين.

قالت في دلع وهي تلصق بكتفيه أكثر.

- بس!

- وهذا الصدر، متى تريديه؟

- الآن.

- لا، بعد الهستريو!

- طيب، البسي إذن.

- دقيقة واحدة حتى أضع ملايتي.

- ٣ -

لم يكن البرنامج قد بدأ، ولذلك كانت الأضواء ساطعة لمَّا تخفتْ بعد. النجمة - كما جاء في اللا فتات الكبرى المطرزة بالمصابيح الملونة - راقصة عرفها عشاق الطرب وهز البطن منذ أكثر من أربعين عاماً. افرض أنها اشتهُرت وهي بنت عشرين، إذن، هات يا عمليات تجميل، هات يا شد لحم حتى استطاعت، وهي في الستين، أن يبقى فيها رمق. الستيريو، هو أيضاً، معمول له عملية تجميل، ومرتع حرامية. كل السقاط كانوا في الزوايا المعتمة، تحت الأدواح المعمرة الباسقة، ينصبون الكمائن. كل إنحناءة تسجل

في الفاتورة على نحو يقصم الظهور، الأضواء الحادة كشفت عن الظهر الديكولتيه، ظهر غير مقصوم، لأنه لن يدفع، ولكنه ظهر أعجف، أقبّ حتى الحدب، ألواحُهُ بارزة، مكرشن عايف دينه.

الخطيب الأنيق، المهندز كأنما شكل بدبابيس، اعتكر، اعتكاراً ما انفك يصَّاعد.

- ٤ -

صاح الزوج:

- تكسي.

همست المرأة الناصحة:

- وليش التكسي ابن عمي؟ نروح ماشيين.

- أعوذ بالله! أنا عندي مئة حميدة؟

في الطريق قال لها:

- ولكنهم هناك يشربون.

تـــغاررت.

- الشاي؟

- لا، العرق.

أي إذن نحن نشرب الشاي.

يضحكان في سعادة. تزداد دنواً منه. كل جانبها الأيمن على كل جانبه الأيسر وتدفن أنفها في قبة قميصه.

- ٥ -

تفشش في الأكل. وكان في الأصل جائعاً. مع ذلك، راح يلاحظها وهي تأكل. ولكن كتفيها وظهرها هي التي جعلته كمن يأكل في نومه: عملية طحن، ومضغ وبلع تعمل في صمت. وأما هي، فكانت تتألق على نحو فاجع التصنع. تقرب فرمة اللحمة من فمها نصف المغلق. تقضمها برؤوس أسنانها ثم تعيد

الشوكة إلى المائدة بالحركات الاحتفالية ذاتها. لعلها أن تكون إنما تزم فمها على هذا الشكل لأنه كبير زيادة على اللزوم. لم يكن مثل فم صوفيا لورين، كما حسب قبل بضعة أيام، لأن هذه فمها يناسب وجهها. وأما هذه الخطيبة! إنه لا يحب الضفادع حتى ولو كانت بالفرن مع البصل الصاغ والكزبرة الخضراء والثوم.

- ٦ -

- تقبرني يا ابن عمي. الله يطول لي عمرك ويجعل رزقك مثل ظلك أينما مشيت يمشي معك.

مرت صبية طول مثل الحورة، تلبس فستاناً - جلابية آخر زي، أخضر برسوم شرقية واسعة، يتحدر حتى قدميها مثل الفلاحات، نسيجه رقيق، شفاف، يظهر أن ليس تحته إلا الحسرات.

درن! وإذا لهذا الفستان الشفاف المعرق شقان عن جانب يصلان إلى منتصف الفخدين، يا مرمر! يا فل! يا جبلة ياسيمن وورد شامي!

- شوبك ابن عمي، ليش ساكت؟

لم يكن ساكتا. استدارت الفخدين، عند كل نقلة قدم. أجمل من التماثيل. شيء يضيء. وهذا الفستان يخفق مثل أجنحة الحمام الأبيض، مثل غمام الربيع. والملاية. الملاية السوداء تطلس المرأة من فرقها حتى القدم. مؤكد أن الفرق بعيد مثل لما خلق أبونا آدم ويوم القيامة. وبعد، ماذا تعني هذه البقرة الوحشية. هذا اللحم؟ هذه التي عند انتظرها سنة سنتين حتى تبيض أول ولد! إذا كانت الآن لا تكاد تطيق مشي مئة خطوة! وأما هذا الريم المارق، فأنا أراهن على قطع رأسي أنها تستطيع أن تقفز بردى من الضفة إلى الضفة بنطة واحدة، استغفر الله العظيم! «هذه التي عندي» ليست عروساً. إنها نعجة معلوفة ولها آلْية لزيادة النكاية!

- عفاف، التي كان تيسير عقله مسوسح في حبها، صارت في عينه فحمة سوداء. قلنا له: السبب يابي؟ فين، في فكرك أحسن منها؟ سمن وحسن خزيت العين، ألف من يبوس أيديها.

ما هي مصيبتي كلها من السمن والحسن والملايا! حرام تكون عندي واحدة خصرها طب الخاتم فيه، وظهرها مكشوف حتى نصفه، وتقوم تتنقل لي بين أشجار الكينا، حرام!

- ٧ -

أشجار الاوكاليبتوس ترتعش ثم تتمايل. ثم أنها ما لبثت أن زلزلت زلزالها. ريح باردة عصفت بكل شيء. قال الفتى بصوت من قشر الجوز اليابس:

- كان عليك أن تحضري كنزة سميكة، أو شالا في القليل.

قالت الفتاة وهي تحاول أن تدفئ كلماتها:

- ميمو، خطيبي، جنبي معقول أبرد!...

- أنا ذاتي أكاد أصك سنا بسن. وأنت وجهك مزرق. غرسون.

- نعم سيدي؟ قالها واحد بسمو كنغ وعقادة بابيون انشقت عنه شبه الظلمة مثل اللمح بالبصر.

- الحساب.

- دقيقة واحدة.

- بسرعة من فضلك.

- ألا يحضر السيد والآنسة البرنامج؟

هي في دلال:

- خلنا نحضر النوميرو مومو؟

- ديما، قلت لك الدنيا برد!

الورقة على صينية من الستانستيل كالمرآة. خربشة دجاج لا يفهم منها رأس من أساس، ولكن ذيلها مكتوب بخط يفقأ العينين من وضوحه: ٨٩,٦٠ ليرة فقط لا غير.

وهجم صغار النُّدل. وقعت البقرة، وذبحت أم المئة بعديد من السكاكين. غير قليل!

خرج الخطيبان مكسوري الخاطر. لم يشاهدا حتى الراقصة العجوز ولم يشبعا.. حتى.

عند المخرج، كان ميمو يسبق ريري بثلاثة أمتار في القليل. ريري ازداد ظهرها تقوسا وعظام ظهرها بروزا.

وبهتت أغصان الاوكالبيتوس لحظة وهي تلاحق الهاربين.

- ٨ -

- بردت الدنيا، قومي إلى البيت.

- ابن عمي، السهرة من..

- أنت ولا على بالك، لابسة ملاية مثل اللحاف، وأما أنا، أنا صقعت بردي. قومي.

عند المخرج:

- ابن عمي.

- شو.

- أنا تعبانة شوية، خلنا نأخذ سيارة.

- لا، الدنيا برد. المشي يحرك لنا دمنا.

* * *

حسن

حسن ولد قد لا يكون تجاوز الحادية عشرة كثيراً، أحور، أوطف، كستنائي الشعر، أتم النسب، أنيق الهندام قدر ما يسمح شغل مثل شغله بالأناقة، يغلب على لباسه الكنزة الصفراء والبنطال الغامق. له طرة لطيفة تنحدر على الجانب الأيسر من جبهته. وحسن يعمل أجير ساق في إحدى قهاوي الحيّ. يتقن ألف عمل مما يدور في فلك المهنة: يغلي قهوة، يكنس، يحضر طاولة زهر لمن يطلب، يشتري علبة دخان من الدخانية القريبة لزبون خرمان، صحن لبن مصفى تكمل به مازة مائدة شراب. يروح ويجيء مثل المكوك، من السادسة مساء حتى الثانية بعد منتصف الليل، من غير أن يكل أو يمل أو تنطفيء ابتسامته. وأية ابتسامة خافتة، كتوم، ولكنها تطفح صبا، تنبع من القرارة، فيها كبرياء وطمأنينة، وفيها زهو بأنه يحيا ويعمل وليس عالة على أحد.

يوم عطلته تظلم القهوة، يهيمن عليها العبوس، تموت الخضرة. أحياناً يخانقه فوزي، زميله، أكبر منه بثلاث سنوات أو أربع. حسن يدهش قليلاً، تبهت حركته لحظة ثم لا يلبث أن يأخذ المكنسة ويروح يكنس بين أقدام اللاعبين في لطف، بغير صوت. إذا انحنى ليلم الكناسة من تحت المناضد سقطت طرته الناعمة الحريرية على عينيه، فيردها بحركة حلوة من رأسه.

كنت أعطيه كل يوم ربع ليره فيأخذها بكبرياء. كل شكره نظرة من مؤخرة عينيه، مشرقة ندية. صرت أعطيه نصف ليرة. لم يتغير فيه شيء.لم أجرب إعطاءه أكثر، ولكنني متأكد من أني لو فعلت لما تغير فيه شيء. يتراءى لي أن الفعل هو الذي يؤلف عنده الغاية، مأجوراً كان أو غير مأجور.

قد يضرب ممسحة في إحدى المناضد، ويكف بعض اللحظة مخرجاً من جيبه خيارة يقضم منها قضمة، ثم يعود إلى المسح. أهل القهوة، زبائنها، ما رأيت ولا واحداً يهتم لهذا الرجل الصغير الكنز، لهذا الذي انطوى فيه العالم الأكبر.

سألته مرة، وقد مرَّ بي وقد وزلق نظرة إلى الأوراق التي أمامي:

- حسن.

- نعم؟

- أنت قاعد في المدرسة؟

- نعم.

- في أي صف؟

- في السادس.

تذكرت قصيدة لتوماس غراي عنوانها «مرثية على مقبرة ريفية». سبق أن ترجمها أخي شعراً قبل أربعين سنة: من الشاعر بمقبرة ريفية، فطفق يتساءل محزون الفؤاد. أسفاً

«ترى، كم نيوتن، كم دارون. كم غاليو غاليلي، كم كوبرنيك وشكسبير وشيللي، كان يمكن أن ينجب من هؤلاء الثاوين هنا. في هذه المقبرة الريفية حيث أطفأ النسيان براعمهم إلى الأبد؟».

أو ما يشبه هذا. وتساءلت بدوري: «أيصبح حسن موسيقياً مثل أو يستراخ ونجمي السكري كما تؤهله سماته اللطيفة وقسماته الشفافة وأصابعه المرهفة الجميلة؟ أيغدو شاعراً رقيقاً يصنع مجداً مؤثلا للشعر العربي مثلما صنع حافظ الشيرازي وعمر الخيام للفرس، ورابند رانات طاغور وإقبال للهند، وشيللي وبايرون للانكليز، وبودلير ورامبو للفرنسيين؟ أيكون رياضياً وفناناً مثل آينشتاين؟ أم تقعد به هذه القهوة عن أن يسمو إلى أكثر من ساق رئيسي مثل أبي محمود، بعد إجازة تطول عشر سنوات أخرى، وقطع كل ما له علاقة بالمدرسة والثقافة، بالعلم والفن؟».

حسن، على رونق ابن الثانية عشرة، فيه بعض الشحوب. هذا حتماً من سهر الليل. الآن، في هذا الهزيع الأخير من الليل، كل لداته يغطون في أحلام هنية... ولكنه، في الأعماق، يحيا طفولته قليلاً أو كثيراً، يحيا عبثها، لهوها ولعبها: يكون في سبيل نقل صينية صحون وأقداح فارغة، وإذا هو ينط نطة ويبتسم. يصفر، يقلد زقزقة عصفور، أو يعبس مقطباً حاجبيه كأنه يقلد - لنفسه - أحد معلميه الجادين في المدرسة.

رحل ذهني إلى مشكلة تشغيل الأطفال ست عشرة ساعة أيام الاندفاعية الأولى للصناعة في أوروبا، إذ البورجوازية في عصرها الذهبي، في ذروة مجدها وحكمها العالم بغير منازع. العمال لا حقوق لهم أخذوها، مثل الآن، بحد السيف. أولئك لم تكن لهم غير تلك «الحقوق» التي «تطلع من خاطر» ملوك العالم، الرأسماليين. وقلت في نفسي: «كيف يحيا هذا الكنز الصغير الآن كما كان يحيا نظراؤه أيام عنفوان البورجوازية الأولى قبل مئتي سنة، بينما مطرب مخنث، غث رث، لا يصلح أن يربط شراك نعل هذا، يقبض في الليلة الواحدة ألفا، ألفين، ثلاثة في الليلة الواحدة، على كلام سليخ مليخ وحركات مائعة ولحن هو ثالثة الأثافي تدنياً وبدائية».

يظهر أن الدنيا مركبة على الغلط كما يقول أهل الحكمة، وأنها تحتاج إلى الطوفان المطهر الذي بشر به أبو العلاء. وإلا كيف يدفن هذا الربيع النضير بين أعقاب السيكارات، وقرقرة الأراكيل، ولعب القمار، وقرع الكؤوس، وقرقعة طاولات الزهر، و«هات نارة يا ولد» و«ثلاثة شيلا بيلا واثنين على الريحة وواحد سكر زيادة..»؟

- ٢ -

ذات ليلة، كنت أجلس في أحد الأركان، أقرقر بأركيلتي وأخربش على بعض الأوراق. أنا أحب القراءة والكتابة في هذا الجو الصاج. ما دمت أكتب عن الناس فعليَّ أن أكون دائماً منغمساً فيهم، ندياً بهم. قد أوصد أذني دون ضجيجهم، ولكن يكفي أني أحس قربهم مني. أنا لست وحيداً عندما أكون بينهم حتى ولو كنت لا أعرفهم.

جاء اثنان، أحدهما طويل، سمين أصلع، وجهه مشغول، مغرق بما لست تدري من هواجس، ولكنه في النهاية مستسلم، مهزوم لأنه لا يد له في أن يجعل الأمر غير ذلك. وأما الثاني فأنزع، أنيق إلى حد ما، لماع الحذاء، بنطاله حسن الكي، في معصمه الأيمن سلسلة من الفضة عليها الحرفان الأولان، من اسمه ربما، باللاتيني، وفي الأيسر ساعة آخر زي معتمة الميناء.

قعدا إلى المنضدة المجاورة، وأمرا حسن أن يحضر لهما طاولة زهر. فتحا الطاولة، وأخذا - لدهشتي - يكومان الأحجار في أحد جانبيها من غير أن يصفاها.ما هذه اللعبة التي سيلعبانها؟ كل ألعاب طاولة الزهر أنا أتقنها. حتى اليهودية التي يقتصر اللعب فيها على أحد الجانبين لا تكوم الأحجار «شيلا بيلا»، وإنما تصف صفا، قل ترصف... ثم أنهما أخذا يلعبان الزهر وحده على الجانب الآخر، الخالي، بعد أن سلم كل منهما للمعلم الضخم الأكرش كدسة من الأوراق النقدية لمحت بينها قطعا من أمات الخمسمئة. كانا من وقت إلى آخر يسجلان نتائج على لوح أسود بقلم من الطباشير.

مرّ بي أبو جاسم التنبكجي فغمزته أن يدنو مني. سألته همساً عن هذه اللعبة الغريبة فأجابني بهمس أشد، على عادته في نقل أسرار القهوة وخفاياها إليَّ أولاً بأول:

- هذه لعبة زهر يا مرحوم البي.

- يعني؟

- لعبة قمار خالصة، لا فيها شطارة مثل البيدو أو الكونكان، ولا فيها بلف مثل البوكر.

- على قديش يلعبان؟ أنا رأيتهما يسلمان المعلم قطعاً من أمات الخمسمئة، أو هكذا خيل لي.

- هذان لا يلعبان على أقل من ألف وخمسمئة الجولة.

- كل واحد؟

- كل واحد طبعاً

- ولكنهما لا يستخدمان الأحجار.

- قلت لك أنها لعبة زهر: بضع حدفات، وإذا ثلاثة الآلاف تتيسر إلى جيب الرابح، بعد أن يُعَرِّق المعلم منها حصته.

- كم حصته؟

- لا أقل من ثلاثمائة.

بعد أن أفقت من الذهول الذي لحشتني فيه هذه الأرقام الفلكية، سألته:

- دخلك يا أبو جاسم، حسن كم يقبض؟

- يوميته بثماني ليرات.

يعني أن هذا المعلم - العجل، صاحب الكرش المندفعة لا أقل من متر إلى الأمام، قد سلخ - في فترة الدقائق العشر أو الأثنتي عشرة التي استغرقها شوط هذين اللاعبين – ما يعادل أجرة حسني الصغير سبعة وثلاثين يوماً ونصف اليوم. وأما اللاعب الرابح فقد دحش في جيبه أجرة حسن طوال مئة وخمسين يوماً. مئة وخمسون يوماً من لوبان نملي، وحركة مكوكية، وسهر ليال طويلة في خدمة هؤلاء الأوباش!

- ٣ -

واجتذبني هذا الاعتناق، يشبه اعتناق الليل والنهار عند الغسق، بين الرجولة والولدنة، فكتبت عنه كلمة في إحدى الصحف اليومية ووضعت العدد في محفظتي ورحت إلى القهوة أول الليل.. قلت لحسن:

- أتعلم يا حسن؟

- ماذا؟

- كتبت عنك.

ابتسم ابتسامته المختصرة، ذات الاستحياء الآسر. قال:

- أين؟

- في الجريدة.

قال في تلهف حاول أن يكبحه حياؤه الجميل:

- وخلصت الآن الجريدة؟

من طريقته في لفظ الصاد في كلمة «خلصت» خمنت أنه فلسطيني سألته. تأكدت. شرد ذهني إلى الأسرة الفلسطينية التي تعرفت بها في أثناء إقامتي في الخليج، العام أربعة وسبعين وتسعمائة وألف: قد يتغرب الفلسطيني حتى ليكاد يندمج في منفاه. قد يجد شبحاً، صنماً، بديلاً من وطنه في المال يجعله ديدنه. قد يجد شبه البديل في الأسرة، في اللهو، في العمل.. ولكنه لا ينسى لحظة واحدة أنه فلسطيني يعيش في المنفى. وقد أسعدني أن الفلسطيني هناك، وفي كل مكان، لا ينسون يعلمون أطفالهم لا اللهجة الفلسطينية العامة وحسب، ولكن لهجة الضيعة التي أخرجوا منها. إنهم يحملون زاد معادهم معهم أبداً. وكنت أطرب، كما لو كنت أسمع موزار أو ماريا كالاس، كلما حاورت طفلة في الثامنة، أبواها من طيرة حيفا. أسألها: «ما اسمك عمو؟» فتجيب: «خلُّوود»، أي «خلود».

ويظهر أن حسن قد خالطه من الرضى بكوني كتبت عنه أكثر بكثير مما أبدى، لأني، يوم الجمعة، ما إن فرشت أوراقي وأقلامي، وسحبت أول نفس من أركيلتي حتى لاحظت أن أحمد - وهو أخو حسن، أطول منه، له حياؤه ورقته وإن كان أقل حضوراً في اعتناق الطفولة والرجولة، هذا الذي يقفز إلى العينين عند حسن على نحو باهر - يدور حول منضدتي، وفي فمه كلام يستحي أن يبدأه.. ثم إنه تجاسر آخر الأمر، ودنا مني، وقال في شبه همس:

- أستاذ.

- نعم يا أحمد؟

- صحيح أنك سجلت حسن في الجريدة؟

- صحيح.

- لو أنك تسجلني أنا أيضاً.

- تكرم عينك يا أحمد.

- شكراً. أنا أسمي أحمد.

- أعلم.

تردد قليلاً ثم:

- لأني سمعتك البارحة تندهني محمد.

- لا، هذا لمحمد التنبكجي: أبو جاسم.

ومضى مثل الطيف، خطواته ليس لها وقع، ولكن وجهه يشع برضى مورد: هني، يكاد يضيء. في هذه اللحظة كففت عن أن أقول أنه أقلّ لمحا من أخيه. وجهه انضم إلى تلك الوجوه، مئات الوجوه، أصحابها قد يكونون شيوخا ينحنون على عكازات، أو صبايا في الثالث الإعدادي ببدلة الفتوة، حمالين في سوق الهال يجرون كراجات وسقت بجدار من الصناديق الثقيلة، أو سنونوات في سيارة روضة أطفال يمددن رؤوسهن من النوافذ، وقد تأرجحت منها ضفائر ذات شرائط بيضاء، كأنهن ينتظرن أمهن أن تزقهن... وجوه تكلمني، تداعبني، تعطيني، تمسح على جراحي، تزيدني تشبثاً بالحياة حتى حينما يكون طعمها كالحنظل.

ها هو ذا أحمد في البوفيه. اليوم دوره في غلي القهوة خلف الطاقة. من هناك يلبي طلبات الساقي الرئيسي أبو محمود من شاي وعصير وقهوة وزهورات، التي يطلقها هذا حيث يكون من القهوة بصوت عال يشبه نداءات بائعي الخضرة والفواكه الذين يدفعون عرباتهم ويطوفون في الحارات. كان يلبس قميصاً أزرق، بقبة مفتوحة رمادية. يعمل وهو يخالسني نظرات متواطئة: نحن متفاهمان. آن أوان أن أسجل أنا أيضاً، أن لا يذهب هذا الكدح اليومي هدراً، أن يكون لي مثل مأسأتي، حضور دائم في القلوب.

هذه الأقاليم الثلاثة: العمل، الادلال، الأمل... أمن الممكن أن لا تنتصر!

انقطعت عن القهوة مدة طويلة، إلى أن عن لي مشروع كتابي جديد، فحملت أوراقي وأقلامي وعلبة تنباكي. وذهبت إلى قهوة حسن كما صرت اسميها بعد أن عرفته وافتتنت به.

هرع أبو محمود يرحب بي، هذا سمين، ضاحك الوجه، يحب المزاح. لا يعرف القراءة لأنه قضى زهرة صباه في الحبوس، ومع ذلك، كلما وجد أمامي جريدة نترها من قدامي بقوة واستعجال، وراح يتصفحها في أقل من ثانية وهو يقلبها على قفاها أحياناً. ثم يعيدها إلى محلها من المنضدة وهو يتحولل ويحوقل، فأسأله: «كيف شفت لي هذه الدنيا أبو محمود. فيزوي ما بين حاجبيه ويقول لي كأنما يفضي إليَّ بسر: «مخربطة!».

هذه المرة لم يكن رائقاً كعهدي به دائماً. اكتفى بأن صاح من فوق رأسي:

- أبو جاسم.

- رد عليه الآخر من تكنته، أي غرفة التنباك:

- أيوه.

- تعال خد تنباك من الأستاذ. من قال أن الأستاذ نسينا؟ كذب. الأستاذ ثابت. حيا الله الثابت.

واقسم لي البوفجي. والكل: «أين هذه الغيبة أستاذ؟» وأنا:

- كيف الحال؟ الصحة إن شاء الله طيبة؟

قد أكون غلطاناً، ولكن هؤلاء الأحياء، من شغيلة ورواد، كأنهم تغيروا. إن شاء الله أكون متوهماً. ولكنهم تغيروا. يا رب اجعل أن يكون قد شبه لي. إنهم يتحاشونني! وقد أتساهل في أن يتغير كل أحد إلا أبو جاسم. هذا صديقي، وأنا بيت سره. صحيح أنه، بعد أن ندهه أبو محمود، أتى إليّ فأخذ حفنة تنباك من العلبة، وعاد يحمل لي الأركيلة جاهزة، نظيفة تلمع. ولكنه كان يتصرف وهو يحيد بنظره عني. ماذا جرى خلال مدة غيابي؟ ألم يكن يحكي لي حتى

خصوصياته، عن تركه نابلس، عن عقم زوجته، وأنه لحبه إياها، لم يتزوج عليها. وهو الذي أوضح لي لماذا يشتغل حسن وأحمد، وهما في سن الدراسة بعد، ما يزالان. كان أبوهما عاملاً في فرن، أباً لعشرة أولاد، بعضهم على رؤوس بعض، أكبرهم أحمد، تصوراً كان يجد على نفسه ويقرط الصوان حتى يحصل ما يقيم الأود، ويستمر أولاده الذين في سن المدرسة في دراستهم. ولكن الأب - أبا أحمد وحسن - أصيب بالفالج. وهو الآن مرمي في البيت خرقة، عبئاً على الأسرة وعلى نفسه. تصور: فالج يضرب رب بيت من أثنى عشر فماً!

صحت:

- نارة من فضلك يا أبو جاسم.

- حاضر أستاذ.

فنجان قهوة شيلا بيلا أبو محمود.

حاضر.

قلت لأبو جاسم وهو يضع لي النارة على الرأس.

- أبو جاسم.

- نعم أستاذ.

- ممكن؟ كلمة لو سمحت؟

قال عجلان:

- حاضر أستاذ، دقيقة واحدة فقط.

ونجا مسرعاً.

كانت الساعة تجاوزت التاسعة مساء. يعني أن نوبة أبو جاسم أوشكت أن تنتهي. وأصحاب الأراكيل قد انصرفوا أو كادوا. في مثل هذه الساعة، كان من عادة أبو جاسم أن يهندز نفسه بكاس وصحنين من المازه، ويدلف من منضدتي ونروح نثرثر. ولكن، ها هو ذا يتأهب لضب أغراضه. يطمر الجمر المتبقي في المنقل بالرماد، ويغلق باب التكنة، ويتهيأ للانصراف. لا كاس. لا

ثرثرة معي. لا أسرار. إنه يتحاشاني. هذا واضح. أنا قادر على أن أتحمل كل شيء إلا هذا. إذا ظلت الحال كذلك انقطعت عن القهوة إلى الأبد. أضرب عرض الحائط بالكتابة في القهاوي وأنفاس التنباك جميعاً.

وندهت أبو جاسم بقوة وهو يمر بي متجها نحو مخرج القهوة:

- أبو جاسم.

- نعم أستاذ؟

- تفضل اقعد هنا من فضلك.

- والله أستاذ أنا مضطر إلى الانصراف. عندي في البيت شغل ضروري.

- لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقتين.

جررت كرسيا. أشرت اليه أن يقعد فامتثل كأنه ولد مذنب. قلت له:

- ما هذا؟ ماذا يحدث في هذه القهوة؟ ماذا يحدث لك أنت؟ أنت لم تعودني أن تعاملني كأنك لا تعرفني، أو أني زبون عادي، عابر سبيل. وحسن أنا لا أراه، أين هو؟ هل غير نوبته؟

أبو جاسم لا يجيب. ما يزال مطرقاً، قاتم الوجه، وتابعت أقول:

- شف يا أبو جاسم، إذا استمرت معاملتي هنا على هذا الشكل ولاسيما منك أنت، امتنعت عن أن أدعس هذه القهوة. أنا قادر على أن أجد نفس أركيلة وزاوية هادئة أكتب فيها أينما شئت...

كنت أتكلم في انفعال. وصمت دفعة واحدة.

بعد أن زاد وجه أبو جاسم وحيرة وتسعثاً، رفع إليَّ عينين محزونتين، وقال:

روق أستاذ.

- لا، لن أروق، أين حسن؟

مات.

صرخت صرخة لفتت نحوي أهل القهوة كلهم، حتى اللاعبين الغارقين في أوراق لعبهم.

- ماذا تقول؟.

- حسن مات.

- أنت تكذب.

لم يكن يكذب: كان أخوه أحمد مريضاً اضطر إلى ملازمته الفراش، فأراد أن يداوم دواماً مضاعفاً. عمل حتى الثالثة بعد الظهر، ثم استأذن المعلم الضخم أن يسمح له بالذهاب إلى بيتهم في المخيم لينام ساعة أو ساعتين حتى يستطيع السهر في الليل. وكان الليلة السابقة قد عمل كالعادة حتى الثانية صباحاً. وذهب إلى موقف المخيم عند الحجاز مطرمخاً، كمن يسير في نومه، فضربته سيارة ضربة واحدة كأنما بسكين. ولكن الابتسامة، الابتسامة الطفلية الفاتنة ظل طيفها على الشفتين. شيء واحد اختلف: شحوب الليالي الطويلة الساهرة حلت محله حمرة فانية بلون الدم.

أية مرثية قادرة أن تحمل لقلبي العزاء، أن تجعلني أنسى؟.

* * *

هذا أيضاً
ربما احترف

هذه الحوادث التي سأرويها لك يعود تاريخها إلى سنة تسع وخمسين وألف ميلادية أي منذ تسعمائة وثلاث عشرة سنة على الضبط، حتى لا يشجر سوء تفاهم بيني وبين أحد.

سألني إسماعيل ضاحكاً:

- هذه هي المرة كم التي تدخل فيها حضرتك الحبس؟

قلت:

- هذه هي المرة الثانية.

- متى كانت الأولى؟

- عام ١٠٤٠، تحت الانتداب الفرنسي.

- كيف اعتقلت يومها؟

- قمنا بعصيان صارخ. قلعنا كل بحص المدخل وحملناه في صناديق القمامة إلى السطح. وقام واحد من مدينة الباب وآخر من المشارقة في حلب بدور المدفعية الثقيلة، لأنهما كانا بارعين في ضرب المقلاع. ضربا بيت الجنرال، حاكم حلب، وكسرا ثريات قصره الذي صار الآن مدرسة.. يروون في منطقتنا أن بين المقلاعيين (على وزن المدفعين) من يدخل مسماراً في حائط قرعاً بالمقلاع. هذانك كانا من هذا العيار.

وصادف أن الشوارع المحيطة بمدرسة السلطاني - وهي الثانوية الوحيدة أيامئذ في المنطقة الشمالية كلها، ولذلك كان لنا رفاق من حماة ودير

الزور واللاذقية - أقول صادف أن الشوارع المحيطة بالمدرسة كانت تفرض بالإسفلت فملئت بالحجر المكسر المسنن للرصف، فأخذنا نحن المشاة نرجم الشرطة رجماً عنيفاً تبين لنا فيما بعد أننا عورنا به حوالي خمسة وأربعين منهم.. رجماً عنيفاً اضطر مديرية الشرطة إلى الاستنجاد بالجيش الفرنسي فجاء بمصفحاته وجنوده وحاصر المدرسة. وزادت المعركة احتداماً على الرغم من عدم التكافؤ. وما كنا لنستسلم لولا أن استأذنا الفرنسي الموسيو غولمييه أخذ وعداً - مع قسم بالشرف العسكري - من كوردييه قائد الحملة أن لا يعتقل أي طالب... ومثل كل الوعود التي يطلقها الزبانية نقوا أكثرنا خوضاً في الطين وعدوانية وسحبونا إلى خان اسطمبون، سجن حلب العسكري.

قال إسماعيل، وهو عامل من حماة، قال متهكماً:

- نحن الآن في عام ١٠٥٩. والدنيا تتقدم، وتتقدم معها أسليب قلفطة الناس وزنقهم في السجون.

قلت:

- هذا رأيي الذي افتتحت به المناقشة فلماذا تسرقه مني؟

قال:

- ومع ذلك أنا، مثلما قلت لك منذ قليل، مستعد للمراهنة على أنهم سيطلقون سراحنا قبل الثاني والعشرين من هذا الشهر. أعود إلى تذكيرك بالرهان: خروف مكتف وسكرة قاتولية.

قلت:

- وأنا أيضاً قبلت الرهان وأقول لك إننا باقون في سجن الرها هذا أشهر إذا لم أقل سنوات.

وعاد يتساءل في سذاجة:

- ولكن ماذا فعلنا؟

قلت:

- فعلنا كثيراً، جئنا بالسلطان إلى كرمنا أولاً، ووجدنا في حكم توتا ليتاري؟

- عفواً؟

- مطلقي، ثانياً.

عاد إسماعيل لا يتهكم ولا يضحك. تثنَّت جبهته في اهتمام وقال:

- العمى، والله العظيم دوختني. ما معنى مطلقي؟

قلت:

- الحكم التوتاليتاري يا إسماعيل هو الحكم الذي لا يكفيه أن يلص ظاهرك ويخضعه، ولكنه يذهب إلى سرقة وجدانك ذاته، إلى إخضاعه وجعله رقماً من الأرقام أو خروفاً في قطيع.

لا أظنه أراد الفهم، لو أراده لما كان له زهو كونه هنا في سجن الرها. ولذلك مال إلى أن يفرط فرطاً محاولة سحبي إياه إلى الجد. قال:

- على أية حال رهاننا أصبح قائماً. أنا أقول لك: لن نبيت في هذا السجن يوماً واحداً بعد الثاني والعشرين من هذا الشهر، أي الذكرى الأولى لتنصيب سلطاننا هذا الجديد. وأنت تقول أن مقامنا هنا سيمتد أشهراً أو سنوات. صح؟

- صح. ولكن، يا إسماعيل، أود أن أسالك سؤالاً صغيراً. لا تظن أني أريد أن أتهرب من الرهان. كل ما في الأمر أني أريد أن أكشف عن قرارة يقينك. لماذا تظن أننا قاب قوسين أو أدنى من إطلاق سراحنا؟

عاد إليه إشراقه وقال:

- أنا إنسان عامل، لست شاطراً في المناقشات النظرية، ولكني سأروي لك ما جرى لنا أيام سلطان لنا سابق.

- هات.

- والله، يا مرحوم البي، اعتبرنا أيامها من أخطر العناصر التي تهدد السلطان، فساقونا إلى تدمر...

تذكرت... تلك الأيام كان الذي يذهب إلى تدمر موقوفاً ينطبق عليه ما كتبه دانته على باب الجحيم: «أيها الداخلون خلفوا وراءكم كل أمل».

قلت:

- إي إسماعيل أكمل.

- إي سيدي قضينا في تدمر بضعة أشهر مثل فراق الوالدين. آمر سرية التأديب كان يستفقدنا كل يوم، الله الوكيل، هذا بفلقة، هذا بقلع أظافر، هذا بكب زبالة... هذه يسمونها بلدية.. قل ماشي الحال...

قاطعته مذعوراً:

- وقف يا إسماعيل ما فيه شي ماشي.. كانوا يضربونكم؟

قال بين متعجب من بساطتي وضاحك:

- إذن يفعلون لنا ماذا؟ ظني أنك تتوهم أن سرية التأديب في تدمر مركز سياحي، أنهم يأخذوننا إلى هناك لنقضِّي فترة استشفاء بالمياه الكبريتية!

وضج الرفاق الذين كانوا يتحلَّقون حولنا وقد أطرفهم الحوار، ضجوا بقهقهة عريضة. وصاح سعيد، الكاتب القصير الدينامي ذو العينين الشهلاوين:

- إسماعيل، أحمد، حسن: ثابت، أجلوا لي هذه المناقشة إلى ما بعد التفلية.

سعيد هذا لا يرحم، وعلى الرغم من أنه كاتب، صناعته الفكر، إلا أنه مطعم على سجان. لقد قسم الساعات الأربع والعشرين التي نحياها في المهجع السادس تقسيما دقيقاً. وكانت مناقشتنا إسماعيل وأنا تحتدم يومئذ والساعة حوالي العاشرة صباحاً وهي موعد التفلية. ذلك أنا لما دخلنا الحبس قبل حوالي شهر كنا أناسا نظيفين، نستحم مرتين أسبوعياً في الأقل. وإذا نحن، بعد بضعة أيام ننام ونحن نحك ونفيق ونحن نحك. نحك حتى الإيلام. بعضنا كان يهستر فيغرز أظافره في جلده حتى ينبثق الدم. ذهبتْ أفكارنا كل مذهب. طبيب من حمص لنسمه الدكتور سامي رفض التوقيع على شهادة وفاة فتى في الريعان قتل تحت التعذيب.. وجيء بالرفيق الطبيب وقيل له: «وقع على

أن القتيل مات منتحراً». طبيعي أنه أبى، تذكر أنه أقسم بلحية أبيقراط على ألا يقول إلا الحقيقة... وإذا هو على صفنا في المهجع السادس. قال هذا الطبيب بالطيبة الحمصية الذائعة الصيت:

- هذا حساسية!

قال إسماعيل:

- بلا حساسية، بلا بطيخ. هذا قمل. اشلحوا..

شلحنا وإذا أنا وحدي، وكنت أظنني أشد أهل المهجع نظافة، أعثر على خمس وعشرين مخلوقة في قميصي... فكيف بلباسي!

من هنا كان اتخاذ سعيد، قائد المهجع الحازم، قراره بإجراء تفلية يومية في الساعة العاشرة من صباح كل يوم. بعد التفلية التي أبلينا خلالها بلاء حسناً، عدنا إسماعيل وأنا إلى مناقشتنا. قال إسماعيل

- أين كنا؟

قلت:

- أنا قتلت اليوم أكثر منك لأني عاونت أبو عبدو.

قال إسماعيل:

- سامحك اللّه. كنت أقصد أين كنا من مناقشتنا، أو إذا شئت الدقة من رهاننا؟

تذكرت. قلت:

- كنا في سرية التأديب بتدمر.

قال:

- يرحم والديك. أي سيدي كنت أقول لك أننا قضينا بضعة أشهر مثل قرط الصوان. وذات يوم، ويا له من يوم، دخل علينا المهجع ملازم ثان. يا للذهول: لم يكن في يده كرباج. الأغرب من هذا أنه كان يبتسم. تصور: ابتسامة علبة في وادي القهر والصراخ والدموع الذي كنا نقبع فيه. الأغرب أيضاً أنه قال في لهجة رحيبة، زكرتية: «صباح الخير يا شباب».

عقلت الدهشة ألسنتنا فلم نرد عليه.. توجه إليَّ مداعباً:

- إسماعيل ليش ذقنك طويلة؟

ازددت عجباً. أهو ذنبي أن ينص نظام السجن على أن لا نقش ذقننا إلا مرة كل سبعة أيام؟ ولما عدت من دهشتي قلت له:

- غيروا نظام قش اللحى ولك أن تراني مثل الفلة التي سقيت بلب الكوسا.

ضحك وقال:

- إي إذن ألحقوني.

كل الأبواب، الشِّباك، الكُوى كانت مفتوحة على مصاريعها. الدكتور سليمان أنت تعرفه هذا كانوا يدلونه من كلابة، رأسه إلى تحت ورجلاه إلى أعلى ويجلدونه. الدكتور سليمان قال:

- ولك يا أولاد ظني أننا نشوف مناماً مشتركاً.

وضحك الملازم. وسَحَبنا الواقع من التوهم مرة واحدة لما وجدنا أنفسنا لا في باحة السجن أو في غرفة التعذيب وإنما في نادي الضباط. لُك، لُك، لُك... وفُوَط بيضاء مثل الثلج على صدورنا، وحلاقو الضباط أنفسهم يقشون لحانا. حلاقون رسميون وليسوا سجناء من بيننا نصف حلاقتهم نتف.. حلاقو ضباط، الله الوكيل. قشوا لنا، رشوا لنا كولونيا مالك علي يمين، والملازم متوهج، مشرق، طري، فرحته لا تسعه كأنه يأخذ أولاده أنفسهم ليلة الوقفة عند الحلاق.

بعد أن قش لنا قال ملازمنا:

- ألحقوني.

لحقناه. هل تريد الصدق؟ خطر لنا أنهم ما أكرمونا هذا الإكرام إلا لأنهم يريدون أن يعدمونا: يا الله، خلهم يموتون وذقونهم ناعمة!

وعاد الملازم يقول:

- ألحقوني.

ليكن ما يكون. أن تعدم وأنت معطر حليق اللحية خير من أن تموت كأنك يا عصفوري يا عصفور!

وقادنا الملازم إلى رتل سيارات كان في انتظارنا أمام النادي. اركبوا. ركبنا. إلى أين؟ أنا أدري. لُكْ، أليست هذه هي حمص؟ ألسنا ننعطف يساراً؟ معناها إلى دمشق. هاه إذن سيعدموننا في ساحة المرجة في الشام. ظز! استوى عندنا الماء والخشب... وتسير السيارات. وينفتق علينا الضحك. مسألة غريبة تماماً. أنت ومصيرك المجهول وقلقك... ومع ذلك ينفتق عليك الضحك، العمى!

ها هي ذي دمشق. شارع حلب. شارع بغداد، السبع بحرات، ساحة المحافظة، الأركان. تفضلوا، أهلاً وسهلاً، طق، احتراماتي.

ونُقاد إلى غرفة ليست فخمة جداً ولكنها مريحة. ندخل وإذا سلطان ذلك الزمان واقف وراء مكتبه الواسع. كان واضحاً أنه وقف لما علم بوصولنا حتى لا يضطر إلى القيام لنا.

وخرج من وراء مكتبه ومد يده الجسيمة وصافحنا بقوة. قال:

- انظروا يا فتيان. أنتم كنتم معتقلين لاختلاف في وجهات النظر بينكم وبين السلطة. أنتم أولاد هذا الوطن. لستم أعداءه، ولكن وجهتي نظرنا، أنتم ونحن، تختلفان. وأنتم الآن أحرار. لقد احتجزناكم من غير أن يصدر عنكم عمل مؤذ مباشر. لقد احتجزتم إذا جاز التعبير وقائياً والآن أنتم، أكرر، أحرار فاذهبوا واعلموا أن الوطن إذا أساء إلى أحد أبنائه مرة فما ذلك إلا نوع من تأديب الأب لابنه.

وكان بيننا عبد الكريم، من طرطوس، أنت تعرفه. هذا حشري.

قال للسلطان:

- عظمة السلطان هل أستطيع مناقشتك؟ فشع الغضب والدهشة في وجه السلطان في آن معاً وقال:

- ولك حبيبي لا تناقشني ولا أناقشك. أنا أقول لك اذهبوا فأنتم أحرار.

قال عبد الكريم:

- لا، أنا أريد...

كنت أنا - إسماعيل هو الذي يتكلم دائماً - أشد عبد الكريم من كمه وأقول له:

- لفها يا عبد، ولك عبد لفها.

وهو ينتر كمه ويقول محتداً:

- دعني، أريد أن أناقشه. نحن وطنيون... وقطع السلطان الواقعة إذ مد يده مرة أخرى وصافحنا في حرارة وكاد يدفشنا دفشاً نحو الباب.

وما إن نزلنا الدرج حتى صرنا في الشارع. لا مخبر ورائنا ولا أحد يضربنا، ولا سجان يسبنا ويقول لنا: «يا جواسيس»..

وصمت إسماعيل ولكن عينيه لم تصمتا. كانتا تغزلان في وقبيهما في انتصار وهو لا يرفعهما عني. قلت متبلدا:

- إلى أين تريد أن تصل من هذه القصة؟

قال غفورا:

- أريد أن أدع لك فرصة تتكل بها عن رهانك الباهظ.

قلت:

- لم أفهم.

قال مصابراً:

- إذن فاعلم أيها الإنسان البغو، واغفر لي أن أستعمل هذا النعت، أننا أيام ذلك السلطان قد قمنا حقاً بنشاطات معادية له، ومع ذلك عاملنا هذه المعاملة الغفور. وأما الآن فماذا فعلنا؟ ماذا فعلت أنت مثلاً ضد النظام القائم؟

قلت:

- أنا؟ أنا لم أصنع شيئاً قط. كل ما في الأمر أن موظفاً سميناً من حرس السلطان الجديد جاء إلى الوزارة فقال لمديري: إننا في حاجة إلى

الأستاذ، يعني إياي، لخمس دقائق، أقسم بشرفي. ولكن حاجته إلي تدوم منذ ذلك اليوم حوالي شهر أو شهرين، ولا أظنها تنتهي قبل سنين.

قال:

- رجعنا إلى أصل الخلاف. أنا أقول لن تدوم أكثر من أيام.

قلت:

- ما حجتك أخيراً؟

قال:

- الحادثة التي رويتها لك.

قلت:

- إذن فاعلم يا غشيم أن للاضطهاد والتعذيب وكبت الحريات تكنولوجيا، مَثَلُها مَثَلُ أية تكنولوجيا أخرى، ما تفتأ تتطور. قد تجد خيطاً غير منظور يربط بين العهود الاتوقراطية التي مرت على هذه المملكة. ولكن الأساليب تتطور. وأسلوب هذا العهد ونحن في عام ١٠٥٩ يختلف، من حيث الزخم والتكنيك والتطلعات، اختلافاً عميقاً عم سبقه. في العهود الماضية كانت مفقودة إلى حد بعيد جرثومة التعصب وأما الآن فقد باضت هذه الجرثومة وفرخت. هذا ما يسمونه يا بني «الفاناتسم» في الإرهاب.

جن جنون إسماعيل. أشهد عليَّ الحاضرين أني أحكي بالفرنساوي وتأكد الرهان.

لما أمعن الليل في ظلمته وللمرة الأولى منذ شهرين سمعنا المفتاح الثقيل (كان طول المفتاح حوالي نصف متر استغفر الله العظيم!) يدخل في القفل بقرقعة توقظ أهل القبور وصوت أبي بسام السجان يصرخ:

- أبو عبدو.

كان أبو عبدو زينة مهجعنا وعزاءه. هو الذي حاول أن يحيل جحيم القهر والمهانة التي كنا نحياها إلى مشروع ابتسام. كان إنسانا ربعة، منضفراً مثلما يقولون عندنا في البلدة كلب وديب، كبير الهامة، عريض ما بين

المنكبين، محبته للحياة تجلت في محبته الأكل. كنا، نحن الذين نزعم أنفسنا مثقفين لأنّا قرأنا كلمتين في كل فن، نرفض الدهن، لأننا سمعنا أنه يسبب الجلطة. وأما أبو عبدو فكان يحب الدهن، ندفشه له فيدفشه هو بدوره إلى فمه المعافى، ذي الأسنان البيضاء المتراصة. كان في أبو عبدو شيء آخر أجمل من الهيمان والتلذذ بالأكل. كانت عنده تلك الصفة التي لا تثمن، موهبة الغرق في اللحظة. عندما ينام كان يشخر من كل قلبه. عندما يضحك كانت تنبجس الدموع من عينيه ويحمر وجهه. ولم يكن أبو عبدو يدري لماذا حبسوه. نحن في الأقل كنا ننتمي، أو نصادق، أو نقعد في القهوة، مع الفئة التي تناهض السلطنة الجديدة. وأما هو فلم يكن حتى حلس قهوة. كل ذنبه أنه اشتُهر بإيثاره الحرية وإنه - على بساطته - يرفض أن يكون رقما، يرفض أن يكون ببغاء.

ورد أبو عبدو بصوته الجهير:

- إي خيو أبو بسام جيت.

وقام يتدحرج ويخب في ميدان المهجع مثل دب حسن التغذية.

- ايش فيه يوب؟

هذه تعني باللهجة الحلبية «ماذا تريد أبي؟».

قال أبو بسام من وراء القضبان:

- يطلبونك إلى غرفة التحقيق.

هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها هذه الكلمة: غرفة التحقيق! ما معنى هذا؟ فهم يحققون؟ أنا قرأت الحقوق في دمشق وباريس وعلمت في الأقل أن ثمة حادثة جرمية ومتهماً حتى تكون جريمة. وأنا - مثلي مثل سكان هذا المهجع الذي يغص بالنزلاء - لم أرتكب جرماً. أم أن الأفكار التي عُدْتُ لا أجرؤ على أن أوشوشها حتى في بيتي هي التي اطَّلعوا عليها بقدرة قادر وجروني إلى هنا يخفرني اثنا عشر جندياً من أجل تنظيفي منها؟

لما دخلت السجن أدخلوني إلى غرفة المدير. كان فيها مكتب وراءه ضابط وأمامه على المقاعد ضباط. سألني أحدهم ما إذا كنت أوافق على توقيع

ورقة تتضمن تصريحاً. وكان لي زميل في الوزارة اسمه مصطفى سبق أن أقتيد إلى هذا المكان نفسه وعرضوا عليه هذه الورقة نفسها. فلما وضع توقيعه عليها أطلقوا سراحه. هذا الزميل مصطفى قال لي يومئذ:

- هل تريد نصيحة أخ لأخيه؟

- أريد.

- وقع إذا عرضوها عليك.

وهذا ما فعلت. ما إن بسط لي أحد الضباط الحاضرين يده بالورقة حتى وقعتها من غير أن أقرأها. قال ضابط آخر متعجباً:

ولكنك لم تقرأها أستاذ.

وكنت، منذ أن دخلت الغرفة قد لفت نظري أشياء لا تدع مجالاً للشك: فلقة، خازوق، كهرباء، سياط، أدوات لسمل الأعين وجدع الأنف وصلم الإذنين... وإذا أنا يفلت مني - الله يلعن الشيطان - هذا الجواب الذي قرر مصيري:

- وعلام أقرؤها؟ كلّ وسائل الإقناع الممكنة موجودة هنا، يا حضرة الأخ.

قلت هذا وأنا أشير ؟إشارة دائرية إلى أدوات الإقناع الرهيبة.

وأضفت؟

- لقد اقتنعت جداً؟

وقالوا لي أن أخرج قليلاً إلى الغرفة الخارجية، غرفة الانتظار بمعنى ما. وكان البرد في تلك الغرفة عضوضا تحسه مثل مثقب النجار في عظامك. وأنا ببنطال ليس له زنار لأنهم عندما يدخلون الموقوف إلى السجن فإن أول شيء يفعلونه هو أن يشلِّحوه زناره وشرائط حذائه. لماذا؟ قالوا حتى لا ينتحر. ومن قال لكم أننا سننتحر؟ إذا شئتم الصراحة فإننا نفكر في أن نجعلكم تنتحرون أنتم. إي نعم، هكذا بكل بساطة، تنتحرون أنتم لأننا نحن أصحاب الحق في أن لا ننتحر. نحن لسنا فاضين أصلاً للانتحار... وكنا في كانون الثاني، وفي سجن الرها تصور.

كنت في جلستي المقرورة تلك تتقضقض عظامي وأسمع هدير مناقشة حية في الغرفة - المكتب، وأكلم نفسي قائلاً: «حتما سيطلقون أسرك... ما دمت وقعت على ورقتهم تلك».

وطال الهدير وطالت قضقضة العظام. لم يكن في يدي ساعة ولكني حسبت أن انتظاري قد جمع الأزل والأبد في آن معاً. أخيراً سمعت باب الغرفة - المكتب يفتح وصوتاً آمراً يبعق:

- سليمان على الخط.

وانشقت الأرض عن مساعد أول يهرع، فهمت فيما بعد أنه مدير السجن، وانتهرني في لطف قائلاً:

- ألحقني.

الحقه إلى أين؟

وعاد ينتهرني؟

الحقني.

لحقته وإذا هو يعود بي إلى السجن، إلى رفاقي الذين غادرتهم منذ قليل وفي نيتي أن لا أعود إليهم. أمل آخر يخيب. لا بأس. إن مزية السجن الوحيدة هي أنك تستطيع أن تسب كما يحلو لك من غير أن تضطر إلى التلفت حواليك. هذه الميزة تبدو لك أفكوهة، مزحة، لو فكرت فيها تلك الأيام لحسدتنا نحن المساجين.

اغفروا لي أني أخذت حريتي كلها ورحت أغرب وأشرق في حين أني تركت أبا عبدو، أبا عبدو الطيب، العزيز في غرفة التحقيق. أبو عبدو في غرفة التحقيق. يا ويلي! ولكن هؤلاء ليسوا قضاة، وأنا إنسان تَعِبَتْ عليَّ بلادي فدرّستني الحقوق في الشام وباريس، وهأنذا ومئات من رفاقي نقبع هنا لا نعمل شيئاً. لا نكتب، لا نقرأ، لا نحب، لا نلحق البنات في الشوارع ولا نسمعهن كلاماً. أليس هذا هو الجنون نفسه!

لم يكن القلق، المرحمة، الإشفاق على أبي عبدو هي وحدها التي أخذت المهجع، فَلَجَته. كان يومئذ الفضول أيضاً. ما التحقيق؟ ما الجريمة؟ ما

المحققون؟ ما نحن؟ ماذا يحدث وراء هذه القضبان وهذه الطقوس ما فوق الدينية التي تلازمها؟

في الكلام الدارج يقولون: «أمْسَكوا أنفاسهم» وأما نحن في المهجع فلم نمسك أنفاسنا. كنا نتنفس ولكننا كنا نختنق.

رفيقنا الطبيب الشرعي الحمصي كان يذرع ميدان المهجع (الميدان هو المنخفض الواقع بين مصطبتي المهجع). منرفزا يعضّ كفه. بدا لي كأنه زوج محب ينتظر ولادة أم أولاده. كأنما انقلبت الأوضاع هذه المرة هو الذي يذرع الممر في دار التوليد. أية دار، وأي توليد!

إسماعيل دنا مني وهمس في أذني:

- عَلْك. إنهم لا يملكون شيئاً ضدنا.

قلت له:

- اسكت أرجوك.

وسكت. كلنا كنا ساكتين حتى الاختناق، أبو عبدو في غرفة التحقيق! ولكن هؤلاء ليسوا قضاة، إنهم ضباط. وافرض أن لنا وجهة نظر تخالف ما يؤمنون به، إن كانوا يؤمنون بشيء، فما عسى أن يفيدهم، ما عسى أن يفيد أحد في الدنيا من زنقنا هنا مثل فئران في مصيدة؟. ونحن قوم فقراء، متخلفون، نحتاج إلى كل عضلة، كل خلية حتى نخرج من دوامة فقرنا وتخلفنا فلماذا يشلون آلافاً مؤلفة من الأدمغة والعضلات والقلوب؟

لا بد أن غيبة أبي عبدو الطيب، العزيز، قد طالت. الدليل أنه لم يبق بيني وبين الجنون إلا دفشة. آخر الأمر فرقع المفتاح في القفل فرقعته القاتلة التي تشبه ما سيفعله اسرافيل حين ينفخ في الصور يوم الوقت المعلوم. وعاد أبو عبدو إلينا...

كدنا يركب بعضنا على أكتاف بعض وهو - أبو عبدو - في مركز دائرة. تكدسنا نحن حواليه، طوقناه على نحو مؤس:

- أبو عبدو، أيش قالوا لك؟

كان في الزاوية الوحشية لعينه اليمنى كدمة ضاربة إلى الزرقة ولكن أحداً منا لم يُعْن بسؤاله عنها. في ظلمة المهجع شعت ابتسامة، ابتسامة أبي عبدو الكريمة الخلية، ماذا؟ ابتسامة إنسان، وهنا؟ قال بلهجته الحلبية التي تفخم الكلمات على نحو يتناغم مع متانة بنيان الرجل:

- والله ما عندي من الأخبار إلا أن القرآن صار واحداً ثلاثين جزءاً.

لم نفهم شيئاً. بعض الضحوكين رسموا مشروع ضحكة تلازمهم كلما فتح أبو عبدو فمه بكلمة مهما تكن. آخرون ازدادت عيونهم اتساعاً من دهشة، وجباههم ازداد تثنيها قالوا:

- لم نفهم يا أبو عبدو.

وأخذ يوضح لنا. قال:

- أول ما دخلت غرفة التحقيق سألوني «هل سمعت خطبة الباديشاه الجديد، خاقاننا الكلي القدرة؟»... وكنت قد سمعت الخطبة، ولكني تجاهلت وقلت لهم في نزق: «أية خطبة؟» فجن جنونهم، صرخوا: «خطابه في الدونمه بقجة يا حيوان». قلت لهم: «إن للسلطان رأيه ولي أنا الرعية رأيي».. أكثرهم إيمانا بالسلطان الجديد عاد لا يطيق، وضربني هنا عدة ضربات (يظهر أنه عسراوي).. كان يضربني ويجعر: «كلب ابن كلب، ألا تعلم إن كلام البادشاه مُنْزَل؟»...

وتضاحك أبو عبدونا الحبيب وأضاف:

- وهكذا علمت للمرة الأولى أن القرآن صار واحداً وثلاثين جزءاً ثلاثون تنزيل من عزيز حكيم وواحد تنزيل من سلطاننا الجديد...

* * *

وتمر ساعات مديدة، أيام، أسابيع، أشهر (تسيَّب مفهوم الوقت عندنا. ساعاتنا كلها كانت ودائع في المستودع)... كانوا كل بضعة أيام يفرطون مهجعنا، يبعثروننا، يوزعوننا على مهاجع أخرى. أظنهم كانوا يفعلون حتى لا نعتصب. نعتصب نحن الذين عشش الخوف في قلوبنا؟.. كانوا كل ليلة، بعد

منتصف الليل يبدؤون «تحقيقاتهم»، يفتحون الراديو على مطربة أغانيها تشبه خطب سلطاننا.. ويشغلون فينا السياط والكهرباء والصفع والشتائم التي كلها من تحت الزنار... ذات ليلة، في المهجع الخامس، فوق، ندهوا محمود، صانع البسط الممتاز من النبك. غاب في غرفة التعذيب ساعة. كنا نصيخ السمع، نصيخ القلب لأننا كنا نحب محمود جداً، فهو خدوم، حر، حار القلب. بعد ساعة عاد محمود يسنده السجان عبد السلام. كانت رجلاه متورمتين. كان جسده كله متورما. وحقنّا بابور الكاز وسخنا له ماء وغسلت له رجليه بيدي. ثابت المحامي، رغبة منه في أن يكسر جو القهر والعجز الذي قبض على قلوبنا قال له في أثناء غسيل رجليه:

- ولك محمود شوبها أذنك؟

حقاً كانت أذنه مدعوكة كأنك أدخلت صُوانها إلى الداخل. وانخرطنا كلنا في ضحك عصبي هستيري، ضحك بدموع. وقال أبو مخّول رئيس ميرة المهجع:

- ولك محمود لماذا لم تصرخ؟

كانت التعليمات بيننا أن نصرخ منذ أن تسقط أول ضربة سوط على أرجلنا لأن الذي لا يصرخ يحنقهم، يجعلهم يرفعون المئة جلدة إلى مئتين.

قال محمود في كبرياء:

- كيف! صرخ؟ كنت على رأس صف من ثلاثين رفيقاً. لو أنني صرخت لارتعب الرفاق.

كان هذا بعد أشهر طويلة من «التحقيق» مع أبي عبدو. وكنت قد كسبت الرهان مع اسماعيل وكنا قد انتقلنا إلى المهجع الأول في الطابق الثاني. آلاف مؤلفة من العصافير الدورية كانت تنطنط بحرية بين باحة السجن والكثبان التي تحيط به. آلافا مؤلفة من المرات حملت زوجة الراعي الزوادة إلى زوجها وراء السجن ونحن لا زوادة، لا قراءة، لا كتابة، لا حب، لا تسميع كلمات للبنات على طريق الصالحية، لا حياة. وكانت الوجوه قد اختلفت مرات عدة حتى لا نعتصب.

أيام المهجع الأول الذي فوق لا تَنْسَ. كنا كلما جلد رفيق من رفاقنا وبلغت أرواحنا الحلقوم وارتفع نحيب صامت في قراره أرواحنا نهرع، مثل من مات لهم ميت عزيز، إلى أحمد. أحمد هذا فتى يافع في السادسة عشرة من عمره أو يكاد، أخوه كاتب، له أنف يشبه منقار الديك، أسمر شاحب. هذا الفتى لو أنه كان في أوروبا لكان فرناندل أو لوي سينسيه أو لوريل. انه يقلد أبطال الكاوبوي فيخيل إليك أنك تحضر فلماً من أفلام هؤلاء، ويقلد الديك والدجاجة ومأمأة الحملان وفريد الأطرش. ولكن «نمرته» التي لا نقضي منها العجب أبداً هي خطبة يقلد فيها بادشاهنا الجديد على نحو لا أجمل ولا أروع ولا أشد كاريكاتورية:

«يا عبيدنا الركع السجد، إن أعداءنا الذين يزعمون ما يزعمون، ما يزعمون، مون، سيعلمون مهما تمر السنون: نون، أنهم واهمون، مون، أننا نستطيع، طيع، أن... هاه نحن ما معنا لعبة، به فهمتهم، ثم! وأفهمكم، كم، ! أم من غضب أستشيط...».

أحمد، أحمدنا الفنان، الإنسان، يجعل من الخطبة خليطة تضحك الثكلى. ومثلما يجعل الرسام الكاريكاتوري من أنف دوغول جداراً ولكنه يبقى على ملامح دوغول كلها يجعل أحمد من سلطاننا شيئاً يعزينا، من صميم قلوبنا، عنت الفروق القائمة بيننا نحن الذين خلقنا في أحسن تقويم وبين العصافير الدورية!

* * *

ذات مرة، الليل في هزيعه الأخير. وأنا نائم نوماً ثقيلاً اعتدته منذ أشهر، لأن للمحكومين بجرائم شنيعة حقاً في التنفس ونحن ليس لنا حق، ولأن المهجع الذي يتسع عادة لأربعين يحوي الآن مئة وعشرة.

أقول بينا نحن نائمون نومنا الثقيل ذاك قرقع مفتاح السجان في القفل وصاح السجان أبو بسام:

- أحمد زعزوع.

وأيقظ من لم يدع لهم البق فرصة للنوم، أيقظوا أحمد. قال السجان:

- إلى غرفة التحقيق.

مرة أخرى مثلما جرى لنا منذ أشهر طويلة مديدة أمسكنا أنفاسنا، اختنقنا، لم يبق في المهجع أحد نائماً، انتحب فينا المظلوم، انتحب فينا الإنسان من الرَّباط حتى الأحمدي في الكويت:

- أحمد ينجلد؟ يا ليتني أنا.

- لا بل يا ليتني أنا.

- أحمدنا الطفل، الفنان.

- طز على فناني الدنيا كلها.

- نحن هنا فريقان يقتتلان حتى الموت.

- ولكني أنا لم أقاتل أحداً...

- لماذا؟ ماذا فعلنا لهم؟

- أنت تقول طز على الفن؟ إذن فاعلم أن هذه الأرض كلها قد تبيد، قد تحلق حلاقة بكارثة طبيعية أو بموس كوبالتية ولكن الذي يبقى هو الفن...

أي رح أفهم لي هؤلاء الخنازير أن الفن... ما داموا يسكرون ويأتون ليتفكهوا بتعذيبنا...

أحمد في غرفة التحقيق! خيل إلينا أن الفجر سيضرب عن الطعام، والشمس ستقوم بمظاهرة احتجاج والوردة ستغز في قلبها شوكة والدوري - متى ما يتنفس الفجر - سيمتنع عن الخروج من السجن ويختار الحبس معنا من كل قلبه.

أحمد في غرفة التحقيق! أنا متأكد أن النفَّاجين من الأزواج سيمتنعون عن الذهاب إلى السينما، وطلاب الجامعة سيسيحون بوجوههم عن بياع الفلافل الذي عند التجهيز، ويظلون جائعين، وفي حديقة السبكي سيقلع الأطفال عن إلقاء كسرات الخبز للبطات وسيظلون كذلك حتى يخرج أحمد من غرفة التحقيق...

من غير طول سيرة عاد المفتاح يرعد في القفل، وأبو بسام يصرخ بأحمد:

- ولا كلمة هاه، وإلا أنتم تعرفون ما أفعل بكم هاه!

أبو بسام هذا يحكي كثيراً. هو لا يضرب. كان. ولكنه كف عن ضربنا على أثر حادثة: ضرب أحدنا حتى عوّره. في الليلة ذاتها مات له ولد لم يكن مريضاً فصار يخاف من ضربنا!

ودخل أحمد المهجع خفيف الظل كأنه اليمامة، كأنه الشعاع ومضى من توه إلى مصطبته فجمع أغراضه وضبّها في بنطال بيجامته بعد أن ربط كميها وحمل الكل على ظهره.

وتجرأ واحد من الذين لا يقبلون مساومة، واحد من الذين يرون أن التوقيع على أية ورقة - حتى مع السياط والكهرباء والخازوق وأدوات الصلب - أمر يهين الإنسان منذ آدم وشيت حتى هذه اللحظة. قال هذا لأحمد:

- يظهر أنك وقعت يا عكروت أليس كذلك؟

والتفت أحمد إليه طروباً، خفيفاً، حلواً، وقال:

- لا وحياة محمد ما وقعت.

قال الآخر صارماً:

- إذن؟ أظنهم أخرجوك لسواد عينيك.

قال أحمد:

- لا، ولكني قلدت لهم الباديشاه!...

يا بيي، يا بيي! كاد يفلع رأسي. هذا أيضاً قد احترف. كنت أقول: «هذا أيضاً ربما احترف» وإذا هو يحترف فعلاً. الباديشاه، الذي كان كلامه، قبل بضعة أشهر منزلاً، ينضحك الآن عليه إلى درجة اطلاق سراح موقوف، «جاسوس»، خطر على القومية، إلى آخر... يا بيي، يا بيي!... البادشاه ذاته أصبح على صفنا، مثلنا، رقماً، سجيناً.. إذن صار في وسعنا الآن أن نحلم أننا نوشك أن نرتفع إلى مرتبة الدوري الذي يملك أن ينتقل من السجن إلى الكثبان المحيطة به، حيث... الحرية!

*　　*　　*

النصيب..

قالت الأخت الكبرى، حتى قبل أن تنزع إيشاربها:

- صحيح، ولك لطفية ما قاله لي أخوك موفق؟

قالت الصغرى في أثارة من شيطنه:

- أهلاً وسهلاً أختي أم عدنان. تفضلي استريحي. خير إن شاء الله، في أي مسألة؟

- في مسألة الخطيب يوه. كأنك تتجاهلين. قال لي موفق انك رفضته. ولك أختي لطفية قولي لي أيش فكرك؟

- والله يا أختي أنا ما رفضته تماماً. أخوك ما أعطاه كلمة نهائية بعد. ولكني أنا لا أريد. قلت لموفق أن يبلغه.

- اشرحي لي السبب من فضلك.

- هكذا. أنا لا أريد أن أتزوج. كلمة ورد غطاها.

- روحي قولي هذا الكلام لواحدة غيري.

- والله...

- اسكتي، اسكتي. والله لو بلعت لي ورق المصحف أنه فيه، في العالم كله، بنت لا تريد أن تتزوج لما صدقت.

- أي أنا لا أقول لك لا، ولكن ليس من واحد... مثل هذا!

- يا لطفية، يا أختي، الإنسان يجب أن ينظر إلى الموجود. رجل مكمل، هندامه ظريف، مهذب، ابن عيله. ايش الواحدة تطلب أحسن منه؟

- أي، حتى ينطبق علي المثل: يصوم، يصوم ويفطر على زقوم. أنا التي رفضت لا أدري كم فتى مثل أزرار الورد، آخذ في النهاية هذا الـــ...

- هذا، هذا! هذا ما به؟

- لا تتركيني أحكي. مصوفن على حافة قبره!

- ولك يا لطفيه حطي عينك في عيني واسمعي مني زبدة الكلام. هؤلاء أنا استفهمت عنهم. هؤلاء يعمرون. أبوه، لما جاءه خطيبك هذا كان عمره ثمانين. أمه عاشت مئة، عماته، أعمامه، خالاته، أخواله أمس حتى انقبروا وصفي وحده.

فترة صمت. فجأة تشب لطفية كأنما لسعتها فكرة سوداء:

- أنا لا أريد أن أتزوج حدا أخو عقلي.

بعدها بصوت باك:

- كأني مغلية عليكم الخبز حتى ترموني في هذا المغطس. هذا كله سببه مرة أبي هي التي تحميك علي، أليس كذلك؟

- لا والله العظيم. أخوك هو الذي فاتحني. ومن جهتي أنا مالي مصلحة. أنا امرأة متزوجة. أولادي صبايا وشباب. ومبسوطة (تبوس يدها وجهاً وقفا) الحمد لله. ولكن لي غصة واحدة في هذه الدنيا، هي أنت. ما لي هم غيرك، غير أن أراك مضبوبة مستورة في بيت ابن حلال من ظهر حلال. والواحدة آخرتها الزواج. المرحومة أمنا كانت تقول قبر البنت بيت زوجها.

لطفية في رخاوة:

- ولكنه كبير أختي أم عدنان، كبير!

- لا تخليني أحكي كلمة كبيرة. قالوا صح لها زوج بالحيلة، قالت أعور وأله قيلة!

- الله يسامحك. طيب قولي لي أيش معه وعليه حتى تتعصبي له كل هذا التعصب؟

- معه يا ستي معاش تقاعد مبحبح إذا مات صار من نصيبك وحدك. وعنده بيت ملك سياح نياح يلعب فيه الخيال. ألا يكفي؟

- يا ليتني ما تعففت وبرمت وجهي لما كان الخطاب يتقاتلون على بابنا كأنهم قدام فرن في سنة غلاء!

- ولك أختي لطفية لفيها، يرحم زمان أول. الآن، ما فيه حدا غريب، أنا رايحة على الخمسين وأنت أصغر مني بسنتين. أي كتر خير الله...

- يوه، ما شاء الله عليك. كبريني أكثر. قولي عمري فوق الستين مرة واحدة. والله العظيم قيد نفوسنا غلط.

- طيب غلط، لا تزعلي. وأنت صغيرة ونغنوغة ولكن خذي هذا الرجل، الله يرضى عليك.

لم تكن الأخت الكبرى مخطئة ولكنها كانت مهذبة في بسط الوقائع. ذلك أن لطفية لم يكن يتقاتل الخطاب على باب بيتها وحتى وهي في العشرين. المسألة وما فيها أنهم، لما كانوا في المهاجرين جاورتهم أسرة ليست قد المقام. كانوا، هم، موظفين قد الدنيا أبا عن جد، يذهبون في الثامنة صباحاً إلى الوزارة وينصرفون في الثانية: بينا الأسرة الجارة ربها حداد. ابنهم الأكبر، الذي كان يكبر لطفية بأربع سنوات، بعث أمه تخطبها بعد أن شجعته وقفتها في الشباك على طولها، وابتساماتها، وعدم رد باب البيت في وجهه عندما يمر، حتى ولو كانت في روب النوم... يومئذ قامت القيامة وفار التنور وأخْرجتْ أم الولد ياكبة يا عثرة، مغسلة ومدلاة: كيف تجرؤون؟ من لعب بعقلكم؟ الناس عادت لا تعرف حدها: هذا ما كان ينقصنا. أن يطرق بابنا هؤلاء..

وأما الآن فقد كان تمنع لطفية ينقصه الاقتناع. الأخرى أن يقال عنه أنه تدلع، لأنه سرعان ما قبلت «حتى لا تطلع أختها الكبرى بالخجلة». هذا عيب، لا يصح عندنا في العيلة!.

*   *   *

لم يكن الزواج سيئاً. الزوج، على الرغم من أنه نحيف ساقاه مثل المفاتيح، يخض في بدلاته خضاً (يظهر أنه نحف بعد التقاعد ولم يضيق بدلاته) شاحب، خفيف رموش العينين، سميك النظارتين... كان مرتباً، مهذباً كما قالوا عنه أيام الخطبة وأكثر.

كانوا قالوا لها أيضاً أن اضباراته، إذ هو على رأس وظيفته، كانت فرجة لمن تفرج: الدبوس فوق الدبوس على السنتي، في الزاوية اليسرى ولو كانت الاضبارات مئة في مصنف واحد... كان هذا صحيحاً. الدليل ترتيب البيت، المطبخ، البوفيه، خزانة الأواعي.

وكان يساعدها في كل شيء. يجلب الأغراض من السوق، يجلي، يكوي، يقف على الغسالة، يطفئ البراد وينظفه، و... يدفيء التخت في الليالي الشاتية. صحيح أنه لا يدفئه كثيراً... ولكن ماشي الحال! انه، على أية حال، رجل في البيت، حماية. المرحومة أمها كانت ولية رحمة الله عليها. وأم عدنان أيضاً على سلامتها. أخت من حق وحقيق.

بضعة أحلام عابرة، لا ينكرن أحد، كانت تطوف بها أحياناً: ماذا لو كان هذا الذي عندها أصبى، أشب، نغشاً، إذا كانت منحنية طاقين تمسح الأرض، وعجيزتها في الهواء مرّ بها وقرصها فنقزت وهي تزقزق: «يوه أنت التاني، هذا وقتها»... أو أنه كان يحكي لها نكات مملحة من تحت الزنار وهي تدافعه أو تتصنع دفاعه وتقول له: «استح، زهير»!

ولكن، سبحان الذي لا يخلو من اللو، زهيرها هذا لا يقول لها حتى الآن «لطيفة» حاف. دائماً «لطيفة خانم» وأحياناً: «تريدون أن...».

ماذا جنت تحت عرش الله حتى تحل بها هذه المصيبة وهي في عز سعادتها؟ مات زهير. وأية موتة سخيفة. كان في السرفيس المندفع على أوتوستراد المزة بسرعة مئة وعشرين حينما برز من أحد الشوارع الجانبية، فجأة، حمار. المكبح القوي جعل زهير يصطدم رأسه بزجاج السيارة الأمامي، ولا ينطقها!.

سنتان وشهر وأربعة أيام. هذه كل أيامها زوجاً في بنصرها اليسرى خاتم الماس يبرق مثل الشمس، والناس تقول لها: «سيدة»، وهي تقول لأترابها كلما طق الكوز بالجرة: «أنا، زوجي...» لماذا كانت السعادة «ومعرفة كيف تعيش» حكرة الإفرنج وحدهم؟ قرأت مرة في إحدى المجلات، التي كان يشتريها لها المرحوم حتى تتسلى، إعلاناً من رجل في الخامسة والسبعين، أرمل، يريد أن يتزوج امرأة «ست بيت» لا يزيد عمرها على الخامسة والستين... زهير ليتني أبلى لم يبلغ الرابعة والستين. يا حسرتي!

وتمرّ أيام الحداد. مأدبة الأربعين كانت عامرة. الإوزي بالسمن العربي لا يخلطه خالط. المدلوقة بقشطة، قيمق عرب. أحسن المقرئين مقرئ اشتراك ليقرأ كل خمسين على القبر. وتنقضي العدة. أي! وبعد؟ وبعد جاءت أم عدنان وموفق: يجب مراجعة التأمين والمعاشات من أجل المعاش التقاعدي، والعقارية من أجل البيت.

- أي والله ما لي قلب. ياليتني كنت أنا ولا هو، ليتني أبلى. - ولك اختى الحي خير من الميت والمسألة حقك. هل تتركينها للحكومة تتبربح بها وحدها؟!

من غير طول سيرة: في العقارية كان البيت مرهوناً للمصرف العقاري. وأما المعاش التقاعدي فلا يحق للسيدة لطفية أن تقبض قرشاً واحداً منه لأن المادة ٣٢ من القانون رقم ١١٩ لاتورث الزوجة، التي يتزوجها المتقاعد بعد بلوغه الستين معاشه التقاعدي!

أي الله يغمق له، المصوفن، شيخ الجن، عجوز النحس. لماذا لم يتجوز، جوزه رصاص، وهو في التاسعة والخمسين. يحرق أنفاسه أما كفى أن سعلته كانت تقتلني؟ صبرت، شقيت، تحملت. ولكن الذي ما له حظ لا يتعب ولا يشقى.

* * *

رسالة
من أب عامل إلى ابنتيه عندما تكبران

ترددت طويلاً قبل أن أعتزم رواية قصتي لكما من أولها إلى آخرها. كنت أقول في نفسي: «ما الفائدة؟ ندى وسها بنتان صغيرتان: جميلتان متفوقتان في روضة الأحداث والصف الأول جميعاً، ولن تلبثا أن تصبحا صبيَّتين، زينة الحارة، ويأتي نصيبيهما لا بد، عريسان باسقان مثل نخلتين، عاملان ناجحان مثلك أنت، حدادان أو نجاران أو دهانان، فيكون لك فيهما عوض عن بشار.. ثم إن قصتك ربما وقعت للمئات من العمال الآباء غيرك، فلماذا ترويها اذن؟»..

ولكني قلت في نفسي أيضاً: «لا، بل يجب أن تقص عليهما قصصك منذ البداية لتحكياه لأولادهما من بعد، لعلهم أن يقولوا: ما أكثر ما تعذب جدنا وجدتنا. ما أكثر ما صبرا وصابرا، وما أعز أن يكون الإنسان عاملاً»..

أي يا حسونتيَّ الصغيرتين، يا ندى ويا سها، يا بنتي أبي بشار الحداد. أنتما تتذكران ما تزالان جدتكما، أمي، التي كانت تحكي لكما حكايات لا تملان من استعادتها إياها. اذكِّر كما مثلاً بحكاية البنت الصغيرة التي ذهبت أمها يوماً إلى الحقل فنسيت هي أن تضع دقر الباب من الداخل، فتسرب إلى البيت الغول، وفي وكده أن يأكلها لأنه وجد أن لحمها طري جداً. وتذرَّعت بالذكاء والحيلة، وقالت له في رقة:

- ما قولك. يا سيادة الغول. في أن أغني لك أغنية ظريفة تكون لك مثل المقبلات قبل أن تتلطف فتأكلني صحة على كرشك المحترمة إن شاء الله. أنا لمعلومات سيادتك، صوتي طيب، وقد ظهرت مرة في نادي الأطفال

في التلفزيون وغنيت، فأنبسطت المذيعة جداً، وباستني على خدي هذا بوسة وعلى هذا بوسة، وأعطتني كيس ملبس هدية:

قال الغول:

- ولكني أخشى، أيتها البنت الصغيرة، أن تأتي أمك من الحقل على غفلة وتجدني هنا أسمع غناءك فتعيط وتصرخ وتلم علي الحارة فأضُطر إلى الهرب قبل أن آكلك.

قالت البنت الصغيرة:

- لا، لا تخف يا عمو الغول. أنا أبي، العمر لك، ميت. وأمي هي التي تقوم بأعباء البيت كلِّها، وبكل ما يحتاج إليه الحقل من فلاحة وعزق وبذار وحصاد. ولذلك فإنها لا تعود إلى البيت قبل أذان المغرب. الآن الظهر لم يؤذن، وأغنيتي، كل أغنياتي، لا تستغرق أكثر من دقائق.

قال الغول:

- إذا كان الأمر كذلك فغنِّي لي لأني، وهذا أمر مستغرب عند الغيلان، أحب غناء الإنس، وقد اشتريت مسجلة وعدة كاسيتات خام لأُسجل عليها ما يعجبني من الأغنيات الأصيلة، ولاسيما الشعبية. لأني لا أحب الغناء المصطنع الذي لا هو إلى الشرق ولا إلى الغرب. في منطقتكم مثلاً، في الشمال، أغنية يغنيها العمال الزراعيون أيام قطاف الزيتون تبدأ هكذا:

درب حلب ومشيته   كلّه شجر زيتون

أغنية حنونة جداً أيتها البنت الصغيرة، أكاد عندما أسمعها أزهد بأكل الأولاد الصغار، لولا أن الطبع ترسخ فيّ. الله يلعن الشيطان.

قال الراوي، تقول جدتكما: وكان للبنت الصغيرة وأمها جار هندي طيب، صاحب حمية ونخوة، فأنشأت البنت تغني:

يا جارنا الهندي   تعال شف من عندي

عندي غول أسود   في وكده يأكلني

لا أطيل عليكما: الجار الهندي يقبل مسرعاً ويخلص البنت الصغيرة الذكية من الغول الذي يجد أن أحسن ما يفعله في حياته هو أن يصبح إنسانا.

جدتكما هذه يا حبيبتي لم تكن قادرة على مثل تلك الحكايات، والطريقة المشوقة البارعة التي تحكيها بها، لو لم تكن، مثل كل فنان أصيل، عانت كثيراً وشقيت طويلاً.

كنتما صغيرتين لما توفيت. وأما أنا فتعود معرفتي بها إلى العشرينات من هذا القرن. تلك الأيام كان جدكما أبو أبيكما بطالاً لماذا؟ لأنه في الأصل ابن عيلة معروفة في البلد الصغير الذي في الشمال، مسقط رأسنا. كان موظفاً ينطوي على قدر كبير من الاعتزاز بنفسه فتخانق مرة مع رئيسه. فقلب القلم على قفاه، على حد تعبيره هو نفسه، و«نقره» برسالة مسبّات من كعب الدست، كان من نتائجها تسريحه... منذ تلك الحادثة صفي البيت كله معلقاً برقية أبي. لم يكن جدكما يصنع غير أن يقعد في القهوة، حسن الهندام قدر الإمكان، قليل الإشارات، حلو الحديث ولكنه أسود النكتة، أمير يتكلم عن أمجاده أيام الوظيفة وعفة يده، وعلوه علواً كبيراً على رؤسائه كلهم، وسفرته إلى اسطنبول وتحصيله فيها، ورقة اللهجة الاستنبولية وجمال عاصمة السلطنة الباهر وبحرها الذي يشطرها إلى شطرين أوروبي وآسيوي..

في تلك الأثناء كانت جدتكما تكدح مثل النملة وتذوب من غير أن تفتح فمها بشكاة. انضمت إلى ذلك العدد الكبير من «النفَّاشات». أتعلمان ماذا تعني كلمة نفاشة؟ طبعاً لا. إذن اسمعا: كانت منطقتنا وما تزال، غنية بالقطن. ولكن قطن ذلك الزمان لم يكن ينفش وهو على أمه كما هي الحال الآن. كان يقطف جوزات مُغْلَقة مثل الجوز العادي، لذلك كان التجار يستأجرون عتالين يحملون جوز القطن في عدول ويوزعونه على النفَّاشات، أي النسوة اللاتي يفصلن الجوزة عن التيلة.

هؤلاء العتالون أناس رائعون، يعلمون أن كثيراً من النفاشات نسوة مستورات حط بهن الزمان واستبدلن عسراً بيسر، لهذا كانوا يوزعون النفاشات في الظلام، بعد صلاة العشاء.

لم يكن في المدينة كهرباء. الشوارع مضاءة بفوانيس مغبرة يغطي السخام زجاجها ومصابيحها. وكثيراً ما يخطر لنا، نحن الأولاد الشاقين الأرض وطالعين من شيطنة، أن يُنيشن (يُسدد) أحدنا على الفانوس نقيفته التي لا تخطئ هدفها.

استقيت معلوماتي عن النفاشات من أبي أحمد آمد. هذا كان عتالاً عند بيت القطان أكبر تجار القطن في الديرة. كان أبو أحمد يعرف سبيله إلى بيوت عاملاته مهما يكن الظلام كثيفاً. ينقر على الباب نقرات خفيفة حتى لا يسمعه أحد من الجيران. الباب يفتح له على استحياء وحذر فيرمي العدل عن كتفه في الدهليز ويمضي في حال سبيله يلفه الظلام ليحضر عدلاً ينقله إلى نفاشة أخرى أو إلى النفاشة نفسها إذا كانت صاحبة همة.

أبو أحمد هذا صار مليونيرا. وأذكر أنه همس في أذني ذات يوم:

- كنت أعرف المرأة النظيفة من الشرنّة العفشة. أمك كانت آية في النظافة. كانت نفشتها مثل الفضة تدمع منها العين. ولكن خلِّ هذا بيننا. لا تقله لأحد. أنا ديني علي حرام ما فتحتها في عمري غير اليوم.

لم تَقْصِرْ همتها على نَفش جوز القطن وحده. كانت تعمل في الوقت ذاته في الحصر. لا بد أن أعينكما الجميلة ستدور من دهشة، تتساءلان: «الحصر؟ وهل نصنع نحن حصراً؟ كل ما نعلمه عن الحصر يا بابا هي هذه البسط من القش الرفيع المصنوعة في الخارج بعضها عليه رسوم مكة والمدينة. فهل الحصر التي كانت ستنا تشتغلها من هذا النوع»؟.

لا يا حبيبيَّ.. حُصْر بلدنا شيء آخر. وأشد تواضعا، مثلنا، أشد فقراً.

سأحاول أن أشرح لكما ما هي حصر بلدتنا وأرجو أن لا أثقل عليكما، إذا فصلت بعض الشيء: بلدتنا قبل خمسين ستين سنة، كانت تشكل ما نسميه الآن اقتصاداً مغلقاً، أو اكتفائياً. كان فيها مثلاً سوق لكل صناعة حرفية. فيها سوق للصاغة، للنجارين، للحدادين، (شيخ الحدادين)، للنحاسين، للجزماتية، والجليلاتية إلى آخره. وكان على بعد عشرين، خمسة وعشرين كيلو متراً من البلدة مستنقع اسمه عُرّى، ويسمون السهل الذي يمتد شماله سهل الروج. هذا

المستنقع (وقد جفف منذ عدة سنوات) كان «يزوِّد» البلدة بالبعوض يفتك بنا فتكاً فظيعاً، ويُزودها من جهة ثانية بسمك السلور الرخيص اللذيذ الذي كان في متناول أشد الناس فقراً، وبالقَشّ، قش بعرض الخنصر، لونه مائل إلى الصفرة.

لسنا الآن في البعوض أو السلور. نحن في القش الذي كان يأتي حزما قطر الحزمة بين ثلاثين وأربعين سنتمتراً وطولها قامة وربع.

هذه الحزم تُشترى يوم البازار. تسلمان لي. هأنتما تدهشان مرة أخرى.. «يوم البازار، ما هذا؟» إي ستي راسي، يوم البازار في البلدة هو يوم الأربعاء. فيه تنعقد سوق أسبوعية في فلاة على تخوم البلدة، عند أقدام التلة الغربية. إلى هذه الساحة - الفلاة يبدأ القرويون، حتى قبل منتصف ليلة، الأربعاء، يفدون من كل فج عميق. من أربعة أطراف المنطقة وهم يحمِّلون بغالهم وحميرهم وكدشهم بضائعهم الزراعية المختلفة ومصنوعاتهم الحرفية: الفليفلة الحمراء من جهات حارم، خام الفوعة: البطيخ المعر تمصريني، القضامة وأنواع البزور والكرز من أريحا، القش من الروج، القشطة، اللبن الذي يحمل على راحة الكف، الفريكة...

من هنا يُشترى القش ويؤخذ إلى البيوت، حيث تفك حزمه ويركب على الأسدية ويضفر حصراً، صنعة الحصير تشبه بعض الشبه جديلة البنات أي أنها ليست في دقة حصر الصلاة التي تعرفانها.

طبيعي أن ستكما رحمها الله لم تكن هي التي تنزل إلى البازار لتشتري القش: انها لا ينبغي لها أن تفعل حتى ولو كانت متخفية بالملحفة وعلى وجهها منديل سميك يحيل النهار في عينيها ليلاً. أم الراجي خبازتنا على التنور أيام الخير هي التي كانت تتسوق القش لها وتتركه عندها - عند أم الراجي - حتى إذا أمسى المساء جاءتها به.

المؤسف المضحك أن تلك الاحتياطات كلها كانت عبثاً لأن لسان أم الراجي كان فلوتا بعض الشيء. ليس كثيراً، ولكن...

على فكرة، الراجي بن أم الراجي الوحيد كان أجير حداد، كلما مررت بسوق الحدادين كنت أتوقف أمام دكان معلمه، وأسلِّم فيهتف بي الراجي متهللاً حفيّاً:

- ولك أهلين بمعلمي!

أنا معلمه! لا والله. هو معلمي الأول. وكان يضع لي كرسياً واطئاً من القش (الكرسي الوحيد في المحل) فأقعد، وتروح عيناي تنهبان الكير والمنفاخ الضخم يقف وراءه ولد ينوس يمنة ويسرة، وهو قابض على ذراعي المنفاخ الضخمتين. ويتوهج الجمر في الفرن حتى تعشى منه الأعين. ويمد المعلم ملقطه فيخرج قطعة متشهبة من الحديد وهي تتشظى كالمذنّبات ويضعها على السندان، ويُكِبُّ عليها هو والراجي. هو بمطرقته الصغيرة والراجي بمطرقة ضخمة ثقيلة فلا تلبث قطعة الحديد حتى تتخلَّق فأساً أو محراثاً أو قدوماً أو سكيناً أو حدوة حصان...

من صغري أحب الموسيقى. إي حبيبة البابا كان لإيقاع مِطْرقتي الراجي ومعلمه وقعٌ في قلبي يشبه وقع الموسيقى الرفيعة. وقع الموسيقى يخلق، يصور أشياء تظل في الخيال، وأما وقع المطارق على السندان فتجعل الفكرة شيئاً ملموساً. شيئاً ينفع الناس.

الخلاصة أم الراجي، المرأة التي لو قالت لها أمي. أرمي نفسك في الجب تفعل، وابنها الراجي الأعجف القوي، الجفول الودود، لعبا دوراً حاسماً في مستقبلي.

لم أكن سيئاً في المدرسة. في العربية والفرنسية والدروس النظرية (تاريخ، أشياء، كما كنا نسمي التاريخ الطبيعي، الجغرافيا...) كنت لا بأس فيَّ. ولكني ضعيف في دروس الحساب. لم أكن ضعيفاً خلقة ولكن المرحوم حسن أفندي معلم الحساب الذي طاردني من الصف الثاني حتى الخامس هو الذي كرّهني به. كان إذا قال لنا: ٦ × ٨ ولم نقل له بعد ربع ثانية ٤٨ رفعنا فلقة بنت كلب تسلخ جلد القدمين سلخاً. كان يضربنا كأن له علينا ثاراً بائتاً. وأنا لا أحب أن يضرب أحد. إذا يضرُب شقي في القطب الجنوبي أحسست

أني أنا الذي أهنت. لعلي إنما ورثت ذلك عن أبي. هذا على الرغم من كل ما تعنكب في نفسه من إدلال بأمجاد أسرتنا (أية أمجاد؟!) وما فيه من خنزواته، كنت أفتتن به لأنه لم يضربني في عمره مرة واحدة. حتى حينما كدت أحرق البيت لم يزد على أن بقي يومين لا يكلمني. وحكاية ذلك أني كنت ماراً ذات يوم من قدام الفاخورة التي في حارتنا، فعنَّ على بالي أن أدخل فأتفرج على هذه العجيبة: كيف يستحيل التراب الأحمر الناعم الذي لا شكل له إلى شربات وأباريق وجرار ودربكات وخوابي للزيت وأطباق وطناجر؟ دخلت. كان الفاخوري جالسا خلف دولاية، يأخذ العجينة الطينية (دائماً العجينة؟ عند الراجي عجينة من حديد وهنا عجينة من طين!..) كتلة لا شكل لها حتى بعد أن جُبِلَ ترابها. ويلعِّب قدمه اليمنى في الإطار الأسفل ويدور الدولاب كله والكتلة الطينية، التي في المركز الأعلى، معه. ويظل يبشرها بقطعة من الخشب ويعجنها ويمطها حتى تستوي ابريقاً يضعه جانباً ويأخذ كتلة أخرى. وهكذا... وكان يعرف أبي فسألته:

- وبعد، ماذا تصنع حتى تصبح هذه الأواني قاسية صالحة للاستعمال؟

قـــال:

- نُفَوْخِرُها.

- ماذا يعني هذا؟

- نضعها في الفرن، نشويها.

ظللت بضعة أيام أهرب من المدرسة وأتابع عملية تحوّل التراب إلى أواني. فلما «ختمت» الكار، كما توهمت، جبلت جبلة طين وصنعت منها قلة. لم تكن متناظرة كما عند جارنا ولكنها تشبه أن تكون كذلك. ولما حاولت أن أفوخر تحفتي الفنية في حديقة الدار، التي ازدحمت بالنباتات الجافة وسوق الأرضي شوكي، كدت أحرق الحارة حتى سوق الخضرة.

كان ذلك فيَّ دَيْرَنا منذ طفولتي الأولى، وهو يشبه ما كنا نغرق فيه أنتما وأنا، عندما أشتري لكما معجوناً ونقعد نجبل منه كركدنا أو فيلا أو

حماراً يحمل سحارتين نقول إن فيهما أحسن خس واصل للتو من حمص. أيكون مردُّ افتتاني بالحدادة إلى ذلك الولوع القديم برؤية المادة تتخلق في شكل، في ذات؟

إذن لم تكن ستكما تحتاج إلى إذاعة بحث عني حينما كنت أتأخر في العودة إلى البيت، بعد المدرسة، أكثر مما ينبغي. كانت تعلم أنّي عند الراجي.

مرة، كان الراجي منعنساً، لا يستطيع رفع يده عن رجله، ومع ذلك جاء إلى الدكان، وانطرح على جلد خروف خَلَق مسودّ في أحد الأركان كأنه يعتذر. كان معه ما كنّا نسميه أيامئذ: «الدور المثلثل» يعني الملاريا. قلت له:

- أعطني مريولك أبو الراج.

قال وحاجباه شائلان من دهشته فوق عينيه المعفستين:

- لأيش؟

- أحل محلك.

على الرغم من مرضه أغرب في ضحك موهون تقطعه هجمات السعال. وانتقلت عدوى الضحك إلى المعلم، فأجير المنفاخ: «ابن أفندي ويعمل صانع حداد؟» ولكن الجِدَّ في سحنتي، التصميم الذي لم ينل منه ضَحِكُهم جعلهم يعطونني مطرقة الراجي ومريوله.. عملت ساعة أو أكثر، وأنا في نشوة تشيع في أوصالي سعادة لا توصف. لم أكن صناعاً. قد لا أضرب بمثل إيقاع الراجي واستجابته لحركات المعلم القيادية، ولكن مشي الحال.

المساء، لما عدت إلى البيت، كان جدكما في أسوء حالات عبوسه. لم يسلم علي. مضى إلى غرفته، مذ رآني، وهو يبرم وجهه عني. خفت. سألت أمي همساً:

- ما به؟

- أخبره واحد في القهوة أنه رآك تضع مريولاً من الجلد وتضرب بالمطرقة على السندان في دكان الراجي بن أم الراجي.

كنت أعلم أن غضبه لا يدوم طويلاً، فلم يدم خوفي طويلاً. لماذا الخوف، وأبي، وهو في مثل سني الآن، كان يشكو من مئة علة، ومات قبل أن يكمل الخامسة والخمسين؟ مات لست أدري لماذا. خيل إلي أن ما قتله هو اللا عمل. أنتما لما تعرفا بلدتنا الصغيرة التي في الشمال: أكبر مشوار فيها لا يستغرق أكثر من بضع دقائق مشي. فكيف لا يذبل هو المشتعل المتوقد، بعد أن ردّ إلى تلك الجلسات المديدة على كراسي القهوة؟

إذن يجب أن أكون عاملاً. عامل ؟ وبدا لي أن ليس مثلها كلمة ترن رنينا له كل هذا الزهو، كل هذا العنفوان، كل هذا الارتباط بما هو آت.

ذلك المطمح كان مستحيلاً على حياة جدكما. كيف يصبح ابن الموظف الشهير، واحد من أوائل الموظفين الذين أنجبتهم البلدة، حداداً؟... أكثر من هذا، حتى بعد موته كانت مستحيلة ممارسة الحدادة في البلد.

في السادسة عشرة وبضعة أشهر من العمر غدوت العائل الوحيد لأسرة ليس لي في صنعها يد، لأسرة تحمل اسما تنوء به الكتفان ولكنها في عوز يكسر الظهر، ذلك أن المرحوم أبي قد خلف لي أمه وأخته العانس علاوة على أمي وأختين أكبر مني وبيت سكن وربع حمام وقطعة كرم اضطررنا إلى بيعها حتى نُوفي ديونه.

وبعد أن تدبرت، استدانة، نفقات الأسرة لبضعة أسابيع تركت البلدة إلى حلب. نزلت عند ابن عم لي (ليس ابن عم لحا ولكنه ابن عم بعيد) الشيخ زين العابدين .كان هذا يومئذ تلميذاً في المدرسة الخسروية وهي عبارة عن جامع، أو زاوية ذات غرف تحف بصحنها، يسكنها تلامذة المدرسة، كان منظر بركتها في الليالي القمراء حالما، يأسر القلب، الصمت، وبصيص أضواء غرف الشيوخ الصغار.

في البداية، اشتغلت عامل مطبعة، ولكني لم ألبث أن وفقت إلى العمل في الحدادة الإفرنجية عند معلم أرمني. لم يكن «لهايك» أولاد فاتخذني هو والسيدة زوجه بمثابة ابن قلبهما. قد أنسى أشياء كثيرة مرت في حياتي، ولكني لا أنسى ثلاث الليرات الأولى، جمعيتي، التي قبّضني إياها معلمي.

تصورا كان قائمقام بلدتنا ذاته يقبض يومها أقل من مئة ليرة. أي عشرين عثمانية تقريباً. وأما أنا، ولم يكن مضى على بدايتي العمل أكثر من ثلاثة أسابيع، فقد كانت شهريتي بعثمانيتين وخمسي العثمانية الذهب.

قبل أي عمل، قفزت مثل العنزة إلى كراج الاعتماد على الله في باب الفرج، وأرسلت إلى جدتكما ليرتين ونصف الليرة مع الحاج عبد الحميد العبد، شريكنا في الكرم (في بلدنا لا يقبل الفلاح بأن يزرع قطعة أرض زيتونا لقاء مبلغ من المال مهما كبر. إنه لا يرضى أن يكون أجر أتعابه إلا أرضاً. لذلك كان كل واحد في البلد ملاكاً حتى ولو عشرين عود زيتون تأتيه بالمؤونة وبضعة أرطال زيت يتعيّش منها طوال السنة مادّاً لحافه على قدّ رجليه. يعني ليس في بلدنا اقطاع)... وأما نصف الليرة الباقي فقد وضعته في جيب بنطالي الصغير، وذهبت إلى الخسروية. دعوت ابن عمي الشيخ زين العابدين إلى مطعم بشير طباجة مواجه مدرسة السلطاني حيث أكل كل واحد منا صمونة مبجحة من الخبز مع العجة الحلبية المشهورة التي لا يوجد لها نظير حتى في السقطية (لكل قرصين بيضة كاملة) ناهيكما بالبصل والفليفلة الناعمة والمخلل. كل ذلك كلفني قرشين مبخوشين فقط لا غير!

هذه الوليمة الملوكية لم أكافأ عليها من الشيخ زين العابدين إلا بالشتائم والكلمات، لأني تجرأت واقترحت عليه أن نذهب إلى السينما، إلى فيلم لعلي الكسار. قال إني عار الأسرة وخجلها، وأن عملي في الحدادة الإفرنجية، جعلني خاسراً مأواه السينمات... كنت قادراً على أن أرد عليه فأقول له أنه كان محللاً. عندما تكبران ستتعلمان ماذا تعني هذه الكلمة «محلل» أساساً مهنة التحليل انقرضت الآن، بعد صدور قانون الأحوال الشخصية، لأن الطلاق بموجبه عاد لا قيمة له إذا لم يكن في المحكمة الشرعية. وأما قبل صدور هذا القانون فقد كان الرجل إذا قال وهو يلعب دق طاولة زهر: «زوجي طالق ثلاثاً» حرمت عليه أو تتزوج واحداً غيره ولو ليلة واحدة. هذا الـــ «الواحد غيره» اسمه محلل.

وصادف أن أسرة مشهود لها بالفتوة والتهريب بين تركيا وسورية ولبنان. كان من بين أفرادها ولد سكير خمير مقامر، فاسد بكل معنى الكلمة ولكنه متزوج من ابنة عم له كما تقضي تقاليد الأسرة حتى لا تتسرب ثروتها إلى برة. هذا الولد أفلت منه يمين طلاق ثلاث بينما كان في إحدى الخمارات، فجاءت الأسرة بزين العابدين محللاً، بعد أن توسَّموا فيه «الجدبنة» والرضى ببضع مجيديات فضية. واشترطوا عليه أن يطلق صبيحة العرس «التحليلي» مباشرة... قبل حلول الموعد، توسلت امرأة السكير الصبية إلى زين العابدين أن لا يطلقها. يظهر أن المفاضلة بين الزوج العابر وابن العم المتفسخ كانت لمصلحة شيخنا الصغير، الذي لقي سؤال العروس الصغيرة هو في نفسه. فلما جاء شباب الأسرة طالبين الوفاء بشرط الطلاق الفوري، جعل زين العابدين يتحنكل ويتمنكل ويؤجل... صبروا عليه ثلاثة أيام. في اليوم الرابع جاؤه ووراء ظهورهم وسائل إقناع ليس لها دفع: خيرزانات رفيعة باترة كعصب الثور. وقال له قائلهم: «أتريد أن تطلق أم ماذا؟ «فبدأ يقول»: ما، كا، البنت نفسها لها فكر فيّ. شرع الله...» لم يدعوه يكمل: انتثرت الخيزرانات من خلف الظهور ونزلوا فيه هنا يوجعك هنا لا يوجعك ولكنه سيوجعك حتى هرؤوه، وصاح من عزة الروح: «امرأتي طالق!».

امرأة «هايك» هي أيضاً كانت لي بمثابة أم، امرأة لطيفة، عذبة، انصب ما في روحها من أمومة على زوجها، وعليَّ من بعده. كثيراً ما نكون في المحل، العرق يزخنا وراء المخرطة أو نحن نلحم بالأوكسجين فتأتينا ومعها سفرطاس (في حلب يسمونه المطبقية) فيه تلك الأكلات الأرمنية اللذيذة الحارة. تأمرنا أن نتوقف عن كل عمل، وتجلسنا إلى المائدة السحارة فنروح نأكل، يا هالك يا مالك يا قباض الأرواح، كأننا سباع مجوعة، ونحن نضحك من قلوبنا وقد ذهب عنا العناء.

كانت تسميتي الفيلسوف، لأنها حينما كانت تكلفني، أيام الآحاد التي نقضيها دائماً عندهم، إحضار طبق من النملية، أذهب وأغط. تستعوقني فتهرع إلى المطبخ في طلبي وإذا هي تراني واقفاً على رؤوس أصابع قدميّ أقرأ الصحف العتيقة التي كانت تفرشها على الرفوف.

عند هذه الأسرة الطيبة تعرفت بأمّكما. لا بد أنها سوف تقول لكما أني أنا الذي فاتحتها متهافتاً عليها أول من فاتح. صدقاها. هذا صحيح. ولكنها هي أيضاً لم تقصر. لا تنظرا إلي الآن، إلى شعري الذي وخطه الشيب والغضون التي بدأت تظهر في زاويتي عيني وعنقي. في تلك السن كنت فتى أملأ العين، مثل طربون الحبق!

أمكما الشامية، كانت المنعطف الحاسم الثاني في حياتي بعد قراري هجر البلدة والعمل في الحدادة. أنا متأكد، يا حبيبتي. أنكما ستطلعان لأمكما على رأي المثل الشعبي: «طب الجرة على تمها البنت تطلع لأمها».

وهكذا بعنا بيتنا في البلدة واشترينا هذا البيت هنا في القصاع واستأجرت محلي في شارع حلب. لقد شق على معلمي، وزوجه، تركي العمل عنده. كان يود أن يجعلني شريكه، ولكني لم أشأ تغريب أمكما وقطعها عن منبت طفولتها. أضيفا إلى ذلك أن المجال في الشام أوسع، وأنا، في جبلتي إنسان أحب الاستقلال. كل ما مر بي في حياتي بعد معرفتي أمكما ما كنت لأستطيع تحمله لولاها. فحملت أنا شطره الأخفّ، وتحملت هي العبء الأكبر، لم تسئ قط إلى جدتكما. ضيوفنا الكُثر، كانت تستقبلهم متهللة الوجه، مؤهلة مسهلة، حتى ولو اضطرت إلى السكنى في المطبخ يومها كله وبعض ليلها. ولعلكما تفهمان لماذا انتقيت الغرفة الأوسع، الغرفة المشمسة من البيت واتخذتها مطبخاً.

النظافة، الحفاوة بالضيوف، نكران الذات المطلق، الصبر على العسر واليسر.. وكل أؤلئك نقائب لا تذكر أمام وقفتها النادرة في مصيبتنا ببشار:

ما إن انتقلنا إلى الشام حتى جاءنا بشار. أنتما يا حبيبتي ريحانتا قلبي، ولا أجد أجمل منكما. ولكن أخاكما كان شيئاً آخر. عندنا في البلد يقولون عن الولد الخرق، عندما يموت، أنه ابن الموت. لعل الملاريا المستوطنة وتضخم الطحال وذات الجنب والجدري هي التي أوحت مثل هذا المثل وجعلته يذيع. ولكن حادثة بشار حملتني على تذكره: ولد مثل فرحة القلب، مشى منذ الشهر الحادي عشر، وقرزم بأولى الكلمات. كان يقلبها، يُصَحّفها، كأن يقولها: «ثد حألك بابا» (سدّ حلقك)، «شوف بال» (شف البحر). «أنا بدي لوح مدثة» (أنا

بدي أروح إلى المدرسة). ابن سنة ونصف بدأ يهتم للموسيقى ويصيح بنا عندما يبث الراديو قطعة موسيقية جميلة: «اثكتوا»!.

جدته كانت تشمه شماً فقط، وتمنعنا من تقبيله. تقول إن نفس الكبير سم على الصغير. وتقول: هذا ملاك البيت. وأنا اسميه رجل البيت الصغير.

يوم الجمعة نقضيه، هو وأنا، في التسكع في حارات الشام القديمة. انتبهت منذ خطواته الأولى إلى أن لديه تسطحاً في القدمين. أخذته إلى محل مختص فوصفوا لي أحذية طبية. ومع ذلك كان يمشي مثلما تفعل البطة. كنا صديقين. مرة مرت بنا فتاة حلوة فاستقبلتها بنظرة طويلة وودعتها بنظرة أطول كانت تستهدف تأمل الاستدارات الجميلة في قوامها الفتي. الشيطانة الصغيرة كانت تمشي وكأنها ترقص... لا، ذلك اليوم يجب أن لا أستعجل في رواية حوادثه الصغيرة الظريفة لأني أذكر، ما أزال، كوني، العشية في قهوة القصاع، قلت لرفاق القهوة.

- ما أحلى أن نتصور، نحن الكهول، هذا العالم منظوراً إليه بعيني طفل مثل ابني بشار.

قالوا:

- كيف؟

- ها كم مثلاً ما حدث لابني ولي طوال هذا اليوم مرويا على لسانه لو أنه كان قادراً على الافصاح.

ضحكوا. قالوا:

- هات نرى واحدة من بدواتك.

قلت بلسان ابني:

- نزلت تيتي نظارتيها كثيراً حتى كادتا تقعان عن أنفها، ونظرت إلى بابا وسألته:

- أذن العصر يا ماما؟

قال بابا:

- أي نعم أذن، الآن.

نهضت تيتي عن القاطع ووضعت تطريزها على ظهر الراديو، الراديو فوق خزانة صغيرة. تيتي كلما تركت شغلها تحطه هناك حتى لا أصل اليه أنا وأخربه لها. قالت:

- أقوم اتوضأ.

وسألها بابا:

- كيف بشار اليوم يا أمي؟ آدمي؟ عذبك؟

نظرت تيتي ناحيتي من طرف عينيها وقالت وهي تمط الكلام وتنفخ:

- آدمي.. جداً.

قال بابا:

- صحيح؟

اقتربت من تيتي وأمسكت يدها، قلت لها:

- أنا أحبك قد عيني الاثنتين يا تيتي.

فضمت أصابعها في شعري كأنها مشط وقالت لبابا وهي تبتسم:

- صحيح؟

قال بابا:

- مرحى. تعال معي إذن. أنا الآدمي عندي يكافأ. سنآخذك في نزهة.

صحت منشداً وأنا أصفق:

- أنا مع بابا، أنا مع بابا.

وأخذت بابا من يده وقلت له:

- وتشتري لي بوظة؟

- أشتري.

- كاسة.

- حاضر.

- ومصاصة مع نعنع.

- وتضرب لي ميمو. كلب أم طوني. أنا أخاف منه.

- أضربه.

- بابا.

- نعم؟

- فيه أكبر منك في الدنيا؟

- أي، فيه.

- من؟

- الجمل.

- ولكنك تغلبه، ألا تغلبه؟

- اغلبه بالحيلة. وأغلب الفيل والقطة والأحزان أيضاً. تعال نتنزه الآن.

شف: الشمس ظريفة اليوم، والهواء لطيف مثل عنقك. فكري أن أروح أنا وأنت نتنزه في جادة ما فيها سيارات كثيرة. أنا لا أحب رائحة المازوت يا أبني بشار.

- بابا.

- نعم؟

- المازوت ظريف.

- لا، أين ظرافته؟

- نشعل به الحمام.

- تعال، تعال.

وخرجنا. مشينا في الشارع مبسوطين بابا وأنا. بابا يعطيني إصبعه وأنا أمسكها ونمشي. أحياناً يمد إصبعه إلى تحت كمي فأتكركر ونضحك. هكذا نفعل كلما رحنا في مشوار.

وقف بابا قدام جنينة جارتنا أم فؤاد، قطف ياسمينات شكل واحدة في عروة سترته وأعطاني الباقي. صرت أشمها: طيبة. سألته:

- بابا.

- نعم؟

- الغيم بعيد؟

- بعيد.

- الغيم لمن؟

- ما هو لأحد.

- من عمله؟

- الله.

- أين الله؟

- في كل مكان

- يحب الشوكولا؟

- هو صنعها؟ الله صنع كل شيء.

- يعذب أمه؟

- ما له أم.

انتبهت إلى أن بابا لا يجاوبني حالاً. كان ينظر عن يمين، عن شمال، يلتفت إلى الوراء. بابا لا يلتفت إلى الوراء دائماً. سألته:

- بابا.

- نعم؟

- ليش إذا مرت واحدة مثل تيتي تلتفت أنت إلى الوراء.

قال بابا:

- أنا لا ألتفت، أنا أحك رأسي.

- أنت تلتفت بابا.

قال بصوت واطئ:

- طيب، ولكن لا تقل لماما.

- أنا لا أقول، ولكن اشتر لي دراجة.

- اشتري.

- لها جرس.

- حاضر.

عند المستشفى رأينا ريمة. هذه جارتنا هي أكبر مني، ولكننا نلعب في جنينة بيتهم. أخوها عنده دراجة بثلاثة دواليب ولها جرس.

ذهبنا أيضاً إلى الملعب. رأينا عشرة، خمسة رجال يلعبون بالطابة العشية رجعنا إلى البيت. قالت ماما:

- انبسطت يا بشورة؟

قلت:

- انبسطنا. وبابا ما التفت إلى الوراء وقت مرت المرأة.

ويضحكون، رفاق القهوة، حتى تدمع أعينهم؟

لما دنا بشار من الثالثة أصيب بالحميرة، ركضنا أمه وأنا إلى طبيبنا في الحي، الدكتور قاضي، لم يحتج حتى إلى فحصه. طمأننا، وأفهمنا أن هذا المرض يحدث لكل الأطفال وأن له حدا وكل ما يعطي الطفل من أدوية ما هو إلا من قبيل تطمين الأهل. أما سته فاقترحت علينا أن تلبسه ثياباً حمراء من الطاقية إلى الخفين.

وتماثل من الحميرة وعاد، مثلما كان، فرحة البيت. ولكننا لم نلبث أن لاحظنا مدهوشين أن صوته صار أجش قليلاً. عدنا إلى الطبيب. تعجب، طلب فحص دم. النتيجة؟ ازدياد في كريات الدم البيضاء. أي، يعني؟ أن في الدم جرثومة دواؤها غير موجود في الشام ولا تجدونه إلا في بيروت.

صدر هذا الحكم حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً. قمنا رحنا إلى بيروت فوراً، الساعة الثانية عشرة في سيارة خاصة من المرجة.

وصفوا لنا مستشفى في جل الديب. طبيب المستشفى المختص طلب فحصاً أولياً. عملناه. درسه. طلب فحوصاً أخرى. درسها. قال: ان المسألة بسيطة ولكن يجب أن تؤخذ له خزعة.

كان الولد يمشي معنا مثل الغنمة، ولكن حركاته لم تكن تخلو من طيف دهشة، كأنما عيناه تتساءلان: «ما لهما، هذين!» لانه هو، لم يكن يشكو شيئاً. لم يكن فيه غير هذا الصوت غير الطبيعي، وأحياناً كان يرعف.

بقينا عشرة أيام في بيروت صرفنا خلالها أكثر من أربعة آلاف ليرة بعملة ذلك الزمان، لنتلقى هذا الحكم الجديد: أخذني الطبيب على جنب وقال لي: «ارجع به إلى بلده. هذا الوليد لا يعيش أكثر من جمعتين!» رفعت عيني إليه. كان شابا ما يزال، ولا يبدو عليه أي عارض من عوارض الخرف، وإن كان كلامه كلام خرفين. ما أسهل أن يقال لواحد مثلي: «ألق سلاحك. استسلم!» ولكن مثلي، ممن يلين الحديد بين أيديهم لا يستسلمون هكذا، في بساطة. لن أسلم حتى ولو بعت ما تحتي وما فوقي. العمى، أنا الحديد اتركه ينخ، فهل يعقل أن أدع ابني، وحيدي، يخطف من بين يدي وعيناي مفتوحتان. هكذا قلت في نفسي. ولكني مع ذلك فكرت: لو كان الأمر عارضاً أما كان من مصلحته أن يطيل العلاج لكي يربح أكثر. كان طبيعياً أن القرش وعشرة الآلاف سواء في عيني.

عدنا بالولد، وبدأ طوافنا اللاهث على الأطباء. من واحد إلى واحد. ينصحوننا بطبيب، يقولون أنه متخرج حديثاً من البلاد الأجنبية. بعد خمس، ست دقائق، مشوار في السيارة، نكون طببنا فوق رأسه. لم نترك مختبر تحليل إلا دخلناه وتصبرنا في غرف انتظاره. صرنا، للمرة الأولى في حياتنا، نسمع بابيضاض الدم واللوكيميا وبزل الطحال والدورة اللمفاوية... آخر الأمر قالوا لنا أن هذه العلة ليس لها إلا تغيير الدم. طيب نغيّره، صرنا، كل عشرة أيام نشتري ربع كيلو دم. حصل فرق: ما أن تغير له الدم حتى يصبح مثل الوردة المكبسة في الصباح إذا كللها الندى. فإذا مر خمسة عشر يوماً دون تغيير دم خفتت حركته وانهد حيله وذبل.

على كل حال، نبوءة دكتور بيروت التي لم تتحقق ولدت فينا أملاً متجدداً تشبثنا به بأيدينا وأرجلنا. وسمعنا، تلك الأثناء بالدكتور عماد. قالوا لنا أنه آت للتو من أمريكا وهو يحمل أعلى الشهادات. ركضنا إليه. قال إنهم

هنالك اكتشفوا إبراً اسمها أنكوفين توقف المرض أو تشفيه. عدت لا أذكر ما قاله. ركضنا. لم نجدها في صيدليات الشام كلها. قمنا نزلنا إلى بيروت. أعطيناه إبرة من الإبرتين اللتين أحضرناهما. تحسن. قوي أملنا. ولكن جرت حادثة جعلتنا نكف عن الدم ونكتفي بالإبر: واحد من الحارة قال لنا أن معه قنينة دم طازج جاء بها من بيروت مهربة. قال إنها لقطة. ربع الكيلو بمئتي ليرة سورية. قال إنه هو الذي سيتولى العملية. لم يكن يبدأ حتى تغير شكل الولد حتى كدت أنكر أنه ابني. صرخت به:

- ما هذا؟

وإذا هو يكب القنينة كلها وهو يغمغم:

- يظهر، يظهر أنهم لعبوا علي؟

تلك كانت واحدة من كثير. سنة ونحن لا نهدأ. صرنا، أمكما وأنا، خيالات، كنا نتمسك بحبال الحرمط كما يقولون عندنا في البلدة. من الجملة، وصفوا لنا الصبر، عفواً دلونا على شيخ. قالوا إن فاله لا يخيب. أخذنا الولد وذهبنا إليه. نظر في وجهه ثم التفت إلي وقال لي لائماً:

- الله يسامحك يا ابني. هذا الولد تخرجونه من البيت؟ يا ابني هذا آكل نضرة قوية، وحالته صعبة جداً. على كل حال اترك لي قميصه حتى أقرأ لك نجمه.

تركنا له قميصيه الداخلي والخارجي لزيادة الفائدة. وظللنا حتى اليوم التالي نتقلب على جمر. مع أذان الفجر، اليوم التالي، كنت عند الشيخ لأخذ النتيجة، نتيجة قراءة نجم وحيدي، نجمي، فرأيته أكثر دهشة لما تركته. قال:

- شف يا ابني أنا أقرأ النجوم منذ أكثر من أربعين سنة، ولكني لم أجد مثل نجم ابنك. أخف نجم في العالم. وقد فرط الفارط الآن. كان عليكم أن لا تخرجوه من البيت قبل أن يبلغ الثانية عشرة من عمره.

وصمت طويلاً ثم عاد يقول:

- نضرة قوية أكلها المسكين، قوية!

نصحونا أيضاً بإدخاله مستشفى حكومياً. دبرنا محلاً بالمصريات. كل ليلة ثلاثون ليرة. اشترينا أيضاً كمية من الدم ووضعناها في البراد أول يوم

جاءت رئيسة الممرضات. غزّت الإبرة في ذراع الولد وقالت تسأل الممرضة التي معها:

- فاتت في العرق دخلك؟

قلت لها غصباً عني:

- رئيسة ممرضات أنت ولا تعلمين إذا كانت فاتت في العرق أو لا؟

وقف شعر رأسي. تركنا المصريات وأخذنا الولد وانصرفنا. كنا اثنين في مواجهة الدنيا، المرض، النجوم، المجهول، المجهر، التحليل، رئيسة الممرضات التي تجهل العرق من الجلد...

لا، لم ينحف. قالوا لأننا كنا لا نقطع عنه الكورتيزون. صرنا نعرف، لزيادة النكاية، أن الكورتيزون يسمن. ما هو هذا الكورتيزون أأنا أدري؟ قد أدري عندما أعلم لماذا وقع اختيار المرض على طفلي الوحيد، على كنزي، من دون كل حيوانات الدنيا!

آخر الأمر، نصحنا طبيبنا القديم الدكتور قاضي قال:

- خذه إلى المستشفى هنا في الحارة. خله يموت هناك. إذا مات في البيت فقعت أمه. أخذناه.

كان ذلك آخر مستشفى.

احتضر برعم الياسمين. مات على غصنه.

لا أحب أن أروي التفاصيل: كيف غطيته بالشرشف، وذهبت إلى البيت. سألتني:

- كيف حاله.

قلت:

- مليح.

مليح! وبدأت أنعي إليها الخبر تدريجياً، كيف حملته من المستشفى إلى البيت على ذراعي. كان ثقيلاً. سألتني:

- أأنت حملته؟

لم تبك أمامي قط. هي التي علمتني أن الحياة أقوى. لست أعلم لماذا كانت إجابتي عن سؤالها: «أأنت حملته» قولتي: «نعم» ماء يصب على نار. نعم، هي التي علمتني أن لا أنكسر إذا هاجمتني الأعاصير، لم نمنع أنفسنا حتى من تذكره كأنه إنما كان في رحلة مدرسة إلى الغوطة. أكثر من هذا، كلما جاء لي صديق يفتح لي قلبه في مصيبة حلّت به حكيت له مسيرة الآلام التي مررنا بها. لا أنسى «تفصيلاً، لا أنسى حتى كيف كان يمد يده الصغيرة الطرية ليصافح طبيباً لم يره منذ أكثر من ستة أشهر ولكنه يظل يتذكره. كنا في حاجة إلى عنفواننا كله حتى نجعل الاستمرار ممكناً.

أما أنا فقد عثرت على العزاء. أضحيت لا أعالج الحديد وحسب. كنت أقاتله، أصرخ فيه: تخلّقْ! كنت، في بعض الأحيان، أقوم بأشغال ليست إلى الحدادة في شيء، كأن أعزل مدخنة أو أبلط مطبخاً اضطررت إلى نكت بلاطه لإصلاح تمديداته الصحية. وسواء أبخسني الزبائن حقي أم أعطوني ما أستحق أو فوق ما أستحق لم أكن افتح فمي ولعل هذا يفسِّر كون الحي كلّه، إذا كنت ملتزماً بتمديدات تدفئة مركزية مثلاً في حارة غير حارتنا، وتعطل عندهم شيء فإنهم يتركونه على عيبه حتى أتحرر من التزامي وأعود إلى المحل فأجد رسائلهم: «مر علينا يا أبا بشار. موقدة الحمام معطلة» أو: «الفواشة التي تزرب في انتظارك»!

مرة كنت في المحل قرب الظهر، وإذا صراخ استغاثة يأتي من الطابق الثالث، البناية المجاورة. كانت المستغيثة، عرفتها من صوتها، امرأة جار يعزني كثيراً. لا يذهب إلى عمله صباح كل يوم إلا إذا جالسني ولو ربع ساعة، وشرب معي كأس شاي. وَثَبت إلى مصدر الاستغاثة. صرت أقفز الدرج أربعاً أربعاً. من وهلتي: حريق! المرأة تولول فيها النار وكبل الكهرباء مشتعل يدنو من اسطوانة الغاز.. بادرت إلى الكبل فقطعته، وركضت إلى غرفة النوم فأخذت بطانية لففت بها المرأة حتى كربتها بها تماماً. أصبت بحروق في ذراعي اضطرت معها إلى مراجعة المستشفى يومياً مدة شهر. ولكني أنقذت المرأة. أنقذت البناية. المرأة لم تصب حتى بحروق بسيطة.

ما أدهشني هو أن صديقي، زوج المرأة، صار بعد تلك الواقعة لا يسلّم علي مجرد سلام، حتى ولو وقعت عينه في عيني. قال لي أهل الحارة أنه زعل لأني أنقذت له امرأته ولكني أظن أنهم كانوا يمزحون.

أي نعم يا ستي الستات، العمل هو الذي أنقذني وأمكما. ولذلك ترياني غير قادر على القعود دونما عمل. يجب أن أصنع شيئاً كل ساعة من ساعات النهار أو الليل: قراءة، حدادة، حديث و سماع موسيقى. وأذكر أن أحد زبائني المثقفين قال لي مرة وهو يضحك:

- أنت حداد ناجح فمالك وللقراءة والموسيقى..

قلت له:

- لو لم أكن أهتم لذلك أكنت أستطيع الإفادة من حديثك الثمين؟

فهم وضحك محرجاً. قال:

- أنا كنت أمزح معك يا أبا البشر.

خلصت قصتي يا حبيبتي. لا ريب في أنكما فهمتما المغزى: الحياة يجب أن تُحيا بكل قوى الإنسان. لا يأس مع العمل. العمل هو الأمل وهو الزهو وهو العزاء.

* * *

تاريخ ما أهمله التاريخ
من حياة المؤرخ هيروط

في إحدى دول النفط تصدر جريدة يومية اسمها «السلطنة» يقوم على إدارتها وتحريرها صحفيون مصريون مخضرمون، تربوا على الأكل من خبز السلطان والضرب بسيفه. هؤلاء لا يرون في السلطان عوجاً، ولا أمتا لأنه مُبرأ عن العيب منزه عن الذم، أو كما قال المؤرخ العربي السوري الكبير محمد ناظم الماشي فيه، في كتابه الذي يحمل عنوان «أزهار السلطنة»:

«فالسلطان في وفائه أكبر من الدنيا كلها!» وقد وقع لي أن عملت في السلطنة النفطية التي تصدر فيها هذه الجريدة، وأدمنت قراءتها طوال عشرة أشهر أي قبل أن أنذر بمغادرة السلطنة، خلال أربع وعشرين ساعة، فازددت يقيناً على يقين من أن الواقع أغرب من أي خيال حتى ولو كان خيال ويلز أو ديفو أو جول فيرن أو حتى ألف ليلة وليلة. وأذكر أني أحصيت ذات يوم في عدد من أعداد «السلطنة» اسم السلطان مشفوعاً بألقاب وصفات ومدائح لا تضفى إلا على آلهة، وقد تكرر الاسم تسعاً وثمانين مرة!

هذه الجريدة نشرت على صفحتها الخامسة، في عددها الصادر يوم ١٣ مايس ٤٧٩١ تحقيقاً ملأ ستة أعمدة يحمل العناوين التالية على ثمانية أعمدة، بالخطين النسخي والفارسي.

«السلطان أقام معجزة على الرمال وستكون حديث الأجيال القادمة».

«السلطان قال لي: من لا يطلب الحرية فهو أبتر..!»

«المؤرخ السوري يقول: صارعت الانتداب الفرنسي في سورية وخضت غمار السياسة تحت تأثير ثورة عاطفية، وذقت السجون والمعتقلات إيماناً بالوطن والعروبة والإسلام».

وقدم الصحفي الذي أجرى الحديث مع المؤرخ السوري لحديثه بمقدمة كتبت بالخط العريض، بالأسود هذا نصها:

يزور السلطنة حالياً المؤرخ العربي السوري الأستاذ محمد ناظم الماشي. وللمؤرخ السوري مواقف بطولية رائعة. وعندما كان عمره ٤١ عاماً اشترك لأول مرة في محاربة الاستعمار الفرنسي على سورية. وكان ذلك في عام ٩١٩١. واشترك في حرب فلسطين أيام الانتداب. له كثير من المؤلفات التاريخية والأدبية وآخر أعماله كتاب «أزهار السلطنة والسلطان حميد بن فانوس» وأصدر مجلة «الذخائر الإسلامية» وكانت تصدر باللغات الألمانية والفرنسية والانجليزية في عام ٤٥٩١ حتى عام ٧٦٩١. وكان لهذه الصحيفة - أي السلطنة - لقاء مع المؤرخ العربي الكبير، وعلى مدى ساعتين كاملتين، تحدث محمد ناظم الماشي عن السنين الطويلة التي قضاها في كتابة تاريخ العرب، وعن تجاربه خلال هذه المدة».

ويستمر التحقيق على النحو المفيد التالي:

«قلت للمؤرخ السوري: ما هي انطباعاتكم عن السلطنة خلال الفترة القصيرة التي قضيتموها بين ربوعها؟»

قال المؤرخ الكبير: «لأول مرة أزور السلطنة وأرى عن قرب هذا الشعب العربي الأصيل ومشاعره الطيبة. إن أجمل ما في هذا البلد ليس اللؤلؤ والبترول والعمران فحسب، وإنما العراقة والعروبة والإسلام وحب الضيف».

«أمنيتي في رحلتي كمن يبحث عن كنز وكمن يود أن يخترق حاجز الغيب. وكان لي شرف الاستماع إلى صاحب العظمة السلطان حميد آل فانوس سلطان السلطنة. وهذا هو الكنز الذي كنت أبتغيه».

اللقاء مع عظمة السلطان:

ويواصل الأستاذ محمد ناظم الماشي حديثه ويقول: اغتنمت فرصة وجودي عند عظمة السلطان، وأجريت معه حواراً على النحو التالي:

س: عظمة السلطان، كيف استطعتم بناء الحضارة والازدهار في بلدكم وجعلتم من الرمال معجزة؟

ج: لقد أعاننا الله وبفضله تعالى على عملنا. ومازلنا نعمل على عزة الأمة وإسعادها بحول الله وقدرته.

س: ما هي التطورات المرتقبة في مستقبل السلطنة؟

ج: نحن من واجبنا خدمة السلطنة وتقدمها حتى تصل إلى المستوى الذي يليق بأمة عصرية تريد الحياة الحرة الكريمة.

ويضيف المؤرخ العربي. سألت عظمة السلطان: هل تعقدون العزم على إيجاد حياة نيابية ومجلس للشعب؟ أجاب عظمته: نحن جادون وجادون جداً. ويتم ذلك في أقرب وقت بإذن الله.

س: هل يا صاحب العظمة يطبق عندكم حكم الشورى المتكافئ.

ج: بدون شك. إن حكم الشورى هو من عند الله. ومن لم يطع فهو خاسر.

س: إن الحرية هي الحجر الأساسي لبناء كيان الشعوب. فهل منحتم عظمتكم الحرية للشعب وهو التعبير عن إرادته ومراده؟

أجاب عظمته حميد بن فانوس: إن كل فرد من أبناء هذا الشعب حر. فإذا لم يكن حراً فهو أبتر. وكل من لا يطالب بالحرية فهو مقصر في أداء واجبه الوطني.

ويقول المؤرخ العربي السوري: انبسطت جداً وفي نهاية لقائي بصاحب العظمة حميد آل فانوس. قلت لعظمته: إن التاريخ سيظل يتحدث عبر الأجيال عن عدلكم، وإنصافكم وعن نجدتكم ونخوتكم العربية.

أجاب عظمته: هذا بعض ما عندنا بإذن الله.

ثم أن عظمته أمر بإكرامي وأخذ يقدم لي النصائح القيمة التي سأضعها في أذني مثل الحلق. قال أطال الله عمره: يا ماشي أوصيك بحفظ الشرائع الملوكية وهي أن تحب الله تعالى وتحفظ شرائعه ووصاياه ما دمت على قيد الحياة. ولا تكن لجوجاً في الكلام ولا مدمناً تشرب المدام بل حافظاً زمام

الاحتشام متخلقاً بأخلاق الكرام، مع الخاص والعام، متجنباً كلام الهزو والهذيان، واقياً نفسك من عثار اللسان، لأن صدور الأحرار قبورها، فمن صان سره ملك أمره، ومن باح لم ينجح وزاد ندمه. واحذر يا ماشي من النساء الشريرات فإن مكرهن عظيم، وهن أصل الأذى والضرر وسلاح إبليس عدد البشر، يتظاهرن بين الرجال بالحشمة والكمال، وهن من أغدر الحيات، ومن أعظم المصائب والبليات، وبالجملة فإنهن مفاتيح الشرور، لأنه ليس لهن عهد ولا أمان.

قلت لعظمته: أنا طوع يديك، وجميع الأمور راجعة إليك، فشنف أذني بأقوالك اللطيفة فإني لأمرك سامع ولحكمك جامع. فقال لي السلطان حميد: إذا عدت إلى النيابة عن البلاد وصار لك الحكم على رقاب العباد فإياك أن تغفل عن أحوال الرعية وتخالف القواعد السلطانية واحكم بالعدل، لأنه الأصل.

ونصحني عظمته نصائح قيمة أخرى وعيتها وسجلتها وسأنشرها في الجزء الثاني من كتاب «أزهار السلطنة» بإذن الله.

شعلة الإلهام:

ويواصل الأستاذ محمد ناظم الماشي حديثه للسلطنة فيقول:

حقاً إن عظمة حميد بن فانوس شعلة من الإلهام، بل غاية من الذكاء. أمد الله في عمره ذخراً للعرب والمؤمنين.

ونحن كسوريين لا بد لنا من أن نبعث تحية كريمة مخلصة لعظمة فانوس، المثل الأعلى للإباء والشمم الذي طيب مشاعر أبطالنا وطاقة صبرهم في ميدان القتال والحمى، الذين يعملون في سبيل الله والحصول على حقوقنا المشروعة وتحقيق الغاية التي بذلنا الدماء من أجلها وخضنا غمرات الكفاح المريرة.

أزهار السلطنة:

طلبت من الأستاذ ناظم الماشي أن يعطينا فكرة عن كتابة «أزهار السلطنة والسلطان حميد بن فانوس». قال: لقد رأيت من واجبي قبل زيارتي

السلطنة بوصفي كأديب ومؤرخ أن أؤلف كتاباً ومقدمة لمجموعة شاملة في المستقبل تشير إلى تطور هذه المدينة السريع، وإلى تلك المعجزة التي وجدت على الرمال بجهود حاكم البلاد، عظمة السلطان حميد وفي مقدمة هذا الكتاب وضعت صورة تاريخية عن مآثر عظمة السلطان حميد وآل فانوس في طور التاريخ والحقب الخالية.

قلت للأستاذ الماشي: ما هي توقعاتكم بالنسبة للوحدة العربية من خلال دراساتك وأبحاثك؟ وما هو الخط الذي يحكم تاريخ الأمة العربية في الوقت الحاضر؟

أجاب: مما لا ريب فيه أننا في طور دولي جديد ليس في عالمنا العربي فحسب وإنما في تاريخ البشرية جمعاء. إن الأمة التي تنشد لأبنائها ولأجيالها الحياة والخلود يتحتم عليها أن تعمل جادة للمساهمة بنصيبها في تكوين المجتمع وتطويره. فلنكن نحن العرب عاملين متعاونين مستلهمين من تاريخنا. والطريق إلى بلوغ أهدافنا نحن العرب حق، لقد أسهم الدين الإسلامي في بناء الأمة العربية، وكنا نرزح تحت تخلف العصور. كل منا يتمنى وحدة العرب وتضافرهم وتآخيهم وقيامهم بالواجبات والوحدات التي قامت في الماضي بين بعض الدول العربية فيما بينها كانت تجارب فاشلة قضت بما آلت (كذا) إليه من خيبة ومرارة. إن كل وحدة لا تقوم على أساس الدراسة والإخلاص والموضوعية والتكافؤ مصيرها دون ريب الإخفاق. واليوم نحن بأشد الحاجة إلى الوحدة الكاملة. إننا في عصر نتعرض فيها إلى تيارات وهزات تتجاذبنا لمصالح واتجاهات دولية مختلفة. وعلينا في هذا الحال أن نتحصن بالعلم والمعرفة، وأن لا نكون مطية لأحد والوقوف صفاً واحداً لمواجهة الأخطار والأمور الهامة التي تنتابنا ولقد كفانا نحن العرب من التأويل والأراجيف.

نضال سورية في الفترة الحاضرة:

قلت للمؤرخ السوري الذي عاصر فترة طويلة من نضال سورية: كيف تعتقد أن يقيم المؤرخون الفترة الحاضرة من نضال سورية؟ أجاب: لا شك أن

المؤرخين أصناف. مؤرخ من واجبه أن يرى الشعب كيف يجب أن يكون، وآخر يرى الشعب كيف يمكن أن يكون، وكلاهما مجد في أفكاره وأهدافه. وأما أنا كمؤرخ أترفع عن الأغراض والأملاك (كذا) وأبتعد عن الزلفة (كذا) وأكتب حيث أشاهد وألمس وأسمع الحقيقة. الكتّاب عندنا في سورية كثر. لا شك يستهدفون مستقبل بلادنا ومستقبل العرب. ويركزون بصورة خاصة في كتاباتهم ونظرياتهم للخلاص من الأخطبوط الصهيوني الجاثم على صدورنا. نعم، نحن بإذن الله سنكتب الحقائق، ولا نخاف مجريات الأمور التي مرت عبر التاريخ على الأمة العربية ونرجو من الله التوفيق. لقد قلت إن الكتّاب أنواع منهم من كتب الحقائق ومنهم من أعرض في سبيل غاياته ومآربه الذاتية. ومازال بين الأمة العربية من يكتب ويحرر العبر والنظريات. فعسى أن يستفيد منها الشباب الأنام في المستقبل، والله من وراء القصد.

إذا وجدوا التابوت لا يغلبون في الأرض:

قلت لناظم الماشي: ما هي توقعاتك بالنسبة لمستقبل إسرائيل كجسم غريب زرع داخل الأمة العربية، وما هي توقعاتك أيضاً بالنسبة للقضية الفلسطينية؟ أجاب: إن هذا السؤال خطير والجواب عليه أخطر، وأنا أقول بصراحة إن إسرائيل وجدت لتمارس قضية تاريخية مهمة بالنسبة لهدف اليهود وتمسكهم بالفكرة التلمودية التي تستهدف هدم المسجد الأقصى الذي بورك حوله، والتحري على (كذا) إيجاد تابوت من الذهب توجد فيه الوصايا العشر وعصا موسى. وأما حق العرب بالنسبة لفلسطين، تلك عبرة ماثلة للعيان: لقد دامت الحرب بين العرب والصليبيين ٢٠٠ سنة، إلى أن جاء صلاح الدين ودحر الصليبيين من أرض الميعاد. ونحن نرجو لفي هذا العصر أن يوجد صلاح الدين الثاني ليدحر بني إسرائيل من أرض عربية مقدسة، وأن تعاد إلى أربابها وأصحابها الأصليين.

مع الرجل الذي عاصر العلماء:

قلت للمؤرخ العربي السوري محمد ناظم الماشي في آخر لقائي معه هل هناك ما يشغلك في ذهنك وتود أن تشارك القراء فيه؟

أجاب: نعم، أنا من الرجال الذين قارعوا الانتداب الفرنسي في سورية، ساعدتني الموهبة للاجتماع بأعظم الرجال وأساطين الفكر والرأي من ملوك ورؤساء وعلماء.

أنا الوطنية والدفاع عن الحق والحرية تلقيتها إرثاً عن والدي. خضت غمار السياسة تحت تأثير ثورة عاطفية. دخلت السجون كثيراً، وقضيت أكثر سني حياتي بسبب نضالي ضد الانتداب والذل والاضطهاد حوكمت عرفياً ثم ذهبت إلى المنافي وتشردت عن البلاد وطفت في ظل الحياة. قدر لي أن أكون في عداد الرجال الذين كان لهم شرف الإسهام في خدمة الوطن والعروبة والإسلام. حملت السلاح. قاتلت ضد الاستعمار الفرنسي وإسرائيل في فلسطين من أجل الذكرى. إن الذكرى تنفع المؤمنين... أولتني الأمة شرف تمثيلها ٣ مرات متتاليات كنت خلالها أعبر بفخر لدى مجلس الأمة، وصدقت عن إرادة الناس وفحوى النقاش حول الأمور العامة وخاصة الحرية.

قلت للمؤرخ السوري: حدثنا أكثر عن الماضي، عن أيام الانتداب الفرنسي على سورية. يوم كنتَ في ريعان شبابك. قال: قضيت رحيق العمر باحثاً عن الفداء. عرض علي الفرنسيون في زمان الانتداب وزارة في سورية، فقلت لهم: هذا بالنسبة لي ضد معايير الشرف فأنا لا أريد أي منصب أو مقام سوى الاستقلال لبلادي. فقالوا: نحن نتوسط لإسعادك إذا سايرت الفرنسيين. قلت: هذه خيانة. سعادتي عندما أرى بلادي حرة مستقلة ذات سيادة، فلا تحاولوا فرض المستحيل عبثاً، فلن تفلحوا ولا طائل هناك.

إلى هنا نودع مؤرخنا العربي الكبير الأستاذ محمد ناظم الماشي، مؤلف كتاب «أزهار السلطنة وحميد بن فانوس» الذي يعيش بيننا هذه الأيام. وبقي أن نعرف أنه ولد عام ١٩٠٣ في سورية، وأنجاله أربعة بشير وعدنان وسهام وإلهام ويفكر الآن في تأليف كتاب تاريخي أدبي عصري عن السلطنة يشمل كافة النواحي التي مرت بتاريخ هذا الجزء من الوطن العربي الكبير حسب دراسته لهذه المنطقة خلال السنين الطويلة التي عاصرها. أجرى اللقاء أحمد شعيب».

نظرة في «أزهار السلطنة وحميد بن فانوس»:

هذا الكتاب مثال لمؤلفات «المؤرخ العربي السوري الكبير الأستاذ محمد ناظم الماشي»، وهو يقع في ٢٨ صفحة منها ثماني صفحات من القطع المتوسط، أورد المؤرخ الكبير فيها خطاب السلطان فانوس في الإذاعة يوم الاحتفال بعيد جلوسه سنة ١٩٧١ وسبع صفحات صور للسلطان فوتوغرافية، وواحدة لمطار السلطنة، وأخرى للكعبة المكرمة، وثالثة لرقصة شعبية يؤديها فريق من الرجال وتحتها هذا البيت:

«في كل قلب للسرور سريرة وفي كل وجه للسعادة مظهر»»

بقي معنا في اليد أقل من ثلاث عشرة صفحة هي تاريخ السلطنة وتبدأ، بعد البسملة بهذا العنوان «فجر النهضة العربية لدى السلطنة العربية الفانوسية، حقوقها وواجباتها وآدابها ومركزها، مفخرة العرب والإسلام. عظمة السلطان فانوس الذي تسلم الحكم عام ١٩٦١» ثم يأتي هذا الاستهلال العاطفي الشاعري:

«سلاسل زبرجدية من الريحان والسندس ودرجات العلى لحضرة صاحب العظمة الذي فتح صدره الرحيب للعرب أجمع وهو الذي يعلوه الجلال والمهابة وحب الخير والمعروف وتحقيق روابط الأخوة بين المؤمنين».

«إن ما نعرفه عن حميد العظيم أنه منحدر من القبائل الإسلامية العريقة ذات المجد والسؤدد من بني فانوس، قيادة حكيمة تنير السبيل وتحدد المراحل بتوئدة (كذا) لذا يجدر بنا تدوين مآثر رجل شهم أشاد بقيم العرب. سيظل التاريخ يتحدث عبر الأجيال عن أرقى خطوة حضارية قامت بسلطنة فانوس في عهد هذا الحاكم العادل في القرن العشرين (كذا) شعلة متوقدة، وعلى جانب كبير من الذكاء. إنه شعلة الإلهام تتلألأ في عالمنا انطلاق فكر وسداد رأي وكرم أخلاق. حميد بن فانوس، معين لا ينضب، مثل صادق حي ندى وشمم، لا يرسل القول جزافاً ولا يبني آراءه وأحكامه إلا على اليقين، ما تقاعس عن واجب وما تهاون بحق أمته والوطن وما تزعزع إيمانه قط ولا سكت عن كلمة حق يقولها ولو تألبت عليها الدنيا.

ثم يأتي بعد ذلك عنوان: آفاق باهرة وقائد عظيم، نفحة من القداسة وخميلة من الزهور فواحة الشذا»، تحت هذا العنوان يقول المؤرخ الكبير: «عبقة عطَّرت أرض العروبة في مطاوي سرها طيباً ورسمت علامات الرجاء وأضافت للإنسانية معالم الطريق، لست متجاوراً لحقيقة إن قلت أن عظمة حميد بن فانوس الحجة البالغة فرض إرادته في الوجود ولم يكن صاحب سحر ولا رب معجزات وإنما حاكم جلد الجوارح مسعر الأعصاب دائب الكدح والجد والخير لا يتطرق إليه ضعف ولا يدركه وهن. حديدي الإرادة، صبور (...) لقد علمته طول خبرته بأحوال العالم فلم يتردد في أن يقطع بصارمه البتار كل يد تمتد إلى وطنه وبلاده ومقدساته بسوء لم يكن عظمة السلطان بطبيعته وصفاته مستبداً متخفياً (؟) لأنه سلطان سامي المدارك واسع مدى التفكير ويفهم الأمور كلها على حقيقتها ويحاول أن يكيف سياسته وفق مقتضياتها ويركب الهول إذا لم يجد عنه محيصاً. فهو كما قال الشاعر:

إذا لم يكن غير الأسنة مركبا   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

فضلاً عما سبق، يتصف السلطان في علاقاته الخاصة وحياته العامة بالجرأة ودقة الملاحظة والفراسة. رقيق العواطف شفاف الإحساس محمود الشمايل بالغ الشرف. وهكذا لم يبخل عظمته في عطافه (؟) التي ملؤها الإباء والشمم على إقامة التوازن بين الفئات (...) من هذه المثابة أسهم عظمته في حمل تلك الرسالة وأخذ على عاتقه شرف الدفاع عن كيان بلاده وعروبته ومؤازرته (؟) (...) وهو ينظر إلى الأمور نظرة مشبعة بالفضائل والوطنية الصادقة (ص٥) هذه مبادئ حضرة صاحب العظمة حميد بن فانوس رعاه الله وأبقاه زاخراً (كذا) ومثلاً للعرب.

واقع سلطنة فانوس:

«تقف السلطنة الفانوسية في أعلى ذروة من سلم الجهاد الوطني والنضال القومي بقيادة رئيسها وزعيمها الأبي العظيم سدد الله خطاه».

توجيه سليم ونهضة شاملة:

تحت هذا العنوان تسعة أسطر عن الثروة النفطية.

القوة الدفاعية:

«تملك السلطنة الفانوسية إلى جانب كل هذا قوة دفاعية تتألف من ثلاثة (كذا) وحدات الجيش وسلاح الطيران الأوتوماتيكي والبحرية العريقة. والعرب ينظرون إلى هذه القوة الجبارة انطلاقا من ماضيها العريق لبناء دولة متطورة بكبير الأمل وشيء من الإعجاب».

سياسة فانوس الداخلية والخارجية:

«هي مفعول الوطن الحر والشعب الواحد والاستقلال التام والترابط الوثيق مع العالم العربي والإسلامي: ١ - عدم الانحياز مع حفظ السيادة وتوطيد كيان الإرشاد القومي. ٢ - مقاطعة اسرائيل ومقاومتها وعدم الاعتراف بها والعمل على استعادة حقوق العرب في فلسطين والأرض المحتلة. ٣ - التضامن مع الأمم المحبة للسلام واحترام مبادئ السلام العالمي. ٤ - التعاون والتضامن إلى أقصى حد مع الدول الإسلامية على الصعيد الاقتصادي والسياسي والثقافي ومحاربة الفقر والبطالة وحماية الشيخوخة ونشر العلم. (ص١٠).

مفارقات ومقارنات:

«من المفيد: أن تواريخ الأمم للأحرار حوادث لا ينساها الناس حقاً إن عظمة السلطان حميد يتفوق في نظرياته وعلمه(١) وسياسته وملاحظاته عن (؟) كثير من الرجال العرب وهو بدوره رحب الأفق قوي الإيمان بالله عزّ وجلّ يحب العدل شعوراً منه بأمته وربه، وبهذه الروح تحقق على يديه عزة السلطنة وأخذت مكانها في الصدارة بين دول الأمة العربية أجمع، وسيظل عظمته المشعل الوضاء الذي يسطع في أرجاء العالم وفي أكثر بقاع الأرض علماً وعرفاناً ونوراً واشراقاً وإصلاحاً.» (ص١١).

وفي خاتمة المطاف:

تحت هذا العنوان يَبْرُزُ المؤرخ الذي في محمد ناظم الماشي وتحقيقه العلمي إذ يقول:

«إن المعلومات المتواترة بين الكتاب والمؤرخين والتي هي من صميم الحقيقة والواقع هي: أن كيان عائلة آل فانوس يرجع إلى القبائل العريقة ويعود أصلها إلى أوائل القرن الثامن عشر عندما رحل عدد من أسر قبيلته من قلب الجزيرة العربية إلى الشواطئ. وكان في عداد هؤلاء الراحلين أسر عظيمة الشأن في طليعتها آل فانوس والبشائر من بني ساي، والمعين، وآل حارثة، والهافر، وماعز والصافحين والقلاقلة والمجاعر والغين (...) هذه القبائل والأسر التي ناصرت الرسول عليه الصلاة والسلام وآزرته في نشر الدين وغيرهم من الأسر القبلية الإسلامية اشتركت مع صلاح الدين الأيوبي وخلفه الظاهر بيبرس في الحروب الصليبية كالسلوقيين. هذا ما شرحه في ديوانه المؤرخ اليوناني هيروط حيث (كذا) زار البلاد الإسلامية سنة ٧٠٤م حين أشرقت الإمبراطورية الإسلامية(١).

العدل يخلق الرجال:

تحت هذا العنوان عاد المؤرخ السوري الكبير محمد ناظم الماشي إلى الحديث عن السلطان فانوس: «... في كل بلد ذهبت إليه ذكر عطر وإكبار لعظمة حميد في وفائه أكبر من الدنيا كلها. طود كما كان يبدو دائماً في كل المواقف يعرف الله ويتابع واجباته. صنع معجزة من الرمال وغدت السلطنة في عهده رمزاً للتقدم والازدهار وأرضها لم تعد صحراء جرداء سكانها بدو رحل، ومن هؤلاء الرحل نشأت أضخم حضارات التاريخ. ومن هؤلاء البدو نشأت حضارة عربية هزت أكبر حضارتين في ذلك الوقت، حضارة الفرس والروم.

عدد سكان السلطنة:

نحو مئتي ألف والمساحة ٨٠ كيلومتر مربع (كذا) الموارد الطبيعية تزيد يوماً على يوم والبترول هو المورد الرئيسي للدخل في البلاد. يوجد من الحيوانات: الماعز والإبل والأغنام والغزلان وبعض الحيوانات البرية الأخرى.

صيد اللؤلؤ:

إن ثلث البلاد من أغنى مناطق العالم بمصايد اللؤلؤ(٢).

أغلب السكان:

«من العرب الأصليين»(٣) كما يوجد عدد آخر من الهنود والباكستانيين والإيرانيين والقليل من الأوروبيين، ويعمل السكان بالزراعة والتجارة وفي شركات النفط ومختلف المصالح الحكومية.

كيف حدث ذلك؟!

لم يأت الإسلام بقنبلة ذرية، ولا أعطى الله للمسلمين سلاحاً سرياً، ولكن كل هذا حدث بقوة العقيدة والدين الإسلامي (...) إن سيادة القانون في سلطنة فانوس تهز الأنام هزاً قوياً والحق هو القوة التي تتضاءل أمامها الاعتبارات.

ومبدأ آخر يحقق العدالة في سلطنة فانوس: جاء رجل ثري إلى عمر بن الخطاب وقال: إن خادمي سرق اقطعوا يده. فقال عمر للخادم: هل سرقت. فقال: نعم. قال: لماذا؟ قال: لأنه لا يطعمني ولا يعطيني ولا يكرمني فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: لو سرق هذا الخادم مرة أخرى لقطعت يدك أنت. وهذه نقطة هامة جداً توفر الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن عزيزفي العدل والحق. وتاريخ السلطنة الفانوسية يطوي صفحات التخلف المليئة بالإرهاق بدء حياة جديدة للشعب، لا أرستقراطية ولا رجعية ولا استغلال أو عقبات فلا جوع ولا عري ولا مـــرض بدون علاج، ولا ضياع، ولا ســـــرقة في كنف السلطنة (...) وبناء على ذلك أردت تحرير هذا المؤلف التاريخي الأدبي لإثبات الوقائع عن سلطنة فانوس وزعيمها عظمة المغفور له فانوس بن حميد العظيم(!).

كل هذا جاء بعد سنة ١٩٦١ عام جلوسه على عرش السلطنة باليمن والإقبال إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين. المؤرخ محمد ناظم الماشي (راجع الصفحات ١٢ حتى ١٩ وهي نهاية الكتاب الذي نقلنا أعلاه أهم ما فيه).

ملاحظات:

المعلومات القيمة التي وردت في مؤلف المؤرخ الكبير والمقابلة التي أجرتها معه صحيفة «السلطنة» تحتاج إلى بضعة تصويبات:

١ - لدى مراجعة سجلات الأحوال المدنية في مسقط رأس المؤرخ الكبير تبين لنا أنه من مواليد ١٨٩٨.

٢ - يقول المؤرخ أنه امتشق السلاح لمحاربة الاستعمار الفرنسي سنة ١٩١٩ مع أن الجنرال غورو قد احتل سورية بعد معركة ميسلون التي استشهر فيها وزير حربية الملك فيصل الشهيد يوسف العظمة يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠.

٣ - لم نتأكد من أن المؤرخ قد أصدر مجلة إسلامية استمر صدورها أربعة عشر عاماً على الرغم من أن شغلنا الرئيسي هو الصحافة ويحتمل - نظراً لكونه مؤرخاً ثقة - أنه أصدرها في أندونيسيا أو الفيلبين أو النيجر، لا في سورية.

٤ - المؤرخ هو الشاهد الوحيد على أنه حمل السلاح في وجه الفرنسيين لأن من الثابت أنه كان متطوعاً في ما كان يسمى «جيش الشرق» الذي أنشأته قوات الاحتلال الفرنسية، ويتألف من حيث عساكره من السوريين الفقراء وكانوا يلبسون طرابيش من دون شرابات فأطلق عليهم الناس «الطرابيش المقطمة» وقد أشار السيد المؤرخ في إحدى خطبه الانتخابية إلى ذلك واعترف بانخراطه في «الطرابيش المقطمة» ولكنه علله بأنه - حتى وهو عسكري - كانت تكمن فيه بذور الوطنية. والدليل أن السرجان قال له مرة: «استرح تهيأ» فلم يسترح فطرد من الجيش!

٥ - في خطبة أخرى انتخابية قارع أعداءه فقرعهم بالحجة حيث قال، وكان ذلك في قرية شين: «يقولون عني أني غير مثقف وأني تركت المدرسة من الصف الثالث الابتدائي، هذا أيها الأخوة المواطنون صحيح لأني أولاً لم يكن عندي وقت للعلم بما شغلني النضال في سبيل الأمة العربية والإسلامية، ثانياً: لأني كادح، من هذا الشعب الأبي وإليه، شعب لا يترك له الركض حافياً وراء رغيف الخبز ودمعة الزيت وقتاً للثقافة. ومع ذلك فقد كنت ومازلت

عصامياً، ربيت نفسي بنفسي حتى صرت مؤرخاً (يتضاحك) هل سمع هؤلاء الأفاكون بهيروط. أي سادتي أنا هيروط بلاد الشام (تصفيق حاد وطويل وهتافات: يعيش أبونا ناظم، أبو الفقرا، المرشح يشرب كأس ماء وينشد: الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم. تصفيق وهتافات. المرشح ينشد: بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا. (تصفيق وهتافات). أي نعم، أيها الأخوة والأخوات (لم يكن بين الحاضرين أخوات ولم يكن للمرأة آنئذ حق الانتخاب) غداً تحت قبة البرلمان سأريهم أي منقلب ينقلبون (المرشح يضرب المنضدة الواقفة على شعرة من هرم وشيخوخة فيقلب إبريق الماء والقدح) غداً، غداً في رحيق البرلمان(٣).

٦ - إحدى الممثلات في قطر عربي سئلت عن ثقافتها الدرامية، والسبيل التي سلكتها حتى غدت نجمة فنانة مثلت حتى الآن عشرين فلماً أو أكثر، فأجابت: لما كنت في الصف السابع مثلت رواية من تأليف رئيسة الناظرات. وقد تركت الدراسة في العام التالي لأني انخطبت ولكن التمثيل ظل يجري في عروقي حتى ضحيت بكل شيء من أجله، بالزوج والأولاد وراحة البال. أنا أموت في التضحية، وهذا ما يجب أن تفهمه كل فتاة تعشق التمثيل. وإجابة عن سؤال. هل تقرئين؟ أجابت: أقرأ نصوص الأفلام والتمثيليات التلفزيونية والمسرحيات.

هذه الممثلة النادرة صارت الآن منتجة. وعلى الرغم من أنها صارت جدة منذ بضع سنوات وحماة فإنها تصر على أن تظهر في أدوار بنت الأربعة عشر، خمسة عشر ربيعاً بباروكة من جديلتين محبوستين بشريطين أبيضين. ومريول تلميذة مدرسة إعدادية. وعلى الرغم من أن صوتها مثل صوت الرجال فهي تحاول أن تجعله رفيعاً مدلعاً فيخرج مثل الحشرجة حيناً، ومثل نقيق الضفادع أحياناً، ولها دائماً في الأدوار طبعاً - بابا وماما من جيلها أو أصغر.. ولزيادة النكاية تصغر من لسانها فتجعله طفولياً وتلثغ بالراء والسين.

٧ - مطرب ناشيء ولكنه معبود للجماهير أجرى معه الراديو مقابلة: يعمل في كاباريه ليلاً ويسجل أغانيه في الإذاعة نهاراً. سألته المذيعة:

- هل درست السولفيج؟

- كلا.

- لماذا؟

- ما عندي وقت. أنا طوال الأربع والعشرين ساعة مثل المكوك، من الكاباريه إلى الإذاعة ومن الإذاعة إلى الكاباريه.

- من يلحن لك؟

- أنا.

٨ - ملحن واقع عليه السوق الآن لأنه أولاً، يلحن أطول أغنية في الدنيا خلال خمس دقائق. يلحنها حتى قبل أن يقرأ كلماتها كلها. إنه يكتفي بقراءة البيتين الأولين، وهذه نعمة. ثانياً، لأنه يخاف الله ولا يشتط في طلب الأجرة: الأغنية مفصولة، سعر محدود، خمس وعشرون ليرة فقط لا غير. هذا الكلام كان قبل عشر سنوات، ولا أدري أزاد ملحنا اللامع التعرفة بعد ارتفاع الأسعار أم أنها لا تزال على حالها عملاً بالقاعدة التجارية الناجحة: أربح قليلاً ولكن بع كثيراً، ولد موهوب تماماً، أليس كذلك؟

٩ - عالم آثار له رتبة علمية، حصل عليها خلال رحلة سياحية، لم يسمع بأفاميا ولا تل مرديخ ولا أوغاريت.

١٠ - ؟؟!!

١١ - المدهش في سيرورة الشخصية الإنسانية، (وهذا ما لا يقبل به كثيرون)، أن مصيرها يتقرر منذ سنوات الطفولة الأولى. وما أكثر ما رأى كاتب هذه الأسطر خلال عمره الطويل ابن خمس السنوات السخيف الأخرق يظل وهو ابن السبعين سخيفاً أخرق، والله أعلم.

* * *

الرجل ذو جوزة الحلق

كانت الساعة تدنو من الثامنة. في مثل هذه الساعة من كل مساء تدب في مقهى السوق حركة خفيفة، إذ ينصرف زبائن النهار وسقاته ويحل محلهم سقاة الليل وزبائنه. تختفي البدلات الرسمية وربطات العنق. وتجتاح المناضد الحطّات والكوفيات والعقل والشراويل والصرمايات الحمراء. ويختفي رويداً رويداً صمت الشطرنج وقرقعة طاولات الزهر. وترتفع ضوضاء الباصرة وحرق الكبة وبنت البستوني.

وبدأ الأستاذ محي الدين يتململ في مجلسه ويهمهم كأنه يكلم نفسه. قال أخيراً:

- نروح ننام أحسن لنا.

وصفَّق يستدعي النادل. فصاح هذا من موقفه عند صندوق المعلم:

- يا لله جيتك أستاذ.

ولكنه ظل يشبك ذراعيه فوق مريوله الأبيض قليلاً ولم يتحرك. ومثلما يجري كل مساء قال الأستاذ لطفي مستهجناً، مرعوباً:

- إلى أين؟ الليل من أوله!

وقال الأستاذ محي الدين:

- وإذا كان. هيئتكم ما في بالكم بال.

- كيف ما في بالنا؟ العمى، البارحة خسرنا..

- أنا ما دخلت، طبقوها.

قالها محي الدين، وسحب كرسياً أراح إبطه على ظهره، ومد ساقيه على طولهما، ثم وضع رجلاً على رجل في جلسة مسترخية خليَّة، لا يظهر

معها أن في نيته الرواح إلى النوم. كان محي الدين مدرس العلوم في تجهيز البلدة، ربعة، قمئاً. متهدل الأذنين، يضع نظارتين سميكتين تزيدان عينيه صغراً، يتميز عن رفاقه بأنه وحيد مقطوع من شجرة، ولكن عنده بيتاً من غرفتين يجتمع فيه الأساتذة أكثر الليالي «يتسلون» ويشربون حتى ساعة متأخرة من الليل... وقد يأتي هذا المدرس الجديد إلى البلدة وهو متخرج حديثاً من الجامعة فيتمرد على اللهو، ويغرق في كتبه ويسهر على تحضير دروسه بقلب ورب. ولكنه لا يلبث ذات أصيل ، لضجر أو تعب، أن يرافق واحداً من زملائه خطوة أو خطوتين، تقودانه، إلى قهوة السوق. ولا ينقضي أيام حتى يصير متفرجاً في بيت الأستاذ محي الدين، ثم ممثلا رئيسياً. وتندفن الكتب تحت طبقة من الغبار، ويركض صباحاً إلى المدرسة في آخر دقيقة وعيناه محمرّتان ووجهه هابط من سهرة الأمس!

وقال الأستاذ محي الدين متأففاً:

- أصلاً زكي منتوف كالعادة!

فنفر هذا في مجلسه، وطفق يطرف بعينيه الجميلتين، وقال متمثلاً:

- أنا، أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي..

فانتهره لطفي:

- ضبَّ لسانك. المهم أن ينظر إلى محفظة نقودك!

وصمت قليلاً ثم أضاف:

- العمى، أين راح الشعب؟

والتفت إلى عبد المجيد يسأله:

- هل أنت مستعد؟

فأومأ هذا برأسه إيجاباً.

كان عبد المجيد، مدرس الرياضة، قصيراً، متين البنيان. ولكنه كان وديعاً، مسالماً، يلعب به لطفي، مدرس الجغرافيا، على نحافته وصفرة وجهه، كما يشاء ويصدر إليه الأوامر فيطيع دائماً. وكانا معروفين بين جماعة

المدرسين بلوريل وهاردي، وإن يكن التشابه بينهما وبين الممثلين الهزليين لا يتعدى الناحية الجسمانية، لأن لطفي أميل إلى الجد والعصبية، يخيل إليك دائماً أنه يترقب أمراً مهما أو يتوقع فُجاءة.

وقال لطفي وهو يرمي مدخل القهوة بنظرات متلهفة:

- بدنا رابع.

فعاد الأستاذ زكي ينفر نفرة الولد المدلل الغاضب:

- لُكْ. أما حكاية، أي أنا ماذا أذن؟ أنا لا أحسب؟

فلم يلتفت إليه أحد. قال لطفي:

- نلعبها مستورة.

وعاد زكي يقول:

- ولك أخي ليش. هل أكلت على أحد شيئاً في عمري؟

- قديش معك؟

قالها لطفي متذمرة، ممطوطة. أجاب زكي:

- حركة ليرتين، ليرتين وربع، يعني أستطيع أن أتدبر من.. ولم يكمل جملته لأن صوتاً رفيعاً رن فوق رأسه:

- الله يمسيكم بالخير.

فارتفعت الأعين إلى الصوت. قال لطفي في جفاف:

- أهلاً وسهلاً أبو صلاح.

كان أبو صلاح شيخاً طوالاً حتى الحدبة، له تفاحة آدم بارزة ويسميها أهل البلدة «جوزة الحلق»، وطربوشه المائل بايخ مزفت الحوافي وعيناه صغيرتان، وقمبازه فتح بزنار من الحرير الأصطناعي، قديم، رث.

وسحب أبو صلاح كرسياً وقعد على بعد قليل من الجماعة متهيباً متأدباً ومرفقاه على فخديه ويداه تحت ذقنه، فبدأ كأنه كلب على باب قصاب مشغول.. وسرت همهمة تذمر بين المدرسين، ولكن اختفى حديث اللعب،

وانفتح، عفو الخاطر، حديث آخر أقرب إلى الجد، فتحه الأستاذ زكي كأنه يصل به ما انقطع قبل قدوم أبي صلاح. قال:

- أنا لا أوافقك يا أستاذ لطفي على ما تفضلت به. سلني أنا أستاذ اللغة العربية أجبك. يجب أن لا تتحرَّج من الكلمات الأجنبية. كل اللغات يستعير بعضها من بعض. خذ مثلاً كلمة «ديكور» ألفظها على وزن «ديجور» يستقى لك الأمر، وأما أن تضع محلها كلمة «تزيينات مسرحية» فمن يضمن لنا أن لا ينحت العراقيون كلمة أخرى، والمغاربة كلمة ثالثة ومصر واليمن و... فيضيع قارئنا ومتكلمنا جميعاً؟

قال لطفي:

- أنا لا أعارضك على شرط: أن توجد هيئة لتعريب الألفاظ المستوردة تكون منشوراتها شعبية، رخيصة، في متناول كل أحد حتى لا نقول نحن ديكور والآخرون تزيينات مسرحية كما في مثالك.

وتدخل محي الدين بطريقته النعسة الخلية. قال:

- أرأيت أيها الحبيب، حينما أكون مشوقة إليك، إلى دعابك فإن أخي إياد هو الذي يتلقى قبلاتي ودعابي، وهو الذي يستمع إلى الأغنيات التي أغنيها لك، ياحبيبي. هذه الدقائق لا يستطاع التعبير عن كل مايشحنها من شجن. أراني أدافع الدموع أن تنهمر على خدي. ولا أدري أن أفسر كيف ينقلب أياد فيحور حنونا رفيقاً عطوفاً، ويكف عن أسئلته التي لا تنتهي وعن ضوجته.

ولم تُدهش هذه السحبة من محي الدين أحداً من الأساتذة، إنها في زعمه مقاطع من رسائل تكتبها إليه فتاة فمها مثل كرزة ناضجة على غصن غضّ. أين تقيم هذه الفتاة؟ ما أسمها، ما حكاية حبها إياه؟ لا أحد يعلم!

وتنهد أبو صلاح، وتنحنح في مجلسه.

كان قد أدمن، منذ بضعة أسابيع، الإقبال على جماعة المدرسين، في ركنهم الخاص. كل مساء. يدلف منهم ويجلس جلسته المسكينة تلك، ويروح برفع إلى أفواههم التي تنشر هذه الأبحاث العويصة عينين متبتلتين خاشعتين.

وينفضٌ مجلسهم فيقوم هو ويودعهم في أدب واحتشام، ويمضي مقطب الجبين يغوص في الأفكار والهواجس.

بيد أن من يمعن النظر فيه ذلك المساء يرى في عينيه تصميماً لم يُعهَدْ فيهما من قبل. ولاحظ الأستاذ زكي أن الرجل يدني كرسيه منه كلما تنحنح أو عدل من جلسته إلى أن صارت أذن زكي في متناول فم الشيخ فسمعه يهمس أخيراً:

- هل أستطيع.. إذا أمرت.. أن آخذ من وقتك خمس دقائق؟

- أمر؟

- كلمتين... أريد أن أحكي مع حضرتك كلمتين.

فقام الأستاذ زكي ووجهه الوديع الطفلي يعكس مزيجاً من الدهشة والفضول، والمعاتبة: «أيش شغلهُ معي». وانتبذ الاثنان منضدة منعزلة ومال رأس الواحد على الآخر حتى كادا يتماسان.

وانداح صوت محي الدين مكلوما، خافتاً كأنه يتناهى من بعيد:

- أنا أنظر في لازورد عينيك المعطاء فهل تحس نظرتي؟ أميل على أذنيك وأهمس أرق كلمات الوجد، فهل تسمعني؟ أدفن وجهي في تشلل شعرك الناعم فهل تستشعر دفء أنفاسي؟ وأحرّ قلبي كم يكابد!

وهمر لطفي وهو يحدق في نظارتي محي الدين:

- في لازورد عينيك المعطاء، قلت لي!

لم تطل خلوة أبي صلاح وزكي، عادا يداً بيد، وأبو صلاح بادي السرور. يرفع يده إلى طربوشه مودعاً الجماعة، وابتعد بخطوات ابن العشرين. لما خرج من باب القهوة، واطمأن زكي إلى اختفائه انهار على الكرسي وجعل ينقّل في رفاقه عينين محملقتين مأخوذتين. ثم لم يلبث أن انفجر بضحكة مستطيلة وأنشد:

- أنا ابن جلا وطلاع الثنايا، قوموا. قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا، قوموا. أنا قادر على شرائكم، قوموا. قربا مربط النعامة مني، قوموا. أبا خراشة أما أنت ذا نفر.. قوموا.

فسأل محي الدين في رخاوة:

- ما الحكاية؟ هل قطع رأسك؟

فهتف زكي مزقزقاً:

- هو؟ شف، شفّ ولك أنا الذي قطعت رأسه وصفيت دمه.

قال لطفي:

- كذب. هذا لحمه لا يؤكل، لحم كلب.

- وحقك يا كلام الله أقول لكم. قوموا!

قال محي الدين مرتاباً:

- أضيء لنا بعملتك. نورّ علينا بحرف قطعة من أمات الخمس في القليل.

فدس زكي يده في جيب بنطلونه بحركة مفاجئة وأخرجها تحمل قطعة من أمات الخمس والعشرين وضربها على المنضدة ثم أسرع فأكب عليها يخطفها في سرعة العُقاب ويعيدها إلى جيب بنطلونه.

قال الأستاذ لطفي وهو لا يقضي العجب:

- ولك ملعون. من أين لك هذا؟

- رزق ساقه الله لنا. قصة يا إخوان، قصة تكتب بالخناجر على جوازات الحلوق. دروس خصوصية، دروس خصوصية للمحروس ابنه صلاح، قوموا!

كانت أسرة أبي صلاح تؤلف في البلدة ما يشبه أن يكون جمعية ماسونية، يتزاوج بعضها من بعض على مرّ الأجيال، ويخضعون، فيما يقال، لرئيس سرِّي لا تدري البلدة أهو هذا الخضري الأشعث القابع في زاوية مهملة من سوق الخضرة، أو ذاك السري العملاق، حسن الهندام، الذي يضطرب سحابة نهاره في أروقة السرايا، يقطِّع مصالح الأسرة ويصل حباله بالحكام، أو ذلك المرابي المحترف الذي هجَّر أهل قرية من ديارهم يدين أصله تنكة زيت.

وقد يخطر لأهل البلدة أن يتساءلوا: هل لهذه الطائفة رئيس أصلاً؟ أو أنها يحكمها مجلس شيوخ سري سرية مطلقة يحرك بيديه كلَّ الخيوط في سبيل أهداف معينة؟ ان تاريخها الظاهر متلوِّن محيِّر: أيام الاحتلال الفرنسي كانت زمرة من وجوه الأسرة تتعاون مع الفرنساويين، وزمرة أخرى تنتسب إلى الكتلة الوطنية التي كانت تقود النضال السياسي ضد السلطة المنتدبة، وزمرة ثالثة، هي سواد الأسرة في الأغلب لا تُعْنى بالقضايا العامة، وكل همومها أن تبيع وتشتري حيناً، وترابي وتكنز الذهب أحياناً كثيرة. وإن كانت تحس بولائها للقبيلة وحماية هذه لها. وأغرب شيء في الدنيا أن هذه الفرق يشنع بعضها على بعض. ويتقاذف ممثلوها التهم.. فيما بينهم ويظهرون حماسة دينية لـــ «مبادئهم».. ولما ظهرت بوادر الخلاف في الكتلة الوطنية، انشقت على نفسها كتلة وحزب الشعب لا تدري لانشقاقهما سبباً إلا المعارك والتطبيقات الانتخابية، انشق وطنيو الأسرة هم أيضاً وأخذوا يتراشقون بالمروق والردة وغيرهما من الألفاظ التي شاع زيها في تلك الأيام، تماماً... كما في المدن الكبرى والعاصمة! ولكن، مهما يكن العهد القائم في البلاد فالأسرة تجمع على مرشح واحد للنيابة، يجب أن ينجح، يعلن من أجل إنجاحه ما يشبه النفير العام: المرابون يسوقون سنداتهم إلى دائرة التنفيذ، ويعلقون التنفيذ أو عدمه على نجاح المرشح. معقبو الدعاوى لا يقبضون أتعابهم. أصحاب الدكاكين يخفضون أسعارهم. الدرك تقام لهم الولائم. الفلاحون الأجراء تزداد حصصهم من الخبز والبرغل ويسمعون كلاماً معسولاً حشوه التهديد والوعيد إذا سوّلت لهم أنفسهم حجب أصواتهم عن مرشح الأسرة...

في موسم الانتخابات تقوم الأسرة عادة بعمل مسرحي من قبيل عرض العضلات. فقد يقع لك أن تشرع كفك وتُهْوي بها على وجه فتى من هذه الأسرة أما لأنه شتمك أو أكل حقك أو سرقك، أو ببساطة لأنك - مثل أهل البلدة كلهم - تبغض الأسرة. المضروب لا يرد الضربة فوراً. ولكنك وأنت عائد إلى بيتك مساء، يا غافل لك الله، تفاجأ بعصابة من عشرين ثلاثين من زعرانهم، هذا بخيزرانة، وهذا بهراوة، وذاك بزنار جلد، وذلك بمحراك تنور

أو يد هاون... وينهالون عليك حتى يتغنوا فيك ويفقدوك الرشد. أبداً لا يخرجون رجلاً مرجل... ولكن، لا يسفر فجر اليوم التالي، ويصيح الشيخ فانوس من مئذنة جامع السوق: «يا أرحم الراحمين ارحمنا..» حتى يكون على باب رئيس أسرتكم وفد من وجوه الطائفة يضم فرقها جميعاً. يعتذرون عن فعلة الجهال، ويقسمون الإيمان المغلظة على أن يؤدبوهم ويحبسونهم في بيت المونة مع الفيران والجرادين.. ولا ينسى وفد الوجوه أن يزلِّق في أثناء الحديث أن الصلح سيد الأحكام، وأنه أجدى من اشتجار العداوة وامتداد الثأر، ولاسيما أن المستشار والترجمان وقائد الفيصل والقائم مقام يريدون أن تكون الانتخابات... ونجاحنا أمر أكده هؤلاء جميعهم... والظرف لا يحتمل الاضطرابات فتقمع بالقوة، وتسيل دماء بريئة... وقد يكون رئيس أسرتكم عصبياً فيكيل لوفدهم الشتائم من مختلف العيارات، وينبش قرعة أجدادهم، ويهدر حمماً على المستشار ذاته، فيتصاغر الوفد العدو، ويلين ويعود إلى سبّ الجهال مرة أخرى، وتتطاير الإيمان: «لن نتحرك حتى يسود الصلح، وكل شيْ لخاطركمّ».

مع الأيام صارت هذه الملامح من أعراف الأسرة وخلائقها عادة، طقوساً... والعادة مجموعة أفعال منه شأنها أن تريح الفكر المتحرك، المتوفز، المتشوق أبداً إلى كسر الأطواق فتهدئه، قل تخدره. وعندما تنحدر الفضيلة أو الرذيلة إلى سرداب العادة تفقدان عنفوانهما وقدراتهما على التجدد. وهكذا، كانت الأموال تتكدس، والقرى المستملكة تزيد، وأذرعة الأخطبوط تمتد إلى مواضع جديدة في الأرض أو السلطة، وعدد السنوات المحكوم بها على الضحايا يرتفع. ويروح مستشار وترجمانه، ويأتي آخر وغارد موبيله(١)، وينتقل قائد فصيل درك من البلدة، ويشرفها سواه... فلا يزيدون، سواء السابقون أو اللاحقون، على أن يُقْطَروا إلى عربة الأسرة، كما كانت تستبدل الخيول في كل محطة في الأسفار البعيدة، وعلى أعينها كمامات لا تريها غير

(١) الحرس المتحرك وهم فصائل من أوباش الناس كان المستشارون يجندونهم لقمع أهل الريف والعدوان عليهم وإذلالهم والتمكين للإقطاعين والمرابين في رقابهم.

المسار الذي تريده لها الأسرة. الفرق أن هذه تساق بالسوط وأولئك بشيْ أبهج للعين والأذن.. هذا كله لا يحتاج من حكماء الأسرة إلى خطط خلاقة، أو مناهج دينامية تقوم على توقدّ ذهن أو بعد نظر أو شسوع روح. إنها رحى طاحون تصب فوقها حنطة فتخرجها لك طحيناً. والناس هم الناس والحكام هم الحكام.

أمثال هذه الأسرة - القبيلة تعاقب الخروج على طقوسها عقاباً لا مرحمة فيه، قاسياً قسوة يوشع بن نون أيام عبور بني إسرائيل الأردن إلى فلسطين. ولكن أبا صلاح الذي قلع أسنانه وأضراسه في الاندغام في مدار أشبه ببغل الطاحون، حتى عاد لا يحس عضّ اللجام في فمه ووطأة ذراع الرحى في كتفيه.. أحس، للمرة الأولى في حياته، أن عربة الأعراف التي شدها أكثر من نصف قرن إنما تَحُزُّ فعلاً في كتفيه وتحفر في لحمهما مثل أسياخ حديد متشهبة، وتدير في رأسه رحى ذات هدير من غموم. وكان أبو صلاح صاحب دكان متواضعة، في سوق الخضرة، هوايته كتف القرويين بسندات لا ينتهون جيلا بعد جيل، من دفع فوائدها، سندات تلتهم محصولهم بما فيه البذار في بعض السنين، وتتركهم في حال أبدية من العوز والفاقة وفي الأخص الخوف. ويروى عن أبي صلاح أنه مرض في شبابه مرضاً خطيراً حُمِل على أثره إلى بيروت وأنفق في المستشفيات أموالاً فادحة. وصار الناس يتناقلون حديث مرضه ويقولون: «هذه ضربة ربانية. الله يمهل ولا يهمل. هذا مال ربا والله يمحق الربا ويربي الصدقات...» وأصبح أبو صلاح رِجلاً في الدنيا ورجلاً في القبر. مريضاً أشفى، ومع ذلك وصلته ضوضاء البلدة فكان يقول لعواده في صوت واهن، ميت: «قولوا الله يمن عليك بالشفاء يا أبو صلاح، ونَذْرٍ عليَّ لله تعالى أن لا أدخل قرش ربا على جيبي»! وسمع الله قوله فعافاه، وإذا أول عمل يقوم به لما اشتدَّ أن ديَّنَ أحد اللحامين الفقراء مئة ليرة بفائدة قدرها كيلو لحم في اليوم. احسبها: اللحام في البلدة لا يربح ثلاث ليرات في اليوم وفائدة المئة ليرة ألف ليرة في السنة.

ولا يعلم أحد ماذا طرأ على أبي صلاح لما نجح بكره، بعد جهاد مرير، في الابتدائية. جنّ جنونه. اشترى له ساعة من الذهب ودراجة. ألح على أن

يتابع دراسته في التجهيز. في التجهيز بدأت الويلات. كان الولد ينتقع في الصف سنتين. وقد يستمر لولا الوساطة، والشفاعة والرجاء والدموع. غلب الحديث عن صلاح: عن علاماته وجلائه المدرسي، عن كتبه ودفاتره، على حديث القرويين والسندات والتنفيذ..

كيف استطاعت المدرسة أن تظفر على طقوس عمرها أكثر من خمسين سنة؟ من يدري! لعلها يقظة من يقظات الضمير الرازح تحت ثقل الذهب حتى الاختناق. أو أنها ، في بساطة، رغبة الآباء في أن يحيوا في أولادهم حياة أرقى. أو أن هذا المرابي - حتى وهو يطحن فلاحا استطاع أن يدفع بدراسة ابنه حتى كلية الطب - كان يجد أنه الأدنى، الأهون، لا الأقوى، الأقدر على السحق. على أية حال، لما وصل صلاح إلى الكفاءة عترس مطرحه عترسة بدا معها أنه لن ينهض منها قبل يوم القيامة. في فحص الكفاءة - أنتم تعلمون - الأوراق مقفلة ومسيعة زواياتها التي تحمل الاسم بالأسود، فلا الشفاعة نافعة فيها ولا الوحوحة ولا الدموع... ست دورات (ثلاث سنوات) وصلاح لا يتحرك. هل رأيت حماراً أعجف، على ظهره حمل ثقيل، زلت قدمه في يوم ماطر موحل. ارفع عن ظهره الحمل، ارفسه في بطنه، اقبض على ذنبه بكلتا يديك وشد إن كنت تشد!.

لم يذق الأب في عمره مثل هذه التجربة. حتى مرضه وبلواه في بيروت بدوا باهتين لا معنى لهما أمام هذه البلية. المرض علاقة بينه وبين يومه. وأما هذه فعلاقة بينه وبين غده، غده البعيد البعيد!

وهكذا أدمن أبو صلاح التردد على قهوة المدرسين. يأتي فيقعد على مسافة موقرة، يصيخ السمع في انتباه عظيم، ويرفع إلى هؤلاء اللامعين نظرات مستجدية خاشعة. كيف ظفروا بالكفاءة؟ ألا يستطيعون أن يعطوا كلمة السر لصلاح؟ أليسوا قادرين علن أن يصبوا علمهم في رأسه؟ ألا يمكن تعبئة العلم في برشامات؟ الدراهم؟ أنا تحت الأمر. اطلب تعط. تفوه! ماذا أفدت من المال طوال خمسين سنة؟ نظرة احتقار من أصغر فلاح، من القروي الذي تكون حياته كلها معلقة بكلمة من شفتي. أدعسه تحت قدمي ويظل ينظر إلي

هذه النظرة الحجيمية: «مرابي!»... العلم، يا سيدي العلم. هؤلاء السادة الذين يتحلقون حول هذه المنضدة قد لا يكون مع الواحد منهم حق عشاء ليلة ولكنهم محترمون، يقول لهم الناس «يا أساتذة!» في إجلال. العلم هو الاسوارة الذهب الحقيقية..

مضى الأساتذة الأربعة إلى بيت محي الدين تضج الأزقة بضحكاتهم وتعليقاتهم. حتى محي الدين بدا مرحاً، منصرفاً عن رسائله الغامضة، واستغراقة الخامل. وخرج عبد المجيد نفسه عن صمته، وسأل الأستاذ زكي في دماثة وحياء:

- زكي، ألا ترى أن صلاح جسمه ضعيف شوية..

فانفجر الثلاثة مقهقهين. وقال زكي:

- يعني قصدك؟ دروس خصوصية في الرياضة البدنية؟

قال عبد المجيد متلعثماً:

- ألا تراه عظمة وجلدة؟ وجوزة الحلق، جوزة حلق أبيه لا راحت ولا جاءت، سبحان الله!

وأما لطفي فقد أبدى هذه الملاحظة:

- الرياضة لا تدخل في فحص الكفاءة.

قال زكي:

- لا يكن لكم فكر. سيكون في مال أبي صلاح حق معلوم للسائل وابن السبيل والمحروم والمقامرين وشاربي العرق أيضاً.

فأجابه تهليل صاخب و:

- عاش، عاش، عاش!

واقترح لطفي:

- تعالوا نمر بأبي ناصيف قبل أن نروح.

فشقرق زكي:

- وجدتها والله يا لوريل.

وزحفوا على خمارة أبي ناصيف في أقصى الغرب، على تخوم غابات الزيتون. كان الشتاء في أوائله. وقمر وديع يشبك أشعته الملونة في غمامات عالية لا تلبث أن تنحسر عنه راكضة في بحر من الصفاء الحالم فيخيل إليك أنه هو الذي يسبح مسرعاً في الفضاء الرحب.. إذا الزيتون الممتد مدى النظر يستحم في ضياء رقيق ولكنه حزين مقلق... وهبط صمت مفاجئ على الرفاق السارين، لا يجرحه غير وقع الأقدام: ومن غير أن يتفقوا سلكوا درباً طويلة تتعرج في البرية، وخففوا من سيرهم فأمسى الصمت عميقاً لا تعكره حتى أصوات الخطى التي خنقها تراب الدرب الناعم. وتنهد محي الدين وقال في شبه همس:

- ما أحوجني إلى البوح. هل تعلمون من أنا؟ أنتم تعلمون أني مجذوب هجرت دمشق واخترت هذه البلدة الضائعة فاشتريت بيتاً بغرفتين... ولكن من أنا؟

وصمت هنيهة ثم أنشد بصوت حزين عميق:

أنا الهيمان لم أظفر بترياق ولا راق

أدِرْ كأساً وناولها، أدر يا أيها الساقي

فتضاحك زكي محرجاً وقال:

- محي الدين لا تفسد علينا ليلتنا. أرجوك.

ولكن القمر شبَك أشعته بغمامة عابرة وأجج فيها قوس قزح موهوناً من الألوان الندية: فأطبق الصمت مرة أخرى.

كانت خمارة أبي ناصيف زبائنها من اللحامين والحمالين والسقائين والفعلة الذين ينهضون مع الشروق، ولذلك كانت سكرتهم في أواخرها، في مرحلة عرق التين وعرق التمر واليانسوني، كما يُسِرُّ أبو ناصيف إلى زبائنه الأكابر ضاحكاً. ولما دخل الأساتذة صمتت الخمارة إجلالاً لرجال العلم إلا حمرو اللحام، الطويل الأصهب، فقد ظل يغني بيتاً واحداً من أغنية وديع الصافي التي كان زيها يومئذ، ويعيده طوال وقفة الأساتذة عند الحاجز:

قلت لها بطلت   خليني في البيت

وأخذ الرفاق قنينتين من العرق المختوم، وبيناهم يهمون بالانصراف مال زكي على رأس أبي ناصيف الأصلع وسأل باسماً:

- أبو ناصيف، بصلاة محمد عرق عنب صافي؟

فقهقه الخمار، ولوى وجهه في حركة معاتبة:

- ولو يا أستاذ زكي. وصلاة محمد عرق مختوم.

كان أبو ناصيف خماراً نزيهاً يقدم الكاسين الأولى والثانية من عرق عنب صاف لا شبهة فيه (والثالث إذا كان الزبون رأسه يابس لا يسكر بسرعة) وأما الأقداح التالية فلا تواخذونا من فضلكم: تمر، تين، سليماني، سبيرتو... كله ماشي! وفي بعض الأحيان يلدغ هذا الشراب العجيب حلْق الشارب، على الرغم من سكره، مثل سيخ النار، فيتقبض وجهه ويلحِّق شقفة مخلل اللفت، ويصيح بالخمار بصوت أجش:

- أبو ناصيف!

فيصيح الخمار من وراء الحاجز:

- الله ومحمد!

فيسأل الزبون:

- أبو ناصيف قل لي: هذا عرق عنب؟

- ولو! و صلاة محمد عرق عنب مثلث وصاف لا يخلطه خالط. فيطمئن الزبون، ويعود إلى كأسه وتقلص وجهه ومخلله راضيا مرضياً. وماذا يهم كون الخمار غير مسلم، ألسنا كلنا خلقة واحد أحد لا شريك له!

في بيت محي الدين دارت الأقداح.. ودار معها الحديث عن أبي صلاح، عن الأسرة.. القبيلة بعامة. كان زكي يعتقد أن هذه اللوثة التي أصابت الشيخ في آخر أيامه كنز فتحه الله على المدرسين رحمة بهم وتعويضاً لهم عن رواتبهم الهزيلة. ولكن لطفي نقل البحث إلى صعيد أشمل. في رأيه أن المشكلة أعمق من فتح كنز للمدرسين، كنز شحيح موقوت. غداً

تتكاثر الأسرة على الأب، وتقسره على أن يكف عن هذا الجنون ويصون مال الطائفة، ويُسلِك ابنه السبيل الذي سلكه الآباء والأجداد. والعلماء شحاذون، وأصحاب الشهادات يمشون الأرض على وظــيفة تؤمن لهم خبز العيال بلا زيادة. والمشكلة في هذه الكنوز الأخرى، الباهرة: الفلاحين الذين يكدحون ونساؤهم وأطفالهم في الأرض كل السنة لكي يصبوا شقاءهم في أشداق هؤلاء المتربصين بهم من المرابين، إلام يطيقون مثل هذا العناء؟ لن يمضي جيل أو جيلان حتى ينشف الدم في عروقهم فتبور الأرض ويشح الزرع حتى ييبس. المشكلة إذن في بنية الدولة، في القانون الذي يحمي مثل هذا الشيخ الأعجف الغث وابنه التيس، في حين أن عبقريات شامخة قد تكون أعظم من دانته وشكسبير وبتهوفن... تنطفئ في ظلام الأكواخ - الجحور التي ليس لها حتى نوافذ. وأضاف والغضب يكاد يخنقه:

- هات الورق، يلعن أبو عمرنا.

وتضاحك زكي:

- أنت أبداً حامل الدنيا على كتفيك، مثل أطلس. وأما أنا فحسبي أن أجاهد جزئياً. هل تعلمون ماذا قلت لأبي صلاح وأنا أحاوره؟

- ماذا؟

هكذا سأل لطفي وهو يوزع الورق. قال زكي:

- قلت له أن الولد مدلل أنا أعرفه، ويحتاج إلى أن يؤخذ بالشدة فهمهم خجلاً، وقال لي: أنت تعلم، الولد جسمه ضعيف... قلت له: لا، لا تقل لي جسمه ضعيف. قل لي أضربه. اضربه. هل تريد أن يصير ابنك رجلاً؟ هل تريد شهادة الكفاءة؟ قال: أريد. قلت أذن اتركني عليه. أنا يا أولاد سيف الحق، أنا ملاك العدالة على هذه الأرض! سأنتقم في شخصه لكل مدين، لكل فلاح ضرب أمام امرأته، للشعب العربي في فلسطين، لمجاهدي الجزائر الذين يقاتلون الآن في الأوراس..

سأل محي الدين:

- وما علاقة مجاهدي الجزائر بابن أبي صلاح؟

- علاقة وثيقة. لولا أبو صلاح وأسرة أبو صلاح فهل كان يجرؤ أحد على العبث بحرية قطر عربي؟

قال عبد المجيد:

- وستضربه حقاً، زكي؟

- طبيعي. أتظنني أمزح؟

- طيب. أترك لي هذه لي أنا في القليل.

ضحك. وقال محي الدين:

- اسكتا، أنا أعرفكما ليس لكما قلب لتضربا قطة.

في مقاهي المدن الصغيرة يعيد التاريخ نفسه كل يوم. كل يوم ترى الوجوه ذاتها. تسمع الصيحات ذاتها. وبائع الصحف الأبدي الابتسامة يدخل القهوة كل مساء زاعماً لروادها أن جرائده طازجة، ساخنة تلذع اليدين لأنها نزلت الآن عن النار ووصلت للتوّ من الشام بـــ... الطيارة!

وكان الأستاذ زكي قد بر بوعده، وبدأ «يوظف» رفقته مدرسين عند أبي صلاح.

ومرت بضعة أيام. وكان مساء

كانت الساعة تدنو من الثامنة لما فُتح الباب وتسلل منه أبو صلاح، ودنا من الجماعة على استحياء، مثلما فعل تلك الليلة المشهودة. وسلم ثم سحب كرسياً، وقعد متهيباً. المشهد ذاته، ولكن بعض التفاصيل اختلفت. كان أبو صلاح أدنى إلى الحلقة منه ليلتئذ، ونظراته لا تخلو من معنى بعيد من الألفة. كان واضحاً أن في فمه كلاماً: ولكنه انتظر فترة صمت قبل أن يقول لزكي متلجلجاً:

- أستاذ، يعني.. كان في فكري أن أحكي مع حضرتك...

- تفضل، تفضل.

ولم ينتبذا منضدة منعزلة. قال أبو صلاح:

- يعني، معلومك...

- ماذا؟ تريد أستاذ رياضيات؟ على رأسي. انتظرني يومين فقط.

- لآ، يعني قصدي..

- لا يكن لك فكر، يومين فقط.

وتململ أبو صلاح في مجلسه ثم ألقى جملته دفعة واحدة، كأنما يخشى أن يعود زكي إلى مقاطعته:

- يعني معلومك. مخدومك صلاح عاد إلى البيت البارحة وتحت عينيه أزرق! فارتفعت ضوضاء ضحك مخنوق وسعال مصطنع وسحب كراسي وعطاس انتظمت كلها في شبه جوقة هزلية... إلا زكي الذي احتفظ بجد صارم. وقال متجهماً:

- من كل بد يا عم. وإلا كيف تريده أن يحمل لك غداَ شهادة كفاءة قد ملحفة اللحاف، ويضعها في إطار مذهب في صدر البيت ويفقِّع مرارة الحساد والشامتين...

فغمغم أبو صلاح خجلاً، ولكن زكي استمر يقول:

- لا تقل لي وفِّره، قل لي اضرب. قل لي: العظم لي والجلد لك. نحن كلنا أكلنا فلقات بعدد الشعر الذي في رأسنا. أنا مرة معلم العربي كاد يكسر لي ذراعي..

واستعاد المدرسون أنفاسهم، وأيدوا زميلهم. قال عبد المجيد في براءة:

- والله أنا ما تعلمت جدول الضرب إلا بعد ما ضربني علي أفندي مئة عصا على رجلي.

قال محي الدين متهكما:

- والله شاطر!

وانهالت الدروس على أبي صلاح حتى أخذت عيناه تغزلان من حماسة. وقال أخيراً:

- اضربوا الله يبارك فيكم. اضربوا اللحم لكم والعظم لي!

ونهض منتشيا كأنه حصّل سنداً صعباً، ولم يكد يغيِّبه باب القهوة حتى انفجرت الضحكات.

وتألبت الأسرة على أبي صلاح. كانت ترى في سلوكه خروجاً على أعرافها جميعاً. العلم؟ ما العلم؟ إذا دفع الولد دراسته حتى الدكتوراه... صحيح أن لقب دكتوراه فيه جاه وعز. ولكن ما عساه أن يدر؟ ماذا يغل؟ كان في وسع أبي صلاح أن يدفع بأن الأطباء يربحون الألوف، أن منهم من يوظف سماسرة في الكراجات يقلفطون القرويين منذ أن تطأ قدمهم المدينة... والمهندسين يدخلون في تعهدات، إذا هم أحسنوا التبليع فيها عادت عليهم بأموال قارون، وأن المتعلمين ليسوا الموظفين على وجه الحصر - هؤلاء يستحقون الصدقة، نعمّ - إلا من كان في وظائفهم «براني»... ولكن الرجل كان عاجزاً عن أن يصد هجمات الأسرة بمثل هذه الحجج الفطينة. كان هواه للعلم ولا يدري لهواه سبباً. إنه يعرف كيف يحجز على فلاح ويبيِّعُهُ الحصير الذي تحته، يهجِّر أهل قرية بدين أصله تنكة زيت، يعرف أسعار القطن في دمشق وحلب والجزيرة... ولكن هذا الأوقيانوس الشاسع.. العلم، شيْ آخر تماماً، برزخ مجهول جداً على نحو مرعب.

وتمر الأيام والشيخ يزداد تشبثاً، والطائفة تزداد ضغطاً. إنه يحسها مثل القانون الذي لا يستطيع لإحكامه دفعاً، ولكنه يداوره، يحتال عليه. المرابي في المدن الصغيرة لا يسمي الأشياء بأسمائها أبداً: «يقرضك» مئة ليرة، وقبل أن يسلمك إياها يأخذ أي شيْ، قطة، علبة كبريت، غطاء قنينة كازوز ويقول لك: «اشتريت هذا مني بثلاثين ليرة» حينئذ يسلمك سبعين ورقة ويكتب عليك سنداً بمئة... هكذا كانت طريقة الشيخ في تعليم ابنه أمام حصار الأسرة الفولاذي. يحتال عليه. يهربه تهريباً. يحلف على القرآن. يخرج تحت جنح الليل، كأنه ملاحق. والمدرسون لا يشفقون عليه. ينصح له الأستاذ زكي بكتاب الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية: «أسلوب بديع، النص مشكول. اللغة في منابعها»... ولطفي يحمله على شراء الخرائط من دمشق. ومدرس الرياضيات يشركه بمجلات فرنسية يمسكها صلاح بالمقلوب...

وجاء فحص الكفاءة بدورتيه فلم ينجح صلاح. ولم ينجح كذلك في العام التالي. كفى الأسرة مؤونة الضغط على أبيه والتذكير بالأعراف وسير الأجداد. صار اليأس، إحدى الراحتين، حتى الأب، أضحى ابنه في عينيه مثل المريض المزمن، يزعجنا منظره، تأسى له، ولكننا نعتاده وننتظر الفرج... غير أن الطائفة تأبى أن تحمل رجلاً لا يسهم في زيادة «دخلها القومي». يجب على الفتى أن يشتغل. ليعطه أبوه رأس مال على قده يطقطق فيه. شف ابن فلان. صبي صغير ربح في العام الماضي ستة آلاف. هذا رجل حقيقي له أنياب تقرط رأس الحية من يجرؤ على أن يأكل حقه؟ ورد أبو صلاح بأنه عاد لا يثق بابنه أنه إذا فقع قهراً فأثمه يقع على رأس هذا المغضوب... وما أحلى أن يبعزق غدا ما جمعه الأب بعرق الجبين طوال خمسين سنة! لا يا أخي لا! أنا اعتبر أن هذا الولد قد مات وشبع موتاً... ويجيئه الرد أمراً. جربه أعطه ألفين، ثلاثة آلاف.

وانتصرت الأسرة.

هل انتصرت انتصاراً نهائياً؟ الأستاذ زكي كان يرى أن لوثة أبي صلاح لابد لها من انتكاسة، لأن الجنون في مثل هذه السن لا يشفى، والله لا يمكن أن يتخلى عن المدرسين بعد أن وسع عليهم في الرزق زمناً... وأما لطفي فقد أخذ يتفلسف على طريقته. زعم أن الدكان التي فتحها صلاح في شارع الجمهورية، قرب السرايا، لتعقيب المصالح لا تؤلف في حد ذاتها خطراً، ولكن نقطة التحول الحاسمة، الخطيرة ستبدأ منذ الربح الأول... اطرد قطة داجنة إلى الغابة واتركها بضعة أشهر ترتد إلى فصيلتها المتوحشة، تصبح نمرة صغيرة ضارية. الربح الأول سيضرم في عروق صلاح دماء أجداده المتوحشة فتروح تهر وتهمر في سعار وكلب للمال أشد استشراء من كلب أبيه الجاهل... ولكن عبد المجيد، على بساطته، فطن إلى أمر مهم هو أن تعقيب المصالح العقارية وغير العقارية مهنة كاسدة ولاسيما مع هذا الحشد من المعقبين الذين سخلوا أعمارهم في أروقة الحكام فأصبحوا يعلمون من خفاياها ما يفوق علم المحامين أنفسهم، ناهيك بأن صلاح - وهذه ملاحظة

وجيهة جداً – لا يبدو عليه كلب المال. فهو يتردد إلى القهوة، ويحدق في ورق اللعب تحديقاً يحمل كثيراً من البشائر.

وأخرجت هذه الملاحظة الأخيرة محي الدين من صمته فهتف جذلان:

- أي إذاً طبقوا لنا لعبة معه.

والحقيقة أن صلاح كان في الظاهر نسخة لا تحسين فيها عن أبيه. من ينظر إليه يقع في خلده أن الحياة تتكرر على نحو رتيب ممل خلو من طفرات الخلق: جوزة الحلق. الطربوش المائل، اليدان المعروقتان، الصوت الخامد، المشية المتلصصة.. أبو صلاح كله في أهاب فتى لما يتجاوز العشرين، مثل كتاب أصفر طبعته على ورق أبيض، غير من يتأمل صلاح في دكانه، شارع الجمهورية، أو في المقهى يقبع وراء لاعب، أو في الزقاق، ينقز في مشيته كأنه يتحاشى رامات ماء خلفها المطر، ويؤرجح ذراعيه الطويلتين، أو يتكلم فتصعد جوزة حلقه وتهبط مثل جهاز الأبرة في ماكنة الخياطة... يجد أن الحياة ليست أغنية مكرورة على نحو خلو من أي أبداع، وإنما هي آلة ماتفتأ تحسن نتاجها وإن يكن التحسين في التفاصيل وحدها. ذلك أن هندام صلاح يختلف عما ألف أبوه، فهو يلبس السترة والبنطلون، ويضع صدرية تصل بين جيبيها سلسلة ساعة، زي تلك الأيام. والصوت أيضاً تغير لا من حيث المقام ولكن من حيث أن رنة الاستجداء والوحوحة فيه أقل. فإذا أضفت العلم... ذلك أن أحداً من الأسرة لم يبلغ مبلغ صلاح من «الثقافة» على أية حال!

الحاج نافع معقب مصالح قديم، سبق أن كان طالب علم، اشتهر بالقناعة والتقوى. فتح محله، قرب السرايا، مع الصباح الباكر وعلق عصاه على المسمار الذي عن يمين الباب. وبينا هو يستدير حول مكتبه القديم الأغبر دخل عليه قروي كهل وألقى السلام. فالتفت الحاج مستأنيا وقد هيأ معنى من البشاشة على وجهه، ولكن لما رأى رثاثة هندام القروي ووجهه الأغبر الذي أحرقته الشمس، زوى مابين حاجبيه، وأجابه بتحية مقتضبة أقرب إلى الجفاف.

وشرح القروي قضيته: الحصاد على الأبواب وابنه موقوف.

قال الحاج:

- ليش؟

- ما قام ليوسف أفندي، أنت تعرفه.

- ما تشرفت.

- أي! فيه أحد ما يعرف يوسف أفندي؟!

- أنا، لا تواخذني!

- يوسف أفندي الدركي أبو الحصان الأحمر

- فهمت عليك. يدك على اثنتين وستين ليرة وعشرين.

جمد القروي كأنك صبَّرته، وقد ارتفع حاجباه من دهشة. فلما أفاق قال متوسلاً:

- أي يطول عمرك، نحن لا قتلنا ولا ضربنا ولا حرقنا بيادر. ولد جاهل البعيد، كان على البيدر يستريح قام مرق يوسف أفندي من قدامه. القصة وما فيها أنه ماشافه. ولد جاهل، البعيد!

- يا رجل طلب إخلاء سبيل يكلف اثنتين وستين وعشرين.

- أي والله يا حاج نحن لا أكلنا، ولا شربنا، أصل الحكاية...

- اللهم صل على سيدنا محمد!

- ومعلومك يا حاج. الحصاد على الأبواب ونحن جماعة في حالنا في ذاتنا..

- اقصرها أقول لك يا فتاح يا رزاق.

- يا...

- قديش معك؟

- ثلاث عشرة ورقة. الله الوكيل بعت الطنجرة والحصيرة واقترضت..

- تحتاج إلى خمسين ليرة فوقها. نحن لا نسرق العالم. نحن في قلبنا خشية الله تعالى!

- أي ليش خمسين، الله خلق الخلق؟

الحلم يقسر نفسه على الحلم:

- أنا لن آخذها لجيبي يا عمي وحياة شيبتك. تعال أحسبها لك: عشر ليرات أوراق تعقيب معاملات، مئة وعشرون قرشاً استدعا، ثلاث ليرات للآذن. أحد عشرة لغرفة التجارة، لأن التاجر الذي سيكفلك لم يدفع رسم انتسابه...

واستمر الحاج يشرح مفردات الاثنتين وستين وعشرين والقروي يلاحق بعينيه حركة يديه، ولا يبدو عليه أنه يفهم لأنه لا أكل ولا شرب، ولأنه في حاله في ذاته، ولأن الحصاد على الأبواب، وابنه موقوف... وأما أن التاجر يقبض خمسا وعشرين أجرة كفالة، والكاتب بالعدل اثنتي عشرة، وأن عليه، هو الفلاح الذي لا يملك غير ثلاث عشرة ليرة أن يوقع للتاجر على سند بمئتي ليرة (ضعف الكفالة التي تبلغ في هذه الحال مئة ليرة) «مئتي ليرة قرضة الله حسنة تدفع عند الطلب ولك في ذمتي أن لا أطالبك إلا بحقي»... هذا كله يشبه الحكي الصيني في أذنيه...

ورأى نفسه في الشارع وجهه قد ازدادت غضونه وحاجباه قد ازدادا ارتفاعاً من دهشته لماذا رفض الحاج إخراج ابنه من الحبس والذين دلوه عليه أكدوا له أنه رجل طيب، حاج الحرمين، في قلبه الله؟ صحيح أنه ليس معه إلا ثلاث عشرة ليرة، ولكن الحصاد على الأبواب وهو لم يعتد أن يأكل حق أحد.

فجاءة وجد الرجل نفسه أمام صلاح الذي كان يسحب غلق دكانه إلى الأعلى..

- مرحبا يا عم. تفضل.

- الله يزيد فضلك.

- تفضل، فيه خدمة؟

وروى له القروي الشيخ قصته وأنه لا أكل ولا... والحاج نافع يبغي خمسين ليرة. فمن يقرضه إياها والحصاد على الأبواب وهو لا يأكل على أحد بارة القرد؟

وأفهمه صلاح في لهجة حاول أن تكون مقنعة جداً أنه - القروي - لن يعثر ولو فتش بسراج وفتيل على ابن امرأة يقرضه في هذه الأيام السود قرضة الله حسنة لا خمسين ليرة ولا حتى خمسين نكله وهو - صلاح - ليس طماعاً مثل غيره، وهمه كله أن يخدمه. لذلك فهو مستعد أن «يؤجره» المبلغ أجرة قدرها قرش واحد عن كل ليرة في الشهر. يا بلاش. على الليرة قرش. قال له هذا كله ووجهه مبتهج بما يسديه من معروف شبه مجاني لهذا الشيخ في محنته. وقال أخيراً:

- ما قولك، هل أكتب لك سنداً؟

انتقلت بهجة صلاح وانتصاره للمظلومين إلى الفلاح فرضي.

- هويتك.

بلا طول سيرة الخمسون صارت خمساً وثلاثين والحاج نافع لا يقبل بأقل من خمسين. قام صلاح، صبورا، بشرح جديد أقنع القروي أن «يقترض» مئة عوضاً عن الخمسين لأنه، في هذه الحال، يبقى معه حوالي عشرين ليرة. ومن الآن حتى آخر الشهر يفرجها الرزاق الكريم.

وانتشر خبر الحادثة في البلدة اليوم نفسه كأنما إذاعة الراديو. وبركن المدرسين في قهوة السوق. السر في المدن الصغيرة كلمة جوفاء.

وزمجر الأستاذ لطفي وهو يقبض يديه النحيفتين على هيئة مخالب كأنه يريد أن ينقض على عنق أحد فيخنقه:

- الأفعى، مصاص الدماء، سليل القتلة، خرابي البيوت العامرة ألم أقل لكم؟

ولكن حادثة القروي الضحية بهتت في مساء اليوم التالي، لما هرع زكي إلى القهوة وقال للطفي حتى قبل أن يقعد:

- ولك أنت فيك نفحة من النبوة يا ولد.

- لماذا؟

- راغب نجار أنت تعرفه.

- ما به؟

- صلاح بن أبو صلاح قطع رأسه.

- العمى..

- والله العظيم.

- كيف؟

راغب هذا يلعب لعبات كبيرة لا في «هذه البلدة الجربانة» - كما يقول - ولكن في نوادي المدينة. أحياناً في زحلة... منذ أيام كان محروقاً على لعبة وما معه. أبوه غني، ملاك كبير ولكنه لا يعطيه دائماً. طلب من صلاح قرضة مئة ليرة. لم يقل له صلاح لا، ولكنه استكتبه سنداً بمئة وخمسين، واشترط عليه، حرصا على ماله، أن يرافقه إلى النادي في المدينة لأن أربع أعين خير من عينين اثنتين. سافرا لعب راغب فربح فسدد له المئة والخمسين ودفع أجرة السيارة ذهاباً وإياباً والسكرة والعشاء. بعد بضعة أيام نقف عليه سوسة اللعب، ولاسيما أنه ربح المرة الماضية من غير أن يمد يده إلى أبيه فيرفض فيوسط أمه، الخ..

«عاد يلجأ إلى صلاح.. » استقرض هذه مئتين فكتفه صلاح بسند بثلاثمائة: السعر محدود.. هذه المرة خسر راغب وتكررت كتابة السندات.. ابن الكلب، في جيبه رزمة سندات جاهزة لا ينقصها إلا توقيع، توقيع «المستقرض»...

لم يضحك أحد من الجماعة. هبط عليهم صمت امتد لحظة طويلة قطعه محي الدين بزفرة وشرع يقول:

- أواه يا حبيبي المسكين الغريب، ما أشد ما تتعذب! ليتني أستطيع أن أغسل جراحك بدموعي الحانية. فيم تأينا والقلب يهتف في بيداء فلا يجيبه إلا رجع السراب. النأي يا حبيب قلبي المحزون حتى الموت، أنستطيع إذ ننحيه عن ذرارينا، أم تراهم سيظل يلاحقهم الخوف!

* * *

التعزية

كان الرجال في غرفة الضيوف يجلسون واجمين، بعضهم يبسط راحتيه على ركبتيه في مزيد من التسليم لقضاء الله وقدره، وبعض يصالب ذراعيه وقد دفع صدره إلى الأمام ولم يركز من مؤخرته على المقعد غير ثلثها، كأنه على وشك أن يشمع الخيط هارباً بجلده. صورة الفقيد، المكبرة عشرة أضعاف الكارت بوستال، في إطار مذهب، زنرت بشرائط سوداء عقدت على شكل وردة فوق الضلع العليا من مستطيل الاطار. التلفزيون مقمع حتى منتصف قوائمه بقطعة من قماش أسود. بين حين وآخر، ينبعث من الحاضرين زفرة من قلب محروق: «استغفر الله العظيم. الله يرحمنا برحمته الواسعة».

وأما هو ، فقد جلس بين الحاضرين واجماً مثلهم، يركي رأسه على يده وكوعه قد استند إلى فخذه، يحاول أن يلبس وجهه مزيداً من إمارات الحزن، ولكنه أحياناً يرفع عينيه ويطوف بهما على الموجودين. قبل قليل كادت تفلت منه ضحكة فاضحة: أحد المعزين مط رأسه من الباب وحركه يمنة ويسرة كما الحردون واختفى. كان في عينيه ما يحمل على الظن أنه دخل البيت بالغلط. وتذكر هو أنه كان مرة يفتش عن بيت ميت في عين الكرش فقادته قدماه إلى بيت آخر على بابه مصباح مئة شمعة يدخل إليه ويخرج منه معزون، فلما صار بين المعزين اكتشف خطأه فكاد ينفجر من الضحك.

لفت نظره الشخص الجالس في الصدر: أكرش على نحو فريد، حتى أن يديه المتشابكتين على بطنه كانتا تبدوان وكأنهما تمتدان متوازيتين إلى أمام. كان يلبس بدلة رسمية وقميصاً من غير ربطة عنق. البنطال من

الاتساع والاشتمال في حيث يلتبس أمره أهو بنطال أم شروال أم مئزر أم ملحفة لحاف، رأسه حليق ووجهه كره.

هو أيضاً يرسم وجهه المكتز، بخديه المطبلجين المحتقنين بالحمرة، مشاركة صادقة في الأسى العام، ولكنه لا يفلح في جعل حزنه حزناً بكل ما تتضمنه الكلمة من انكسار، وهبوط وجه، وهمود أجفان واصطناع المذلة أمام الموت الذي لاراد له ولا دافع. ولكن، واضح أنه حاول جهد اجتهاده، وإن لم يوفق إلى أكثر من هيئة الولد السمين الحردان هذه.

عند الباب، عن يساره هو ورجل آخر على النقيض التام من هذا المربرب الحردان مخلوق نحيف، متوفز، مشدود الأعصاب الوجه، أشيب، بؤبؤاه يغزلان في حضور يشمل كل شي: الباب، المعزين، ساقي القهوة، مقرئي القرآن... هذا هو أخو الفقيد الأكبر. وفكر صاحبنا: «لكل من هؤلاء شاغله، ولكن آخر الشواغل هو المرحوم!» وفكر مرة أخرى - في محاولة لاقتلاع نفسه نهائياً من إمكان الانفجار بضحك مجنون - إن همومه كثيرة لا تنهض بها كتفاه إلا بشق النفس: عليه سبعة آلاف ليرة دين! الميت؟ يا نياله! هذا لا يطالبه أحد منذ الآن بأي دين. لقد ترك الشقا على من بقي وأخذ درب طريقه وقال : يا قديم الإحسان ، يا من سترت لا تفضح!

«وأما أنا فعلي سبعة آلاف ليرة دين ، وابني رسب في الفحص!». أفلتت قربه شهقة حارقة أعقبها نشيج، كان مصدرهما ابن الفقيد. فتى عيناه غائرتان، خفيفتا الرموش، ممصوص كأنه يأكل من مال الوقف، ممطوط العنق، بادي عروق اليدين... وانتهره عمه العصبي الأشيب ذو البؤبؤين اللذين يغزلان، وهو يعض على شفته السفلى:

- وهيب!

وحاول الفتى أن يكبح جماح نفسه، ولكن شقاته ونشيجه انقلبت إلى نحيب صامت بعبرات غزار تهز بدنه كله. وعاد العم ينتهره:

- وهيب!

كان المعزون قد التفتوا كلهم نحو العم، ثم ناحية الفقيد وحرك الرجل السمين الذي في الصدر عينيه في تراخ واستسلام، ثم أطلق تجشؤاً عريضاً، ضخماً، رابي الكرش كأنه بالون يفقع. تجشؤ اندفع في حجم ثم أخذ يتسع مثل البوق في تعاظم دائري، مثل انديابح بركة ماء ألقي فيها حجر، حتى كنس الغرفة كلها، وزاد اتساعاً وهو يخترق الحيطان إلى الخارج.

بضعة الرجال الآخرين كانت وجوههم حيادية، قسماتها ما فيها ما يلفت النظر لتفرد أو تميز. أحدهم فقط كان له خال في مكان ما من وجهه، وساقه الملفوفة على الأخرى تنبض.

في هذه الأثناء، كان يتناهى من الغرفة المجاورة صرخات نسوية وعويل وندب. شيء يقبض على القلب كأنه المخالب. ولكن، مباشرة بعد تجشؤ السمين الذي في صدر الرجال، شق رتابة النواح، التي لما تكن عالية حتى الآن، صوت ثاقب كأنه الولولة لم يتسن لصاحبنا أن يتبين أهو صوت أخت الفقيد أم صوت جارتهم بنت بيت أم فتحي. ولكنه غلب الاحتمال الأول، وإن لم يكن قطعاً صوت زوجة الفقيد:

«ليتني أبلى. يبعت لي الحمى إن شاء الله. يا دلي من بعدك يا أبو وهيب. يا يتمك يا وهيب. يا دلك يا وهيب من بعد بيك. يا حسرات قلبي، ريحة ماء غسالة كولونيا، عطر. ليتني في البلى، المغسل يسكب الماء وريحة الماورد تهف. الحمام كله عبق بالريحة الطيبة تفوح من كل جسده، من أظافر رجليه، من رأسه، من وجهه. لا تقولي إلا ياسمين. ويلي علي، يا شمعدان البيت، يا ميتم، يا مرمل، يا مشمت فينا الأعداء، يا نخلة، يا حورتنا، يا حلو، يا سكر نبات».

واستمرت الندابة تعدد مناقب «شمعدان البيت ، الميتم، المرمل، النخلة، الحورة،» وذكرت أنه «ليتني أبلى» خفيف الظل: أول البارحة فقط، كان يمازح زوجها ويقول له: «فاطمة لا تحبك كثيراً!» ايهي، ايهي، ايهي... والمرحوم، يبعت لي الحمى، كريم، كرم على درب، اللقمة ال في فمه ما هي له ايهي، ايهي، ايهي - ايهي، ايهي، ايهي... والميتم، المرمل، النخلة، شمعدان

البيت، الحورة، السروة... ديّن، لا يقطع وقتاً من الصلاة وراء الإمام في الجامع منذ أن أبلغ، حتى أنه نبتت له زبيبة صلاة في جبينه، يا حسرتي عليك، يا مقطع حصر الجامع... وفي يده لله يقبر قلبي. عندما يمر به فقير تسيل دموعه على عرض خدوده. مرة ما نام الليل يا دلي لأنه صادف امرأة عجوزاً تمشي ورأسها بين ساقيها وعكازها. يا قلبي القرش عندو والألف سواء. العد ما عرفه في حياته!

كان صاحبنا، أبو الوجوم المصطنع والعينين النهابتين الفضوليتين، قد أفلت ذراعه، وعاد لا يستند إلى قفا يده في اكتئاب. كانت عيناه الآن تتسعان، تزدادان اتساعاً كلما ازدادت مراثي المرأة شمولاً لمناقب شمعدان البيت . قال في نفسه:

«العمى، هذا كله غلط في غلط. حورة، نخلة، سروه؟ أي كان - الله يرحمه - لا يزيد طوله على متر وخمسة سنتي ، كامداً ، أسمر سمرة غامقة، ليس فيها من شقرة الشمعدان لا كثير ولا قليل. خفيف الظل؟ ! لا أحد ينكر أنه كان الله يرحمه يلقي نكات أحياناً.. ولكنه أولا يسيء اختيار وقت إلقائها ثانياً لا يضحك منها إلا هو وحده. ثالثاً، يلعب يديه في ضرب جلاسه على أفخاذهم أو ظهورهم، أو يلكزهم في خواصرهم إذا لم يموتوا من الضحك من نكاته... كرم على درب؟! هذه أكبر كذبة في العالم ، فقد كان - الله يرحمه - بخيلاً على نحو أسطوري، ويحب اللهطة، ويحاول أن يعلقها كل يوم على رفيق أو أي كان من معارفه أو معارف معارفه لأنه ليس بصعب إطلاقا في هذه البابة، وحتى حينما يتفق على أن يكون العشاء أو السكرة مشتركة فإنه يتساكر آخر الليل دائماً حتى لا يدفع. وكان - الله يرحمه - يتمتع بأنف كلب بوليسي يهديه إلى حفلات الكوكتيل في السفارات أو المراكز الثقافية الأجنبية أو أجنحة المعرض، فيقلفط من معارفه الصحافيين بطاقات يذهب هو وزوجه بها إلى هذه الحفلات، ولا يكتفي بالأكل والشرب حتى توقف أذناه، وحث امرأته على ذلك بل يدحش في محفظة الزوجة قطع البتفور، والغاتو ملفوفاً بأوراق، والفواكه.. حتى يؤمن ترويقة الغد! ... وراء الأمام؟ الصلوات

حاضرة ؟ زبيبة صلاة في جبهته؟ الله يرحمه، في عمره ما أدار وجهه نحو القبلة إلا في المشي... يحب الفقراء؟ العمى، كانت نظريته الجوهرية تقوم على استهجان الصدقة، واعتبارها أكبر مفسدة حتى للسائلين أنفسهم. أولاً، لأن في البلد جمعيات يرتشون من الشحاذين حتى يغضوا الطرف عنهم إذا هم تسولوا علناً... ولكن جمعيات مماثلة في اللاذقية وحمص وادلب كانت فاجعة في قطع دابر التسول نهائياً. ثانياً، لأن الصدقة تشجع على الشحاذة، هذا المرض الوبيل الذي يهدد مجتمعنا وسمعتنا أمام السياح الأجانب. ثالثاً، الصدقة، وهي المكسب دون رسمال، تشجع على الكسل ورخي البدن... وأما عن أن رائحة ماء غسله وكأنها مثل الفل، فهذا غير مقبول لا من قريب ولا من بعيد، لأن المرحوم، حتى وهو حي، كانت له رائحة رجلين رهيبة. وصاحبنا يذكر أنه وإياه نزلا مرة في فندق في حلب، فلم يستطع النوم إلا بعد أن وضع صباط المرحوم وجوربيه في الممر. ناهيك بأنه - الله يرحمه - كانت له رائحة فم أبخر يعادل شمه تنشق الغاز الخانق الذي كان يستخدمه المحاربون في حرب الـ١٤-١٨»!

وصدر عن السمين الذي في الصدر تجشؤ أقوى من الأول هرب نصف الحاضرين، وكان فيهم صاحبنا ذو العينين النهابتين الفضوليتين!

* * *

المطارَد

أحرقته عيناه حين دمعت اليسرى وهمت الأخرى. ولكن غبطته كانت أقوى. أنه منذ الأمس متوعك، يحس كأن يداً تقبض على قلبه. يبرد : يختلج فيأخذ اللحاف حتى ذقنه: ثم لا يلبث أن يزخَّه عرق بارد يسيل من جبهته حتى حاجبيه، ومن صفحتي خده حتى رقبته وعلى طول صدره وفخذيه وساقيه. بيد أنه في حبور: بعض الكتب يشبه أن يكون شاسعاً كأنه المحيط ، لا تمل لقياه. ومنذ الصفحات الأولى تتمنى لو أن بدايته لا نهاية لها، أن تتريث هذا أكبر وقت ممكن قبل أن تَحُمَّ. الكاتب في مثل هذه الكتب يوارب كل سطرين باباً سبق لك أن حدسته من قبل، سبق أن مخر نهرَ أفكارك على نحو خاطف، غامض غارق في الضباب. وها هو ذا الكاتب يجعله يمر بك مستأنياً فتستطيع أن تتأمله ما شئت، في كل تفاصيله. ولعل للضجعة المستريحة في السرير الرحيب النظيف، والوهن الذي يحسه أثراً في غبطته: الكومودينا عن يسار، عليها تلَّة ياسمين قطعتها ابنته العشية تنسم عرفا ناعماً . الوقت بعد منتصف الليل. المصباح ينثر ضوءاً أصفر لطيفاً ويرسم على الجدار وراءه وفي السقف دوائر من نور ، القراءة في الليل، إذا كان الكتاب مثل هذا، الممتع المحيّر العميق الذي بين يديه، تحمله على الظن أن بينه وبين الكاتب نوعاً من التواطؤ: إنهما الوحيدان الساهران المتفكران في قلب هذا الليل الذي ينقل خطى خرساء تعمق الوسن في الأعين الهاجعة.

ولعل هذه الغبطة، على الرغم من المرض ، وهذا الحبور بالقراءة أن يكون لهما سبب أبعد . فقد استطاع أن يحيِّد الأزمة القاتلة التي أعقبت خناقته مع الوزير: وأمر نقله إلى درعا على أثر الخناقة، وامتناعه عن السفر وإحالته على المحاكم بتهمة انقطاعه عن العمل خمسة عشر يوماً، عامئذٍ وحاصرته

السلطات سواء في القهوة أو في خمارة أبو ناصيف، أو في كافتيريا الكواكب، الأماكن الوحيدة التي كان يرتادها. أخذوا يرسلون عملاءهم ليستفزوه. أحد هؤلاء أخرج مسدسه ووضعه على منضدته. وما تزال حتى الآن سيارة لندروفر تمر كل يوم من قدام النافذة. كان لا ينام في الليل إلا لمحا (في بلدته يقولون: فززا) وقد يغفو بضع ثوان فيرى نفسه في قبو من أقبية محاكم التحقيق في القرون الوسطى التي في السينما، مشدود الأطراف بالحبال، معلقاً بين الأرض والسماء، يتقلَّب عليه جلادون يسوطونه آناء الليل وأطراف النهار ثلاث ورديات في الأربع والعشرين ساعة. صار يشك حتى في زوجته وأهلها، وسكان الحي، إذ فكر كيف يمكن أن يظل البيت على نفقاته الكبيرة: وقد هبط دخله هو إلى النصف؟ كانت أياماً كالعلقم يتجرعها وحده، وحيداً ، لا يجرؤ على البوح لأحد إلا لذلك الطبيب النفساني - العصبي الذي نصحه به صديق قديم: لم يشرح له الأزمة كلها ولكنه اقتصر على التلميح حتى لما أغلق الطبيب عليهما باب غرفة الفحص وبدأ أسئلته لم يقل له كل شيء. لو أراد أن يفعل، مجرد أن يروي أبرز حوادث سيرورة عذابات الشهادة التي لقيها، لاحتاج إلى يوم كامل في القليل. لذلك اكتفى بالخطوط العامة، بالعراك المرعب الذي جرى بينه وبين الجنون لما التحما في مبارزة حتى الموت على أشفاء هاوية سحيقة كل شفا يمكن أن يؤدي به إلى اللاقرارة. ما عسى أن يستطيع الطبيب من أجل عونه: تغيير الجو: رحلة إلى الشاطىء مثلاً، الراحة، ولاسيما النفسية: لا مشكلات، لا هزات في البيت أو الشارع، وتأتي من بعد المنتجات الصيدلانية الأجنبية التي جربت، وربما نجحت بعض الشيء، هناك، على مرضى من بيئات وتركيب غير بيئاتنا وتركيبنا وجغرافيتنا وتاريخنا وحتى جملتنا العصبية : مهدئ من عيار ٥ مم يرفع في حالات يقررها الطبيب المداوي حتى ١٠ مم الخ.

في أثناء الفحص، والطبيب يطرح الأسئلة ويتلقى إجاباته عنها، خطر له أن طريقة هذا الإنسان الخامد، الذي يتربع وراء مكتبه الشاسع تتناثر عليه النشرات الطبية النفسية والتحليل - نفسية (ولعلَّه، أي الطبيب، أن يكون هو

نفسه ثلاثة أرباع مصاب بعُصاب ما.) إنما تدل - برتابة لهجتها وونائها وحيادها - على أن هذا «الطبيب المداوي» إنما يعتبره، هو الذي تميد به الأرض وتنسحب من تحت قدميه، رقماً من الأرقام، حالا، مَثَلُه مثل هذه القروية ذات النظرات الشعثاء التي خرجت للتو من غرفة الفحص، رقماً لا يتخلف بشيء مميز عن ذاك الكهل المهندم الساهم الذي كان يقعد قربه على الكنبة الجلدية في غرفة الانتظار. أكثر من هذا أن عينيه ضبطتا الطبيب، أكثر من مرة خلال الجلسة: وهو يُخْمِد تثاؤبة كانت توشك أن تظهر بصوت مدوٍ:

- العمر؟

- حوالي الخمسين.

- في الأسرة سوابق؟

- منذ متى؟

- من أبعد ما تعيه ذاكرة الأسرة؟

- لا أدري: ولم يبلغ سمعي ، حتى من الشيوخ والعجائز، أن حالا وقعت لأحد من أسلافنا تشبه هذه (هنا بدأ السأم والإحساس باللاجدوى يتسرب إليه هو نفسه حتى أخمد مشروعاً قوياً بالتثاؤب.)

- في أي عضو تحس الضيق أكثر ما تحس؟ -

- أأنا أدري ؟ أنا الضيق نفسه. أنا ضيق الوجود ذاته وتوقه إلى الانعتاق من ذاته (أين سمع هذه الجملة؟ أقرأها) أحس أن قلبي عصفور قريب عهد بالحبس سنحت له غفلة من سجّانه الذي نسي باب القفص مفتوحاً (هذه أيضاً ليست جديدة، وتفوح منها رائحة الرغبة في الجريان مع الشائع، المستهلك!) أخاف أن أنظر إلى صحن الدار من السطح. أشعر أن قلبي يهم بالتدحرج بين رجلي حتى حرف السطح ثم السقوط على بلاط الديار!.

أجل، بطّال ولا يحسن أن يبدأ حياة جديدة غير تلك المكرورة غير الاختصاصية، الجاحدة المجحودة التي قضاها في المكتب ثلاثين عاماً قضاها في حك الأوراق، استقبال الأوراق، توديع الأوراق، ضم الأوراق بعضها إلى بعض بدبابيس وشكالات وصنع إضبارة منها. كل بضع إضبارات من الأوراق، التي تصل فيما بينها أواصر قربى، تصنع مصنفاً ، وهكذا، من له، ما له، ما يربطه بهذه المدينة؟ زوجته ذاتها، من بلدته الصغيرة، ما تزال غريبة حتى في لهجتها. ليس لها صديقات من المدينة. أولاده لهم لهجتان، الأولى في البيت والأخرى في الزقاق والمدرسة. لماذا لا يعقد العزم على هجرة معاكسة؟ أي نعم، يعود إلى بلدته الصغيرة الهادئة الطيبة حتى السذاجة، بلدة نصفها قرية ونصفها نصف مدينة. في الريف، حوادث العصاب بأنواعه غريبة، نادرة، في الريف لم يسمع أحد عن شخص كل مظاهره عادية، يأكل ويشرب في مواعيد محددة، وبالشوكة والسكين أحياناً، ويعلم أن الليلة هي الجمعة، وبعد بضع دقائق سيدخل يوم السبت... على السواحل اللبنانية تغير زوارق حربية إسرائيلية.. في نيكاراغوا لم يستطع سوموزا إخماد الثورة الشعبية على الرغم من مسحه مدناً بأكملها بالقنابل الحارقة.. في إيران يسقط المشايخ وطلاب الجامعات الشاه الذي كانت يده، منذ أشهر، تباس وتحط على الرأس.. رئيس الصين يزور إيران، الخ.. ومع ذلك يحمل هذا الشخص حاله، بمحض إرادته، فيدفع خمسا وعشرين ليرة سورية للممرضة ويجلس هذه الجلسة الغربية، فيحدِّث إنساناً لم يكن يعرفه من قبل قائلاً له: إنه ... ماذا؟ مجنون. المجنون في بلدته، مثل سعيد الذي لا يعرف أحد له لقباً إلا «بالمجنون» فمتى ما تقل «سعيد المجنون» يتعرفه كل طفل يحب العبث، وكل امرأة تؤمن بأن سعيد المجنون من أهل الله، ولذلك فهي تضرع إليه قائلـــة: «دخيلك يا سعيد قل لي: ابني محمد هل سينجح في صفه؟» فيجيب سعيد وهو يضع ذراعه الهرقلية على كتفها وريقه يشط عليها: «روحي، روحي إلى دارك. ابنك سيرفع إلى الصف الرابع!» حتى ولو كان الابن في الرابع فعلاً. وإذا المرأة تتفتح أساريرها بسعادة غامرة. وإذا هي تدعو لسعيد

وتخرج بضع قطع نقدية تدسها في يده وتبتعد كاسبة غانمة، حتى إذا صارت على بعد بضع خطوات من سعيد أطلق هذا ضحكة مجلجلة ورماها بقطعها النقدية... أي نعم سعيد من أهل الله، مثل كل المجانين. مسألة بديهية. وحادثة سعيد يوم حبسوه في تلك الغرفة في الحارة الشمالية لا يماري أحد في صحتها. فقد اجتمع بعض الشبان، الجهلة، من سوق الخضرة، وحبسوه في غرفة لها نافذة واحدة. ذات قضبان حديدية لا تنفذ منها قطة بنت أسبوع، وقفلوا الباب ورجعوا إلى السوق وإذا هم يرون سعيد قد عاد إليهم. ذلك أن سعيد لا يحب النوم إلا في الهواء الطلق، والملائكة الذين أخرجوه من محبسه يعلمون عنه هذا الخلق!

يعود إلى بلدته - القرية؟ لم لا، زوجته لن تقبل حتماً. كلما ذكر لها العودة تَلَعْبَجَ وجهها واندعك من اشمئزاز وقالت: «إلى البلد؟ لا وألف نبي. بعد ثلاثين سنة في الشام صارت البلدة غريبة عنا نحن غرباء عنها. أختي متزوجة هنا. ابنتي متزوجة هنا. بيتنا ملك. ماذا لنا في البلد؟ مرقد عنزة ما عندنا. إذا أردت العودة عد وحدك! «تقول هذا وأشياء كثيرة غيرها تكرجها كرجا مثل الماء وهي تشوبر بيديها الاثنتين، فيكف هو عن الإصغاء إليها ولا يعود يشغله إلا الأشكال التي ترسمها يداها وذراعاها. ما أشد ما هي غريبة عنه هذه المرأة ذات الأشكال. أصحيح أنه كان ينام معها في سرير واحد، يضع رأسها على كتفه وتغفو هي بعمق وأنفاس منتظمة ويظل هو فترة مديدة يتفكر حتى تهمده الفكَر فيبعد رأسها منه ويستسلم لنوم متقطع بالأحلام العجيبة العابرة لا تترك أثراً ولا ذكرى؟ أصحيح أنه استولدها خمس بنات وصبياً؟ لا بد أن غيره هو الذي فعل. وأما هو فعاد لا يذكر من ذلك شيئاً إلا ما تبقى بعد حكاية يحكيها له رفيق في مقهى ولا تهمه كثيراً . المرأة وأولادها أضحوا غرباء عنه كأنهم امرأة الجيران وأولاد الجيران، ومع ذلك فهو مشدود إلى هذه المرأة النصف ذات الوجه الذابل والعينين منتوفي الرموش والإشارات باليدين والذراعين لا تكف عن رسم أشكال لا حصر لها في الفضاء. إنها في الأقل موجودة ولا ترضى له الرحيل عن المدينة وفظاعات المدينة، ونفقاتها القاصمة للظهور.

ولكن قراره كان قد اتخذ وعزمه عقد، وبدأ فعلا يضع عزمه موضع التنفيذ إذ هجر مبدئياً خمارة أبو ناصيف وقصر «مباهجه» على الجلوس في إحدى القهاوي، في حي شعبي، حيث يستطيع الإنسان أن يشرب كأس شاي نظيفة طيبة بخمسة وثلاثين قرشاً: ويتسلى بالنظر إلى الناس وسماع أحاديثهم الملذة. هؤلاء ما في قلوبهم على رؤوس ألسنتهم. وقد لا يكونون سمعوا حتى بشيء اسمه دوائر الأمن. الدليل أن تنبكجي القهوة كان مرة يحاور أحد الزبائن فسأله هذا عما إذا كان في نيته الذهاب إلى المعرض الدولي هذا العام، فأجاب التنبكجي أبو جاسم قائلاً: «لا يا سيدي. بعد عن الشر وغن له. أنا والله من عشرين سنة ما وضعت رجلي في محل عام غير هذه القهوة والحمام... وضحك زبون، شيخ أعجب بشروال وصدرية صاية كان يقرقر بأركيلته في أقصى القهوة: «هيء هيءعشنا وشفنا. أبو جاسم، أما يزال فيك حيل للذهاب إلى الحمام؟ ولكن أبو جاسم استمر يقول: «قلت لي المعرض؟ أي سيدي العالم يحكون ويقفون. قالوا إنك تكون تتنزه في حالك في ذاتك بأمان الله وإذا شبّ.. يستحلي واحدة حرمة فيقرصها. تقوم الحرمة تفتح عليه حلقها على مصاريعه. جرس جمالي الله مولاه. الشبّ يشمع الخيط. يقوم الناس يتهمونك أنت الغر الغافل. وتنشق لك الأرض، بسم الله الرحمن الرحيم، عن ناس برؤوس وبلا رؤوس ينزلون بك هنا يوجعك وهنا لا يوجعك ويسوقونك إلى المخفر. وخذ بهدلة، وهات سين وجيم... أنا والله ما شفت بعيني ولكن هذا ما حكاه لي خليل بن أبو خليل. أنا والله برة الحارة خطوتين لا أتحرك!.

وظلت الحال على ذلك النحو الوادع بعض الوقت، كاد يهدأ. كادت الأشداق المحدقة به، المحيقة بسلام نفسه تخلي سبيله، إلى أن بدأ يتردد على القهوة الدرويشة وجوه جديدة. فالمقهى كل سكانه، تقريباً، من الصناع وأبناء القرى القريبة الذين يلبسون الشراويل والأحذية المكسورة والكوفيات من غير عقل. وحتى حينما كنت ترى بدلات رسمية إفرنجية فقد كانت من الأزياء السائدة في مطلع القرن: البناطيل ضيقة الأكمام، الصدريات ذات السلاسل

الفضية أو المعدنية تصل بين الجيبين الصغيرين، الشـــيالات، السترات بصفين من الأزرار طويلة حتى ما بعد المؤخرة. هؤلاء موظفون متقاعدون، بقوا طوال خدمتهم كَتَبة منسيين بين أوراق غبراء فيها أحياناً قشر برتقال كان ييبس لإلقائه في المدافئ. وأما هؤلاء الوافدون الجدد فشبان، يلبسون الجنز ويطيلون شعورهم وينتعلون أحذية عالية كعوبها، وفي معاصمهم دائماً أسورة من الزرد فضية حفر على صفحتها الحرفان الأولان من أسمائهم.. وهم ينظرون إلى الناس في إحداد نظرات مستريبة.

دخل أحدهم القهوة وبدأ بأن توجه إلى البوفيه وعاد منها إلى الوسط حيث وقف يشمل المقاعد والطاولات، بنظرة دائرة ، من عل. كان إلى طاولته كرسي فدنا منه ووضع كأس شايه وهو يقول له بلهجة ذات مغزى:

- أظن أنك تسمح.

هل قال: أظن أنك» أو أنها كانت (تسمح) فقط؟ إنه لا يستطيع الجزم فسمعه قد ضعف جداً تلك الأيام، أكثر مما كان قبل.

قبل أن يجلس أخرج من جيبه علبة سيكارات فرنسية زرقاء مربعة وقداحة ذهبية ووضعها على الطاولة كأنه يرميها رمياً. وعاد ينظر إليه وهو يقعد:

- مرحباً يا أخ.

ما هذا. الفتى لما يبلغ الرابعة والعشرين وهو يتجاوز الخمسين، فما معنى هذه الـــ «يا أخ؟» بدأ الاستفزاز إذن! إن هذا الفتى منهم. «هم».. لن يدعوه قبل أن يلفظوه خرقة، شبه مخلوق إنساني. ها هم أولاء يستبدلون بالمسدسات علب السيكارات الفرنسية والقداحات اللماعة، الأميركية، وعملهم - وهم يعلمون ما يفعلون – لا فرنسي ولا أميركي. إنه التعذيب الصيني الذي كان يضرب به المثل. واضح أنهم لا يريدون أن يريحوه بطلقة نار في قذاله، أو بدعسة بسيارة اللندروفر المواظبة على مطاردته. «هم» يريدون أن يصفوا دمه قطرة قطرة وهم يقلبون على أقفيتهم مقهقهين نشوانين حتى السلطنة والخمار.

- أهلاً وسهلاً، قالها في دماثة حتى لا يعلق في شباك لعبة استفزاز الآخر.

- من أين العم؟

الآن صار «العم» هذه أشوى، أم أنها جزء من لعبهم به وتلذذهم بتعذيبه تلذذاً يشبه الدعاب الذي يسبق المضاجعة وذروتها النهائية؟ قال للآخر مصابراً وحاول أن يرفق صوته إلى أبعد حد.

- من هنا!

- تأتي كثيراً إلى هذه القهوة؟

- كثيراً. لماذا السؤال من فضلكم؟

ضحك الآخر ضحكة عريضة:

- هكذا ، حتى نقتل... الوقت . وضحك مرة أخرى.

تمهل في كلمة «نقتل» وترك بينها وبين «الوقت» وقفة. والضحكة من يسمعها وهو خالي الذهن خليّ يحسبها بريئة، تطفح غرارة وصبا.. ولكن من يتجرعها متمطقاً بها يدرك أنها خبيثة، لئيمة، متشفية ، شيطانية.

- وتأتي إلى هنا كل يوم على الرغم من هندامك المقبول و ...

أشار بغمزة من عينيه إلى رثاثة القهوة. وعاد يضحك وقد خفض صوته قليلاً:

- الطاولات كانت مع نوح في الفُلك. والنكتة أن منافض السيكارات (وحاول أن يزحزح تلك التي كانت على منضدتهما) مثبتة على خشب الطاولة بمسار مع أنها، انظر ، من أرخص أنواع الفونت.

- هنا أهدأ. والناس..

- معك حق. قهوة لها هوية. ولكنك لم تسألني من أين أنا.

- أنا أصغي إليكم.

- أنا يا سيدي من الشمال. درست هناك حتى البكالوريا. أخذتها من ثلاث سنوات. السنة الأولى تسجلت في الحقوق. ما أحببتها: ايش هذا ؟ كل

حركة يتحركها الإنسان. مذ هو جنين وحتى قبل، تكبل بمادة في قانون ما. وحمورابي وجوستينيان والفقه.. السنة الثانية انتسبت إلى كلية الآداب، قسم التاريخ. هذا ما طقته كذلك: الإمبراطورية الرومانية متى سقطت. إذا قلت ٤٧٥ بدلاً من ٤٧٦ أكلت هوا.. وسقوط القسطنطينية بيد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ هو نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة.. ما عسى أن يهمني كل هذا ؟ قمت هذه السنة انتسبت إلى قسم اللغة العربية. هذا أبلد الأقسام جميعاً. تصور أنهم ما يزالون يبحثون في أصل كلمة «الاسم» أهو «وسم» أم «سمة»؟ وأن الجمل من حيث كونها كونها ذات محل من الأعراب أو ليست بذات محل أربع عشرة.. شيء يطلع خلق أيوب ذاته. ولكني (يضحك) لا أذهب إلى الجامعة إلا من أجل البنات (يبوس الهواء) صبايا الفل الفلل المكبسة. المسكينات! هن الوحيدات اللواتي يقبضن المسألة بقلب ورب ويكدحن مثل النمل» أسفي على العيون الجميلة تتعب في حفظ «مغني اللبيب» و«مغني المغني» و«الجاسوس على القاموس» (نقرة شديدة من الجليس الكهل حاول أن يموهها بتعديل جلسته.) أتعلم ؟ أنا فكري أن أصير كاتب قصة ورواية ، لذلك أحب مراقبة الناس...

قطب الكهل حاجبيه. ها هو ذا الفتى يفضح نفسه بيده. ولكن لماذا يسمي الأشياء بغير أسمائها فيقول: «مراقبة الناس» ولا يقول: «مخبر » ؟ . وهذه «الجاسوس على القاموس» ما هي ؟ قال في لهجة ملتبسة:

- حلوة مراقبة الناس، أليس كذلك؟

- أووه. روح قلبي مراقبة الناس. الوجوه، الوجوه يا للّه كم أحب مراقبة الوجوه! الوجوه التي أصادفها في الطريق تحكي معي، تروي لي حكايات ، تحيرني، تنطبع قسماتها في دماغي إلى الأبد ، تتعايش تتماحى ، تطل عليّ وأنا مغمض عيني بيمن نائم ويقظان. بعضها أعجف غضونه كأنها برونز محفور وبعضها مطبلج، طيب، يحب القبوات ومحشي الكوسا، وبعض مبطخ بليد مثل الخنزير الأهلي.. يا حبذا لو أنني رسام، إذن لنظرت إلى الوجه الذي يحكي، الوجه ذي الشخصية المميزة، نظرة خاطفة واحدة لا أثنيها

أرسمه بعدها حتى قراراته العميقة. مستحيل أن أنسى وجهاً أدمت إليه النظر بضع ثوان وجذبني إليه معنى خذ نفسك مثلاً: هذه الجلسة راحت معي إلى الأبد. بعد عشرين سنة إذا أنا صادفتك في سوق كسوق الحميدية بين ألف وجه نكشتك بطرفة عين: الثنيات التي على طرفي عينيك، غبغبك، أنفك الصغير (يضحك) كرشك، تسريحة شعرك، اليأس في حركاتك. كل شيء، أبدا كل شيء. مسألة مذهلة. وكثيراً ما أطير عقول رفاقي: أكون ماشياً مع أحدهم فيهمس لي: «انتبه إلى هذا الرجل المقبل علينا من أقصى الرصيف. حدق فيه جيداً لأني متى ما يمرق أقص لك قصة عنه لا تتساها». ويمرق الرجل، ويحكي لي رفيقي قصته، وتمضي سنة، سنتان ويصادف أن ألمح الرجل على بعد مئة متر فألكز رفيقي وأقول له بدوري: «انتبه إلى ذاك الرجل هناك. أليس هو الذي رويت لي حكايته قبل سنتين، أتذكر؟» فتتدور عينا الرفيق ويهتف مروعاً: «يخرب بيتك يا محمود. ولك أنت جني. ولك أنا نفسي نسيت القصة والرجل. أنا الآن فقط أتذكرهما، وعلى نحو غامض من أجل خاطرك!».

وضحك في مرح واستمر:

- بعض رفاقي ينصح لي بالعمل في الأمن الجنائي.

الكهل يقول في نفسه: « ولكنك هو!» ويسأل الفتى:

- قل لي الآن: وأنت ايش؟

- أنا موظف متقاعد.

- أعرف، أعرف. واللّه العظيم كنت أنوي أن أقول لك الكهل مرعوب.

- من أين عرفت؟

الفتى يمسك خواصره من الضحك:

- من وجهك الهابط كأنك قاعد في لازمة.

ولكن أقصى ذهوله سيكون في المساء. حينما كان يتمشى حول حديقة التجارة حيث المصابيح باهتة وإذا هو بصوت يهتف به:

- مرحباً يا عم.

غمغم بما يشبه الرد. قال الآخر:

- لا بد أنك لم تعرفني .

- لا، عفواً. لم أتشرف.

- أنا رفيق القهوة اليوم الصبح. أم أنك نسيت (يضحك) أنا لاحقك على الدعسة، قال هذا واختفى في الظلمة.

يا أبالسة الجحيم! هل بقي موقع... لظفر قدم من شك؟ إنه مطارد . يحصون عليه أنفاسه. لو أن هذا الشيطان لم يهرب لأمسك بتلابيبه وراح يدعه في أقرب جدار وهو يصرخ صراخاً يطبِّق الحي حتى ساحة العباسيين: «حطموني، اقتلوني، اسحقوني تحت تركس، مُصُّوا دمي... ولكن افعلوها كما يفعلها الرجال جهرة، في وضح النهار. عصبة المجرمين يا أنتم، خذوني إلى الحبس،اشنقوني على قمة الجبل، ولكن ريحوني.» وجعل يقول مثل هذا في صوت عال وهو يقبض يديه ويؤرجحهما ويضرب، يخبط بهما جسماً بجدار.

متى عاد إلى البيت؟ اللّه أعلم ولكنه حين فتح الباب وانسل عبر الدهليز إلى الديار فاجأته نظرات زوجه المذعورة، وأن بعض أولاده أيقاظ. لم يلتفت إليهم. أقفل عليه باب غرفته. كان يختنق، يحتضر: بدرت منه التفاتة نحو المرآة الصغيرة التي على الكومودينا: شبح أشعث سقيم. حطام. كان يحسّ أن مصدر اختناقه الشديد إنما هي ثيابه. كانت تشبه قميص الكبح الذي يشد به المجانين الخطرون. وثب على ثيابه ينتزعها انتزاعاً، كلها ، حتى الداخلية، والاختناق ما يبرح يُضيِّق على كل مسام فيه. ارتمى على السرير الرحب النظيف المقيت واستسلم لبكاء تقطعه الشهقات زلزلهُ زلزالاً شديداً. كان يردد: «وحيد، يا رباه كم أنا وحيدا!».

ومكث في غرفته لا يخرج يومين؟ ثلاثة؟ عاد لا يذكر. كان زاده طوال هذه المدة البكاء وبعض قطرات ماء يذهب فيطلبها من حنفيةالمطبخ

وهو بثيابه الداخلية فقط. عندما يخرج يتراكض أولاده ويختفون وأما هو فلا يأبه لشيء. لزم صمتاً مطبقاً عنيداً، غير مؤذ ولكنه عنيد.

اليوم الثالث أو الرابع لبس ثيابه وذهب إلى عيادة الطبيب. لماذا الطبيب؟ لأن الكافيتيريا أصبحت مستحيلة. خمارة أبو ناصيف لا يمكن أن تخطر له على بال. القهوة الشعبية؟ هذه شرّ الثلاث. لم يبق له غير الطبيب. هذا في الأقل لا يبدو عليه أنه «منهم». وهو يكلمه على أية حال. لقاء خمس وعشرين؟ فليكن. ومن يدري! لعل اللقاء الأول ما كان مخيباً لأمله إلا أنه كان جلسة سبر وتقص مبدئي للحقائق.

فعلاً، كان الطبيب هذه المرة أكثر حفاوة، هذا التحول المبين. ولكن حقيقة الأمر تكمن في تلك الزيارة العاصفة المؤسية التي قامت بها زوجته صبيحة لقيامه المشؤومة وذلك «المخبر» قرب الحديقة. في الليل، بعد عودته، لم تنم المرأة المسكينة حتى جهجة الضوء. كانت تروح وتجيء إلى باب غرفته. تنظر من ثقب الباب فتلمحه عارياً يطب على وجهه فوق المخدة ويبكي. لم تجرؤ على قرع الباب. خافت أن يستيقظ الأطفال، الذين هدهم التعب والرعب فهووا في سبات ثقيل، حتى لا يروا أباهم، ربّ البيت البرّ الحنون، على مثل هذه الحال الفاجعة.

أصغى إليها في اهتمام. طرح أسئلة. أجابت إجابات يبترها النشيج أحياناً حتى يسود الصمت فترة طويلة. وهتفت لما نضبت دموعها وقواها:

- أنا داخلة عليك يا حكيم. داخلة على اللّه وعليك.

في السادسة والثلاثين، موظفة في إحدى الوزارات، عفة، على قدر من القسامة.

- و...

واعتبق وجهها كله بحمرة قانية.

- أنت حكيم وتفهم كل شيء ويجب أن أصارحك. تصور أنه منذ مدة طويلة عاد لا يعتبرني امرأة. لا يرى أن لي جسداً.

وعادت تنشج. قال الطبيب في هدوء:

- اسمعي يا سيدتي. أنا لا أزعم أن الطب النفساني قادر على المعجزات. إنه طب صغير السن، غر من الأغرار إذا هو قيس بفروع له أخوة راشدين، وابتسم راضياً عن هذه الصورة البيانية وتابع، مثل الطب الداخلي والجراحة. ولكنّ المشكلة عندنا، وحتى في الغرب أحياناً، أن ناسنا لا يخجلون من التوجه إلى مستشفى أو طبيب عام إذا ألم بهم مرض من الأمراض الجسمانية المعروفة، في حين أنهم يصابون بهلع وشعور صاعق بالعار من أن يقال لهم أنكم، أو إن مريضكم في حاجة إلى مستشفى للأمراض العقلية أو العصبية! أليس المرض العقلي أو العصبي مرضاً مثل سائر الأمراض، ونحن جميعنا مصابون أو معرضون للإصابة به على نحو أو آخر، قليلاً أو كثيراً؟

- الحل إذن يا حكيم؟

- لو كنت على ثقة بأن مستشفى الأمراض العقلية عندنا كفؤ لما ترددت في النصح لك بأخذه إليه، ولكنت بذلت وسعي في مساعدتك. ولكن، مع الحال الحاضرة وتفصيل أسبابها شرح يطول، ليس أمامنا إلا أن نتعاون أنت وأنا في التلطف بعلاجه.

- كيف؟

- يجب أن أراه مرة أخرى، لأنني المرة السابقة لم أستطع أن أعطي أكثر من تشخيص أولي. ناهيك بأن حاله يومئذ كانت أخف منها في وصفها الذي قدمته لي الآن. وهذا طبيعي في الأمراض التي من هذا النوع. أحياناً تتسمَّر مدة طويلة على درجة معينة من درجات المرض. وأحياناً تقفز قفزات تبعث على الدوار ويتدهور المريض وفق قانون التسارع. قولي لي يا سيدتي! هل كانت للسيد زوجك هوايات قبل مرضه؟

- لا، كانت هوايته الوحيدة أن يأخذ كأساً. ليس في البيت، أعوذ باللّه، كان يأبى أن يشعر الأولاد أنه يشرب، ولكن في مشرب. وقد ينقطع أحياناً إلى القراءة.

- يقرأ شيئاً معيناً.

- لا، الكتب التي يقتنيها متنوعة.

- إذن شجعيه على القراءة. ادخلي في ذهنه أنه ما دام قد شح دخله فليجرب الكتابة في الصحف والمجلات مثلاً لعلها أن تدر عليه دخلاً إضافياً يعين في القيام بأعباء هذه الأسرة الكبيرة. افعلي هذا. وسأفعل أنا من جهتي شيئاً مشابهاً. وحاولي أن تكوني برة به. ممرضة أكثر منك زوجاً. إذا لم تنشر له الصحف شيئاً في البداية فزيني له أن يكتب مذكرات، رسائل إلى أصدقائه يطرّي بها قلمه فينطلق طيِّعاً لدنا من بعد.

- أبعد الخمسين يا حكيم؟

- بعد الستين. ما علاقة العمر هنا؟ ولكن، أنا لست في حاجة، مع امرأة ذكية ومثقفة مثلك، إلى أن أسألك كتمان زيارتك لي.

لم يكن الطبيب، كما في الانطباع الأول الذي تكوَّن عند صاحبنا بعد الجلسة الأولى، خامداً يضع كل مرضاه في كيس واحد. لقد كان طبيباً دؤوباً يدوِّن مذكرات يومية، بعض صفحاتها يشبه أن يكون أدباً طبياً. وهو يلاحق كل الحركة الدائبة في مضماره وثمار الأبحاث في العالم التي لم تكلَّ قبل تخرجه من مدرسة الطب في فرنسا واستمرت بل زاد زخمها بعد تخرجه. وقد كتب عشية زيارة المرأة الملوعة في يومياته يقول:

«زارتني اليوم السيدة «عين» زوجة «صاد» الذي حررت مذكرات أولية عن زيارة سابقة له يوم... من شهر... هذا العام». وقد شخصت يومئذ أن «صاد» مصاب ببداية سكيزوفرينيا. يجب التعمق في دراسة أسباب ظهور الإصابة والبحث عنها في ماضي الرجل وحاضره. ولكن الطريف في الزوجة أنها، على ثقافتها العامة الحسنة، تتمتع بعفوية أخاذة، وتبسط لي الأمور في صراحة هي أبعد ما تكون من تصنع الحياء إلا في الفقرات التي تستدعي الحياء ويكون فيها طبيعياً. إن زوجها، على ما فهمت منها، يزداد انفصاله عن كل ما له علاقة بالواقع، حتى بما له صلة مع جسده هو وجسدها الفتي هي. ولعله في عالمه أو عوالمه الخاصة، قد كوَّن لنفسه أو أنه في طريقه لأن

يكون لنفسه جنة عدن صغيرة تجري من تحتها الأنهار، ينعم فيها بالبلهنية والغبطة اللانهائيتين. ولا كذلك هي المحرومة، الممزقة بين وجائب عملها في الوزارة الذي تأكل خبزها منه، وحقوق الأطفال عليها، وحاجة الزوج إلى العلاج المكلف والعناية والرقابة. صحيح أنه لا يؤذي، لا ينفع ولا يضر في بحرانه المقيم وعطالته المديدة: ولكنه طوال النهار ساهم أو منطلق هائماً على وجهه يعلم اللّه أين.

«أنكى من هذا: من ذا الذي أخبر كل الرجال الذين يحيطون بها، من زملائها في العمل، إلى الخضري في رأس الحارة، إلى الخياطة الشاذة، إلى اللحام والسمان... بأن زوجها قد رُدَّ إلى اللا عمل، إلى اللا فعل فرأوا من واجبهم أن يضيقوا عليها الخناق يريدون أن يخرجوها عن لباس العفة الذي تسربلت به والألية التي آلتها من ضميرها أن لا تخون ولا تكون قدوة سيئة للبنات من أولادها من أدركن منهن ومن لما يبلغن بعد سن التمييز والسؤال والبحبشة والفضول الملحاح. ولكنها، هي، تحتاج إلى هذا الدفء المريح تضيء به اللقيا، الدفء الذي يستشعره حتى الخروف إذا كان في عشرة نظرائه، فكيف بالإنسان، وتنشد هذا الدفء وتسعى إليه. وما أن تخلو إلى هذا الإنسان تبثه شكاتها وجراحاتها النغارة المفتوحة حتى يُهْوِي على أذنيها بخطبة شاسعة عن أننا إنما نحيا حياة واحدة، وأن صبانا، كوننا مشتهين، وسيمين قسيمين... في سباق مع الزمان الذي لا يرحم، وما هي إلا أن نفتح عيناً ونغمض عيناً حتى نرى الرونق الصقيل قد كمد، وإذا النضارة والغضارة قد فسحت المجال للغضون والتجاعيد والسعال والربو وتصلب الشرايين... فالحكمة الحكمة، الرجاحة الرجاحة في أن ننهب اللذات ونتمتع بنعمة الصبا الهروب واحزن قلبي! ولا يكن لك فكر: محدثك عنده مطرح للسر، حبّ عميق وجبل عتيق. إنه إنسان كتوم، سرّك معه في حرز مصون حريز!!

«والأطفال، ولاسيما الذين ما يزالون منهم زغباً كأفراخ اليمام؟ والطفل الآخر، أبوهم؟ كلا! كلا! كلا!...

«الحل إذن؟ هل تطلب الطلاق؟ قد تحصل عليه. ولكن الرجل، أبا أولادها، يصفّي في الشارع، هزأة الأولاد وهدف حجارتهم وتعذيبهم.

«قالوا لها أدخليه مستشفى ابن سينا. وقد كانت من رأيهم في البداية ولكن أهله، صديقاتها، أهلها استهولوا ذلك.

«قلت لها: مع الأسف، هؤلاء الرافضون على حق، لأن المستشفى (ولا ذرة عتب واحدة على أطبائه البواسل، الكبار حقاً، زملائي وأخوتي ويا لنا جميعنا من بؤساء، مكتوفي الأيدي، عُجّز) ما هو إلا زريبة خنازير.

«وأضفت أبوح لها، لتأثري بحالها: ولا أكتمك يا سيدتي أني أنا نفسي ترددت ثلاث سنوات في إحالة أحد مرضاي -وهو مصاب بالانفصام الزوري (البارنويا) مع أنه في مراحله الأخيرة - إلى مستشفى ابن سينا، لأنه رب أسرة من ثمانية أطفال وأمهم، وهو عائلهم الوحيد. ولكنني اضطررت إلى ركوب هذا المركب الخشن المؤلم لما حاول للمرة الخامسة، قتل جار له مسالم...

«سألتني المرأة المسكينة: «أما من طريقة؟ أنا لا أقصد زوجي وحده!»

أجبتها محزوناً: «توجد ولكنها مكلفة: ننسف مستشفى ابن سينا من أساسه، ونرصد في الموازنة نحو عشرين مليوناً نبني بهن مستشفى يستحق أن يحمل هذا الاسم، فيقلع الناس عن أن يروا في إدخال مرضاهم العقليين، ولو كان مرضهم وعكة، المستشفى عاراً على الأسرة وشناراً على الحي!»

أكثر ما خرط مشطه في هذا الطبيب القديم الجديد أنه، هذه المرة، لم يطرح أسئلة عامة كأنها استئمارة، ولكنه باسَطَهُ. سأله عن ماضيه، عن سرّ خناقته الشهيرة والوزير، وما نجم عنها من نقله إلى درعا وامتناعه عن السفر وإحالته على المحاكمة ومطالبته بدفع غرامة قدرها... وإقامته دعاوى مضادة في مجلس الدولة، الخ... وقد أبهجته أسئلة الطبيب فأفاض في الحديث عن ماضيه القديم في مقارعة الفرنسيين، وسجنه أيامهم، وكيف انتهى إلى هذه الوظيفة المكتبية الخاملة التي، مع ذلك ومع التقادم، صار راتبها يقيم الأود، يستر. وإذا الدنيا، فجأة، تضحي غير الدنيا، وإذا الوزارة يغزوها، مثل الجراد النجدي، أسراب من الأولاد المتخرجين مجدداً من الجامعات، يثبون على

المديريات المهمة فيفترسونها، ويتركون الفتات لأولي السابقة في الجهاد، طاردي المحتل وجالبي الاستقلال. وحتى من كان من هؤلاء، بحكم القدم، مديراً رُدَّ إلى مجرد منضدة قرعاء خاوية وكرسي فقير عتيق، رُنق في اللاعمل، لا يمون حتى على آذنه، ويستوي دوامه وعدمه.

وبدأ يختمر في قلبه، دقيقة دقيقة، ساعة فساعة، يوماً بعد يوم إحساس بالمرارة وبأنه زائد على الحاجة، مهمل، ما له أحد، غريب عن كل العجقة الشابة الغافلة المزهوة كالطواويس.

ورد على إهمال بإهمال. أخذ يبحث عن البديل فرآه في الكافتيريا وأبي ناصيف وقهاوي سرة البلد التي تؤوي المثقفين والأدباء والظرفاء والمبشرين والدعاة وطلاب الجامعة والبعثيين والشيوعيين والرجعيين وأهل الرفض والفوضويين والعدميين... محيطات لا حدّ للذاذات الروحية التي يفيء عليك بها اعتيادها وادمانها. وطفقت تستقر في ذهنه عبارات شهية مثل: «التبدل الكمي يؤدي إلى تبدل كيفي؟» فضل القيمة» و«بين التراث والحداثة» و«التحولات» و«الانتماء القومي»... وكلمات جميلة مثل: «الطروحات، التسيب، التسييس، التموضع، العصاب، التوفيقية، التلفيقية، الافراز»... عبارات وكلمات إرساء أسس متينة مسبقة، ووقت مديد، وعودة إلى البدايات... فقد اكتفى صاحبنا... لما هو في حاجة إليه من حرق المراحل - بقراءة الصحف وتصديقها وتحليلها، انطلاقاً من هذا التصديق، وربط أخبارها ومقالاتها بعضها ببعض والتفكير في استنباط كليات من كل ذلك.

وهكذا، بعد أن كان مجرد مستمع أصبح «لا يحطها واطية» لأي أستاذ جامعة أو شاعر أو فيلسوف من الجلاس، ولاسيما بعد كأسين أو ثلاث، حين تنطلق أعنة الألسنة من عقالها، ولا يبقى أحد يهتم لغير سماع نفسه. هذا التحول السعيد كان حاسماً إذا انتهى دقيقة دقيقة، ساعة فساعة، جلسة في المشرب فجلسة إلى تشبُّعِهِ بجدارة نفسه وإيمانه بها، ومن ثم تفوقه على كل ما هو خارج عن المحيطات الثلاثة، أي على أهل الوزارة والبيت والقهوة جميعاً.

وهذا بالذات ما ألَّب عليه أهل الوزارة: ألا يكفي أنه يدوام وقتما يريد وينصرف متى شاء، ولا يوقع على دفتر الدوام إلا كلَّ أسبوع أسبوعين مرة ودفعة واحدة... حتى يتمادى -سواء بالايماءة المتعاظمة أو بالكلمة التي تبطن السخرية - فيحط من أقدارهم التي يرونها في العيّوق!

هذه هي أصول الخناقة. بدأت مع المدراء وانتهت إلى معاون الوزير فالوزير حيث قامت القيامة وفار التنور.

سُرَّ الطبيب بهذه المعلومات الجديدة. طبيعي أننا رويناها هنا من حيث فهم الطبيب لها لا من حيث رواية الرجل لها. وقال ذلك في نفسه: «نطَّ على الفرصة أيها الطبيب النفساني ما دامت قد سنحت لك. شجعه على الكتابة بخاصة. لأن القراءة إذا كانت نافعة في هذه الحالات فإنها تظل منفعلة إجمالا. وأما الكتابة فهي فعل. وما دامت السيكيزوفرينيا في بعض استحالاتها إضرابا عن الفعل، فلنكافحها بتنشيط الفعل والحضّ عليه. ولكن هذا يجب أن لا ينسينا الأدوية المهدئة وما لها من تأثير سعيد في مثل هذه الحالات.

خرج من عند الطبيب أهدأ. وكان في البيت اجتماع للأسرة لأول مرة منذ أشهر. وزلَّقت المرأة فكرتها حول أفضلية البداية بالمذكرات والرسائل قبل الوثوب على القصة أو الرواية: فتُقبِّلت بقبول حسن.

تحسن كبير ادهش الطبيب نفسه، فانتقل إلى مرحلة جديدة في العلاج إذ قلل أولاً من المهدئات. ثانياً، أكثر من حث مريضه على مزيد من زج نفسه في غمرات الفعل، في القراءة والكتابة حتى النشر.

المريض يبل. في بطء ولكن في اطراد في الوتيرة حتى أنه صار لا يمتنع من أخذ كأس في الكافيتريا مع الأصحاب القدامى من نجوم الانتلغنزيا... يسير حثيثاً في طريق النقاهة. يتفتح لبعثه الجديد، بل يقدر على أن يتذكر ليالي الأزمات والرعب في حياد وبسمة إشفاق أحياناً محاولاته في الكتابة تستمر. أواصر جديدة تتوثق أهمها اثنتان. الأولى مع عبد الكريم، كاتب وصحافي لامع ذكي، عاش ويعيش حياة عريضة. يحب، يعشق على زوجته، يرتاد الملاهي وعلب الليل، أو يحبس نفسه في البيت شهراً فلا يخرج

إلا إلى جريدة تستكتبه أو مجلة يحمل إليها قصة أو نقداً أو ترجمة أثر من الآثار الأجنبية التي تشكل أكثر اطلاعاته. أولع صاحبنا بعبد الكريم وعبد الكريم اندفع نحوه بقوة وحماسة على عادته كلما تعرف نموذجاً جديداً أو حدس إنه نموذج متميز. كان يقول له: «يا مسلم يجب أن تكتب. ولكن لا تنشر قبل أن تستكمل عدتي الكتاب والحياة، قبل أن تغوص في هذين الينبوعين حتى أذنيك. أنت قد حييت أباً ومقاتلاً ومضطهداً وسجيناً ومتشرداً... إن كل قصة تحكيها لي مما تشاهده في تسكعك اليومي في الأزقة والقهاوي الشعبية والأسواق يستحق أن تكون موضوع عمل إنشائي: قصة أو رواية أو قصيدة أو تحقيق صحافي يرتفع إلى مستوى الأعمال الباقية كما فعل أرنست همنغوي وايليا اهرنبورغ وفاسيلي غروسمان وسومرست موم. وأنا -كما تلاحظ مما أنشره في الصحف - كثيراً ما أغير عليك أسرق ما تحكيه لي، لا أفعل غير أن أكون أميناً في سرقتي إذ انقل قصصك الفريدة، وسأظل أفعل حتى أشعار أخر موعده يوم أجيزك. وهذا يتعلق بقدرة فابريكتك الأدبية أن تقف على قدميها وتحسن تصنيع المواد الأولية المكدسة في مخازن روحك الوافرة. ألا تذكر حكاية السكير أبي الشروال الذي نصحوه في الخمارة أن يستبدل بشرواله البنطال، وكيف أحس أنه عار لما انصاع لنصائح رفاق الخمارة؟ ألم أصنع منها سكتشاً تمسك خاصرتيك من الضحك وأنت تقرؤه ؟ وقصة جابي الباص العاشق؟ والطفل الحردان من المدرسة إلخ... ولكن الحياة وحدها لا تكفي مهما عمقت المعاناة فيها. يجب أن تمنح من ينبوع آخر: الكتب، ميراث الإنسانية تجاربها ومسيرة آلامها وأفراحها لوحات ومنحوتات وموسيقى...».

الآصرة الثانية كانت بينه وبين السيدة منية التي عرفه بها عبد الكريم هذه السيدة بدت له خارقة: امرأة تنظم الشعر، تغني، تكتب، ترقص الفالس وتقلد الرقص الأندونوسي تلحن، تسعد الممثلين والممثلات ذائعي الصيت، بيتها صالون أدبي، ملتقى لزهرات أخرى من المجتمع ليست إلى الفكر بل إلى الفن من موسيقى وغناء وتشكيل. لم تكن امرأة صبية. إنها نصف، أرملة

من زوج ومطلقة من آخر كان عازف عود باس ألف يد -على حد قولها - حتى ظفر بيدها. فما كان منه بعد أن غدت زوجته حتى كشف عن حقيقته الرديئة وأذاقها أياماً مرة، وهو الآن لا هم له إلا التواطؤ والدس عليها وإخماد اسمها الذائع والنيل من كفاياتها النادرة.

في ظل هذين الإنسانين نشد صاحبنا خلاص نفسه. كان يذهب كل ليلة تقريباً إلى بيت السيدة منية. في بعض الأمسيات تكون وحدها، فتستقبله بروب النوم الهفهاف الأحمر يظهر صدرها حتى منابت النهدين وظهرها حتى نصفه، والكمان القصيران الواسعان يظهران شعر إبطيها الناعم الذي لا تزيله. كانت، لولا بعض الغضون في الوجه، صبية ولعل عدم إنجابها هو الذي حفظ عليها صباها، حتى أن نهديها من غير سوتيان، كما يظهر روب النوم الأحمر الشفاف، يبدوان واقفين كأنهما لبنت عشرين.

كانت مولعة بالكلام، قادرة على أن تمارسه يوماً كاملاً دون توقف وقد تبدأ إحدى قصصها في الصوفه وتتنبه فجأة إلى أنها لم تقدم له شيئاً، فتهتف هذه الهتفة التي تطفح أنوثة: «يوه، على قامتي، يبعث لي الحمى قديش أحب الكر. ساعة وأنا أقرع أذنيك بحكيي ولم أصنع لك فنجان قهوة. أنا ذاهبة حالاً، ولكن لا تنس إلى أين وصلنا».

- «لا، لن أنسى، وصلنا إلى المثال الأعلى لرجل أحلامك وصورته التي تكونت عندك من بعد رؤيتك سبنسر تراسي في السينما».

- «تماماً، دقيقة واحدة وآتيك بالقهوة ولكن لماذا لا تأتي معي إلى المطبخ فأصنع أنا القهوة وأنت تستمع فلا تنقطع سلسلة أفكاري:

- «حاضر يا ستي، يا اللّه!».

ويستمر ذلك حتى الساعة الثانية، الثالثة، أحياناً إلى وجه الصبح إذا لم يأت عبد الكريم أو غيره من الصحافيين والملحنين أو الرسامين. تقول له: «أنا لا أنام. ساعة واحدة تكفيني، ومع ذلك لا يلم النوم بي إلا أخف من الريشة. حركة الليل، أصوات الليل، تظل تتناهى إليها حتى عندما تبلغ أقصى

درجات السبات: - «اسمع هذه الأغنية. هذه تقدم في الإذاعة على اعتبارها من تلحين رامز الصباغ مع أني أنا التي لحنتها. نسبتها إليه حتى لا أثير عداوات وحسداً وغيرة في الوسط. ولاسيما أن سمير (زوجها السابق، العواد) يتآمر علي إذا سجلت أني أنا ملحنتها. تصور، قدمت مرة سلسلة من أغاني الأطفال ونوطاتها إلى سمير فخباها طوال هذه المدة منذ أن كنا معاً حتى الآن، إذ بدأ يذيعها على أنها من نظمه وتلحينه...

-«وكيف تسكتين؟..

-«ما عساي أن أفعل ؟ من يصدقني وهو صاحب نفوذ في الوسط، ولاسيما بعد أن تزوج من هذه الأفعى المعروفة، نوال، الساحرة ذات الماضي الذائع الصيت في ركوب الرجال».

أحبها صاحبنا؟ لم يحبها؟ مهما يكن من أمر فقد أدمنها. وهي ذاتها لم تخف تعلقها به، حتى أنها أسمعته، تلميحاً، بأنها لا ترى مانعاً من أن تتزوجه. أتعلقت به، أم أنها كانت تريد الزواج، الزواج فقط لكي تكيد مطلقها الذي تزوج بعد أن فرط زواجهما ببضعة أسابيع؟!

كان جسدها شهياً ولا يذكر أن امرأة بين اللواتي عرف كلهن اجتذبته على هذا النحو من الأسر والتطويق الكامل. وتظاهر، ذلك المساء، بأنه لم يفهم فأعادت الكرة بما يشبه التصريح. صمت من جانبه لم تقابله بأي رد فعل ينطوي على نفور. ظلت على حفاوتها به وإقبالها عليه، وإذا هو يطري مثل الخسة، ويتدفق في قلبه حنان عامر فيتساءل في ذات نفسه: «لماذا لا تتزوجها؟ لقد عدت لا تطيق فراقها ففيم تظاهرك بغير ذلك. ثم أنها لن تسكن عندك على أية حال، وبيتها ملكها ودخلها من أعمالها الفنية في الغناء والمسرح يكفيها وزيادة، وهي لا تسأل أكثر من زوج، أي زوج حماية، كيداً نكاية. فليكن!».

وراقت نفسه وشفت شفوف ماء المزن ونظر إليها بعينين تفضيان رأماً وعرفاناً وإعجاباً. قال وهو يمسك يدها:

- منية.

- نعم.

- معك هويتك؟

خفق قلبها بقوة في صدرها ولكنها تجاهلت:

- معي، ليش؟

- هكذا، أنا أريدها صباح الغد.

جن جنونها ولكنها لم تظهر. تذكرت أن في الثلاجة قنينة من النبيذ الفرنسي الأبيض. هيأت عشاء خفيفاً طريقة تقدمته فاتنة: صحن سلطة الخس والبندورة رتب على نحو أذهله: لا تخاله إلا لوحة، عملاً تشكيلياً. أنواع الأجبان. صحن كمأة مزوق بأوراق الخس وشطائر الليمون. من المسجلة انبعثت ألحان ناعمة، هنية، حالمة. كانت أمسية أوصلته إلى النجوم، نسي فيها التسرح والسلطات المتربصة به وخناقته مع الوزير والفتى صاحب المسدس في خمارة أبو ناصيف، وفتى القهوة الشعبية الفضولي الذي يحب «مراقبة الناس».

قبيل الفجر أغفى وهو يحسب إذ هو بين نائم ويقظان أنه لن ينهض قبل الحادية عشرة في الأقل. وأما هي فقد كانت أنفاسها تتردد في انتظام وطمأنينة وهناءة فعل من يلتحش في سبات رغيد. ولا كذلك هو: لم تكد تمضي بضع دقائق على إغفاءته حتى فزع من نومه كمن لسعته أفعى، من حلم رهيب رأى فيه نفسه وقد هاجمته كلبه مسعورة، وبينما هو يحاول الهرب تشبثت بيده اليمنى وأطبقت عليها، بفكيها كحجري رحى. لم يكن في نيتها إطلاق سراحه. أيقظه ألم حقيقي. ابتسم من هذا الحلم الكابوس، وألقى نظرة نحو منيته وإذا هي تبتسم في نومها. حاول النوم مرة أخرى.

حلم أفظع من الأول. هوة تفغر شدقها تحته وهو متشبث بغصن واهن في أحد الجدران الشاهقة حول الهوة... حتى أصبح الصباح، وملأ الضوء الشقة، وأفاقت منية وهي ما تزال تبتسم. وأما هو فقد كان يحس الرضوض في كل عضو من أعضائه، الكسور، كأنه جلد مئة سوط. قالت وهي تقدم له القهوة:

- هذه هي الهوية.

كانت متهللة، نضيرة كأنما صغرت عشر سنوات.

- يوه، يبعت لي الحمى. شوبك؟

هنا ارتكب أكبر غباوة في عمره. غلب عليه الصدق فباح لها بما لقيه طوال الليلة الماضية من الكوابيس، وأن مثل هذا حدث له ذات مرة إذ قرر أمراً في العشية على عجل ومن غير طويل تدبر، وأعمال فكر. وأنهى كلامه بهذا الحكم:

- يظهر أن الفكرة ما تزال فجة. لماذا لا ندع لها وقتاً كافياً تنضج فيه؟ هذه الأمور يجب أن تتم في عفوية، أن تصدر عن أقصى درجات الاقتناع لا يلتفت وراءه أبداً.

هذه المرة أيضاً لم يبد عليها أنها صدمت، ولكن كان واضحاً أنها تريده أن ينصرف.

- إلى المساء.

- إلى المساء.

المساء فتحت له الباب ولكنها ظلت واقفة بالوصيد:

- عفواً، عندي الآن مشوار، ولا أستطيع استقبالك.

ولما هم بالقفول مكسور الخاطر قالت باسمة:

- أما اتفقنا على أن نكون صريحين؟

وأوصدت الباب. أحس أن شيئاً قد انكسر لا يمكن جبره، أن أياماً حلوة قد سقطت وراء عربة الزمن المنطلقة نحو اللانهاية سقوطاً لا قومة لها بعد. وحتى لو عادت منية فلن تكون إلا حطام منية الأمس.

أسبابه بعبد الكريم هي أيضاً قد أصابها الفتور بعد تلك الجلسة في الكافيتريا على كأس: بدأ الحديث حفيفاً متنوعاً «من كل واد عصا»، كما يقولون. ثم احتدم النقاش حول إحدى المسائل المجردة. كان صاحبنا قد أنشأ يطالب بحصته في النقاش شريكاً كاملاً، بالنرادة، ويعتبر نفسه مفكراً، كاتباً (بضع صفحات في مذكراته قرأها على زوجته فأظهرت حماسة كبيرة

وهتفت: أرأيت؟أنت كاتب!) وأن عهد اللصوق على عبد الكريم أو التوضع على سواه من جماعة الكافتيريا قد مضى وانقضى وتحرر منه إلى غير رجعة، بعد أن وجد «أسلوبه» «الخاص» و«شخصيته» المتميزة. صار يحكي في المجردات، مثله مثل أرباب الجامعة والصحف، وينظر في السياسة والفكر والاجتماع والفن، ويميط اللثام عن «الطبخات المبيتة للمنطقة» في مطابخ الدول الكبرى،إلخ.. ويظهر أن عبد الكريم قد بدأ، بدوره، يمله. يقول في نفسه: «كان في بئر هذا المسلم خضخوضة أمتاع فمتحتها كلها، على القطرة وتركته ناشفاً مثل الربع الخالي»... لذلك، ما أن بدأ صاحبنا يعقد ما بين حاجبيه ويدلي برأيه على طريقته البطيئة في إخراج الكلمات، حتى شب عبد الكريم مثل الثعبان وقال في شبه صراخ (كانا قد شربا عدة كؤوس):

- شف يا مسلم، أنا أفهم أن تكون في باص فتلفت نظرك امرأة عجوز وجهها محروق وإحدى يديها لم يبق منها الحرق غير جذمور، معها حفيدها الطفل الذي بلغ من حبه إياها حد أن يقبلها على وجهها ويأخذ يدها المحروقة بين يديه الصغيرتين في محبة الغرارة... أفهم كذلك أن تأخذ لك كأس عرق في خمارة من خمارات القصاع أو باب شرقي فتنتقل إلى الجو بأحاديثه: وسكاراه، وخماره وقناني رفوفه. وأما أن تحكي في الفكر المجرد، في الفن، في التراث والحداثة، في الفن، في التسيب والتمزق والضياع، في الطريق إلى الوحدة هل ينبغي أن تمر بالحرية أولاً أو أن الوحدة هي الأولى...فهذا، بدك ما تؤاخذني، شغلة ما هي شغلتك.

- ألا تدعني اشرح لك.

- لا تشرح لي ولا أشرح لك.

أحس أن بساطاً آخر يسحب من تحته. واستمر عبد الكريم يقول في لؤم:

- أنت كلما حاولت أن تشرح لي ركبني النعاس كأني أخذت منوماً قوي المفعول. اغفر لي أرجوك -هكذا كرر- الشغلة ما هي شغلتك، ما هي شغلتك بالمرة.

ومع ذلك لم تكن قطيعة تامة، لا مع منية ولا مع عبد الكريم. ولكن عهداً هنياً قد تصرم لا سبيل إلى عودته، وتكشفت أمور كان يؤثر الموت على أن تتكشف. أدرك أن منية لا تملك غير موهبة هزيلة غير مصقولة ولا مثقفة، واكتشف أنها لا تحسن حتى السولفيج ومع ذلك تلحن، وتدق على العود دقاً محزناً ومع ذلك تضرب عليه ما تلحن.. وأما عبد الكريم فقد بات لا يحب قصصه أو مسرحياته أو مقالاته التي تتصنع خفة الدم لزيادة النكاية، ومع ذلك تتقاتل الصحف والمجلات والإذاعة والمسارح على ما «يبدع» هذا وتلك! وقد زلَّق لهما مُكتشَفه هذا، لولعه بالصراحة، تزليقاً فوصلت العلاقة بينهما وبينه إلى درجة التجمد المطلق.

ولكن ذلك كله لم يمنع أنه، يوم عيد المولد النبوي إذ تُغلق الأماكن العامة، قصد بيت منية. كان ضوء الصوفة يظهر من المندلون. قرع الجرس مرة، مرتين، ثلاثاً. لا أحد يفتح. نقر نقراته الخاصة المتفق عليها: تلك تك تك تاك: تك تك. لا أحد. لم يبق أمامه إلا البيت. هناك أكب على كتابة رسالة إلى عبد الكريم استغرقت ليله كله إلا أقلَّه. رسالة تشبه رسالة الغفران، تقع في أكثر من ثلاثين صفحة من القطع الكبير، طوق فيها باب السياسية الذي شمل أكثر الرسالة، وتكلم عن الأوضاع الأدبية في البلد. أشار من طرف خفي إلى أن الكُتَّاب، أو بعضهم، أمسوا لا شيء أكثر من عزقات في دولاب السلطة، الدوار على عماها،إلخ...

ومنذ الثامنة من صباح اليوم التالي ذهب إلى الجريدة، التي تستكتب عبد الكريم، وأودع «رسالة غفرانه» لدى موظف استعلامات سمين، كان يشرب الشاي ويتصفح عدد الجريدة الصادر ذلك الصباح، ونزل الدرج وتوجه إلى الكافتيريا، بعد أن تزود بصحف اليوم ومجلاته. هناك طلب فنجاناً من القهوة وأخذ يتصفح زوادته ويترشف قهوته ويدخن مستمتعاً. ولكن، فجأة، خطر له هذا الخاطر: «ماذا لو اتخذت رسالته إلى عبد الكريم مستمسكاً ضده؟» وبرقت في ذهنه، مثل لسعة سيخ نار متشهب، عذابات المطاردة التي لمَّا يمض أمداً بعيد جداً، تلك التي أوصلته إلى حافة الضياع الكلي، العدم...

وثب عن مقعده، تاركاً علبة دخانه، صحفه، مسبحته، قداحته، سيكارة تدخن في المنفضة، وطار إلى الجريدة. كانت الساعة تدنو من العاشرة. قال لموظف الاستعلامات في ما يشبه التوسل:

- ممكن، من فضلك، أن أسترجع الرسالة التي أودعتها هنا قبل قليل؟.

- باسم الأستاذ من؟

- باسم الأستاذ عبد الكريم.

- اسم حضرتك؟

غلط غلطة قاتل: قال للموظف اسمه. بحث هذا بين كدسة المغلفات حتى وقع على الرسالة فأخرجها وقال في بساطة تدعو إلى التفكير والتأمل.

- هذه؟

- نعم، شكراً لكم.

قاسيون كله انزاح عن صدره. وعاد إلى الكافتيريا خفيفاً، يضحك قلبه للمارين، للفتيات، لشرطي المرور وسائقي السيارات وركاب الباصات الذاهبة الآيبة.

بيد أن الرعب الذي أصابه خلال المشوار بين الكافتريا والجريدة أوهنه بعض الشيء، مثل جرح كبير لا ننتبه إليه في البداية ولكن أوجاعه لا تلبث، بعد أن «يبرد»، أن تبدأ بكل قوتها. فإذا أضيف إلى ذلك مرارة شبه القطيعة مع ملاذيه السابقين منية وعبد الكريم وخيبته، عرفنا لماذا آثر، منذ هذه الحادثة: العودة إلى الاقتصاد في ارتياد الأماكن العامة. القراءة أجدى، أصح، أسلم. في القراءة الخلاص، والكتابة تأتي لا محالة بعد أن تتشبع الروح من ينبوعي الفن المحتومين: أن نحيا وأن نقرأ.

إذن فقد أحرقته، تلك الليلة، عيناه حتى دمعت اليسرى وهمت الأخرى. فركز الكتاب مقلوباً على المخدة حتى لا يضيع الصفحة، وطفق يتمطى، وبسط ساقيه، يوترهما ثم يلمهما متلذذاً. سمع طقطقة عظام ظهره، يديه ورجليه عند الرسغين، وابتسم. ما أطيب حرقة العينين هذه مع ما أدخلتاه على

قلبه من إيناس. الكْتّاب الذين يستطيعون أن يأسرونا كل هذا الأسر على الرغم من التهاب أجفاننا وتعبنا لابد أن يكونوا من زمرة الأنبياء... أراح بعد ذلك رأسه على الوسادة وجمد لحظه كله. عيناه اندقتا في الدائرة المضيئة يصنعها المصباح في السقف. أعضاؤه جميعاً كفت عن أية حركة. استمر هذا الجمود اليوغي لحظة مديدة. ولما تحرك يهم باستعادة الكتاب والاضطجاعة المريحة استعداداً لاستئناف القراءة حانت منه التفاتة نحو الجدار وراءه، وإذا ، فوق رأسه، إلى اليمين قليلاً ، في الزاوية، أبو بريص على تلك الحال في التوقف والصفن التي للزواحف قبل انطلاقها مثل السهم وهروبها، أصابته قشعريرة ليست من المرض، ولكنها من الاشمئزاز المستقر في نفسه، اشمئزاز يكاد يكون غريزياً بما رسخ فيها منذ طفولته، أيام كانت دراهم عربية تعج بمختلف من أبو بريص خاصة، هذه الدويبة التي إذا مشت على خبزة وجب صنوف الزواحف والحشرات والأفاعي، وكانت أمه تحذره وأخوته كبها في القمامة لأن من يأكل منها يصاب بالبرص، وكذلك يقع لكل من دنا منه الأبو بريص أو زحف فوقه، وليس غريباً أن يسمى، تقول أمه، في الكتب «سام أبرص» لأنه إذا لم ينشر البرص والعياذ بالله سمم كل شيء يقترب منه ولو من بعيد، إنه صغير، لا يملأ العين، تخاله دودة، ولكن فعله كبير.

ونهض ببطء شديد واحتراز، ونزل من السرير، وذهب إلى الغرفة المجاورة حيث تنام امرأته، همس في أذنها خائفاً:

- ثريا، ثريا.

ردت عليه مباشرة كأنها كانت يقظى، وبمثل همسه:

- نعم، فيه شيء؟

- أبو بريص في غرفتي، قومي عاونيني على زحزحة التخت، لا يمكن قتله إلا إذا زحزحنا التخت، قومي.

صاحت، بعد أن توقفت أمام الجدار:

- هاهو ذا.

- على وقفته حين تركته.

كانت هاتان الفقرتان من الحوار كافيتين: كرَّت الدوبية، في مثل لمح البرق، إلى الأسفل واختفت،أين؟ هذه هي المسألة، فتشا تحت الكومودينا، تحت الخزانة، وراء المكتبة، تحتها، الأبوبريص الملعون: فص ملح وذاب، أين يمكن أن يهرب؟ النافذتان موصدتان، الزجاج والشبابيك جميعاً.

وتيأس زوجته فتعود إلى غرفتها، المسكينة، كانت عيناها حمراوين مثل الدم، ألا يكفيها أنها تتقطع بين عملها، والسوق من حيث تشتري الأغراض كل اليوم، والمطبخ، وهم الأولاد؟ وأما هو فيحاول أن يستأنف اضطجاعه الهنية ويتابع القراءة زاعماً لنفسه أن الأبوبريص: «لابد أنه هرب من غير أن يشعر من باب الغرفة» عبث، عاد لا يفهم مما يقرأ شيئاً، أمسى، كل سطر، يلفت رأسه بقوة وهلع نحو الجدار الذي كان يحمل أبو بريص قبل قليل.

أين تراه ذهب؟ أهرب حقاً من الباب، باب الغرفة، وانزلق تحت درفة الباب الخارجي وتسلم الشارع، أم أنه ما يزال هنا؟

ساعة الكنيسة المجاورة تدق ثلاث دقات، عيناه تجرحانه أكثر فأكثر، تسبلان معاً، نهض مرة أخرى، ذهب إلى الصيدلية الصغيرة في المطبخ، قطر في عينيه الاثنتين من قطرة سبق أن وصفها له طبيب العيون وقال إنها ناجعة في حالات التعب، أحرقته عيناه، عاد يفتش في كل ركن عن أبو بريص. يزحف (الزحف دائماً!) على بطنه تحت التخت، يدس رأسه تحت الخزانة، المكتبة، الكومودينا، لا أحد، على أية حال، بات الحضور في الغرفة مستحيلاً: حمل شرشفه ومضى إلى الديوانة التي في الصوفة، ولكن، لم يكد يتمدد ويأخذ الشرشف إلى ما فوق رأسه حتى خطر له هذا السؤال: «ماذا لو أن الأبوبريص كان مختبئاً في طية مفرش الديوانة؟.. نهض. نفض المفرش، نظر تحت الديوانة. وعاد يضطجع ، الأرق ممض، منهك ويجب أن ينام. صحيح أن غرفته والديوانة كانتا خلواً من الأبوبريص، ولكن، ماذا لو أنه عاد، وهو على ما هو عليه من الخفة؟... عاد إلى النهوض. ذهب إلى غرفة الضيوف، فتح إحدى خزانتي الكتب، أخرج من درج تحتي مبيداً للحشرات قال له الصيدلي أنه ناجع حتى في القضاء على الزواحف، قرأ التعليمات:

«اقتصادي جداً لطول مدة فاعليته، لمقاومة الآفات التي تطير، لمقاومة الآفات الزاحفة المختبئة»، الزاحفة والمختبئة، هذه هي الفقرة التي نحتاج إليها، ولكنه تذكر أن الصيدلي قال له، لما اشترى هذا المبيد، إن الزواحف من الحجم الكبير تحتاج إلى مبيد للفئران، ومع ذلك رش غرفته كلها، وتحت الأبواب الصوفة المفضية إلى الدهليز والشارع، ورش كذلك البلاليع في المطبخ والحمام.

محاولة بائسة أخرى للنوم، فشل، محاولة قراءة، تشتت، فكر في إيقاظ زوجته مرة أخرى طالباً منها أن تعطيه تختها، أو أن يندس في سرير أحد أولاده ولكنه استحى.

هوَّى غرفته وعاد إلى سريره، كانت شقوق الشباك الخشبية تنخل ضوءاً رمادياً، إنه الفجر، لم يكد يغمض عينيه حتى تناهى إليه من الجدار وراءه حفيف خافت لا يكاد يميز، أشعل المصباح والتفت بقوة، لاشيء، ساعة الكنيسة تدق أربع دقات، النعاس يكاد يرميه. بل إنه هوم لحظة قصيرة جداً، رأى في أثنائها أن أبو بريص قد تسلق قائمة السرير وزحف حتى مخدته فرقاها ودنا من رأسه وتوقف قرب فمه وأخذ يهتز وهو ينظر إليه... رمح، وشب واقفاً وعاد يشعل المصباح.

منذ أن كان يسكن بيتاً عربياً،أي قبل ست وعشرين سنة، لم يشاهد أبو بريصاً قط، وحارته كلها بناء حديث ، فمن أين جاء هذا؟ أيكون أحد الأعداء قد تسلل أول الليل إلى فناء البيت حيث تطل غرفة نومه، وتسلق النافذة ودس هذه الدويبة الفظيعة وقام يحدق في النافذة ويدرسها، ما هذا؟ إن المصاريع الزجاجية غير جيدة الإغلاق إطلاقاً، ومد يده إلى خشب الشباك ودفشه دفشة بسيطة فانفتح، هاهاه! المسألة أصبحت واضحة لا تحتمل أدنى شك، المنجور الخشبي ودرفتا الزجاج مفتوحة جميعاً، تكفي دفعة يسيرة واحدة لفتح النافذة وتزليق الأبوبريص.

هذه مسألة مفروغ منها، بقي أن نعرف من هو الفاعل؟ من عساه أن يكون؟ أهو عبد الكريم الذي لا يمكن أن يكون نسي يوم هاجمه بقوة في

الكافتيريا، ألم يكن ذات مرة يتباهى بأنه لا يخاف الزحافات أو القوارض ولا يقتلها لأن لها هي أيضاً حقاً في الحياة، على حد تعبيره، طبيعي أن يكون لمن يتربص بنا ليجعلنا برصاً حق في الحياة. يا له منطقاً يفلق الصخر.

وقد لا يكون عبد الكريم وحده في المؤامرة ، لابد أن منية ضالعة فيه، هذه لا ريب إنها عدوة، فمنذ أن عرضت عليه الزواج ورفضها، صارت تتعمد أن تخرج مع عبد الكريم، وقد يمران من قدام شرفته وهما يكادان يتخاصران، هذه أيضاً تحب الزواحف والقوارض والقطط، ألم يشم جرذ صغير في بالوعتها رائحة قطتها مرة فتسلق البالوعة، قبل المصفاة، وتعلق بالمصفاة فأخاف ذلك صاحبنا ونده منية ليريها المنظر فقالت إنه شيء جميل حقاً؟ فلما صارحها بنفوره العضوي من الزواحف والقوارض والقطط ولاسيما الأبوبريص، ضحكت وقالت: (هذه خرافة، الأبوبريص ليس بسام، وهو خويف بطبعه!) واستغربت أن ترى رجلاً طويلاً عريضاً يخاف من هذه الحيوانات اللطيفة المسكينة، يومها، كانت علاقتهما في ربيعها، في الفترة التي تسأل المرأة خلالها أكثر من أن تعطي، فبدا كل شيء حلواً، مبرراً... وهاهي ذي تنتقم!

فتح النافذة والشباك، الشمس تذهب ذرى البنايات التي ترى من النافذة... لا فائدة من إعادة المحاولة، النوم مستحيل، ارتدى ثيابه ومضى يضرب في الشوارع... وما تزال حركة الناس والسيارات قليلة، مشى طويلاً إلى أن وصل إلى قهوة الربوة، كان الساقي قد فتحها لتوه، تهاوى على كرسي يطل على نهر وغاص في تأملاته، كان مهيضاً، في كل طرف من أطرافه ثقل يشده إلى باطن الأرض.

قبيل الظهر دخل الكافتيريا منتفخ العينين، أحمر بياضهما وإذا هو يلمح منية وعبد الكريم في أحد الأركان المعتمة يتحدثان باهتمام ورأساهما يكادان يتماسان، تصنع أنه لم يرهما، وتابع طريقه إلى حديقة الكافتيريا، ولكن منية ندهته، اضطر إلى الذهاب إليهما، كانت تطفح بشراً وجذلاً، وخيل إليه أن شطراً كبير من هذا الجذل مصطنع، يستهدف الكيد له.

كانا يجلسان جنباً إلى جنب على المقعد الجلدي الملاصق للجدار، وراءهما كانت رسوم ورق جدران تجعلهما كأنهما تحت قوس، وكان غطاء المنضدة يسترهما فلا يظهر غير صدريهما وما فوق، وأشارت هي إلى كرسي في مواجهتهما، فقعد عليه صاغراً، وهو يقول في نفسه: «قاضيان تحت قوس المحكمة، وهاأنذا المتهم، إنهما يريدان أن يحاكماني، ولكن على ماذا؟ على ماذا؟ أيُعجز هذين الثعلبين أن يعثرا على ما يستوجب محاكمتي؟ ولكن تظل المحاكمة شيئاً شكلياً، نافلاً لأنهما أصدرا علي حكمهما حتماً وانقضى الأمر، ألم يزلقا ليلة أمس من النافذة ذلك ال..؟ وشملهما بنظرة متمعنة قبل أن يطرق إلى الأرض فعل المتهم ذنباً ،كان واضحاً أنهما يكتمان ضحكات، قالت منية:

- أين كل هذه الغيبة؟

وتظارف عبد الكريم:

-ما هاتان العينان؟ لا تقول إلا قرص بندورة هنا وقرص هنا.

حاول أن يكون هادئاً:

- لم أنم ليلة البارحة.

خير إن شاء الله، قالها عبد الكريم في استهوال يضمر الهزؤ على نحو لم يوفق في تمويهه، قال:

-كنت أقرأ.

قال عبد الكريم في استهانة:

- أما تزال تركبك هده اللوثة؟ ووجه الكلام إلى منية، ما عساي يا ميمي أن أحكي في حق المرحوم أبي، الميت لا تجوز عليه غير الرحمة، لماذا أصر على أن يطلعني متعلماً؟ أما كان خيراً لي لو أنه علمني صنعة في اليد، البلاط مثلاً، البلاط الآن لا يرضى يوميته بأقل من مئتي ليرة، مئتان؟ أي أنا لا أحصلهما إلا بعد أن تعمى عيوني شهراً كاملاً في كتابة وإعادة كتابة قصة اكتشف آخر الأمر أنها لا تستحق أن تنشر، عمل مثل ثقب اللؤلؤ.

لا يدع لنا نوماً مثل نوم البلاط الوادع، ولا أكلاً مريئاً مثل أكله، أصبحت أمقت الثقافة من كل قلبي، وأراها من أسباب بلاء مجتمعنا المسكين هذا، السيء الحظ، ونقمته، ما كان أجمل أيام أبي وأبيك، إذ تبحثين بسراج وفتيل في أربعة أطراف الحارة حتى تعثري على من يفك لك كلمتين جاءتاك في رسالة من بلد بعيد، غدوت أرى شرور البلد كلها أساس الثقافة، الثقافة؟ متى ما يتثقف واحدنا يرفض لبس الشروال المصنوع من خام نسجته أيد من بلدنا على أنوال من صنعنا، وهو يرفض كذلك المركوب الجلدي الأحمر الجميل صناعة البلد، والكوفية والعقال والكبوت الشرطلي المقصب شغل البلد أيضاً، إنه ، من الآن وصاعداً، تأبى عليه ثقافته أن يلبس إلا من باريس أو روما أو لندن، يعني أنه يضحي، بكل بساطة، مستهلكاً مروجاً للبضائع الأجنبية، هذا هو المثقف الأديب، مروج كتب أجنبية، عائش على فتات موائد أجنبية، والطبيب المثقف هو أيضاً يرفض أن يصف لمرضاه عقاقير شعبية ثبت نجوعها منذ آلاف السنين كالزعتر والبلح وتفاح الزبداني ووادي بردى وجوزة الطيب والزنجبيل والبصل والثوم والبابونج، الصيدلي المثقف من جهته هجر هاونه ومركباته المستخرجة من الأعشاب التي لا حد لتنوعها في بلادنا، وأمسى مجرد بياع منتجات صيدلانية مخبرية أجنبية، المهندس، أستاذ الجامعة، قيم المكتبة... كل هؤلاء انتهوا كجماعة تمت بسبب إلى هذا البلد، إلى تاريخه وعراقته.. أبعد أن كان أدباؤنا ، في أثناء الحروب الصليبية يضحكون على جهل الغرب وتخلفه نغدو لا نستطيع أن نرفع يداً عن رجل إلا إذا وضعنا نصب أعيننا مثالاً غريباً يحكم ربقته علينا كل يوم أكثر، المثقفون غرباء عن هذا البلد، ممزقون، هزيلون، مضيّعون بأيديهم، هاك مثلاً هذه السيدة النادرة منية، هي لم تتح لها ثقافة عميقة غريبة ولكني لا أبيع ظفرها بكل قطيع أرضَة الكتب الأجنبية الذي يتألف منه زبدة المثقفين لدينا، أي كنز هي!

قلت:

- ولكن هذا لم يكن رأيك من قبل.

وقالت منية وقد طراها الثناء:

-إنهم يدرسون ولكنهم لا يهضمون، تصور أن الجملة الموسيقية، حتى عند كبار الملحنين، ليس لها علاقة بالكلمات .. وأعرف ملحنين يبدؤون التلحين حتى قبل أن يقرؤوا الشعر بين أيديهم ، وقد يتساءل الإنسان لماذا كانت افتتاحية هذه الأغنية على هذا الشكل وليس على آلاف الجمل الموسيقية الأخرى غيره، خلال رحلتي إلى أوروبا بهر الناس هناك لما ترجمت لهم قصيدة من نظمي وتلحيني، وحين وصلت إلى هذا البيتك

تمايلت غصونه.

جعلت الجملة الموسيقية تتموج وتتمايل وتحف كما الغصون، الأستاذ عبد الكريم على حق حينما تكلم على طغيان الطب الإفرنجي، مع أن الأطباء الدانمركيين في مستشفى النبك يضعون المجدرة في قائمة الطعام التي تقدم لمرضاهم، ونحن في البيت نمتلك خزانة للأعشاب الطبية مع أن أبي خريج مدرسة المعية في استامبول، وأمي من .. الأرستقراطية التركية (قال صاحبنا في نفسه: كذب أبوك ابن عرب وأمك بنت عرب ليس لها من التركية غير اسمها: إفاكات) تصورأن أحد المذيعين قد أجرى في الأسبوع الماضي مقابلة مع معمّر تجاوز عمره المئة وعشرين سنة، فلما سأله عن سر طول عمره أجاب بأنه يفطر كل يوم على نصف رطل بصل مشوي.

فجاءة ، نقلت الحديث على طريقتها إلى صعيد آخر، تكلمت على حبها الأول: كان يمر من تحت شرفتهم في السبكي كل صباح وبعد كل ظهر، عندما يصل إلى تحت الشرفة يخطف نظرة مهذبة إليها، ذات مرة كانت ورفيقاتها يلعبن في حديقة السبكي نهاراً، إذ المكان قليل المتنزهين، وقد خلعن صديريات المدرسة وعلقنها على إحدى ركائز الأراجيح، لما لبست صديريتها وهمت بالعودة إلى البيت عثرت على رسالة منه، رسالة معطرة، بنفسجية الورق والظرف، فيها كل ما يقال من إعجاب وامتناع النوم، وتفكير دائب في الليل وفي النهار.. وأكبت على كتابة جواب، مزقت مئة ورقة حتى استطاعت أن تكتب آخر الأمر عشرة أسطر ترضى عنها وتساءلت في براءة:

- كيف يمكن لإنسان أن يكتب رسالة من ثلاثين صفحة؟

قال عبد الكريم ضاحكاً:

- هذا ممكن إذا كان العاشق قد احترق ولم يبق منه غير حفنة من رماد، في هذه الحال يجب الابتعاد عنه لأنه قد يجر الآخرين إلى محرقته.

في أقل من ارتداد الطرف توضح له كل شيء، قفزت إلى ذهنه «رسالة الغفران» التي كتبها في ثلاثين صفحة، لماذا لم تقل منية عشرين صفحة مثلاً،أو أربعين؟ لابد أن الرسالة قد فتحت، خلال هاتين الساعتين بين إيداعها الاستعلامات وعودته من الكافتيريا لاسترجاعها، وقرئت وسحب عنها قولاً واحداً من آلاف النسخ، وإلا فما معنى قول عبد الكريم إن من يكتب رسالة من هذا النوع لا بد أن يكون قد احترق ولم يبق منه غير الرماد؟ أبعد هذا الذي بلغه رماد؟ وما معنى قوله: في هذه الحال يجب الابتعاد عنه لأنه قد يجر الآخرين إلى محرقته، الآخرون يعني نفسه ومنيته طبعاً، وهو يعني أيضاً أن إضبارته في دوائر الأمن قد صارت من الضخامة في حيث يحسن بالعقلاء أن يتحاشوه.

أضحى كل شيء واضحاً يفقأ العيون، كل حركة، كل خبر، كل حادث يرتبط بالرسالة ارتباط سببية...

وتتالت الحوادث في سرعة تبعث على الدوار، في الرسالة ورد ذكر أحد الوزراء في معرض الهجوم على السلطة فطار الوزير وشملت الوزارة حركة تطهير واسعة، في النقابات فتحت تحقيقات واسعة وأزيح بعض رؤساء النقابات وأجريت انتخابات عامة جديدة، أحد المحافظين خطب في حفل فاستشهد بمقاطع من الرسالة حين أعلن أن «البلاد تحيا منعطفاً جديداً لا مكان فيه للنوم أو المتخاذلين، منعطفاً يحتاج إلى تكنيس الثالث من أجل الإبقاء على ثلثين منضفرين في حزمة ضوئية واحدة تثقب الدياجير لإنارة الطريق إلى مستقبل أفضل..»، إذا لم يكن هذا المحافظ قد بدل في نص كلمات الرسالة وغير فهو لم يبتعد كثيراً عن روحها.

ولكن ما داموا يسرقون أفكاره ويستشهدون بها، ماداموا طفيليين على موائده السخية فلماذا تعود اللاندروفر إلى مطاردته، ولماذا يعرض به الكتاب والمعلقون على صفحات الجرائد: مامن افتتاحية يكتبها رئيس تحرير «الوطن» إلا وتتضمن تعريضاً به، وهذا، طبيعي، بإيعاز من دوائر الأمن، في افتتاحية الأمس، من يقصد بفلاسفة المقاهي والكافتيريات إذا لم يعنهِ هو، وأخيراً يصل حصارهم إياه، تفننهم بهذا الحصار أن استنبطوا مؤامرة الأبو بريص.

وقال في نفسه:« إذن فأنا غير مرغوب فيّ في أي مكان، أنا غير مرغوب فيّ حتى نفسي، فما يبقيني متمسكاً بهذه الحياة الواهية السخيفة المعذبة المطاردة التي خلت مما يُغري بدوامها، أليس الموت أفضل؟ ومادام من مات الآن يستوي مع من مات من آلاف السنين فلماذا لا يكون ذلك اليوم قبل غداً؟».

أيتها الرحلة الخاطفة الغامضة في بحر ملتبس مشبوه ، يامجهولة البداية مظلمة النهاية، لماذا كنت؟.

* * *

موت صوص

أزغب، مشمشي اللون، مثب طفل رضيع، بداية جناحين لونهما أبيض على عفرة، هو والقائمتان ذاتا الشعب الأربع، مثل المنثور، هي اللون الوحيد المغاير في هذا المشمشي الأزغب الذي هو كل الصوص - البرعم اللطيف الذي يكاغي بزقزقات من الرقة في حيث تحسبها على بلبل لا على صوص. المنقار أيضًا فتنة وأنس للعينين كلما انفتح أو انطبق.

ومع ذلك فقد قال الأب في ملامة:

- يا بني، يا بني لماذا جلبته؟ بيتنا طابق والصيصان في حاجة إلى الهواء الطلق والمراح. تصور إني قرأت أيضاً أنه، مع الحَبّ، يلزمه حصا صغير...

- أعلم بابا، لأن الدجاج لا معدة له ولكن حوصلة. هذه قراناها في العلوم الطبيعية العام الماضي. وهو يلقط أحيانا الحصا لكي يكون بمثابة مدقه تهرس الحب.

- مرحى، إذن لماذا اشتريته؟ بكم اشتريته على فكرة؟

- بستين قرشا.

- ما اختلفنا ولكن هذا المسكين يجب العناية به، لأنه رخص هش. وحوينته أن يموت فهو جميل.

خلال اليومين التاليين صار الصوص خرخوشة عقل الأسرة. صار له اسم: شادي، تيمنا باسم ابن جيراننا الطفل ذي الشعر المشمشي الأجعد. وصارت له خلائق تفتن كل أحد. كان صاحبه، ابن البيت، يضعه على ظهر المكتبة ويصفر له، وإذا الصوص يقذف بنفسه من علو متر وتسعين فيتلقاه

صاحبه بين يديه مفتوناً. كان من عادته أيضا أن يلحق الأقدام التي تتراكض أمامه وهو يزقزق. ملأ البيت بهجة. وأضحى أهل البيت يسمرون على نوادره.

اليوم الثالث، الصباح، لم يبد «شادي» إلا نثارا من مرح. زقزقته كانت واهنة. وضع صاحبه في صندوقه كمية وافرة من برغل الكبة وحق ماء فلم يدن منهما إلا دنو المدنف.

هتفت ربة البيت مروعة:

- إنه يحتضر!

قال الأب مستفظعاً:

- فال الله ولا فالك!

ولكن، كان ظاهرًا أن الصوص يلفق. كان يتنفس ملء منقاره. في لحظة من اللحظات سقط رأسه على مقوى الصندوق.. تحامل على نفسه وتشبث بالحياة. معركة ضارية لا مرحمة فيها. الصراع الأبدي بين الموت والحياة. لا هدنة هنا ولا عطف. قرار بالإعدام قد صدر من جهة مجهولة ولكن لا مرد لقضائها: الصوص ينهار على جانبه الأيمن. لا، لن يموت. إنه برعم وملأ البيت جذلا. حرام أن يموت!... صحيح. الحياة أقوى. ها هو ذا يجاهد يتجلد، يوفق إلى النهوض، ثوان معدودات لا يلبث بعدها أن يسقط على جماع صدره وبطنه، رقبته كلها تلتصق بالأرض.

مات!

*   *   *

فتيا الحلم والواقع

لما كانت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها، حضرت فلماً فيه ممثل بهرها. اشترت له صوراً يبدو فيها في أوضاع متعددة. هذا الممثل هو الذي كوّن، ملمحاً ملمحاً، وخلال عملية إنضاج طويلة، رجل أحلامها، زوج المستقبل، ربّ العش، سيدها ومولاها، الذي لا تقبل في صفاته أية مساومة، أي تساهل، أية حلول وسط: طرة متمردة على الجبين، شفتان ناضجتان، شاربان غزيران، عنق تلعاء، كتفان عريضتان، صدر رحيب يغمره شعر كث، أجعد - ولابأس أن يكون ظهره حتى العصعص كذلك - طويل، مخطوف الخصر مثل أبطال كمال الأجسام. صوته جهير، أجش، ينقط رجولة، ولكن جذعه أقصر من ساقيه الشعراوين الممشوقتين مثل آلهة اليونان.

ولازمها هذا الفتى. كانت تراه في أحلامها، مثلما في الفلم، يندفع إليها على جواد أصهب، طويل العرف والذيل يخطفها ويردفها وراءه، وينطلقان إلى المجهول... وأما في اليقظة فمتى ما تمش في الشارع وتَشِمْ فتى تتوفر فيه هذه الصفات يخفق قلبها مثل طائر أمسكته من مؤخرته، فتهم أن تبدأه بالكلام.

في العشرين، خَطَبَها واحد مقدر، معدل، ولكنه، واأسفاه! ليس له غرة متمردة على الجبين، لأنه كان أنزع، بداية صلع واضحة شاربان غير غزيرين، ولكن يمشي حالهما. ولكنها لما رأته بالقميص المفتوح، راعها أن صدره ما فيه حتى الزغب!

في الثلاثين خطبها رجل لا يكفي أنه متزوج وعنده أولاد، ولكنه بغير شاربين، وشعر صدره خفيف لزيادة النكاية. وهو، إلى ذلك، لم يكن جاداً كما تدل الدلائل.

في الخامسة والثلاثين صارت تسمع من أهلها وأترابها طراطيش حكي عن لعنة اسمها العنوسة. قالوا إنها فظيعة جدًا. صحراء، جليدية ما فيها نسمة حياة:

«بنت عمك فاطمة، المسكينة، صار عمرها أربعين وما أحد أمسك سقاطة باب بيتهم، يا حرام!».

ولكن ابنة عمها فاطمة فمها مثل فم الضفدعة، روحاء، تمشي مثل البطة، صدرها مندفع إلى أمام كأنه حدبة، وساقاها مثل محراك التنور. والشيب لا تواخذنا... ربك حميد فيه صبغة... وأما هي، فعلى الرغم من هذا الرقم المكتوم، خمسة وثلاثين، شيء آخر: لا شعرة بيضاء إلا ما يُسَلُّ من شهر شهرين إلى شهر شهرين. البضاضة على شعر أسود. عندما تضفر شعرها في جديلتين لهما شريطتان بيضاوان تبدو مثل بنات المدرسة. العينان حوراوان. الرقبة طويلة. الصدر، عذراء. الخصر، نحيل. المشية، أكابرية.

في هذه السنّ خطبها رجل أجرودي، صغير الرأس، قصير العنق، ضيق المنكبين، صدره مخفوس، طويل الجذع، قصير الساقين، صوته رفيع مثل صوت الأولاد قبل البلوغ.

ما العمل؟ طبيعي أنها قبلت. أم تريدونها أن تداهمها تلك العنوسة الجهنمية مثل بنت عمها فاطمة.

*   *   *

المبيّض

قصة ذات حوار

على كتف حائط المستشفى كان يحفر حفرته المألوفة، يضع فيها منفاخه الحديدي، المتطور تكنولوجيا إذا أنت قارنته بالمنافيخ اليدوية التي كانت لا تخلو منها دار أيام المناقل والأثفيات(١) ويفرش حواليه عدته من قطن وقصدير وقشاش وقود وبِضْعِ قطع من الحطب. ويكون أهل الحي قد سمعوا بمقدمه. فيهرعون إليه من كل صوب بماعونهن الذي يحتاج إلى تبييض.

ذلك اليوم، بينما كان مشعلاً ناره، يعمل في طنجرة مما يسمى «خاروفية»، وهي من تلك القدور الضخمة التي تتسع لخروف كامل، وأجيره الصغير سعيد يحوص ملبياً طلباته أو «منخطفاً» إلى بيت أحد العملاء ليحضر نحاساً من عندهم، وقف أبو الولد أجيره فوق رأسه:

الرجل: مرحباً أبو محمد.

المبيّض: أهلاً وسهلاً أبو سعيد تفضل (يتضاحك وهو يشير إلى الرصيف) تتفضل على ماذا، دخلك؟

الرجل: الله يزيد فضلك يا أبو محمد. تسمح لي بخادمك سعيد؟ أنا جيت آخذه ساعة من الزمان.

المبيّض: ولكننا نشتغل. ألا ترى أننا نشتغل؟

---

(١) الأثفية هي مفرد الأثافي، الحجر الذي توضع عليه القدر. وقد ظللت حتى الآن عندنا في البلد وإن تكن قد حرفت إلى «تفية». وتفي الموقد.

الرجل: بلى، ولكن المسألة وما فيها أن جارنا أبو راشد البلاط رجل مرزوق (ينسى أنه أراد أخذ ابنه ساعة زمان فقط!) والكريم فاتح له خزاينه ويقول له: «خذ!» اللّه لا يجعلنا من الحاسدين. مصلحة البلاط وما أدراك. البلاط هذه الأيام يقص عملة مثل الكذب، استغفر الله العظيم. ومن مدة فاتحته في ابن أخيك سعيد. قام قال لي: «هاته!»... كثر اللّه خيره. إيش لنا عليه، الرجل المسألة وما فيها أن الولد يتعلم صنعة مثل الخلق والعالم.

المبيض: (في إثارة من ملامة وأسى) - وهذي! أهي كش ذبان، أم كش حمام؟

الرجل: أنت تعرف أكثر مني أخي أبو محمد: صنعة المبيض معها معها تموت. الخلق بطلوا يشترون غير الألمنيوم والتيفال والزجاج ضد الكسر والستانستيل.

المبيض: واللّه إذا أردت الصح ما بعد النحاس إلا النحاس. هذا يعيش العمر عمرين. أي مالك عليّ يمين تحلفني، عندنا في البيت طاسة حمام من أيام جدي، جد جدي، يمكن أقدم، ولا تظنها حتى اليوم إلا طالعة من سوق النحاسين هذه الدقيقة.

تدنو امرأة نَصَف، على رأسها منديل رمادي، سادة، تظهر من تحته خصلات من شعر أشقر دبَّ فيه الشيب. هي عذبة الصوت على نحو عجيب حتى لتظن أنها طفلة، حسنة الهندام.

المرأة: اللّه يعطيك العافية يا أخي.

المبيض: اللّه يعافي قلبك يا أختي. تفضلي، أهلا وسهلاً.

المرأة: ممكن أنك تبعث معي أجيرك؟

المبيض: خير إن شاء اللّه؟

المرأة: عندي سبع ثماني طناجر وصحون وطشت تحتاج إلى تبييض.

المبيض: واللّه يا أختي هذا الولد عندي جاء الأخ أبوه ليأخذه لآن عنده لازمة. دليني على البيت. أنا أروح أحضر الأغراض الآن، على رأسي.

المرأة: لا تعذِّب نفسك يا أخي. أنا أرسلها مع البنت.

المبيض: إي، اللّه يكثر خيرك. على هذا الشكل أنا لا أتعطل.

المرأة تبتعد.

المبيض: سمعت أخي أبو سعيد (في لهجة ذات مغزى) النحاس ما انقطع بعد من الدنيا!

الرجل: إي اللّه يرزقك. ولكن الإنسان، سلامة فهمك، يجب أن ينظر إلى مصلحته قبل كل شيء.

المبيض: إي اللّه ييسرلك.

الرجل: (لابنه) - تعال يا ابني، امشي معي.

الولد يرمي صحناً كان يفركه بالقطن ويجيء فيقف قرب أبيه.

الرجل: امش.

يمشيان مبتعدين حتى يغيبهما المنعطف.

المبيض يكب على منفاخه وصحونه. لم «ينهزَّ» بدنه من أبو سعيد الذي قطعه بسحب ابنه. لقد اعتاد، منذ مدة، العمل وحده، إذ اضطرد «وضع» أولاد المعارف عنده أسبوعين ثلاثة يعكف خلالها على تعليمهم في حماسة، ولكن آباءهم لا يلبثون أن يسحبوهم إلى مصلحة أخرى، أريح. عاد لا يذكر ذلك الأفندي الذي قال له أن الحكماء اكتشفوا أن الألمنيوم مضر. فيه سم يقتل مع الوقت. حبذا لو انتشرت هذه السيرة بين الناس. إذن لتقاتل عليه آباء الأولاد!

كانت المرأة قد وصلت إلى بيتها. ومذ هي في الدهليز:

المرأة: (تصيح) - رباب، يا رباب.

رباب: (صوتها من بعيد) - نعم ماما؟

المرأة: أين أنت يا حبيبتي؟

رباب: (مقبلة) - كنت هنا في المطبخ. بدك شي ماما؟

المرأة: أي تعالي، اللّه يرضى عليك، خذي لي هذه الطناجر والصحون والطشت عند المبيض.

رباب: حاضر ماما. ولكن أين دكانه؟

المرأة: هذا ماله دكان عين الماما. هذا يعمل في الشارع. شفت الرصيف على كتف المستشفى؟

رباب: أي ماما.

المرأة: أي هناك هو، حافر الرصيف ويعمل. أنا قلت له: الآن أبعث لك الأغراض معك. ولكن، وقفي...

رباب: نعم، ماما؟

المرأة: ما عسى أن يحكي عنا أهل الحارة إذا أرسلتك أنت؟ أنت بنت، خزيت العين صبية تفتح العين من العمى.

رباب: ماما، ولكنهم يرونني أشتري الأغراض من عند أبو زهير.

المرأة: هذه مسألة ثانية. سأنتظر حتى يعود أخوك زياد من المدرسة.

رباب: ماما، ما فيها شيء. وأنا أحب أن أتفرج أيضاً على المبيض وهو يعمل. من يوم كنت صغيرة ما شفت مبيض نحاس.

المرأة: أي طيب حبيبتي، خذيها. ولكن على نقلتين لأنها ثقيلة عليك، والمحل قريب.

ورن صوت عذب فوق رأس المبيض.

رباب: صباح الخير عمو.

المبيض: (مأخوذاً) صباح الخير يا بنتي.

رباب: حضرتك المبيض؟

المبيض: نعم، أمر؟

رباب: هذه الأغراض من عند ماما.

المبيض: لبّكت حالك يا بنتي. كنت أقدر أن أحضرها أنا نفسي.

رباب: ما عليه شي عمو. (تضحك في صفاء).

المبيض: هاتيها عمو هاتيها.

رباب: تفضل. عمو؟

المبيض: نعم حبيبتي؟

رباب: هذا الذي في الصحن هنا، إيش؟

المبيض: هذا عمو قصدير.

رباب: لأيش القصدير تستعملونه أنتم؟

المبيض: تبيض به الطناجر والصحون.

رباب: والقطن؟

المبيض: نمسح به بعد أن نطلي الوعاء بالقصدير.

رباب: وكم يبقى التبييض؟

المبيض: سنة، سنتين، أحياناً أكثر.

رباب: وتظل أنت طول هذه المدة من غير شغل؟

المبيض: (مستطرفاً) - لا يا حبيبي. أنا أروح إلى حارة ثانية. أفتش عن رصيف آخر.أحفر حفرة صغيرة في الرصيف إذا كان غير مبلط مثل هذا، وأضع موقدي ومنفاخي وعدتي وأستقبل زبائن الحارة الثانية.

الصبية الصغيرة تلاحق حركات الرجل في فضول واهتمام، إنها في الخامسة عشرة أو أكثر قليلاً ولكن في وجهها طفولة بادية. كل قسماتها دقيقة، لطيفة، كأنها رسمت رسماً. شعرها مثل خيوط الذهب معقود ضفيرتين بشريطتين زرقاوين، وجاءت الكنزة الحمراء فاجتمعت فيها ألوان مرج في الربيع.

رباب: عمو.

المبيض: نعم، عمو؟

رباب: نحن في المدرسة درسنا القصدير.

المبيض: درستم كيف يستخدم في التبييض؟

رباب: لا، درسناه في الكيميا. أتعلم كيف يوجد في الطبيعة؟

المبيض: (ضاحكاً) - لا، ولكني أعرف كيف يوجد عند التجار: مثلما ترينه، قطع مثل قطع الراحة!

رباب: لا عمو، القصدير في الطبيعة يوجد غالباً على شكل سولفور ويسمى في هذه الحال سينابر، ويوجد أكثر ما يوجد في اسبانيا وإيطاليا وكاليفورنيا.

المبيض: (مهتماً) - وايش أيضاً؟

رباب: القصدير أبيض، لامع، شديد الكثافة، يستخدم في صنع الأدوات الفيزيائية و... و... هذه نسيتها.

المبيض: أما هي التبييض؟ (يضحكان).

في دكان المبيض، بعد بضعة أيام.

الرجل: (أبو سعيد) اللّه مقوي الجار أبو محمد.

المبيض: أهلاً وسهلاً أبو سعيد. تفضل استرح.

الرجل: بشرني كيف حالك؟

المبيض: ساترها اللّه. كيف أخبار المحروس؟

الرجل: واللّه مشي حاله. أصبح شغله البلاط، واسم اللّه، من ورشة إلى ورشة ورا المعلم أبو راشد.

المبيض: أي رب وفق.

الرجل: مررت بك عدة مرات شفت الدكان مسكرة. ظني أنك في تلك الزاوية على كتف المستشفى دائماً.

المبيض: لا واللّه، أنا أفتل من حارة إلى حارة، كالعادة.

الرجل: ولكن، كأني لمحتك من يومين هناك، في الزاوية ذاتها.

المبيض: (خجلاً لأنه كذب) - واللّه، مثلما تقول يا أبو سعيد. أدور وأعود إلى هناك. الحارة نحاسها كثير.

في حارة ثانية.. المبيض يعمل على كتف حديقة صغيرة تصوينتها مهدمة.

رباب: مرحباً عم أبو محمد.

المبيض: أهلاً عمو.

رباب: أنت تعمل هنا هذه المرة.

المبيض: اي واللّه. عندي شغل يومين، ثلاثة. أنت، ماذا تفعلين هنا عين العم؟

رباب: هنا مدرستي.

المبيض: (لم يسمع جيداً) - -نعم؟

رباب: أنا في الصف العاشر. وأخي زياد عنده متوسطة السنة. أنت عندك أولاد عم بو محمد؟

المبيض: كثير.

رباب: كم؟

المبيض: ثمانية؟

رباب: في المدرسة، كلهم؟

المبيض: لا واللّه يا عين العم. هم يشتغلون صناعية هنا وهناك.

رباب: واللّه يا عم ما فيه أحلى من المدرسة.

المبيض: طبيعي.

رباب: نسيت أقول لك.

المبيض: تفضلي حبيبتي.

رباب: ماما اكتشفت أن عندنا في السقيفة طناجر أخرى تحتاج إلى تبييض.

المبيض: سأمر بكم. هل تريدين أن أمرَّ اليوم؟

رباب: لا انتظر إلى الغد، غداً أنا عندي المدرسة بعد الظهر، ولذلك تعال بكرة الصبح حتى أعاونك.

المبيض: على رأسي وعيني.

في بيت أبو محمد...

محمد: ليش أبي أنت تريدني أن أترك معلمي.

المبيض: أنا ما قلت لك يا ابني يا محمد أن تترك معلمك. قلت لك. استعد لتركه.

محمد: اي أريد أن أفهم السبب.

المبيض: لأنك ستعود إلى المدرسة العام المقبل.

محمد: ولكني مبسوط عند معلمي، والحدادة...

المبيض: ولكني أنا غير مبسوط.

محمد: يا أبي...

المبيض: لا أبي ولامبي. كلمة ورد غطاها. أنت صغير وتركت المدرسة العام الماضي، ولذلك تستطيع استئناف دراستك في سهولة.

محمد: ولكن، يا أبي...

المبيض: لك. فيه أحد يصح له أن يتعلم ويرفض؟ ولك أنت ايش تعرف من هذه الدنيا، قل لي. أين يكثر معدن القصدير مثلاً؟ قل لأشوف!

على باب بيت رباب. المبيض يرن الجرس.

رباب: (من الداخل) - اي جيت، جيت. (تفتح الباب ترى المبيض، جذلى) عم أبو محمد؟ أهلاً وسهلاً. تفضل.

المبيض: اللّه يحفظك يا ابنتي. أنا جيت، حسب الاتفاق، من أجل الطناجر.

رباب: اي أهلا وسهلا. تفضل استرح. أمي عند الجيران. راحت تستقرض من عندهم رغيفين لأن أخي زياد نسي يشتري لنا ربطة خيز وهو الآن في المدرسة.

المبيض: لا سأعود بعد قليل.

رباب: إذن أنت تريدني أن أزعل منك!

المبيض: أعوذ باللّه. هه، أنا قعدت.

رباب: في الدهليز؟ لا واللّه. تفضل إلى الصوفة. أنا أغيب دقيقة واحدة. أعمل لك فنجان قهوة. تعال معي إلى المطبخ، أنت تحبها كيف، سكر قليل؟

يذهبان إلى المطبخ.

المبيض: ما شاء اللّه كان. مطبخ مثل الفلة.

رباب: أمي نظيفة جداً. عمو؟

المبيض: نعم.

رباب: أنت تحب الأدب العربي؟

المبيض: (خجولاً) - واللّه يا بنتي أنا، هكذا مثلما تقولين، قراءتي ضعيفة شوية!

رباب: يعني إلى أي صف وصلت؟

المبيض: إلى الصف الخامس.

رباب: معنى هذا أنك تقرأ وتكتب جيداً. بابا يقول دائماً أن العلم أيامكم كان أحسن منه الآن، إن الصف الخامس مثل المتوسطة الآن أو أكثر.

المبيض: ولكني لا أقرأ كثيراً. أنت تعلمين: دكان وبيت وأولاد، والترك كما يقول أهل أول فَرْك.

رباب: مثلاً، ايش تقرأ؟

المبيض: عندما لا يكون عندي شغل اقرأ في السيرة.

رباب: السيرة؟

المبيض: اي، سيرة الملك الضاهر، سيرة بني هلال.

رباب: حلوة؟

المبيض: واللّه كلها قتل وضرب: (يقلد الكحواتي) ولما التقى البطلان، كأنهما جبلان، وحان الحَيْن، ورفرف غراب البين، اختلفت بين أبو زيد الهلالي والفرمند ضربتان، كانت ضربة الفرمند خاطئة فضربه أبو زيد على عاتقه فخرج السيف يلمع من علائقه.

رباب تضحك ضحكاً مديداً صافياً.

رباب: رائع عم أبو محمد، رائع! لماذا لا يدرسوننا هذا في المدارس؟

المبيض: يدرسونكم إياه في المدارس؟ أهذا علم؟ هذا صف حكي. العلم المضبوط، العلم الظريف هو هذا الذي قلته لي المرة الماضية.

رباب: عن ايش؟

المبيض: عن القصدير. أما تذكرين؟

رباب: تذكرت. تذكرت.

المبيض: وأما ضربه على هامه حط رأسه قدامه (رباب تضحك) فلا شيء. إذا سمعت نصف فصل كأنك سمعت السيرة كلها.

رباب: لا، أنا أريد أن تحكي لي قصة من أولها إلى آخرها، من قصص هذه التي سميتها، ماذا سميتها؟

المبيض: سيرة بني هلال.

رباب: أي سيرة بني هلال. احك لي واحدة.

المبيض: يعني أنت تريدين أن أبطل التبييض واشتغل في صنعة الحكواتي؟

يضحكان. تدخل المرأة.

المرأة: (مفاجأة) - أ.. أبو محمد، حضرتك هنا؟

المبيض: (محرجاً، خجولاً) - اي واللّه يا ستي. الخانم الصغيرة...

المرأة: اي أهلاً وسهلاً (الرباب) ولكن يا حبيبتي كيف استقبلت العم أبو محمد هنا في المطبخ؟

المبيض: (ترتد روحه إليه) - لا بأس يا ستي، لابأس. المسألة أن أواعيَّ ليست...

المرأة: أواعيك ما فيها شي تفضل إلى الصوفة.

المبيض: لا واللّه..

رباب: ماما، ماما.

المرأة: نعم يا حبيبتي؟

رباب: عم أبو محمد سيحكي لي قصة من قصص بني هلال (للمبيض) ولكن، هل تعلم يا عم أبو محمد؟

المرأة: أعلم ايش عمو؟

رباب: يجب عليك أن تقرأ كتباً أخرى.

عودة إلى الدكان.

الرجل ٢: هذه سمعة ما سبقك عليها أحد.

المبيض: ليش أخي؟

الرجل٢: اي هذا مقعول أنا عندك في الدكان، وانتع طناجري وصحوني من هنا في الحارة إلى رصيف المستشفى!

المبيض: أخي أبو أسعد واللّه أنا هناك عندي شغل كثير.

الرجل٢: ولكن المحل بعيد.

المبيض: لاهو بعيد ولا ما يحزنون. كلها مئة خطوة. وأنت طريقك من هناك الصبح والمساء. وأنت رايح هات الطناجر في طريقك وأنا في خدمتك.

الرجل٢: يعني، هكذا أنت تقبلها؟

المبيض: ولك أخي ليش أنت تستعظم الهين. أي سيدي، لايكن لك فكر. وأنا الآن أمر بأم أسعد وآخذ الأغراض من عندها وأحملها إلى رصيف المستشفى.

الرجل٢: إذا كان الأمر هكذا فأنا ما عندي مانع.

في مكتبة.

المبيض: اللّه يسعد صباحك أخي.

صاحب المكتبة: صباح النور، أهلاً وسهلاً. أمر؟

المبيض: واللّه الداعي، مثلما تقول، اللهم صلي على النبي، كيف أقول لك، أريد بضعة كتب.

صاحب المكتبة: كتب أيش؟

المبيض: واللّه، مثلما تقول، هكذا، كتب إذا قرأها الإنسان صار يقدر يأخذ ويعطي مع العالم.

صاحب المكتبة: مافهت عليك..

المبيض: يعني (دفعة واحدة) يعني يصير يحكي مثل أولاد المدارس.

صاحب المكتبة: (يضحك) - اي العلم يا عم بحر، من أين عليّ أن أجعلك تبدأ؟

في بيت محمد، في غرفة القعود.

الجارة: هكذا إذن قلت لي. هذي أكيد جهلة الأربعين.

أم محمد: واللّه يمكن! القرش الذي يوفره واللّه يا أختي يروح حق كتب.

في غرفة أخرى.

محمد: هات بشارة، أبي.

المبيض: بشرك اللّه بالخير، فيه شي؟

محمد: داومنا على المدرسة بعد أمرك.

المبيض: أي اللّه يرضى عليك، أينما تحركت تجد الرضى قدامك.

الله يوفقك. الآن قلبي من جوه فَرِح..

في بيت رباب. من الخارج يأتي نداء المبيض.

المبيض: (في البعيد) - مبيض، مبيض (الصوت يقترب) مبيض.

رباب: ماما، ماما.

المرأة: (مقبلة) - نعم عين الماما؟

يقترب الصوت أكثر.

رباب: أبو محمد، المبيض!

المرأة: ولكنه بيَّض لنا كل شيء يا حبيبتي!

* * *

قصة الأشكال

قصص

حسيب كيالي ج٣ – م١٣

قصة الأشكال

جرس الباب يرن ولكن على استحياء. ذلك لأن الساعة متأخرة؟ قالت أمي وهي تنظر إلي بعينين قلقتين:

- الله يعطينا خيره.

وضعت الكتاب من يدي على القاطع وقلت لها وأنا أنهض:

- لا تخافي. لو كانوا (هم) لكان للرنين لهجة أخرى.

قالت فزعة:

- لا تفتح أنت.. اتركني أنا أفتح. «وهم» لا يأخذون النسوان.

أكان هذا الفزع من طارق الليل مرتبطاً بصلة مع ست ستها؟ من يدري. همست باسماً:

- ولكن ليس للبيوت عندهم حرمة. حتى لو كانت الساعة متأخرة.

مسؤول الخلية هو الطارق. إنه يضع قبعة يغطس فيها رأسه حتى العينين، ويرفع قبة معطفه حتى منتصف جدران القبعة. وشوش بعد أن أمسينا في الدهليز:

- غداً في مثل هذا الوقت، اجتماع هنا. بلغ عزمي وخليل ومأمون، الاجتماع مهم جداً جداً.

- خير؟

ازداد همسه خفوتاً:

- سيحضره عضو من المكتب السياسي.

ظللت ممسكاً بدرفة الباب وأنا أنظر إليه يختفي في الليل. عند مدخل البناية الخارجي هربت قطة كانت تنبش في كومة القمامة التقليدية، في البعيد

شقت سكون الليل صفرة من حارس ليلي. هبط قلبي. على سفح قاسيون كانت الأضواء تختلج وتتهامس. قالت أمي مبتهلة:

- الله يحميك ويحمي أولاد أمة محمد.

انتشلت نفسي من أفكاري. قلت ضاحكاً:

- ولكن الياس مسيحي!

قالت: «وأمة عيسى أيضاً. هؤلاء أيضاً خلقة الله، ولهم أمهات، الله يعمي عنكم أولاد الحرام وينجيكم من الحكام الظلام».

كنا في أشد حاجة إلى مثل هذه الدعوات: فصيل من أكرم مناضلينا مدفونون الآن في معسكر اعتقال صحراوي. الأنباء تتوارد تترى عن العذابات التي تنزل بهم. سليمان، طالب الطب، الرحب الضاحك، الوديع الذي من جسر الشغور عُلِّق - فيما قيل - من رجليه، وجلد أمام رفاقه.. حسن ذو الأصابع التي لا ترى مثلها إلا على عازف بيانو اقتُعلت أظافره بالكماشة. سامي، صبري، أبو عبدو ومئات غيرهم.. في السجن العسكري حيث دشن الدكتاتور، أبو اليدين الجاروفيتين حكمه بإضافة ثلاثة مهاجع جديدة في الطابق الثاني (استقينا هذه المعلومات بعد بضع سنوات لما زرناها مهجعاً مهجعاً موقوفين...) في المقاهي، إذا أراد أحد اللاعبين بطاولة الزهر أن يفش قلبه بمسبة مسبتين لصاحب الكفين الجاروفيتين، تلفت طويلاً حواليه قبل أن يهمس في أذن زميله: البلاد بيعت وانتهى الأمر. باعها الجاروف!

- ٢ -

خليتنا، مثلنا، كانت حديثة. الحزب كان جديداً علينا، لم نكن حزبيين بكل معنى الكلمة. الياس ربما، وأما نحن الآخرين فعزمي هو الذي لعب بنا. تنحى، قام «بفزعة» عرب وجرنا معه. الحكاية أن مسؤولاً حزبياً يحيا في القرية قضى ساعتين أو أكثر يحدثنا. إنسان قريب من القلب، يعرف مئة مهنة مدهشة، يرسم الكاريكاتور، يدق على العود، ينظم الشعر، يتقن الفرنسية، ألف

كتاباً في صرف العربية ونحوها. فوق هذا كله له لسان يخرج الحية من وكرها.. بين الموضوعات التي طرقها الاضطهادات التي يتعرض لها فتيان الحزب: شبان مثل أزرار الورد، أكثرهم طلاب جامعة، ومع ذلك لا يتزعزعون عن إيمانهم بالحزب وقضيته. حينها احتدام غيظنا. شتمنا مضطهدي الفتيان الباسلين ذوي المبدأ المكين. صرخ عزمي: «اعتبرنا من الآن لابسين في الحزب!» ومد يده إلى جيبه ونتر قلم الحبر الباركر الوحيد الذي يملكه وقدمه في أبهة وحركات عريضة:

«هدية إلى رئيس الحزب. هذا القلم الذي ما سال حبره قط إلا دفاعاً عن الحرية»!.

أية حرية؟ لست أدري ماذا أصابنا نحن الآخرين. جرفتنا حماسة عزمي فلم نعترض. وهكذا صارت لنا، رويداً رويداً، لسنا ندري كيف، خلية، لها مسؤول من معارفنا، الياس هو الوحيد الذي كانت له صلة بالمنظمة الأعلى. قالوا إن هذا على طريقة أبي مسلم الخراساني التي لا تسقط الجماعة كلها إذا وقع أحد أفرادها... والله شيء حلو أبو مسلم الخراساني، هذا أسس دولة.

إذن غداً أول احتكاك لنا بحزبي كبير، حزبي من لحم ودم (وأما أسامة فقد كنا نعتبره من طينتنا يكتب ويقرأ ويعنى بالفن على الرغم من أنه، كما قيل لنا، مسؤول كبير هو أيضاً)، غداً سنرى، سنلمس، سنشم أول حزبي محترف مناضل «وهب عمره لقضية كبرى» تسوى العمر كما تصورنا، يعني، بكلمة، إنساناً يمثل كل أحلامنا المتوارثة عن البطل، يجمع بين النظر والعمل، وكم كنا نحبه هذا الجمع بين النظر والعمل، أبونا كان يحكي عنه في خشوع لأنه من خلائق الأنبياء. ولماذا لا؟ إنه متمكن من النظر، لا بد أنه ملم بتاريخ حركة النضال في سبيل الحرية منذ الماراثون وسبارتاكوس حتى ثوراتنا وتمرداتنا الأخيرة نحن والكوريين والفيتناميين والكوبيين.. والعمل؟ ماذا؟ إنه يمارس التطبيق مغامراً بحياته كل لحظة.

كنا ننتظر منتصف الليلة القادمة يفترسنا الفضول. قد تكون حرارتنا ارتفعت، عدت لا أذكر.

- ٣ -

وجاء المسؤول الكبير. ما هذا؟ منذ الوهلة الأولى اندفعت إلى لساني هذه الهتفة: «ولكن هذا مخروط!». وكان ذلك صحيحاً حتى الإيلام: كل ما فيه كان مخروطياً، آمنت بالله، رأسه مخروط، قاعدته رقبته وذروته قمة رأسه، يداه مخروطان، كتفاه مع كفله العرمرم مقطع مخروط (لأننا إذا قطعنا رأسه وجعلناه مخروطاً على كلتا ساقيه مجتمعتين نكون قد صنعنا مخروطاً مقلوباً رأسه إلى أسفل)، أنفه، أذناه.. كل شيء، إطلاقاً كل شيء.

تلك الأيام كانت بلادنا لا ينفعها غير الحرب، مزيد من الحرب، حرب على العدو الداخلي الألفي من تخلف وفوضى وأمية روح، وهزال، وضمور ذمم. مثل ساق محبوسة أربعة قرون في الجبصين. حرب على العدو الخارجي الذي يتسلح كل لحظة بحقد ألفي مذكى أبداً بكتب مهترئة بذيئة. فاجرة، ولكن لها قوة السحر والمغناطيس يقال لها، مع ذلك، مقدسة. لقد قرأت كتبهم «المقدسة» تلك وفكرت أن من يصدقها يحتاج إلى أربعمئة قرن حتى يكون في مرتبة الذئب: «إذا أسلم الربُّ إلهك إحدى المدن التي وعد بها الرب آباءك إبراهيم واسحاق ويعقوب.. فلا تدع فيها نفساً حية تتنفس رحاب.. أريحا»، عدو يغرس كل نفايات أوروبا والعالم في حدائقنا وغاباتنا وأعيننا وكرومنا وبياراتنا.. عدو لا يحتاج دفاعه عنا إلى أناس قميئين مخروطيين «يهبون العمر» لمهمات يومية عابرة، موصى بها من زي شائع أو من تحالف غير منيع أصبح هو أيضاً موضع ريبة لأن الموصي خان الأمانة على كل الأصعدة، بل يحتاج إلى مقاتلين يحاربونه أفقياً وشاقولياً حتى محقه.

المكتب السياسي له وجائبه.. هكذا كان يقول سلوك القائد الحزبي الكبير، المخروط، الذي تنازل وخص خليتنا ببعض وقته الثمين، نحن الذين نستحق أن نسمى أغراراً أو جنوداً احتياطيين.. في جيوش الحزب المظفرة التي تقاتل سراياها على جبهات تشمل الكرة الأرضية متسلحة بنظرية كالفولاذ.

لم يكن يناقش. كان يصدر الأوامر. يجب أن نقوم، نحن الذين إذا هبت علينا نسمة باردة خنقنا السعال وطرحنا الرشح أرضاً.. بمظاهرات خاطفة في

أماكن الازدحام كسوق الحميدية والحريقة والدرويشية، وباجتماعات جماهيرية في الأحياء الشعبية كالميدان والشاغور والعمارة أيضاً.

عجيبة! لم يكن جسمه وحده هو المخروطي. فكره أيضاً: حزب ليس له قاعدة شعبية، حزب محنط، ليست له أية سمعة محلية أعين قادته كلهم تضرب أبداً على مثال لا يستمد نسغه من أرضنا، ولا يدري بشواغلنا، حزب لا يعتقل أعضاؤه لأنهم يضرون وينفعون، ولكن لأن اعتقالهم قد ينفع في مزاد ما، من أجل مكسب رخيص حيناً، مشبوه حيناً آخر، بعيد من أصل القضية دائماً، بل مضر بها إضراراً قاتلاً دائماً. حزب قد يكون من أساسه زياً زائلاً من الأزياء، حزب غريب عن حركة الحياة، التاريخ، الفكر في البلد... ومع ذلك يفكر قادته، في مخابئهم الأمينة في... مظاهرات خاطفة واجتماعات جماهيرية في الأحياء الشعبية.. ما عسى أن تثمر مظاهرة تطالب بالكنافة البلورية المصنوعة بالسمن العربي الخالص والفستق الحلبي العاشوري في سوق أهلها لم يذوقوا غير الخبز الأسود المقوى بخيطان القنب؟ في أي حي شعبي يمكن أن يعقد اجتماع جماهيري، والشعب كله يهدر نصف يومه أمام الأفران، أو في تجرع الفول المسوس وازدراد الحمص الفافوش، ويرى فيهما نعمة تُباس عليها اليد وجهاً وقفاً؟.. المطلب الحزبي الذي تجشم سيادة المخروط عناء التنازل لحضور خليتنا من أجله سيقابل، حتماً، في كل الأحياء الشعبية، بالصفعات والركلات تكال لكل من يفتح فمه به. فمن ندعو إلى هذه الاجتماعات الجماهيرية.. ونأكل الصفعات ممن؟ ونتبهدل مع من؟ قالوا: واحد قطعوا له يده قام قال له الآخر: أوخ، اعطني إياها أعمل منها طنبورة.

قفزت إلى عيني، على نحو صارخ، مسألة: المخروط فقير، مسكين، زاده من اللغة ضامر ضاو لا يكاد يستر بدنه: «نضال، مليح مليح» يجب أن نشدِّد النضال «نضال الشعوب المحرومة» «التغيرات الكمية تؤدي إلى تغيرات كيفية».. هذه الأخيرة كادت تفلت من حلقي قهقهة عريضة فاضحة، حين تذكرت أنها كانت في البداية تفغر أعيننا على مصاريعها دهشة وإعجاباً. العمى والله صحيح، هذه نحن قرأناها في الكيمياء، وها نحن أولاء نراها

تنطبق على المجتمعات. إذن يمكن رد كل شيء إلى القوانين التي تحرك الجماد والإنسان جميعاً. العالم وحدة إذن.. وأما الآن، وهي تتدلى من فم صاحبنا وغيره في رخاوة وغباء كأنها الزوائد التي تنوس في لحية عنز، فقد بدت تثير ضحكاً هازئاً مديداً.

كنت أنا أول المتكلمين، بعد أن أنهى المخروط خراطته. قلت أسأله: أنت شامي؟.

قال مستغرباً:

- نعم. لماذا هذا السؤال؟

تابعت غير آبه لاستغرابه:

- وتتجول أحياناً في «الأحياء الشعبية»؟

- أحياناً.

- شكراً لك. لم يبق عندي ما أسأله.

وفهمني مأمون بذكاء فؤاده المحبب. مأمون لا يلجأ إلى السب أبداً. وإن كان في أعماقه يحمل زاداً منه يلون أفكاره كلها، ومع ذلك يحتال على تغليفه بإثارة عذبة من تهكم يبلغ أحياناً حداً مخيفاً من المرارة والقتام. قال في هدوء وابتسامة:

- مظاهرات؟ هل قلت مظاهرات يا رفيق؟

- نعم مظاهرات.

- ولكنهم قد يضربوننا، قد يقتلوننا.

- إذن لماذا سمونا مناضلين؟

- حتى يضربونا ويقتلونا؟ أنتم لم تقولوا لنا هذا في البداية؟

- إن غاية ما يسمو إليه المناضل هو أن يستشهد في سبيل القضية.

- أية قضية؟

- إذا كنت لا تدري....

المخروط زعلان جداً. كان هذا ظاهراً.. واستمر مأمون:

- طيب لا تزعل. نحن مستعدون للقيام بما شئت من مظاهرات، ولكننا نحتاج إلى قائد.

قال المخروط:

- مسؤول الخلية.

مسؤول الخلية ركبته رجفة. غمغم كلاماً غير مفهوم. بدا في عينيه ما يشبه أن يكون توسلاً. قال مأمون:

- لا، نحن نريد مسؤولاً كبيراً.

ردد المخروط في بلادة:

- مسؤول الخلية...

- لا، نحن نريديك أنت. خُض البحر نخضه من ورائك.

كادت الابتسامات تنقلب إلى قهقهات. تخربط مزاج المخروط. ارتسم على وجهه امتعاض عكس، للمرة الأولى، لؤماً، وزلق تلميحاً أن من يشكك في أحكام قادة حزبه، ومن يحاول تعريضهم للخطر.. وهم الثروة التي لا تقدر بثمن في «نضال» الشعوب.. يحمل، دون أن يدري، بذوراً «قيقوية»!

تلك الأيام، كانت أعظم مسبة يمكن أن يكيلها أحد لعضو في الحزب هي نعته بالقيقوية، لا لأن قيقو، بعد انتصاره على المحتلين الجبابرة، صفى جسدياً أكثر من مئة وستين ألف مسلم، ولكن لأنه اختلف مع المعلم الأكبر، قائد الإنسانية، مهندس العقول البشرية، إلى آخره،.. صار قيقو مسبة، هكذا قالوا لنا. ولما كنا قد تنازلنا عن حريتنا للحزب واسترحنا من التفكير بشتى أنواعه فقد ارتحنا إلى هذا الحكم على قيقو وأيدينا وأرجلنا في ماء بارد.

وتخلخلت الجلسة، لم تُشرب القهوة التي صنعتها أمي وقدمتها من خلف الباب الموارب. خيل إلي أن المخروط يمسي بالوناً في يد طفل طلعة معه دبوس لا يعلم ما يصنع به! احمرت عين مسؤول الخلية وهو ينظر إلينا وأما عينه الأخرى التي إلى ناحية المخروط فقد عكست طاعة كلب ضربه معلمه.

عزمي، المتهور الأبدي، عاد لا يدري كيف يلملمنا. صار يتساءل، يعض على شفته السفلى، يغمز، يقطب.. ونحن لا نصنع إلا أن نتجاهله. كان يرانا نتفرق، ولا يخرج في يده أن يضبنا. وتململ المخروط، فعل من ينوي النهوض، ولكن مأمون لاحقه غير متزحزح عن موقفه قيد شعرة، ومن غير أن يفارقه هدوؤه وابتسامته الساخرة مضى يقول:

- ماذا في قيقو؟ ألم تكونوا تقولون عنه، قبل أن يختلف مع المعلم الأكبر، إنه قائد مظفر من قادة الطبقة العاملة، وإنه الوحيد في أوروبا الذي طرد المحتلين من بلاده معتمداً على قوات شعبه وحده، ومن غير سند أجنبي، بعد أن قاتل خمس سنوات عجاف؟

قال هذا بصوت مبين، ثم غمغم كلاماً لم يفهمه غيري يعني أن دق طرنيب خير من كل هذه الثرثرة. أظن أن عزمي أيضاً فهم جدية ذلك من الضجة المجانية التي أخذ يحدثها: سعال مصطنع، بحث عن صحن سيكارة، جر كرسي إلى الأمام وإلى الوراء في حيث لا لزوم لذلك.. ولم تلبث أن قامت القيامة، البالون فقع، عزمي، على الرغم من اصطناعه الضجة لتشعيب الانتباه عنا، فش. واندفع المخروط إلى الباب واختفى.. وإذا نحن نعود أناساً مثل بقية عباد الله. عاد الحزب، كما كان دائماً، لا جذر له، مؤسسة تهتم للكنافة البلورية في حارة جائعين. التقطنا أنفاسنا. عدنا إلى دمشق بعد غربة طويلة كالحة.. استقبلنا أنفسنا بعناق حار عارم. قررنا أن لا نرحل من بعد أبداً.

- ٤ -

وكان المسؤول قد هرول، بساقيه القصيرتين ووجهه المتوجس الشاحب، خلف المخروط. وغاب طويلاً، ثم عاد وقد ازداد شحوباً. خطر لي أنه عاد أقصر مما كان، وأنه قد نبقت له حدبة.. قال لمأمون ولي:

- ماذا فعلتما؟ قد تفصل خليتنا كلها.

قال مأمون: «لا تقلها؟!» وقلت:

- في الأمان.

- وجريدة الحزب!

كانت جريدة الحزب تخوّف، لا لأنها مخيفة في حد ذاتها، ولكن لأنها تفضح كوننا على صلة بالحزب. وكان هذا وحده كافياً لازدياد عزلتنا. لأن الحزب لم يوفق قط - وفي بعض الأحيان لم يُعْنَ - في نفي كونه نبتة تستمد أسباب وجودها من الخارج، وتدين بالولاء لهذا الخارج أكثر مما تدين لوطنها ذاته. وقد نكون الوحيدين - بما أوتينا من صفاء ونقاوة - الذين حاولنا أن نعطي الحزب وجهاً عربياً. ولكن، أنى لنا أن نوفق وميسم الأجنبية (اقرأ الخارجية) عميق على وجه الحزب منذ أن تأسس؟

كُتبنا، مع ذلك، بالأغراب، أصحاب البلورية: أحياناً كان الناس - حتى أقاربنا - يشكّون أصلاً في أننا من أهل هذا البلد ذات يوم. سألني مرة أحد أولاد حارتنا وقد كنت تحدثت معه عن عمر بن الخطاب: واعجبي! هل سمعت أنت بعمر بن الخطاب؟ ولم يدعني أجيبه. تابع في إثارة من هزل: هذا، لمعلوماتك حاكم عربي سيظل العالم عشرين قرناً، ربما، قبل أن يظفر برجل دولة في مثل عدالته وتواضعه، ولا سيما عندكما - أنتم الأجانب -! ورأى جار آخر تمثالاً لشاعر أجنبي فظنه تمثال المعلم الأكبر، فنظر إلي في غضب وقال: أليس اللات والعزى وهُبل أحسن لك من هذا الصنم الغريب؟.. وقال لي أحد حكماء الحارة: الغراب أحسن منك، إن له مشيةً في القليل.. مختلطة؟ ما اختلفنا، ولكنها مشية على أية حال.

كان على حق. سحنتي ذاتها لم تبق على حالها، فكيف بتصرفي. أنا الذي عُرفت بين ذويَّ بأني أكره الأسرار، وإذا رغبت في أن أحتج، أن أجهل، فإني أفعلها جهاراً نهاراً. مرة نظمت قصيدة في متانة شعر أبي تمام، فقال لي أستاذ أدب: قصيدة فيها معاظلة متعمدة. لماذا هذه «الغربة» عن اللغة. لماذا الغربة عن البساطة يا أستاذ؟ في بعض الأحيان ينفجر فيَّ الغضب فأراني في سوق الهال أصرخ حتى أنفتق: «يا ناس، يا عالم، يا هو، أنا عربي، شامي، جذوري تضرب حتى مدركة».. وأبكي فيضحك الناس ويقولون: «هذا المستعرب قد جن، الله يعافيه...».

لماذا استهولت تلك الغربة؟ مرة عاشرت امرأة فرنسية فحماء، أسنانها قليلة. كانت امرأة صبية، طيبة، محبة، ليس كمثلها محبة. حينما كنت أخلو إليها لا أدخر أي جهد في تدليلها وإسعادها. فإذا خرجنا معاً أحسستُ كل عين مارة في الشارع أو القهوة تقول: «يضرب ما أقل ذوقه. أما وجد خيراً من هذه الفصعاء؟»... حتى هجرتها.

ومع ذلك لم يشتمونا في الجريدة. يظهر أنهم لم يغسلوا أيديهم منا مرة واحدة، وإن كانت الجريدة ركزت في أعدادها الأخيرة حملات قاتلة على القبقوبين، والذين يحملون بذور القيقوبية في نفوسهم «القومية البرجوازية العفنة» ويندسون في صفوف الحزب.. وكان كل هجوم يقفل بهتاف يستنزل الموت للعصابات القيقوبية الخائنة، عملاء المخابرات الاستعمارية.. والمجد لقائدنا ومربينا، عبقري العصور، مهندس العقول البشرية، قائدة المحرومين والمستضعفين، القائد المحنك المظفر، وتلميذه الأمين «المستطيل» والمستطيل هذا قائد حزبنا - كما ستعلم.

ولكننا نحن، غسلنا أيدينا منهم، ولا سيما بعد أن فُصل أسامة الذي ورطنا تلك الورطة المسخمة، فصلوه، أي نعم، اتهموه أنه انحرف عن خط المستطيل.. (فيما بعد عرفنا أن أسامة كشف اللعبة كلها، من رأسها إلى أساسها، و«انحرف» عمداً لكي يفصل، أولاً، لأن الطريق كانت طويلة «زنقة» وهو لا يحب أن يراوح في «زنقة»، وثانياً، لأن الحزب لم يكن قادراً على تحمل عضو في مثل ذكاء أسامة، المستطيل ذاته لا يطيق أن يرى إزاءه رفيقاً ذا قيمة..).. ولذلك تتابعت عمليات كشف «بؤر» المخابرات الاستعمارية في الحزب، حتى فرغ إلا ممن لا يضرون ولا ينفعون. حينئذ تربع المستطيل على عرش ليس له رعية غير البيادق.. على أية حال، نيالك يا أسامة.

- ٥ -

تعرفنا برأس الحزب في بيت أحد الأنصار. عينك تشوف التدابير الاحتياطية الوقائية التي اتخذت لتأمين حمايته: أناس طوال، عراض، وجوههم

مسكونة بالقلق والتوجس، مشعثة، متطايرة، يروحون ويجيئون.. يخرجون إلى الشرفات، يمطون رؤوسهم ينظرون حتى السقيفة، يصعدون سطوح البناية.. درج الطابق كان معتماً. في الظلمة كانت ترى أشباح مسمرة كأنها من ضمن الجدران. صاحب البيت هو أيضاً، كان قلقاً ومفرقشاً في آن معاً.

بعد انتظار يليق بالثورات النضالية الغالية، أطل رأس الحزب في هرج ومرج يدوِّخان، تحف به أركان حربه. ما هذا؟ هذا متوازي المستطيلات: رأسه، قدماه الكبيرتان، كتفاه، راحتاه. كل شيء، إطلاقاً كل شيء فيه متوازي المستطيلات..

كيف يفهم مثل هذا مثل أسامة؟ الآن فهمت لماذا لم يبق أسامة معمش العينين فترة أطول. إنه من قماش أرقى. ولم يلبث أن اكتشف الخطوط ففقع كرههم مرة واحدة.

لما كنا أدباء فقد بدأ المستطيل يكلمنا على الأدب. كل شيء عنده مقطوع بسكين، أسود أو أبيض. لم يسمع بإيلوار، ولا هو يحب أراغون. محبته كلها كانت إلى جورج أمادو، لأنه قرأ له مرة: عملية مضاجعة مكشوفة...!

هذه كانت «إرادة» سَنِيَّة» سلطانية من الرأس إلى من حضر من كتاب الحزب (الذي كانوا خاشعين يعبون كل نأمة منه ويكادون يخرون سجداً) هؤلاء كانوا يرون أن الأدب يجب أن يقصرهم على وصف المظاهرات، حتى ولو قمعتها الشرطة، والإسكافيين ورجال مصلحة التنظيفات. الحب خيانة للطبقة، البؤس، سم ناقع.. وتجيء «الإرادة السنية» الحاضر نوراً أخضر بالتحرر من المظاهرات والإسكافيين ورجال التنظيفات بعض التحرر، إن جورج أمادو وصف عملية مضاجعة وهو في الحزب من هو. فيا عمال العالم تضاجعوا!. هو أيضاً، الرأس؟ كان كاتباً عظيماً. ولكن شواغل الحزب، وأنتم، مسؤولياتكم، همومكم (ابتسامة أبوية حانية)، النضال في سبيل القضية،... لا تدع له وقتاً لإظهار عبقريته الكتابية وكنوزه التي لا تنضب. ايه، على أية حال البركة فيكم. أنت مثلاً (يخاطبني أنا) أموت من الضحك

عندما أقرأ قصتك «إلى المقبرة»، قطعة من الأدب الضاحك ترتفع إلى مستوى مارك توين. شكراً لكم. لم يكونوا يحبونكم في الحزب، ولكني أنا أمرتهم بمحبتك. «أمرتهم» هذه أنا أقولها تحبباً، للمزاح، عندنا كل شيء يجري ديمقراطياً. أنا... على الرغم من كوني..، لأني..، أنا...، إني..، لكنني..، في اعتقادي، سيما وأني... الخ.

تدابير الأمن المشددة التي اتخذت في بيت ذلك النصير كانت أقرب إلى الإخراج المسرحي منها إلى الضرورة التي تقضيها ظروف منذرة، ذلك أن جلاد الفتيان الذين هم مثل أزرار الورد، الجاروف، كان قد كُنِّسَ، والبلد مقبل، كما أكدوا، على ما يمكن أن يسمى حريات ديمقراطية. لأن الأوضاع لم تكن تحتمل «كلَّ» الحريات، فالبلد يعتبر ناقها لا معافى. وقد حدد موعد للانتخابات، ورشح المستطيل نفسه لها. ملأت صوره المستطيلية الشوارع والأزقة، وفاحت رائحة عطف عليه حتى في الأحياء الشعبية: «ولك أخي خلنا نجربه. ما عسى أن يفعل واحد بين مئتين؟».

إذن كان يريد، من تلطفه بالاجتماع معنا... على الرغم من «الأخطار» المحدقة أن يجعلنا أبواقه.

شو عليه؟ لما نكن قد فقدنا كل إيمان بعد. أو قل خفنا أن نفقد، فصرنا نكذب ولا نصدق على أنفسنا. أو قل جَبُنًّا. غلبتنا العطالة. صيت وطلع علينا. وما دامت المسألة ما فيها خطر أو شنق من أرجلنا، فشو على بالنا؟.. على كل حال «هؤلاء أنظف من غيرهم» ما داموا يأكلون القتل ويحطون الخَرَاج، ولا يطمعون في المستقبل المنظور في حكم أو في مناصب، فمعناها أنهم أنظف من غيرهم.. إلى آخره، مع أن ما اتضح فيما بعد هو أن هذه الـــ «هؤلاء أنظف من غيرهم» لا تنطبق إلا على «الأنفار» مثلنا. وأما القادة، ولا سيما المستطيل، فقد كان وضعهم في مواجهة «معلميهم» البعداء يشبه وضع النواب الذين كانت فرنسا تتجحهم في الأرياف لتمثيل الشعب في المجلس النيابي. هؤلاء كان «المندوب» أو «المستشار» أو حتى الترجمان (فكيف المفوض السامي الذي في بيروت) بالنسبة إليهم كائنات نورانية لا

تنطق عن الهوى... المستطيل مثلاً، بعد أن كان المعلم الأكبر «أبا الآلهة، عبقري العصور، مهندس العقول... إلى آخره» سافر سفرة إلى بلد «المعلم الأكبر»، بعد موته، وكان أتباعه هناك قد ارتدوا عن عبادته، وفضحوه، وبدأت امبراطوريته تتخلع، وانتفضت أجزاء منها فأغرقت «ديمقراطياً» بالدم والنار والحديد.. أقول ما إن عاد من سفرته تلك حتى أخذ يذوِّب الرصاص الذي كان مصفوفاً في المطابع أحرفاً تتضمن كلمات «المعلم الأكبر» المنزلة، وراح يقول عنه إنه مجرم، والغ في دماء الشعوب.. إلى آخره.

نجح المستطيل في الانتخابات، تقاطرت الوفود المهنئة إلى داره. أصبح الحلم حقيقة: صار يخطب، يخطب، يخطب. كلما جاء عشرة، عشرون، خطب، الخطبة ذاتها... تحت قبة البرلمان... مسكين، قلب الكافر يبكي عليه، يا الله ما أشد ما هو عيد.

ولكن لعنة الاستطالة تحمل بذور فنائها فيها: تحت الواجهة الديمقراطية التي نصبتها البلاد لم يتغير شيء. الجاروف وحده هو الذي غاب، وأما الأجهزة التي كانت تجلد الناس لتخرجهم من قضاياهم فقد بقيت: تحت الواجهة الديمقراطية كانت تمارس لا ديمقراطية مرعبة. في الأقبية كان أفراد حزب آخر يجلدون حتى تتطاير قطع من لحومهم وتلزق على الحيطان. النساء يُضاجعن اغتصاباً. وحزبنا؟ حزبنا، إذا لم يكن شارك - وقد شارك - فقد بارك.

واستمرت جنة عدن هذه أربع سنوات تقريباً.

- ٦ -

ولما كانت الحرية لا تتجزأ، فقد بدأت الصابونة تلوح على وجه العهد الديمقراطي كله. ويظهر أن السوس قد عشش وباض وفرخ. سوس ماذا؟ أنتم تعلمون: بعض أجدادنا العرب كانوا لا يصبرون على القعود دونما صنم. كان أحدهم يصنع صنماً من التمر يعبده حتى يجوع، وحينئذ يأكله. وأما سوسنا نحن فقد كان أَقْتَلَ.. وهكذا أغمضنا عيناً وفتحنا عيناً وإذا نحن نصنع (أو يُصنع لنا، النتيجة واحدة) صنماً آخر، بيضوي الشكل هذه المرة، اسمه

بزرعا. أغلب الظن أن أربع السنوات التي تصرمت علينا من غير صنم حضنت الأشواق اللواعج، التباريح إلى الصنمية كما تحضن الدجاجة البيض (وجهه بيضوي، لا تنسوا!).

حتى تستطيع الإفادة من التاريخ في الغوص على هذه الظاهرة أكثر فأكثر، في كتاب يبحث في الأساطير التي نبتت في هذه المنطقة، تستطيع أن تقرأ ما يلي: ..«ومثلما كان شخص الملك مشحوناً بطاقة هائلة، خطرة، كانت مسؤولياته العليا تتطلب علماً ومقدرة فوق طاقة البشر».

وقد قال أحد وزرائه الكبار: إن جلالته عليم بما يحدث وبما يقع، ليس في الدنيا شيء لا يعلم به. إنه توت «إله الحكمة» في كل شيء. وما من معرفة إلا أحاط بها.. ويقول له أفراد الحاشية المتزلقون: إنك مثل رع «إله الشمس» في كل ما تفعل، وما يشتهيه قلبك يتدفق، فإذا رغبت ليلاً في خطة ما تحققت عند الفجر عاجلاً.

وهكذا، لما صنعوا التمثال البيضوي، أو صُنع لهم، تفجرت تلك العواطف المكبوتة الألفية على نحو لم يسبق له مثيل من قبل، صار الصنم الجديد إلهاً كبيراً يُعبد لذاته لا ليقربنا من الآلهة زلفى. أضحت له ديانة جامعة، لها كهنتها وإكليروسها وشهداؤها، وجلادوها، وقديسوها. أستاذ جامعة كل الناس شهدوا له برحاجة العقل، طفق يقرأ خطابات الصنم الجديد محل الفاتحة، مع أن للأستاذ هوساً لغوياً باهراً والصنم ينصب نائب الفاعل والفاعل والمبتدأ والخبر. إنه يحب النصب، آمنت بالله!... كنتَ إذا دخلت بيت الأستاذ تعجبت، وخيل إليك للوهلة الأولى أنك في بيت مراهق، مع فارق أن المراهقين يلصقون صور ممثلاتهم المفضلات في كل زاوية على كل جدار.. وأما الأستاذ الكبير، الذي طلب العلم في فرنسا ذاتها؛ فكانت جدرانه وزواياه تحمل ألف «بوز» للصنم.. فلاسفة ومؤرخون، من أتباع الديانة البيضوية الجديدة، فضلوه على صلاح الدين الأيوبي وابن رشد. وزعم شاعر بيضوي أن أحد شعراء القرن الثاني عشر الميلادي - يعني قبل سبعمئة سنة - تنبأ بأن بزرعا هو الذي سيحرر فلسطين!... بنيات المدارس الفلسطينيات، يتامى

الوطن، بصدريات المدرسة والشرائط الملونة كن يهتفن: «يا بزرعا بدنا يافا».. المسكينات؛ لم يبلغ علمهن أن خطبة واحدة يجتمع له فيها مئة سَمِّيع تسوى عنده كل يافاوات الدنيا بما تدر عليه من لذاذة يحس لها رعشة كثيفة، شوشرة، هيصة، دوشة لها أول وليس لها آخر ينحني فيها رأس سقراط وطاغور وسنكا وكانط مجتمعين! ولك العمال أنفسهم دخلوا في عبادته أفواجاً هو الذي دشن حكمه بشنق اثنين منهم حتى الموت.. أناس، أهل دين، هوت قلوبهم إليه هو الذي شنق (كله شنق. كان، سامحه الله، يحب الشنق. ما هي بيده! وهذه مزية، لأن غيره أولعوا بالسحل). أقول هو الذي شنق رعيلا من كرامهم أفذاذا، قد لا تجود بمثلهم البلاد العربية طوال خمسين أو مئة سنة.

- ٧ -

المستطيل، لأنه وحزبه رأوا في بزرعا منافساً قاتلاً، لم يجدوا لهم مطرحاً في الموجة ليركبوها. كيف يجتمع إلهان على عرش واحد؟ وأين المستطيل من بزرعا؟ هذا يلعب على حبال ممتدة عبر القارات الخمس على نحو كلبي متقن. فكروا في هذا: سروال ما له وتكته بأربعة عشر. شعبه حاف عريان، يشحذ المنخول، وهو يستدين من كل دول الكرة الأرضية وينفق على معابد ديانته البيضوية في شتى أنحاء الكرة الأرضية. فمن يستطيع مقاومته؟ وأما ذاك، المستطيل، فليس مؤهلاً للّعب إلا على حبل صغير حدوده بيته ومخابئه وبلد معلميه. لقد ظن أن الناس - لأن بعضهم انتخبه قبل أربع سنوات - سيقفون معه صفاً واحداً إذا هو جابه بزرعا. المسكين. لم يخطر له وهو في مخبئه الوثير، ومنآه الدائم عن نبض الناس أن من يجهر بالكفر بالصنم الجديد سيداس حتى الموت بالأقدام والنعال، من غير أن يهمس صوت واحد بالترحم عليه أو حتى بالرثاء له.

ومع ذلك فقد جهر.. النتيجة؟ سلامتك. علقنا نحن.. أي نعم، صرنا في القنينة نحن الأرقام. وأية قنينة طال عمرك؟ قد يقع لي أن أقرأ ما يكتب هذا أو ذاك عن السجون فأضحك: كل الكتاب الذين كتبوا عن السجون صوروا سجوناً. وأما سجننا نحن، على يدي بزرعا فلم يكن يمت إلى (السجنية)

بسبب. كل سجن إذا قوبل بسجننا لعبة أولاد. شيء له هوية. وأما سجننا نحن فلا يشبهه شيء في أي مكان، لا في الماضي، ولا أظن أن سوف يشبهه شيء في المستقبل. وهذا دليل بفقأ الأعين على عبقرية بزرعا الشيطانية غير المتنازع عليها. تصوروا: ذات ليلة أخرجوا فتى من حلب مثل النخلة، رجل بكل ما في الكلمة من معنى، حتى صوتُه. وأخرجوا الجاسوس الصهيوني (موشه) الذي قُبض عليه في منطقة على الحدود، موشه المدلل الذي كان يقلفط صفار البيض ويترك لنا البياض تحت سمع الحراس وموافقتهم، وأحضروا عصا من السنديان، وقالوا للفتى الحلبي: «قل... أخت المستطيل!» رفض. نزلوا به حتى صار كتلة لحم متورمة. في آخر نفس أذعن. قال. احزروا ما فعلوه بعدها؟ جلبوا عصا جديدة واستأنفوا الجلد!.. ليلتها لم أنم حتى الصباح ميعاد الشاي الذي يأتينا في حلل البرغل. أتعلمون معنى أن لا ينام سجين في مهجع يتسع عادة لأربعين أو خمسين ولكنهم حشوه بمئة وعشرة؟ كنا إذا نام عشرة على ظهورهم ظل اثنان من غير مطرح! أنتم تتصورون الهواء النقي في مهجع هذه حاله أليس كذلك؟ ومع ذلك لم أنم ليلتي تلك. كنت أردد مثل المجنون: إذن «هم» لا يريدون جسدنا وحده. إنهم يريدون روحنا.. يريدون شعبنا، يريدون أن يخصوه مرة واحدة وإلى الأبد.

وأما هو، مستطيلنا الكنز، أو كنزنا المستطيل، فقد شَمَّعَ الخيط إلى بلد معلمه الأكبر بعد أن أنكره ألف مرة قبل أن يصيح أي ديك في أيما مكان. أنكرنا كلنا. مرة، وهو في مهربه، جاءه خبر أحد رفاقنا (وكانت زبانية بزرعا قد قتلوه وقطعوه وذوبوه بالحمض. أنا رأيت دماءه في أحد الأقبية) وإذا هو يصدر هذه الحكمة التي ذهبت مذهب الأمثال: «لا بد من التضحيات» وأضاف على الفور وهو ينظر إلى وجهه المستطيل الوسيم في المرآة: «يضربوا في هذه البلاد، كل شيء أتقنوه ما عدا الحلاقة. حلاقتي سيئة جداً» وأطل من النافذة وقال: «تعوّقت سيارتي، وألح على ياء المتكلم، شو القصة؟».. هذا وشهيدنا المذوب بالحمض نادر مثاله. أواه لو أنكم عرفتموه. إذن لما نسيتموه أبد الدهر.

وهر أيضاً المخروط، والمربع، والمثلث، والمعين، ومختلف الأضلاع، وشبه المنحرف... لم يبق في القمقم غيرنا. نحن الذين لا شكل لنا.

اغفروا لي هنا عودة ثانية (ثانية فقط؟) إلى التاريخ. تلك الأيام وقع بين يدي مجموعة الهلال لعام ١٩٣٠، يعني أيام حكم فؤاد الأول. ولفتت نظري مقالة لعبد الرحمن الرافعي عنوانها «مذبحة المماليك بالقلعة» أول آذار ١٨١١م، وهي جزء من مؤلف. المقالة ذات دلالات بعيدة. فبعد أن يتحدث الكاتب عن الأسباب التي جعلت محمد علي يسكن في قلعة صلاح الدين على جبل المقطم، معللاً ذلك بأطماعه في الاستبداد بمصر وحكمها بالقوة لأن القاهرة تبدو من هذه القمة العالية خرساء حقيرة فلا تصل إلى من يريد الاستبداد بها أصوات الجماهير وصيحاتهم، وبعد أن يصف المذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها أربعمئة وسبعون إنساناً بعضهم ارتمى على قدمي طوسون مستغيثاً وبعضهم دخل الحرم فلم يحم هؤلاء من بنادق الأرناؤوط وسيوفهم، وبعد أن يصف استباحة الدور والحرمات،.. يقول: حكماً على الحادثة، ما يلي: «ومن جهة أخرى فإن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس، وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكناً، إلى زمن طويل، أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس. والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلى وهي قوام الأخلاق والفضائل القومية. فإذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيراً بانحلال الحياة القومية وفسادها..».

- ٨ -

لن أذعن. لن أستسلم لك. قد أحكي في السيقان، والأرداف أيضاً. قد أحكي في اللاشيء. قد أشغل نفسي باللاعمل. ولكني لن ألقى السلاح. أنا سُجنت ظلماً، ولن أغفر ذلك لأحد. هذا بعيد عن حنكهم. صفائي شابَهُ الضغن شابه الذحل، وهذا سأورثه، ولذلك تزوجت. أنا لعنة عليهم ولو صرت مكاحل. إذا كان المستطيل وبقية الأشكال قد صاحوا، بعد أن سمعوا بتقطيع

رفيقنا وتذويبه بالحمض: «أين سيارتي؟» فلأنهم لم يروا آثار دمائه تحت درج ذلك القبو. وأما أنا فقد رأيتها، ويكفيني هذا عظة وذلاً، حتى لأؤمن أن المستطيل ليس أهلاً لأن يكون بواباً عند رفيقنا الذي تجرع عذاب الشهادة. أنا لعنة على البيضوي، بزرعا. سأظل ألاحق شبحه حتى في العالم الآخر. من يحسبونني؟ أنا أجدادي ما كانوا ينسون دماً لهم سفك ظلماً. قتيلنا المغدور كانت تنطلق منه هامة ما تنفك تجأر بالانتقام حتى يدال للقتيل من القاتل الغادر. أنا لن أهجع، وطبق الانتقام هو الوحيد الذي يلذ أكله بارداً.

- ٩ -

هذا القسم لم أكتبه أنا. كتبه أبو الفرج الأصفهاني في الجزء السابع عشر من أغانيه، الصفحة مئة وأربع وثلاثين وما بعدها، ولم أنقله هنا وأدعيه لنفسي كما كان يفعل الفرزدق، لأنه لم يرد في تقاليد القصة القصيرة أن ينقل قاص قرابة عشرين صفحة من كتاب.. فاعذروني وتنازلوا عن كسلكم بعض الشيء.

- ١٠ -

لو كنت أضع محل الأرقام التي تشير إلى المقاطع عناوين لوجب أن أعنون هذا المقطع: «بعد بضع عشرة سنة».

بسام العينين، له لحية صهباء وشعر أشعث، أجعد، ووجه صريح، كلما قابلته تهلل أكثر مما هو متهلل وكاد يعانقني وهو في سن أولادي. قدمته إلى الحاضرين:

- الرسام الحلو يوسف.. مختص برسم الأطفال. (وضحكت) هذا آمن شيء في الدنيا.. ليس هذا وحسب. كان أبوه محبوساً معي منذ بضعة عشر عاماً.

فرقعت ضحكة هازئة. وقال أحدهم مشيراً إلي:

- هذا الوجه وجه حبوس.. صدقت!

- ولك والله كنت في الحبس.

قال آخر:

- يمكن أخذوه رهينة!

- ولك لا، حبس. حبس أصلي.

- ربما للترفيه عن المحابيس؟

- ولك لا.

- يمكن راح بالغلط.

- في القلعة حتماً، جرم أخلاقي!؟

- تحرش في القليل!

- تضربوا، والله العظيم سياسي.

- يخلي لي سياستك.

- هذا الوجه وجه سياسي!

- أنا إذا كانت هموم الدنيا على قلبي فيكفيني أن أنظر إليه نظرة حتى...

- بدي أزعل منكم ها،..

- جرب. نريد أن نشهد هذه المصيبة..

- الحَبَل بلا دنس.

وما لبثوا أن التهى بعضهم ببعض فخفت وطأتهم علي.

في مثل ومض البرق عاودتني.. كأنني أعيشها الآن، ذكرى تلك الليلة من نيسان عام...

كان قد مضى على أسرنا أكثر من ثلاثة أشهر من غير أن نعلم لماذا.. أهلنا أنفسهم لم يدروا بمطرحنا طوال ثلاثة أشهر.. أواعينا زفتت. ناس قالوا للأهل إننا في الصحراء، آخرون قالوا لهم: أعدموهم فور اعتقالهم، ترحموا عليهم! وأما نحن فلم نكن نكف عن البحث في السبب.

نحن - كما سبق أن قلت - لا نشكل خطراً على أحد. بزرعا يحكم البلد بنظرية يزعم أنها قريبة من نظريتنا، من حيث الظاهر في الأقل. إذن،

هل كان اعتقالنا على هذا النحو الفريد، بطبل وزمر، للتسويق الخارجي، لنستدرج عروضاً تدر قطعاً نارداً للأجهزة الضخمة التي كانت تعمل على نطاق الوطن العربي كله، وتزداد حاجتها إليه يوماً بعد يوم، أو أنه كان عملاً احترازياً إرهابياً على غرار ما فعل محمد علي في قلعة صلاح الدين عام ١٨١١؟

مهما تكن الإجابة فقد انقطعت حبالنا مع الخارج الذي كان يعيش بكل قواه، خمار الصنم الجديد حتى الدوار، أجل، انقطعت حبالنا انقطاعاً باتاً إلا من خبر يأتينا ملفوفاً في سيجارة طاتلي سرت (هذا لما سمح لنا أن ندخن ونتلقى زيارات)، أو من موقوف جديد يدخل معنا غرفة الدوش المازوتي (رفاقي في السجن يعرفون جيداً ما معنى هذا الوصف للدوش، لأن سقفه كان يدلف مازوتاً) فيحكي لنا عمن قتل تحت الجلد، ومن خرجت له جنازة في حمص اشترك فيها أكثر من أربعين ألفاً، وصورها المصورون المندسون بين المشيعين، فلما حُمضت الصور بدؤوا اللقط، «اللقط عن أبو جنب»، لقط الناس بعد لقط الصور:

- ومن الجملة أنا، مع أني أخوان مسلمون.

- وأنا، مع أني من حزب البعث.

- وأنا، مع أني قومي سوري اجتماعي.

- وأنا، مع أني لا حزبي ولا أتعاطى السياسة، ولكن المرحوم القتيل ابن جيراننا.

- وأنا، مع أني تغديت مع واحد من جماعتكم في زحلة عام ١٩٣٤ وأخذوا لنا صورة هناك.

- وأنا، مع أني طبيب شرعي. ولكن لما قتل المرحوم أحضروني وقالوا لي: «اكتب هنا» قلت لهم «أكتب أيش؟» قالوا «اكتب أن هذا مات منتحراً» قلت بعد أن فحصت الجثة «لن أكتب، هذا مات تحت التعذيب» قالوا «إذن تعال معنا» رحت معهم، صفيت هنا.

- وأنا، مع أني أستاذ فيزياء، ولكنهم جاءهم خبر أني لا أعلم الطلاب أن بزرعا هو الذي فلق الذرة واكتشف قانون الجاذبية واخترع الكهرباء، أصلاً الفيزياء كلها تثير سخطهم، لأنها علم المستقبل وهو لا يخصهم، قاموا أتوا بي إلى هنا.

- مع أني حلاق، ومن حركة عشرين سنة كان يحلق عندي واحد من جماعتكم، قاموا..

- مع أني....

- مع أني....

كانت الأجهزة شغالة بكل استطاعتها. تشكى أحد رجالها مرة وهو يصعد الزفرات، قال «لو أن اليوم صار ثلاثين ساعة لما كفانا!». وعلى الرغم من كونها متعددة، مشربكة، متداخلة، تتقاتل فيما بينها، فقد تألبت كلها علينا. كل مراكزها كانت مزدحمة: «لم يبق محلات!!» من النظارة، إلى القبو، إلى السجن المدني، إلى السجن العسكري. آخر الأمة بلغ الإقبال حداً أنهم صاروا يحبسون في صالات المعارض والمدارس التي لم يكن طلابها يداومون إلا في الشوارع ويخرجون، تحت وطأة الرسوب، ليهتفوا لبزرعا وهو يخطب آناء الليل وأطراف النهار، خطباً لا تتغير ولا تقل سخافة ونرجسية وحمقاً وكذباً على الله والناس!

قدرنا، ونحن في عطالتنا الإجبارية، أن الرواد بلغوا أيامئذ نسبة مبحبحة جداً من القوى العاملة في البلد. احسب لي كم أنفق على هذه الحملة المنتجة النافعة، وكم هدر طوالها (قرابة ثلاث سنوات) من ساعات عمل كان أولئك المعتقلون قادرون على تحقيقها في الإنتاج. أحسب، وحاسب أن.. يغمى عليك أو أن تصاب باحتشاء في العضلة القلبية من القهر والدهشة والقرف. وتجرأ بعد ذلك أن تقول إن الشغلة كانت عفوية، نظيفة، حتى بعد واقعة الفتى العربي الذي كسرت عليه عصا سنديان في باحة السجن العليا، فأحضروا عصا ثانية، وموشه الجاسوس الذي ضبط على الحدود يتفرج ويضحك!

لماذا اختاروا تلك الليلة من نيسان؟ الإجابة تطول (فوق ما طولنا عليك!) ويمكن ردها إلى السهولة المذهلة التي أرسيت بها أسس عبادة بزرعا وتأليهه، والسرعة التي انتشرت بها الديانة الجديدة. وكنت أمازح رفاق السجن فأقول لهم: أتراهنونني على أنه - إذا مد الله في عمره وعمر القطعان التي تخر له ساجدة - سيعين نفسه ملكاً؟ لا بد أنه سيقول في نفسه: «والله ابني مسكين. إذا مت - حتى بعد ألف سنة - أيظل، يسلم لقلبي، من غير عرش أبيه الذي بناه بعبقريته!»... ويضحكون ويقولون: أنت دائماً هكذا، تحب أن تطلق لخيالك الأعنة!

إذن، دان له البلد وافتتن به (كلمتان على الأذن سحر) حتى الجنون. صوته الأقرع يخرج الناس من جلودهم طرباً. تأتأته فصاحة قس بن ساعدة، لعبه على الحبال رشاقة. خطبه تبدأ ولا تنتهي، إحداهن استمرت خمس ساعات وربعاً وسمعناها غصباً عنا في الحبس، لو أردت أن تغربلها وتصوِّلها لما بقي منها أكثر من دقيقتين ونصف.. وما دام كذلك فقد توهم حرسه، وأوهم الحمير الشاردة معه، أن مرد هذا كله إلى عبقرية كامنة فيه كابراً عن كابر، مستمرة في الخَلَف من نطفته الطاهرة حتى يوم القيامة. إن العناية الالهية عجمتْ عيدانها فاختارته من بين الملايين لتحقق مشيئتها. عاد لا يذكر التخطيط المسبق، والقطيع الغبي، والأموال المبعزقة، والسياط الطالعة النازلة أربعاً وعشرين ساعة في الأربع والعشرين. عندئذ خالجه لا شك هذا السؤال: «لماذا لا أبني امبراطورية، لماذا؟».. ولا أدل على ذلك من أن الإيعازات قد صدرت إلى «الكهنة» أن يلهوجوا مشروعاتهم المعدة لنشر الديانة الجديدة في كل مكان، بعد أن توطدت في مساحة لا بأس بها من أرض الوطن.

ليلة نيسان تلك انهار الحلم في الامبراطورية، ووقفت هذه على عيبها، ظهر أن الحلم فضفاض، مرضي مأووف. ذلك أنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في حيث ظنوا أن الجولة سهلة القطوف دانية، وما عليهم إلا أن يمدوا أيديهم فيجنوها.. وطقت في رؤوسنا نحن. كانوا في حاجة إلى كبش فداء فلم يجدوا

غيرنا. استقربوا، وكان فشلهم طبيعياً جداً، لأن بزرعا لم يكن يثق في غير المحترفين. وبناء الدول -دعك من الامبراطوريات- يحتاج إلى العشرة المبشرين بالجنة يا بعد عيني!

بدؤوا بأن أخرجوا سجناء الحق العام - من هو متهم بالفعل الشنيع، والقاتل واللص والفار من الجندية - في مظاهرة تهتف ضدنا وتسقِّط العملاء، أي نحن.

وجدنا أنفسنا في سجون عدة في آن معاً.

ودخل كل مهجع عريف معه سوط، عصب ثور، وأخذ يستضعف الموقوفين ويجلدهم على الملأ. في مهجعنا جلدوا صبياً من القامشلي لا يسخو النمرود ذاته أن يهوي عليه بوردة حتى أغمي عليه، واحزن قلبي! كل هذا تحت مصباح هزيل جاء العنكبوت فصنع له أبجوراً فبدأ كل شيء كأنه كابوس يدفع إلى الجنون.

ثم أنهم راحوا يصيحون على خمسة عشر، عشرين، ثلاثين من كل مهجع وينزلونهم إلى غرفة التعذيب. كان الطريق إلى الغرفة، في الطابق الأرضي مسوراً بجدارين من الحراس. منذ أن يمد الموقوف رأسه من باب المهجع ينهال عليه جدارا الحرس بالصفع حتى يوصلاه بالسلامة إلى غرفة التعذيب. هناك يصرخ به أحد (القضاة):

- انبطح ولاه ابن الصرماية!

ينبطح. صرخة ثانية أقوى من العواء:

- اشلح صباطك، أخو القحبة.

يشلح.

القدمان في نطاق البارودة و... عشرون، ثلاثون، مئة سوط، حسب التيسير، حسب المزاج.

- قم ارجع إلى مهجعك، منيو.. يلعن والدك ووالد حزبك أخو الشرمـــ.. يلعن ال قالت لأمك المنيى.. مبارك ما إجاك. والله لنجعلن من جلودكم دربكات يا أولاد الزنى.

الوجه الآخر من المدالية كان وجه خليل. هذا كان معه داء بوت والدكتور فريشو رحمه الله هو الذي أجرى له العملية لما كان يقوم بالمكوك الجراحي بين دمشق وحلب، في المستشفى الوطني إذ خليل طالب في كلية العلوم، يا حبيب قلبي يا خليل، أموت ولا أنسى. لما عاد من تحت وهو يحمل ثمانين جلدة نفَّعه بها ابن بلده، الجلاد المخنث، وراعاه كما أكد له وهو يجلده... احزروا ماذا فعل في ذلك الجو الكابوسي القاهر؟ هل يخطر لكم أنه ابتسم؟ والله ابتسم. كانت رجلاه الصغيرتان متورمتين نبتت في راحتيهما، مثل النمال عروق زرق لا توصف: وابتسم! كان شِلواً تحت دماء الضوء الشاحب القبري الأعشى، ومع ذلك فقد ابتسم! كان يقول: ما فيها شيء. ثمانين جلدة جلدني إياها المخنث، ابن الأرجنتينية وقال إنه راعاني من أجل رفقة المدرسة في البلد، ولك يا أخوان لم أكن أعلم أن الجلد يشبه الفليفلة، والله أحس أن شفتي ملتهبتان، مع أنهم، الشهادة لله، لم يجلدوني عليهما.. ومع ذلك ابتسم! مستحيل، أنت لا تستطيع أبداً أن تتص ابتسامة في مهجعنا الرابع فوق، حيث كنا نغرق حتى الاختناق، في مستنقع من قهر ويأس وغربة لا قعر له. مستحيل. وبينا نحن نضمد جراحه، أسقط من حسابه كل ما ذاقه على يدي المخنث، نصف العربي، الذي اهتدى إلى عبادة بزرعا فحسن دينه.. نسي كل ما فعلوا به في غرفة التعذيب، وراح يحكي لنا أنه قرأ مرة عن مخترع لعبة الشطرنج لما سأله امبراطور الصين أن يطلب ويتمنى ما يشاء من مكافأة على اختراعه، قال للامبراطور: «أطلب حبة قمح في مربع الرقعة الأولى تتضاعف كل مربع».. القصة معروفة، ولكن ما لم نكن نعلمه هو أن خليل طلب من إحدى أختيه - وهو مثبت الظهر على باب خشبي كما تقضي تعليمات الطبيب تمهيداً للجراحة - إحضار حبة قمح ووزنها وعمل حساب المربع رقم ٦٤، إلى آخره...

وتشجع تلك الليلة قدري (توفي الآن) فحكى لنا حكاية ذات مغزى مهم. قال إن حافظ الشيرازي سجن مرة. وكان صاحب سجنه راعياً. وثقل عليه السجن ذات ليلة فنهض يتمشى في الزنزانة وينشد غزلياته الرقيقة الشجية.

انتبه فجأة إلى أن الراعي ينتحب في صمت انتحاباً محرقاً. كف عن إنشاده ودنا من رفيقه وقد حل العزاء مثل قرص العسل، فقبل يده وقال له: الآن أيها العزيز عدت لا أشعر بوطأة السجن. لقد عثرت فيك على إلف يحمل معي الوقر فخف ما كان يبهظ كاهلي. قال الراعي وهو ينتحب دائماً: «كيف لا أبكي وقد ذكرتني وأنت تنشد بتيسي الذي تركته في الحظيرة. إن لحيتك لحيته الخالق الناطق!».

ليلة الرعب تلك سوف تبقى ذكراها معي حتى في القبر. تلك الليلة، قبل أن تنقذنا ابتسامة خليل من الغرق، كان أبو يوسف، الرسام للأطفال، على المصطبة التي تواجه مصطبتي، فأغتنم فرصة انقضاض جدارَيْ الحرس على أحد الضحايا وتوديعه بالصفع والركل حتى غرفة التعذيب..، ونط فصار قربي.. كان في حوالي الأربعين، ولكنه متين البنيان، مفتول العضلات عريض المنكبين.. ظني أنه، لكوني كاتباً، حسبني مسؤولاً كبيراً في الحزب، همس:

- رفيق.

أقبلت عليه بجماع روحي:

- نعم...

- أريد أن آخذ رأيك في مسألة..

- قل...

- بم تنصحني؟ الآن لا بد أن يأتي دوري. سيندهونني حتماً. فما هي الهتافات التي تقترحها علي أن أصرخ بها: «تسقط العمالة» أم «يسقط حكم الدبابات» أم «يعيش حزبنا» أم «النصر للشعوب المغلوبة» أم «تسقط الدكتاتورية» أم «تسقط العمالة المبطنة»؟

فغرت فمي على سعته، كدت أكذب أذني. في جو الرعب الفالج ذاك، يقفز الأخ من مصطبته إلى مصطبتي، أنا صاحب الهشاشة الحزبية الفاضحة، ليسألني عن خير الهتافات التي أنصحه بالصراخ بها وهو تحت السياط والشتائم!

لما لممت شعث نفسي من ذهولي، قلت له:

- هل تريد أنسب هتاف؟

- إذا سمحت رفيق.

وأرهف السمع. قلت:

- أن تصرخ بملء رئتيك: «دخيلكم» وذلك قبل أن ينزل أول كرباج على رجلك. إن من لا يصرخ يثير حنقهم، يجننهم. اصرخْ، ولولْ، ابك، يخف عنك الجَلد.

نظر إلي نظرة من تكذبه أذناه.. فعدت أؤكد له حتى لا أدع مجالاً للشك.

- أي نعم. اصرخ، عيط، إبك، ولول.

وأضفت في لهجة ملتبسة:

- هذا أمر حزبي يا رفيق!

كان ظاهراً أنه يحبني فلم يطرد الدهشة من عينيه أيُّ معنى من معاني الاحتقار، وأنا نفسي ما كنت أحب لنفسي ذلك من إنسان مثله بلغ فرحي به حداً كاد يصل إلى ما كنت أكنه لرفيقنا الذي قتلوه وذبحوه في الحمض ورأيت بقايا دمائه تحت درج ذلك القبو، لهذا سارعت أقول له جاداً:

- شف. أنا لست حزبياً. وحكمي مستمد مما نراه ينط إلى العينين وضوحاً. أكرر، ما أنا إلا صديق. ولكن هؤلاء الآن زوبعة هوجاء. إنهم مرضى يكادون يكونون غير مسؤولين. الحكمة أن ينحني الإنسان أمام العاصفة العمياء حتى تمر. إنهم لن يلبثوا أن يضحوا محترفين. الدلائل كلها تشير إلى أنهم في سبيلهم إلى هذه النهاية الحتمية: الاحتراف. عندئذ تنتهي عذاباتنا كلها، أؤكد لك، صدقني: لا خلاص لنا إلا بهذا، أن يحترفوا!.

لم يندهونا إلى غرفة التعذيب تلك الليلة، لا هو ولا أنا. ولكن مودة عميقة، حزينة، مهيضة الجناح شدتني إلى هذا الإنسان. وفي ما تلا من أيام لم يبق زاوية مظلمة في حياته إلا أضاءها لي: كان تاجر أدوات كهربائية في

إحدى مدن الشمال، موفقاً، رب أسرة. زوجة طيبة وأولاده موفقون. ولكنه آمن بالحزب، بمبادئه. خربت تجارته، زلزل زلزال بيته. سجن في كل العهود. بلغ ما ناله، خلال أسبوع واحد فقط في توقيف سابق به، نحو خمسمئة جلدة لم يكف أثناءها عن الهتاف للحرب. كافأه الحزب، رقاه الحزب إلى مرتبة مسؤول المنطقة. ترعرع أزهر، أصبح ذاته... إلى أن كانت إحدى جلسات لجنة المنطقة: احتدم النقاش بينه وبين أحد الأعضاء. هذا العضو فيه خُلُق عَلَقِيّ. لا يستطيع أن يعيش إلا متوضعاً على جسم. المستطيل كان ذلك الجسم. هؤلاء جنس ببغائي يكررون ما سمعوه. أحياناً في خرق وغباوة. وأغضب ذلك صاحب سجني فقال له: شف يا رفيق. أنا حزبي لأني أؤمن بقضية كبرى لا من أجل سواد عَيْنَيْ (وذكر اسم المعلم الأكبر حافاً، يا ساتر!)، أو عَيْنيْ (وذكر اسم المستطيل اللهم عافنا!) فهمت؟

ومثل أي حزبي انضباطي سمع هذه الهرطقة، بعث الرفيق الببغائي، من غير طريق التسلسل، تقريراً بالواقعة الرهيبة إلى المستطيل خبط لزق!

يا لطيف! رفيق مسؤول في منطقة تجري على لسانه... ماذا لو درجت سابقة؟ ما عسى أن يحل في الديانة من أسسها؟

البطش أتْقَى للبطش. جاء الرد مثل ضربة خنجر: الطرد من الحزب! العمى!

قد تقول، أنت القارئ، الذي ربما تكون مستلقياً الآن على قاطع أمام نافذة يتسلل منها نورهينٌ... قد تقول في لامبالاة «طز»!... وأما محدثي فلم يكن قادراً على قولة «طز» قط. الحزب كان ماءه، تضحياته، لذاذاته وخمسمئة جلدة في أسبوع واحد. الحزب كان رجولته، ذريته، عرضه، فكيف يُقتلع منه بكل ذلك العنف وتلك اللارحمة؟!...

ويركب أول سيارة، وأين أنت يا شام؟

كان يريد مقابلة المستطيل. ولكن، هل مقابلة المستطيل كلمة في الفم؟ ما كان أكثر الدفش، الدفع، الزجر، الانتهار! وما كان أقتل الانتظار على الأبواب! أيام طويلة مضت، أسابيع ربما.. توسط، توسل إلى القادة بصوت

باك.. أخيراً، ها هو ذا في الحضرة!... ويندفع كأنه السيل، بكل حرارة العاشق الهائم برح به الوجد: «أيها الرفيق.. أنا.. ما كنت.. أنت تعلم.. نضالي.. عذاباتي.. إخلاصي.. أسرتي المهجورة.. الموت كان أهون علي!» حرقاته كلها صبها في سيل محموم. لو لم يكن صنو رجولة لطفرت الدموع من عينيه. أنت نفسك يا رفيق لم تدخل الحزب لسواد عيني أحد. المبدأ، الطبقة المسحوقة...

في أي طاحون يغني هذا المخلوق؟

في هذه الأثناء كان المستطيل قد ازداد استطالة. برطم. لم يرفع نظره عن الأرض. لم يتفضل بكلمة يتيمة واحدة. لم يتحرك... فلما نضب ما في ثورة محدثي من توهج، قام المستطيل. استدار نحو الباب. خطا خطوات ثقيلة كأنه رابوط (إنسان آلي).. فتح الباب. حرك نوابض رأسه نحو صديق السجن. حركها حركة أخرى في اتجاه الخارج، حركة تعني: «برة!».

وددت لما وصلت إلى هذه الكلمة الأخيرة أن أنهي حكايتي هنا ولا أزيد. ولكن المرارة التي كانت في صوت محدثي، الظلمة التي لفعت وجهه، بعض المعاني التي زلقها وتخبئ أن تقول: أتتوسط لي بعد أن تخرج من الحبس؟!... وكل أولئك ما يزال يلاحقني. وقد رأيت طوال حياتي الملأى، من فجاءات النزوات البشرية وغرائبها ما يخط الرأس شيباً. ولكني لا أقضي العجب - ما أزال - من هذه الظاهرة: لماذا كان القط، فوراً بعد أن تفطمه أمه، يتجنب ما يضره من المآكل غريزياً ونحن البشر المساكين لسنا مسلحين بمثل هذه الغرائز النيرة، لماذا؟

فاتني أن أحكي لك: لم نخرج من السجن إلا بعد أن كتَّبونا مقالاً ليذاع في الإذاعة نتبرأ فيه من المستطيل، ونعترف بأن البيضوي عبقري العصور، قائد الأمة العربية، بطل السلام (هذه زاودوا فيها على المستطيل) صانع الحياد الايجابي (البيضوي عرّف القومية العربية في إحدى خطبه العصماء بأنها الحياد الايجابي، ومثل كل كلمة له دارت المطابع لتجعل منها أحاديث شريفة تكتب على لافتات تعلق في المقاهي والأمكنة العامة. اسأل قهوة الروضة في

دمشق إن كنت تشك في كلامي)، زعيم العالم الثالث، عدو الاستعمار وأعوان الاستعمار.

وبعد أن زال حكم البيضوي توافد إلينا أعوان المستطيل عَوْدَاً على بدء، يسألوننا أن نعود نصراء للحزب، ولنا عليهم أن يغفروا لنا بياناتنا في الإذاعة.

آه ما أحلى أن نقع في الجورة مرتين. أنا من جهتي قلت لهم:

- لا، أنا عند كلامي.

- أي كلام؟

- الجزء الأول من البيان الذي أذيع من محطة الإذاعة.

١٩٧٨

* * *

الخضّــة

في أواسط الثمانينات تعرفت بالدكتور «عبد الكريم». كان أيامئذ أستاذاً زائراً في جامعة العين. وكنت أعرفه منذ أن كنت في الشام من خلال كتاباته في الصحف. لفت نظري أسلوبه الجميل جمع بين الجزالة والبساطة والتعليم مع المتعة الجمالية. زارني في بيتي بدبي لما انتهت فترة إعارته. أمضينا سهرة لطيفة. أهدى إلي بعض كتبه. أقرأته بعض قصصي. اتصلت بيننا رسائل كان أكثر ما يميزها القلب المفتوح الذي كُتبت به.

ها هي إحدى رسائلي إليه:

أخي أبا محمد:

قد تظنها خضة اختص بها آل كمالي إذا قلت لك إني مذ تلقيت رسالتك الكريمة أحاول أن أغتنم - على طريقة أجدادي المشايخ - حالاً من الانجذاب (اقرأ: الصفاء) تؤهلني للإجابة التي تروقك وتحيلني في عينيك أكثر مما أنا حتى الآن. أسارع إلى تنبيهك إلى أن الخضة الكمالية التي قصدت حكرة فرع أسرتنا في حلب الذي خرج عدداً لا بأس به من المجاذيب والبُله - أكثر أهل الجنة من حسن الحظ - الرسميين، أي ممن لا يحملون هذه الصفة كلمة تقال أو مزحة تطلق من صاحب يمون.. وأما نحن في البلد فجبل عقل بإذن الله، وإن كان المرحوم أخي، سامحه الله، يماريني في هذا ليقين من قبلي، بل ظل طوال حياته يماري كل من يرى رأيي سواء أكان من الأسرة أو غريباً عنها.. ولكن شططه في ذلك بلغ الذروة ذات يوم ما أزال أذكره:

غازي، الشاب المراهق، وهو ابن عمنا زين العابدين، سأل أباه ذات يوم أن يزوجه ابنة عمه فطوم، وهي أكبر منه بسبع سنوات وفقيرة مثله،

فاندفق عليه ابن عمنا زين العابدين كأنه السيل العرم الذي أودى بسد مأرب يقرعه فلا يترك عليه ستراً مغطى: «تتزوج أنت يا زربول ياجرو والبيضة ما فقست عنك بعد! ولك خل يكون عندك دم في وجهك. أنت بايت في الصف الأول الاعدادي منذ ثلاث سنين. في الفرص الصيفية قلبت لك مئة مهنة: شغلتك أجير نجار، ما نفعت. قلت إنك تخاف من المنشار. في الكهرباء ما أفلحت. في الطورنو خفت على بدلتك من الزيت... ثم تزف لي آخر النهار هذه البشارة: «ودي أتزوج بنت عمي فطوم... فطمك إن شا الله عزرائيل يقطع خبرك أنت وأخوتك الخائبين كلهم وأختك المجنونة سعاد حتى لا تزعلوا!»... فما كان من ابن ابن عمنا غازي إلا أن طق عقله. ابن عمنا زين العابدين، في البداية، لم يأبه، لما رأى دموع كنة عمنا، زوجته، صرخ بها غاضباً: «كذاب. هذه تَلْبَسة حتى نحقق له أربه!»... ولكنه لم يلبث حتى بدأ يروَّع: عوارض تأجير الطابق الفوقاني بدأت تظهر واضحة: الهيمان في الشوارع والأزقة، الصمت، الظهور شبه عار أمام أهل البيت أو الضيوف، إحداد النظر في البئر بصحن الدار كلما كان أحد أخوته يخرج دلو ماء... لم يبق أمامه إلا عرضه على الطبيب. ولكن أين؟ في البلد لا يوجد إلا ممارس عام واحد وطبيب أسنان قد أقام دعوى على الحلاق عبد العزيز لأنه يلهف منه مرضاه كلهم.. تذكَّرَنَا، نحن الجالية الكمالية في دمشق، فحمل ابنه وجاء إلى بيتنا يبث شكاته. وقد اختارنا لأن أخي المرحوم عبد الرحمن كان، مثلما تقول، عميد الأسرة في العاصمة.

- يدي في زنارك يا ابن عمي. صحيح أن عندي غيره نصف دستة، ولكن الولد غال.

قال أخي ضاحكاً، خلياً:

- سبحان الله في طبعك، أي زوجه.

- ولك ما عندي مانع. تدبر لي أمر شفائه من هذا الجني الذي يتلبسه، فضايل ألف بسم الله الرحمن الرحيم وأنا أزوجه أربع نسوان مرة واحدة.

- لا، واحدة تكفي وتزيد. اسأل أخي هذا (يشير إليّ) تزوج حتى الآن أربعاً وهو الآن مطلَّق منهن جميعاً.

قلت أنا: «أنا مطلق بكسر الميم المشددة. ولكنني ما أزال عازب الروح!».

حضر تلك الجلسة الطارئة، فوق العادة، ما خلا إيانا، أخي وأنا، أنشط أفراد الجالية: عبد الغفار ابن عم زيد الدين لحاً، وهو، في الظاهر، سليم، ما فيه جنس «الخضة» ولكنه - في المرة الأخيرة - فاجأته بأنه «يقرض» الشعر خلسة وقد ظل يفعل هذه الأفاعيل حتى اشتد - فيما يزعم - عوده الشعري فانفك الرصد وآن أوان تبليغ رسالته الشعرية إلى العالمين. منذ تلك اللحظة أيقنا أن إصابته غير قابلة للشفاء لما أظهره من صمود وإصرار كان يمكن أن يكونا محتملين لولا هذه العادة القاتلة التي رافقت إصابته: أن يجبرنا، كلما التقينا، على سماع «أشعاره» الكواسر!.. فإذا تكاثرنا عليه ومنعناه من «انشاد» الشعر وثب علينا بحكايات لا آخر لها عن مغامراته الغرامية واستحالة صمود أي امرأة أمام فحولته العارمة، الأسطورية... ولا سيما إذا ذاقت أولى صدماتها التي يستطيع أن يطيل الواحدة منها من بعد صلاة العشاء حتى آذان الفجر، وفي ليالي الشتاء لأجل خاطرك... حتى تصرخ المرأة - مهما يكن ماضيها حافلاً ورغبتها لا تروى - قائلة: «دخيك، عدت لا أطيق. أجِّل لي الوصلة الثانية أسبوعاً أسبوعين حتى أشفى من الرضوض!».

ويذكر بين الحاضرين ابن عمي عاطف وهو ضابط متقاعد معه شيء من الوسواس في ملبسه ومأكله وتربية أولاده وحتى في سكره: إذا دعا بعض أصدقائه إلى سَكرة في البيت، وهذا لا يكون إلا واحدة بواحدة، حرص على أن تكون السفرة أصولية، وما فيها اللوّ كمّا وكيفاً. فإذا انصرفوا وصادف أن أحدهم أو جميعهم تركوا كؤوسهم نصف مملوءة لم ينم حتى يفرغها كلها في بطنه مهما تكن درجة سكره عند انتهاء المأدبة.. وفلسفته في ذلك تقوم على نفوره من الهدر والتبذير: كل شيء يجب أن يُنتفع به، حتى السيكارة يجب ألا ترميها قبل أن يحرق عقبها إصبعك.

ولا ننسى عنترة الفرع الشامي ابن عمنا بهاء وقد كان شرطياً فسرح لكثرة مشكلاته. وقد سئل أيام كان في الخدمة: «كيف تقبل على نفسك وأنت من بيت الكمالي المنسوب أن تلبس شرطياً عند الفرنساويين؟». فتأوة وقال: «الله يلعن هذه السوسة التي لم أستطع التخلص منها: أن لا أستطيع المشي خطوتين خارج البيت إلا إذا كان معي مسدس. وقد حفيت رجلاي في طلب رخصة فلم أوفق. ما عساي أن أفعل؟ قلت في نفسي: مالك يا ولد إلا أن تلبس في السلك!».

هؤلاء الثلاثة كانوا أقرب نسباً منا أنا وأخي إلى زين العابدين وابنه، ولكننا كنا أقدم منهم في سكنى دمشق. واقترح عبد الرحمن أن نقصد الدكتور زهدي المنجد، من أشهر المختصين في الأمراض العصبية والعقلية، وكبير أطباء مستشفى ابن النفيس قرب دوما. كان الدكتور شديد التهذيب، أحسن استقبالنا وزلق بضع كلمات ثناء على مقالات أخي الصحافية، ثم أخذ يلف ويدور حتى لا يطرح سؤاله الأساسي في فجاجة فيجرح شعورنا، ولكننا سرعان ما فهمنا أنه يريد أن يستفهم إذا كان في الأسرة «سوابق»!

نظرنا بعضنا في بعض. أو قل إن عبد الرحمن هو الذي استعرضنا بنظرات من عينيه السوداوين الذكيتين اللتين كانت تلوح فيهما ابتسامة معابثة.. لم يلبث حتى كبحها لما توجه بالكلام إلى الدكتور. قال جاداً:

- حد علمي أنه لا يوجد. في الأقل عند أسرتنا في البلد. في حلب يوجد سوابق كثيرة...

وعاد يتخابث في النظر الينا، ثم، كرة أخرى على الدكتور:

- في تاريخنا المنظور بعض الحوادث التي لا نستطيع أن ندخلها في باب الجنون تماماً. آباؤنا، أجدادنا أهل البلد كلهم يروونها على أنها كرامات.

قال الدكتور في حياء:

- هل أجرؤ على رجائكم ضرب مثل، نموذج...

قال أخي:

- جداً.

- إذا تفضلتم.

- إحدى جداتي، واسمها حنيفة، أرادت أن تحضر أحد الأذكار التي تقام كل شهر في زاويتنا على الطريقة الرفاعية، فانتهرها أحد مريدي الشيخ، جدي، وقال لها: «انصرفي يا حرمة، ممنوع دخول النساء!».. وابتعدت الجدة مكسورة الخاطر واتجهت إلى البيت لتطلق أعنة دموعها في حيث لا يراها أحد. وفيما هي في الطريق الذي يمر بالميضأة خطر لها أن تغسل وجهها. ولكن منظر الميضأة والأباريق المصطفة جعلها «تعمل المدينة من فرد باب» فتتوضأ وهي تذكر الله: «الله، الله!» وإذا هي بالأباريق على بكرة أبيها يأخذها الحال «وتروح تهوج وتموج» حج، حج بيت الله، محمد رسول الله.. الله حي، الله حي. «يا رفاعي المدد!» ذكر أشد من ذكر حرم الزاوية استمر حتى ساعة متأخرة من الليل حين فرغ أهل الذكر الذين في الحرم من ذكرهم وكانوا شهداء على كرامة السيدة حنيفة التي جبر الله خاطرها...

اعترض عبد الغفار:

- حنيفة كانت جدتي أنا.

لم يعره أخي عبد الرحمن أيَّ التفات. تابع متوجهاً إلى الدكتور المنجد:

- ولماذا نذهب بعيداً؟ أبو جدي، أي جد أبي الشيخ طاهر. هذا ما يزال بعض المعمرين يذكرونه حتى الآن: في أثناء حجه إلى الديار المقدسة زار قبر جده المصطفى عليه الصلاة والسلام، روحي فداه. فلما وقف أمام القبر الشريف أخذه الخشوع فأنشد في صوت باك:

«امدد يمينك لكي تحظى بها شفتي».

وتمتد يد الحبيب من القبر، لا ليقبلها جدي، ولكن ليصافح بها يده التي تصبح، منذ تلك اللحظة المهيبة، بيضاء كالحليب الطازج. ولا أدل على ذلك من أنه حتى آخر حياته ظل يلبس فردة قفاز واحدة لا يخلعها إلا عندما يتوضأ بعيداً عن الأنظار... بعض ألسنة السوء، حتى في تلك الأيام، زعموا

أنه كان مصاباً بالبهق! فرية مفضوحة مصدرها الحساد أجارنا الله من كيدهم...

مرة أخرى تدخل عبد الغفار. فقال كأنه يكلم نفسه:

- أوجعت رأس الدكتور....

عبد الرحمن لم يعره التفاتاً: الدكتور هو الذي سأله وها هو ذا يبذل جهده لكي تكون إجابته كاملة. قال:

- أم أننا ننسى - وهؤلاء السادة شهود - الحية الرقطاء التي دهمت جدي عبد الحميد فيما هو يقطف الأرضي شوكي من حاكورة الزاوية، فصرخ بها صرخة واحدة وإذا هي تقلب إلى حية من حديد ما تزال في حديقة بيتنا في البلد حتى يومنا هذا....

سأله الدكتور في شبه همس:

- في الحديقة!

- أي نعم يا حسرات قلبي! ذلك أن السلف الصالح جاء من بعده خَلَف أضاعوا الصلاة وجعلوا من الحية الحديدية المعجزة منكاشاً لنكش شجيرات المشمش والرمان والتفاح!

تظاهر الدكتور زهدي بأن أنفه يحكه فرفع كفه اليه ليستر فمه! ولكن عبد الرحمن لم ينضبّ:

- أم أروي لك قصة عم أبي أي أخي جدي، الشيخ نجيب، الذي كسر خاطره أبو عبده الفران حين رفض قبول صينية كبة بالصينية في فرنه محتجاً بزحمة يوم الجمعة وامتلاء بيت النار بالصواني واللحم بالعجين وعش البلبل.. فما كان من جدي الشيخ نجيب إلا أن غضب وقال لأبي عبده الفران: «هكذا إذن! طيب أنا داخل أشويها بنفسي» ودخل بيت النار وشواها وخرج ما في بدنه لذعة واحدة ليقدم الكبة محرقة إلى الضيوف الذين كانوا في انتظاره...

اغتنم عبد الغفار وقفة وقفها عبد الرحمن، وقال:

- دكتور، ابن عمي هذا، مع احترامي له، منحاز!

استفهم الدكتور حيياً: «عفواً!».

- نعم منحاز ومتعصب. حسبك أن تعلم أنه طوال حديثه لم يتكلم إلا على كرامات فخذهم من الأسرة أي بيت محمد أفندي. أنا لا أنكر أنهم فرع دين وعلم.. ولكننا، نحن بيت النائب، من الأسرة أيضاً، ولنا كرامات ومثلما يقول الناس أوقات الشدة: «شي لله يا بيت محمد أفندي» يقولون: «شي لله يا حاج كامل النائب!».

قال بهاء وقد نفخ صدره مثل الديك:

- وفخذنا نحن إذن!

قال عبد الرحمن ضاحكاً:

- أنتم فخذكم رخو!والتفت إلى عبد الغفار:

- وأما أنتم فلستم من الكمالية مئة بالمئة، أنتم من بيت دودحاني.

فار عبد الغفار وراح يفحص الأرض بقدمه:

- نحن بيت دودحاني! لا تصدقه يا دكتور!

- لماذا يسميكم الناس بيت دودحاني إذن؟

قال عبد الغفار مخاطباً الدكتور:

- المسألة وما فيها أن أحد أزواج أمي...

- السبعة...

- الأربعة قبل أبي، وكان كمالياً شق المنشار، كان يكنى «دودحان» لأنه كان أحمر مثل الأقحوان الذي يقال له عندنا في البلد «دودحان» وأما فخذ أسرة أبي فهو النائب.

- ظني أنك ستقول للدكتور إن جدكم كان يقال له «النائب» لأنه كان نائباً في مجلس المبعوثان في الأستانة! كله شقفة نائب باشكاتب في المحكمة الشرعية.

- ولكنه كان خطه مثل المولوي في حلب وينظم الشعر. على كل حال هو أحسن من جدك أبو طبلة.

- مزهر وأنت الصادق. لأنه كان شيخ تكية بفرمان من السلطان عبد الحميد. قل لي، من جهة أخرى، يا ابن عمي عبد الغفار، هل عندكم أنتم زاوية؟ مدفن في نفس البيت لجدك الأعلى الذي جاء من المدينة المنورة على ظهر الجمل فلما حط رحاله في البلد رأى أن بيرقه الأخضر قد سبقه إليها بأكثر من ثلاثة أشهر لأنه جاء طائراً قبل اختراع الطائرات بخمسئة سنة في القليل!

وقبل أن يتحفز عبد الغفار للرد، أو الدكتور لإعلان اكتفائه بما سمع من «بيانات»، أضاف عبد الرحمن وهو يلتفت بجذعه نحو بهاء:

- وأما أنت يا ابن العم فيحسن بك أن تظل ساكتاً لأن فخذكم اشتهر، على نطاق المنطقة، أنا لا أنكر، ولكن بسرقة الزيتون!

ونقز بهاء في مجلسه وهو يقول: «نحن!».

وتدخل ابن عمي عاطف للمرة الأولى منذ افتتاح الجلسة. قال من غير أن ينظر إلى أحد، وإن كان واضحاً أنه يعني عبد الغفار وبهاء:

- لا يوجد في الحياة المدنية رتب كما في العسكرية: صف ضابط، ملازم، ملازم أول، نقيب... لكلٍّ عددٌ من النجوم المعدنية على الساعد أو الكتف تعرّفه حدوده وحدود غيره. ولكن ليس معنى هذا أن تكون المدنية فوضى. إنها هي أيضاً فيها نظام، رتب تتدرج حسب السن: الأكبر هو الذي لا يناقش قبل أن يطاع. «نفذ ثم ناقش» يجب أن تكون الشعار حتى في الحياة المدنية، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة. نحن لما كنا في الخدمة كان يأتينا أحياناً آمراً لا يلي، يعني أن أصله ضابط صف أي ليس خريج الكلية الحربية. وقد يكون عقله يأخذ ويعطي، مثلما نقول، فيه بعض الخضة. ومع ذلك كنا نطيعه. أكثر من هذا، كنا ننفذ من غير أن نناقش. ما عساك أن تناقش إنساناً ركب في رأسه قرمة سنديان!

وقفة قصيرة ثم، حاسماً:

- انتهى كلامي. والفهيم يفهم.

قال بهاء:

- نحن في سلك الشرطة...

عاد عاطف يقول باتراً:

- عندما يذكر الجيش...

أكمل عبد الرحمن:

- تسكت «القيقي»!

هاج عبد الغفار:

- أنتم تحكون بالألغاز؟ ما هذه «القيقي»؟

قال بهاء:

- هذه كانوا يقولونها للدرك (الجندرمة) وأما الشرطة...

قال عاطف:

- الشرطة وَرَثَتُهُمْ، حتى في الهيمان بافتراس «قيقي» الفلاحين!

قال عبد الرحمن يشرح لعبد الستار:

- كأنك آت لتوك من باريس. ألا تعلم أن الدرك كانوا لا يحبون شيئاً مثلما يحبون الدجاج حتى ولو لم يكن معه رز.. أم تظن نفسك ما تزال حليب أمك على فمك.. كغ!

قال عبد الغفار مشهداً الدكتور:

- أرايت كم هو عدواني!

قال عبد الرحمن:

- أنا أم بيت دودحاني؟ ولك أنت أختك نفوس ذبحت دجاجة مُسَرْوَلة بيدها ولم تخف! هل سمع أحد أن بنتاً ما جاوزت العاشرة تذبح دجاجة؟ وأما أنت فهل أقرأ للدكتور مكتوبك لحميدة صرصور؟ أنا محتفظ بصورة عنه من عشرين سنة هاه!

تحركت شفتا الدكتور لحظة قبل أن يقوم. قال لأخي:

- أظن أن في الإمكان الآن رؤية المريض إذا أمرتم.

كان المريض صاحب العلاقة الرئيسي، في حراسة أبيه، وبعض الممرضين الأشداء من قبيل الاحتياط، في الغرفة المجاورة، بناء على طلب الدكتور منذ البداية. ونهض أخي وهو يقول:

- أنا رايح أنده لك إياه. ولكن قل يا دكتور إذا أمرت.

- تفضل أستاذ.

- ما عساي أن أقول؟ أنا خائف!

- خائف! مم؟

- أن ينتهي فحصك له بإطلاق سراحه هو، والأمر بالتحفظ على هؤلاء السادة الأكارم وأولهم محسوبك!

قال الدكتور وهو أشد ما يكون استحياء:

- أستغفر الله العظيم...

- لأن المسألة وما فيها أن ابن عمنا، السيد غازي، جبل عقل، ما فيه قلبة من القلبات، حالته لا تعدو أن تكون نوبة استزواج لم ينج منها كما لي في مثل هذه السن قط. وأما نحن...

وأخذ يحرك يديه وعضلات وجهه مقدماً مشهداً إيمائياً يحسده عليه مارسيل مارسو يفهم منه أن على الدكتور المنجد أن يلقي علينا القبض من تلابيبنا ويدكنا في إحدى غرف المستشفى، ثم:

- ليِّسْ بالمسطرين على الكل!هذه الجملة قالها استكمالاً للمشهد الإيمائي وخرج من مكتب الدكتور وهو يطيف بنا نظرات شقاوة شامتة!

* * *

المتلبّس

قال الخطاط، صاحب محلّ الاعلانات البلاستيكية، للرجل الذي يشبه وجهه وجه ثعلب فتيّ: «ألا تعطينا دفعة على الحساب يا خليفان؟ المسألة أن الدنيا أول الشهر وعلينا دفوعات...» قال الآخر وهو يضع كلتا راحتيه على كتفي الخطاط في مودّة: «آني أخوك يا عبد الساتر. اطلب تعط ياخونا. باكر أعطيك من المئة للألف. ال تبيه. اعمل لي هذه اللافتة ها الحين وكلّش لخاطرك. ولكن، مثلما قلت لك، أنا أبغيك تعملها لي أنت بيديك. أنا ما أبغي هذا العجمي!».

وابتسم الهندي (العجمي) لما رأهما ينظران إليه ولم يفهم. قال عبد الساتر على استحياء:

«لا يكن لك فكر. لن أشتغلها إلاّ بيدي. باكر تعال خذها خالصة».

كان ضخم الجثة، مندفع الكرش، قميصه أغلب الأحيان يندلق خارج البنطال فيظهر لحمه عند صلبه، ولا سيما عندما ينحني ليلتقط شيئاً من الأرض. وكان وجهه وجه طفل تروّق سندويشة شاورمة مضاعفة، لحامها في قلبه مخافة الله! وأما ضحكته، الخطاط، فضحكة طفل هي أيضاً. وهو يغضب لما يُغْضبُ الأطفال، ولكنه سرعان ما يروق ويشرق وجهه مثل سماء ربيعية بعد مطرة.

وأضاف: «أنت تعلم أني لا أسلّم إلاّ شغلاً يبيض الوجه. أنا أضع اسمي تحت أشغالي، أنت تفهم».

قال الآخر: «حياك الله» وتحرَّك نحو الباب، ولكنَّ الخطاط تحرّك هو كذلك حركة كيِّسة، لبقة، سدَّ بها عليه السبيل، وقال في تملعن لذيذ:

«ولكن، ليكن معلوماً عندك: لن أسلِّمك هذه الجديدة إلاّ إذا خلَّصت ذمتك القديمة ودفعت أجرة هذه، موافق؟».

«زين، زين. ولكنيّ أبغيها باكر الصبح».

«إن شاء الله. ماذا أقول لك؟ المسألة أن علينا شوية...».

«مفهوم، مفهوم... عليك شوية دفوعات...».

قال الخطاط ضاحكاً: سلّم الله هذه الملافظ الحلوة يا خليفان أنت حافظ درسك زين!».

وضحكا.

في اليوم التالي، مع الصباح، حين تزدحم الزواية التي يقع فيها محلّ الخطاط، جاء وجه الثعلب ومعه فتيان، بركة الله، لا تقول إلاّ بعيران مكتملان. واستقبلهما الخطاط وثعلبَهما متهللاً مستبشراً وهو يسرُّ في ذات نفسه: «والله خليفان هذا كنت أظلمه ها هوذا يقول ويفعل». وقال وجه الثعلب وهو يشير إلى اللافتة التي كانت، كما وعد الخطاط، جاهزة وعريضة: «احمل أنت وهو، يا الله!».

وانحنى البعيران على اللافتة كلٌّ من جهة، ولكن الخطاط استمهلهما بإشارة من يده وهو يقول: «صبر!» وقال لوجه الثعلب:

«أنا يا خليفان كنت عند كلمتي. هذه هي لافتتك جاهزة. ولكن، أنت..».

لم يدعه الآخر يخرج من تلعثمه: أشرع كفّه وأهوى بها على وجه الخطاط وهو يصرخ لافتا وجهه نحو الشارع، منتفخ الأوداج (كيف استطاع نفخهما بهذه السرعة!) محتقن الوجه:

«خاسر، خايس، عدو الدين، كافر...».

وأشْهَدَ الناس الذين سرعان ما تجمهروا حتى سَدُّوا المدخل: «اشهدوا عليه، الكافر اليهودي.. سبّ الدين!».

وشارك البعيران في تأديب سبّاب الدين الذي بهت من الفجاءة حتى أنه لم يفكر في الدفاع عن نفسه إلا برفع يديه إلى رأسه لتوقي الضربات. وأتته

دفعة لا يدري ممن، وإذا هو على الرصيف، والضرب ناشط ما يزال والاستعداء على أشده...

وعلى الرغم من موجع الضرب الذي ناله، انتبه إلى أن الكتل الجديدة من عابري السبيل والفضوليين، التي كانت ترقص حول الكتلة الأولى، ما إن تصل وتستفهم حتى يلتمع في أعينها غضب كظيم.

في ومضة، تصوَّر ما سيقع له إذا تفجَّر هذا الغضب، فاغتنم لحظة ما بين صرختين من وجه الثعلب وهمس في أذنه:

«افرطها، وكل شيء لخاطرك، الذمة القديمة والجديدة!».

ولكنّ الأمر كان قد خرج من يد وجه الثعلب: كان شرطيٌّ ماراً. استفهم. أخبروه. اقتاد الخطاط إلى أقرب مخفر.. متلبساً بسبّ الدين!

*   *   *

المُطَهِّر

سأحكي لكم حكاية واحد من فئة من الناس يصل بين أفرادها خيط غير منظور أستطيع أن أروي من نوادرهم ولكنني اليوم أكتفي بنموذج. وأما هذه الفئة فهي جماعة من الصحافيين الذين يرفضون أن يقال إنهم صحافيون حاف ويصرون على أن يسموا «كتاباً»، بل ويُقبلون أعضاء في اتحاد الكتاب على سن ورمح. وأما الخيط غير المنظور الذي يجمع بينهم فهو حاسة شم كلب بوليسي تدلهم على القرش ولو كان معلقاً في أستار العرش، أو كان مثل الست بدور المختبئة وراء سبعة البحور.. فإذا رصدوا مكانه - القرش - طاروا إليه زرافات ووحداناً، أو كما كان يقول «خليلاتي» بلدنا رحمه الله: سعياً على الرأس لا مشياً على القدم. هؤلاء السادة الأفاضل، ثلاثة أرباع هجرتي من أرض آبائي وأجدادي هم المسؤولون عنها.. أي نعم، هاجرت إلى هنا وظللت نحو ثماني سنوات عيني في جَمَام من رؤية أسمائهم في كل جريدة ووجوههم الصبّاح على كل شاشة تلفاز.. وأذني في راحة من سماعهم في كل برامج الإذاعة ولو كانت نشرة الأحوال الجوية.. ولكن أيام الاسترواح والجمام وخلو البال لم تدم وا‌أسفاه: لقد لحقوني إلى هنا! أحدهم، الذي سنقصر هذه الحكاية من حكاياتهم عليه، لقبه زميل لنا «بالمطهر» فزعل، مع أننا، لو كان منصفاً، نعلم أننا قد أردنا مدحه بذلك اللقب وظلمنا المطهر المحبوب وتجاهلنا منافعه الكثيرة، ووجه السمح المواسي، واقتصاره في الأغلب على موضوع واحد.. ذلك أننا لم نسجل من وجوه الشبه بين المطهر وصاحبنا (ولنسمه: موسى)، الكويتب المتصاحف أو الصُّحَيْفي المتكاتب، غير «المحفظة». ولعلكم رأيتم مرة إلى حقيبة المطهر التي تكون في العادة. مثل شنطة موسى، من نوع

المنفاخ حتى تتسع لأكبر عدد ممكن من المواسي والمراهم والشاش وحناجير الذرور وما إلى ذلك مما تقتضيه هذه المهنة المباركة ذات الثواب الكبير عند الله. حقيبة صاحبنا الكا - ئع (أي: الكاتب البائع) لا تقولها إلا شنطة مطهر... وجه الشبه بين المحفظتين لا علاقة له بتعدد المواد التي تحويها كل منهما ولكن من حيث أنواعها: في شنطة (الكا - تع) تجد أوراقاً منسوخة على الآلة الكاتبة، برسم التصوير، منسوخة بيده هو لأن هذا يوفر عليه دفع كذا ليرة أجرة نسخ الصفحة الواحدة على الآلة برة، كما تشترك بعض الجهات مثل وزارة الثقافة والإرشاد التي ترفض النصوص المخطوطة باليد.. وماذا في هذه الأوراق حفظ الله عليك عقلك ودينك؟ أي سيدي، كل ما يخطر على بالك من (مقالات) و(بحوث) و(دراسات) و(ترجمات وتراجم) من منثور ومنظوم ومن هو منزلة بين منزلتين! ما يصلح للفصول الأربعة كافة مثل دكاكين الخضرية هنا في (دُبَيّ)، حيث تجد العنب في كانون والزيتون المقطوف طازجاً في حزيران. فإذا كانت الريح السياسية تهب من الشرق وجدت لديه، في شنطته، ترجمات عن البلغارية والطاجيكية والبيلوروسية والأكرانية والروسية وحتى اليوغسلافية قبل أن يتخانق يوسف تيتو مع يوسف ستالين! وأما إذا كان الزي زي الحديث عن الأطفال وأدب الأطفال مع استمرار هبوب الريح من الشرق رأيت في كشكول المسحِّر، عفواً المطهر، ما تشاء من قصص الأطفال المترجمة عن الانكليزية، المترجمة بدورها عن الروسية لشولوكوفسكي. ولا ينسى بضع القصص التي كتبها تولستوي الكبير (ليف) وحكاية «الديك ذو العرف الذهبي» لابن عمه ألكسي تولستوي وعدد من كتاب قصص الأطفال المعاصرين..

قصد مرة مكتب مدير الإذاعة لما علم أن امرأة من حارتهم، لا هي كاتبة ولا هي مترجمة تؤخذ منها أحاديث على أساس الواحد بقطعة نقد من أمات الخمسين ليرة.. وقعد يشكو له ويبكي: «شكا» قلة رواتب مدرسي الاعدادي وحاجتهم إلى قرشين إضافيين حتى يستطيعوا أن يطلعوا الراسين سواء مع هذا الغلاء الضاري.. و«بكى» انصراف الصحف عن استكتابه مع

أنه ألمعي، تحرير، أكتبُ قولاً واحداً من (أم حازم)، بنت حارته التي تبدأ أحاديثها الإذاعية كلها بـــ «فيما أنا أشرب فنجان قهوة مع صديقتي، مرَّ...» وأما هو فليس ابن البارحة في مهنة الأدب فقد نشرت له مجلة «الأديب» البيروتية، قبل ربع قرن وأكثر، في «بريد القراء» خبراً مترجماً عن «العلم والحياة» ملأ أكثر من سبعة أسطر على عمودين.. ناهيك بأنه عضو في «اتحاد الكتاب»... ومكث على هذه الحال، يا دمعة خذي عشراً، حتى كاد المدير نفسه، وهو مدير، أن يستعبر معه، وقال:

- قطعت نياط قلبي. رح اكتب لنا بضع زوايا تربوية في اختصاصكم وهاتها أحيلها على القسم الثقافي مع التوصية...

قال الكا - ئع، وما يزال في صوته دموع:

- جاهزة سيدي!

قال المدير كأنه لم يفهم: «جاهزة! أين؟».

قال المطهر وهو يفتح شنطته: «هنا سيدي، الله يطول عمرك، في المحفظة»!.

وسرعان ما قرن القول بالفعل إذ نتر من الشنطة المنفاخ عشرة أحاديث تربوية مدوزنة على الميلي، سبع دقائق الواحدة، وكلها في منتسوري والطرائق الاستقرائية والاستنتاجية لا يخلطها خالط...

قال المدير مستطرفاً:

- ولكنني مع ذلك أقول إن المستمع، أنت سيد العارفين، لا يصبر على طعام واحد. مثلاً، مع اهتمامه لموضوع جاد كالتربية في الهواء الطلق ومحاصيلها فإنه يحب شيئاً من الإمتاع، بعض الطرائف، ملحة ملحتين مما قالته العرب...

فنقز المطهر في مجلسه نقزة ظبي وعاد يجلس ويكب على شنطته فيخرج إحدى وعشرين زاوية كلها طرائف من الأبشيهي وابن عبد ربه وابن الجوزي وحتى من حكايات جحا.

«الأحداث» التي قرأت وكثير غيرها مما سأحكيه لك بعد قليل، مضى عليها كما قلت لك سنوات طويلة حتى إني نسيتها تماماً في مقاهي هنا الذي خلا، حتى قبل نحو بضعة شهور قليلة، من كل ما يذكرني بكتاب الشنطة هؤلاء.. إلى أن بدأ أحدهم يراسل إحدى الصحف هنا في دبي كاتباً عن أثار (إيبلا) غير بعيد من بلدنا، أي أنه وصل إلى لحيتي أنا شخصياً.. وحتى لا «آخذ على خاطري» كتب عن آخر أخبار بحوث الكروموزومات،.. ومسألة الجينات، وما هو السر في أن الحملان تميز أمهاتها من بين قطيع فيه عشرة آلاف نعجة أُمّ، فلا تخطئها.. واختلاف الاصطلاحات.. في ترجمة كتاب في الرياضيات أوصت به «الاونيسكو» الدول الأعضاء - بينها خمس دول عربية استجابت للتوصية... ولم نلبث حتى رأينا «المطهر» أمس يكتب زاوية في الصحيفة الدبوية نفسها (ربما غيرة من الأول لأنه هو أيضاً ابن حارته ناهيك بعداوة الكار الطبيعية إذ الاثنان من كتاب الشنطة!) تحت عنوان «الهواية والفراغ»، تربوية، فبادرت إلى إعلان البشارة لأهل دبي أن لا يدعوه يُفلت.. من أيديهم! وأضفت إلى الأحداث السابقة التي يمكن اعتبارها مدخلاً إليه وتعريفاً به:

«ولا نكتم المستمعين الكرام - لأننا لم نعتد غشهم - أننا، على الرغم من فرحتنا بلحاق «المطهر» لنا هنا في صحافة دبي، شممنا في زاويته «الهواية والفراغ» شيئاً من رائحة الأشياء المحفوظة طويلاً في غرف مغلقة أو في أكياس بريد تتقاذها القارات.. مما رجح صحة حدسنا أن هذه الزاوية «الهواية والفراغ» قد عرضت، كالأمانة، على صحف ومجلات أخرى في أكثر من بلد قبل صحيفتنا الدبوية المرزأة المحبوبة!».

هذا المقطع كان مقدمة حديثنا الاذاعي الثاني بشيراً بكسب المطهر إلى صف الصحافة المحلية. ولكي نزيد الناس علماً بالسيد المطهر استأنفنا الكلام عليه حتى يكونوا على علم أتم به لأن المتلقين في العادة يحبون أن يعلموا المزيد دائماً عن النجوم الذين يرون أسماءهم في الصحف أو على الشاشة الصغيرة أو يسمعونهم في الأذاعة.. وهكذا وصلنا حبل الحديث قائلين:

تلك الأيام كان صاحبنا المطهر يكتب في ثلاث الصحف الموجودة في البلد، ويراسل صحف بيروت، والمجلات المحلية والشقيقة والصديقة ويواظب على المراكز الثقافية شرقية كانت أم غربية ويلزق طينة في حائط كل من هذه جميعاً ولسان حاله يقول: «الزق يا ولد الطينة في هذا الحائط فإن أمسكت فخير وبركة وإن لم تمسك فالله تعالى لا ينسى عبده التواب الذي قال اسْعَ يا عبدي لأسعى معك!».

وكان من عادته وأنا في الشام ما أزال أن يؤنسني بالزيارة من مساء إلى آخر وإن كان يحرص على كتمان عنوانه عني ومن ثم دعوتي إلى زيارته. في تلك الجلسات المسائية عندي لم يكن يفتح سيرة الأدب الذي يدرسه في المدارس بنفس طريقته في ملء الشنطة بالمقالات والترجمات: مسألة أكل عيش وباب رزق. لابحث في الأدب أخلاقاً أو جماليات وفن للفن، لا حديث عن الحداثة حركة طبيعية في الأدب والحياة. والكون لا حركة احتفالية اعلانية كالترويج لمنتجات ماكس فاكتور وايف سان لوران... لا شيء من هذا كله. الله الوكيل اشتهيت لو أنه قلع لي عيني مرة واحدة بسؤال في الإعراب، في البلاغة، في تغريبة بني هلال... ليس! سألته، بعد معركة البكاء والعويل في مكتب مدير الإذاعة، قلت له:

- بشرني، إن شاء الله. مشى الحال في الإذاعة. هل نفعوك بكم حديث أسبوعي؟

قال وهو يتنهد في حرقة واستسلام:

- مستورة. هم يأخذون مني ولكن من الجمل أذنه. أكثر ما أقدمه يرفضونه. كنت أظن أنهم سيشترون مني في القليل ثلاث، أربع زوايا في الأسبوع. وقلت في نفسي: ما عليه شيء، ساقية جارية ولا نهر مقطوع. اي سيدي لا. أكثر من مرة في الأسبوع ما فيه، ومدفوعاتهم قليلة زيادة في حرقة القلب. كنت أظن أنهم سيعطونني خمساً وسبعين على الحلقة، قاموا أعطوني أقل من خمس وثلاثين بعد الحسميات.

قلت وأنا أدافع ضحكاً عالياً:

- يا الله سيدي. بُسْ يدك وجهاً وقفا وحطها على رأسك. قولتك: ساقية جارية ولا نهر مقطوع. وأزيدك من القصيد بيتين فأقول لك: شعرة وراء شعرة تعملان لحية. ألست تكتب في الجرايد أيضاً؟

- أكتب، إن شاء الله أنت تريدني أن أفتح فمي للسما في انتظار مدفوعات الإذاعة! أنا أكتب في الصحافة ولكن مدفوعاتها كذلك قليلة، قوت اللا يموت!

- قديش على العمود؟

- أيش تريدني أن أقول لك؟ مدفوعات تخجل والسلام. صدقني إذا قلت لك إن أخي الممرض يُطلع من ضرب الإبر في اليوم الواحد أكثر مما أطلعه أنا في أسبوع!

- ولكن الاسم، أنت اسمك كاتب، وعضو في اتحاد الكتاب!

- اي هذا ما هو كاسر لي ظهري: منافع عضوية الاتحاد... ولكن المدفوعات...

على هذا تنقضي جلساتنا المسائية: على مدفوعات الإذاعة، ومدفوعات الصحافة، ورواتب التعليم الاعدادي، والفرق بين المدفوعات لأم حازم ومدفوعاته. خيل إلي أني لو دعوته إلى العشاء، وأنا على يقين من أنه سيرفض، إذا قلت له:

- هل تأكل لك لقمة معي يا أستاذ؟

لأجابني بسؤال:

- كيف تريدني أن أتعشى عندك (ومدفوعات) زوجتي في المطبخ تنتظرني وكلفتني (مدفوعات) ربنا اليوم!

وبما أنني انسان متحضر، مهذب، قرأت لي كلمتين في بلاد برة وتعلمت شيئاً من قواعد السلوك عند الأجانب فقد كنت أنا أيضاً أحكي - وإن يكن من برة قلبي... عن المدفوعات التي أنالها من الوزارة وأحياناً أتظاهر بأن عيني نديتان... إلى أن كان مساء جاءني فيه وهو على غير عادته القاتمة الشكاءة البكاءة.. كان مفرفشاً. قال:

- عندي لك خبر سيسر قلبك وخاطرك. ستفرح لي كثيراً. هل تصدق أنهم في الأردن نشروا لي دراستين عن (أديب اسحق). تذكرت شيئاً. قلت: «ألم تكتب عن أديب اسحق في (المعارف) من نحو سنتين؟». - بلى. - وفي صحيفة «الاستقلال»؟.

- ولكن دراستي الأخيرتين في «البحث» الأردنية شيء آخر. أدخلت فيهما إضافات مهمة جداً. قل هذه مسألة لا قيمة لها. المهم هي المدفوعات. هل تصدق أنهم يحاسبونك بالدينار؟

- لا تقلها!

- أي والله. احزركم قبضت على المقال؟

- كم؟

- مئتين وسبعاً وأربعين ليرة وثلاثين قرشاً.

- على المقالين؟

- قلت لك على الواحد الذي لا يتجاوز الصفحتين. يعني راتب ليسانس في الشهر، هل تتصور. خذ تفرج لك فرجة.

وفتح شنطة المطهر وقدم إلي مجلة «البحث» الأردنية.

قلت: «المقالان في عدد واحد؟»

ضحك في حبور:

- هنا النكتة كلها. افتح على الصفحة ٨٢ والصفحة ٢٥.

فتحت المجلة على الصفحة ٨٢. قرأت:

«أديب اسحق صحافياً في الاقليم الجنوبي... بقلم الأديب: موسى...، وبقية ألقاب المطهر». وأما في الصفحة ٢٥ فقد قرأت: «أديب اسحق وسليم النقاش» بقلم الكاتبة صونيا فؤاد. سألته:

- هذا بقلم امرأة، صونيا فؤاد، فلماذا تقول إن المقالين لك أنت؟

زاد حبوراً:

- صونيا هي زوجتي! يعني قَرَّشَ معنا المقالان، مدفوعات، أربعمئة وأربعاً وتسعين وستين قرشاً. وهذا حساب البنك، تصور لو خطفت رجلي إلى عمان وقبضت بالدنانير وبعتها بالسوق السوداء!

قلت:

- أهنيك. هؤلاء أهل الأردن كنز. قبة دانيال وانفتحت في وجهك. لا تتركهم. بلا إذاعة بلا جرايد محلية. لا تكتب إلا لهم.

عاد قاتماً هامداً كأنه أصيب بشيء من التفريغ العصبي من جراء فرحته العارمة التي انفجرت قبل قليل.. وبعد أن أطرق بعض الوقت راح يحكي كلاماً فضفاضاً لا يخلو من ضبابية وتحرج عن العلاقات بين البلاد العربية وكيف أنها تشبه الطقس في شباط، مع أن الأقطار ذات (المدفوعات) الممتازة يجب أن يكون لها معاملة خاصة... وأشياء كثيرة على هذا النحو لم ألتقطها جيداً... إلى أن قال أخيراً:

- أنا لم أقصر ولكنهم هنالك ليسوا راضين عنا دائماً. مدفوعاتهم، لا أنكر، شيء فوق الظن، ولكنهم لا ينشرون كل شيء، أو كل مقال أبعث به إليهم. هذان المقالان هما، في الترتيب، الحادي عشر والثاني عشر. العشرة الماضية لم تنشر قط. تصور المدفوعات التي كانت تكون لو أنهم نشروا الكل.

* * *

ميت إلا شوية

١ - الحادثة:

أول رمضان بعد الوحدة بين مصر وسوريا سرت إشاعة أن من يُضبط مفطراً علناً ولو متلبساً بكعكة معروكة أو ببق ماء بارد يُحتجز إدارياً حتى آخر عيد الفطر. ولم نلبث أن قرأنا تأكيد ذلك في الصحافة السورية. وأما المصرية فقد قيل لنا إن الإفطار العلني لديهم أمر عادي. لم نستغرب، فقد دخلنا عليهم، أو دخلوا علينا، بالأرمني. نحن نقول لهم إن الوحدة يجب أن تكون سبيلاً إلى استرداد فلسطين واستعادة «اللواء» السليب الذي سلخه الأتراك بعد أن أطلقوا عليه اسم «هاتاي»، وهم يكتبون في صحفهم أن الأتراك ملاعين لأنهم ألقوا القبض على «اللواء» السوري سليم وسلخوا جلده حياً. نحن نقول لهم إن دمشق كانت قبل الوحدة مدينة جميلة فيها شوارع قد لا يوجد لها مثيل في باريس، وهم ينشرون صورة لزقاق في «سرغايا» مُحَفَّر، متهافت، أغبر.. ويكتبون تحت الصورة «دمشق قبل الوحدة»، وقربها صورة أخرى لحي أبي رمانة، حي السفارات، المشجر النظيف ذي الأبنية الأنيقة ويكتبون تحتها «دمشق بعد الوحدة»! أكثر من هذا أنهم، لشدة جهالتهم بنا، حكَّموا بنا ضابط أمن، ليس من دمشق أصلاً، أصله دركي. وجعلوا له علينا حق الحياة أو الموت، حتى إنه كان يثقل على الناس برقابة الصحف المؤممة أصلاً، ولا سيما المصرية، وحجته في ذلك أن سوريا لا تحتمل الحريات المصرية: فالمصريون غنم على حين أن السوريين قرود، شاقُون الأرض وطالعون.

نكاية بالدركي، وزعلاً من تلك الوحدة التي لهوجت على عجل، مما يدل على أن صانعيها ما فعلوا إلا بعد أن بيتوا النية أن يربوا الشعب السوري المهووس طول عمره - كالقذافي فيما بعد - بالوحدة، ولا سيما مع مصر

التي حظها يفلق الصخر إذ رزقها الله - آنذاك - بزعيم من رتبة الأنبياء قادر على أن يخطب خمس ساعات متوالية دون أن يقول اعطوني كاس ماء...

هاشم العبسي، مهندس من حماه، أميل إلى السمن، ضحوك، طيب..، وياسين خولي، مهندس من دمشق، أحمر، هادئ، صموت..، وكاتب هذه السطور، قررنا الذهاب إلى لبنان بضعة أيام حيث نفطر فيها عن الشهر كله، وعن رمضان الجائي إذا لم تفرط مسبحة الوحدة قبله! منذ دُمَّر وضعنا الخطة موضع التنفيذ: اشترينا موزاً وتفاحاً وفستقاً حلبياً ولوزاً من النوع المملح الذي يقشر وقنينة نبيذ لبناني فتحها لنا صاحب الدكان لأننا لا نملك فتاحة فلين. وعلى الرغم من كونه مسيحياً اضطررنا - لما لاحظناه من نظرته المريبة - أن نعوج لساننا ونكلمه بلغة ثلاثة أرباعها فرنسية.. وما إن أقلع ياسين وأنا قربه وهاشم في المقعد الخلفي، حتى بدأ الضحك والبكاء على الاستقلال والتندر على بلاد لم تعر أذناً صاغية لأفلاطون في جمهوريته، فحكَّمت في مقدراتها القوة الغاشمة وتركت حرية التصرف بمصائرها على هذا النحو الذي شهدنا وألجانا إلى اللياذ ببلد رجعي لنمارس فيه ما يطاردنا البلد التقدمي عليه من أبسط أشكال الحرية الفردية. وضحكنا أكثر لما أخذنا ننقِّر على الوجوه الكثيرة التناقض بين شعارات الدولة المرفوعة، وكلها ثوري، وخوفنا من الإفطار في رمضان مما يؤكد أن الدولة الجديدة (مدرحية) أو في سبيلها إلى أن تكون خليطة عجيبة (ثيو - رية) أي ثيوقراطية ثورية، تحدس ذلك في مواظبة رئيسها على الصلوات في جوامع الاتحاد السوفياتي المهجورة حتى لو عطلت هذه الصلوات برنامجاً متفقاً عليه سلفاً بين بروتوكوليي الجمهورية والاتحاد السوفياتي حتى إن الثورية لم يبق ما يذكر بأنها ناموس الدولة إلا زج عشرات الألوف من الفئات السياسية المختلفة في السجون حيث يموت الكثير منهم شنقاً أو تحت بساطير العساكر السود وسياطهم.

بقينا في هذه الشواغل حتى وصلنا إلى ميسلون فلم نتجاوزها مع الأسف، ربما لأن رمضان أراد أن ينتقم منا لإفطارنا فيه فكانت الحادثة التي خربطت المنقلة في خطتنا الجريئة: بينما نحن في شرب وأكل وضحك

أحسسنا بضربة من ورائنا طاش لها صوابنا. أنا ظننت أن سيارة تقل أناساً لاهين مثلنا تعرفوا «فياتنا» من قفاها فأرادوا أن يمازحونا برفسة من مقدمة سيارتهم مسالمة. هذا ما برق في ذهني نتيجة لمراحنا الغامر الذي لم يكن يخطر له شيء غير المزاح واللهو. شيء آخر تبينته قبل أن أفقد الوعي: سيارتنا، وهي من أخف أنواع «الفيات»، نحو ثمانمئة كغ، انحرفت بقوة إلى اليسار. شعرت أن دولابيها الخلفيين يرتفعان في الخلاء بعد أن تقافزا لحظة فوق تراب العدوة المحاذية للاسفلت، ثم غبت عن الوجدان كما تقول كوكب الشرق، كأني ضُربت شرنكة (سيرنغ) بنج على حد قول أهل بلدنا. هذه هي منافع الإغماء. ربك لا يبلي إلا ويعين. لم أحس بشيء إلا وأنا محمول من يدي ورجلي مصعداً بي في سفح ترابي حتى الاسفلت. فتحت عيني كأني أفك عنهما لزقة مصمغة. كان حاملاي هما رفيقاي هاشم وياسين. مع الإفاقة أفاقت آلام حادة كالسكاكين تعمل فرماً وتقطيعاً في ظهري على طول العمود الفقري أنستني وجعاً آخر قرب عيني اليمنى لما انتبهت إليه بعد لأني وجدت، بالتلمس، أنه انتباج ضخم يشد جلد صدغي شداً مؤلماً إلى الخارج. عدت أتحسس مرة أخرى بأصابعي. قدرت أنه في حجم حبة البطاطا الوسط. ويظهر أن إحساسي استهول الوجعين وإذا أنا، ما إن مددني رفيقاي على تراب العدوة حتى لاذ كَرَّة أخرى بالفرار. لم أغب طويلاً. صحوت صحوتي الثانية على بين لبناني وشوام. اللبناني كان يقول مغلظا:

- اي افرقوا ربي، تضربوا في ها الأشكال المخربطة. ولك شو عم تقولوا لي يا عمي انه وراكم أشغال. ولك شوفوه، هيدا ميت إلا شوية، أما أن نلحقه إلى المستشفى أو يخلص معنا على الطريق. شيلوا يا عمي، شيلوا، أما أصحاب الأشغال المتلتلة هون فليشربوا البحر.

قال أحدهم:

- إي شوبك، في القليل رجع لنا الأجرة.

- أجرة ما فيه، مثلما قلت لكم. انتظروني هنا مسافة الطريق إلى المستشفى حتى أحط هذا الميت وأعود لكم.

في هذه الأثناء كان رفيقاي قد نقلاني إلى السيارة التي فرغها السائق النَّدْبُ القبضاي قوة بهدلة، وقفز إلى وراء مقوده ودعس على المئة مئة وعشرين في اتجاه الشام. كان يقول:

- سليمتك يا خيي (سلامتك) لا يكن لك فكر. الله سبحانه وتعالى لن يضرك.

الآخران كانا يحنوان علي، مثلما في الشعر، حنوَّ المرضعات على الفطيم. وأما أنا فإما لأني كنت حقاً موجوعاً، أو لأن الدلال أعادني طفلاً مدلعاً، سيان، رحت منذ أن أقلع صاحبنا السائق كأنه فارس يقفز إلى صهوة جواده المضمر في سبيل نزال الأقران أعنُّ وأنود:

- آخ يا ظهري، أنا متأكد أن العمود الفقري مكسور شقفتين.

- وكلْ الله يا رجل، إي شو العمود الفقري كعكة! سلامتك إن شاء الله. على سلامة، على سلامة.

- وين السلامة يا حسرتي يا... أنا، ظهري يموتني من الوجع. وصدغي أيضاً شف لي إياه ولكك ياسين. أليس أزرق؟

- لا هو أزرق ولا شيء. أنا ما عرفت أنك مونونِ إلا اليوم.

- ولك أي شومونون، أي والله العظيم كأن ظهري ما هو مني. والمصيبة أني لست بخائف من الموت. كل خوفي أن أعيش وظهري على هذا الشكل فلا أعود أنفع للنسوان!

السائق اضطر إلى تخفيف السرعة من شدة ما ضحك:

- يابيي قديش ما هو خفيف دم، ها ها ها قل ولك عمي أنت متأهل؟ قلت وأنا مستمر في النوحان والأنين:

- سبع مرات!

عاد يضحك. ظنني أمزح. وقال:

- حصنتك بآيات المصحف الشريف. أنا أسوق سيارات العلمين من عشر سنوات ولكن أخوها الركيب (الراكب) ما رأت عيني.

قال هاشم جذلان:

- ما شفت شي لسه.

- أي علي النعمة ما أنا آخذ منكم أجرة وما أنا مرجع لركاب آخر من أصحاب الأشغال الشويم (الشوام) الذين هناك نكلة! ولكن قولوا لي كيف حدث الحادث؟ الله اللطيف، أما كنتم تركبون الفيات الصغيرة التي كانت معجونة تحت في الويدي (الوادي)؟

- بلى.

- وكلكم كنتم جوّه؟

- طبيعي.

- أي احكوا لي.

حكيا ما حدث. الضربة التي جاءتنا من خلف نَفَّعَنا بها محام مسيحي ثري معروف بسعته وزكرتيته. يظهر أن ناقل السرعة (الترانسميسيون) انكسر معه فأراد أن يكبح جماح سيارته الفرساي (حوالي طن ونصف) فلم يجد أمامها غيرنا، فحدِنْا إلى اليسار وهوينا في الوادي. قبل أن نهوي، بعد متر واحد من حيدتنا عن الطريق أطارت الصدمة المقعد الذي كنت أجلس عليه والباب الأيمن وقذفت بي بعيداً فوقعت، صدغي على قطعة من الحجر الصوان هي التي أنتجت فحل البطاطا هذا قرب عيني اليمنى. هاشم وياسين تدحرجا وهما داخل السيارة التي ظلت تقوم بهما وتقعد حتى استقرت بهما معجونة في القعر (فيما بعد ستقيس الشرطة المسافة بين الطريق وسيارتنا الضحية فتجد أنها خمسة وسبعون متراً! وكان عابرو السبيل قد انتهزوا فرصة الاختلاط العام الذي أعقب الحادث فسرقوا الراديو مع هوائيه!). لم يصدقا أعينهما التي تحرت وأيديهما التي تلمست أنهما وصلا إلى حيث استقرت مطيتنا من دون أن يصابا بخدش. والدليل على ذلك أنهما، لما تحررا من الحطام المعجون، وتبينا أني لست معهما، رفعا أنظارهما إلى فوق فوجداني متمدداً بغير حراك فهرعا يتوقلان السفح لإغاثتي.. وأما سيارة المحامي فقد تقدمت، بتأثير الاندفاع، نحو عشرة أمتار وتوقفت بعد أن

انحرقت هي أيضاً يساراً. ولو لم يتوقف لكنت نجوت من الانقذاف لأموت بالانفعاس تحت سنابكها الضخمة. لطائف الله اللطيف. قربان اسمه!

ها نحن أولاء نجتاز بوابة مستشفى المجتهد. اليوم جمعة. رفيقاي أسلماني لقسم الإسعاف وعادا مضطرين إلى ميسلون. أيام الجمعة الأشعة لا تعمل. حُملت إلى مهجع الإسعاف. واسع لا تقول إلا ملعب كرة سلة. محشر. وكله قباقيب وأناس يذهبون إلى المغاسل ليتوضؤوا وآخرون يعودون من المغاسل متوضئين.. وآخرون يقرؤون القرآن بصوت مدوٍ فيما كان اثنان يتخانقان بشتائم من وطأة الصيام عليهما كما هي الحال في سوق الهال. قلت في نفسي: «ها هو ذا رمضان، الله يسامحه، لا يكفيه طرحي على سفح شظف في ميسلون.. فيلح على الانتقام مني بطرحي هنا، بين القباقيب! وأين كنا وأين صرنا لنا الله!».

ربك حميد لم أبق طويلاً، نقلت في المساء إلى غرفة خصوصية بحمام وهاتف لا تقول إلا فندق بأربع نجوم، وممرضة رائحة تقيس حرارتي وأخرى تحمل لي ابريق ماء بارد أو كأس عصير. قالوا إن المحامي هو الذي جاء إلى المستشفى وأمر بنقلي من المهجع (القاووش) إلى هنا. لم يصعد لرؤيتي ربما لأنه كان خجلان مني. ما هم! جاءت ممرضة القسم الرئيسية لقياس ضغط الدم. فتاة في نحو العشرين، أكثر قليلاً، قطة أفرنجية مرهرهة، بسامة الوجه، حشو جلدها، وئيدة الحركات والكلام، شامية عتيقة بلهجتها المغنية المغناج، منية المتمني للأخذ والعطاء، قبلاً وحديثاً ومَعْضَلَة. ما إن دخلتْ حتى بدأتُ النواد:

- آخ يا ظهري، أنا في حكم الأموات يا آنستي. الاسم الكريم؟

- أنا اسمي بسمة. ما على قلبك شر يا دادا. خير إن شاء الله؟ سلامتك من الآه.

فسخ عقلي! لماذا كنت أريد الذهاب إلى لبنان؟ كان في الإمكان اصطناع حادثة هنا على أبواب المستشفى. ولكن من أين لي أن أعلم أن هذه الغزالة العطشانة هنا؟ قلت في صوت مضعضع، مكسور:

- ما تشوفي شر! العمود الفقري عندي مطحون، حادثة سيارة. أكثر من أربع وأربعين فقرة من ظهري زُحين.

تضاحكت ضحكة نغشة، نيرانية تتنافر مع ونائها الغلاب.

- أيش هذه «زحين»؟ يظهر أنك لست من الشام.

- لا ياستي أنا غريب. حنوا على الغريب، الله يوفقكم!

- ما غريب إلا الشيطان. ولكن (ضحك صاف) الآن صارت فقرات العمود الفقري أم أربع وأربعين؟

- وانزاحو، شوفي!

وأخذت يدها الصغيرة المعجعجة أريد أن أضعها على ظهري فسحبتها.

- لا، هذا شغل طبيب العظام وليس شغلي. أنا هنا لأقيس الضغط.

- أي طيب، في الأقل حطي يدك من قبيل البركة. كبسيني واقرئي لك شيء دعاء.

عادت تأخذ حرارتي، لمست جبيني، أخذت عينة من دمي.

- هات يدك هذه أقيس ضغطك.

أعطيتها إياها وأنا أقول:

- الله يكتب لي أن أطلب أنا يدك.

أصبح بدنها كله يقوم ويقعد من الضحك.

- مهضوم.

- حتى في رمضان!

لم تنقطع، على جذلها، عن متابعة قياسها. أخذت ذراعي. لفت عليه قطعة قماش خضراء كأنها ضماد أحاط بما فوق المرفق. بقية الذراع بقيت سائبة. انتبهت إلى شيء عجب: «بسمة» لزت علي حتى مست أصابعُ اليد المقيس ضغطها معطفها الأبيض عند عروتي الزرين الواقعين عند السترة وتحتها.. نقزت نافرة بعيداً من مدى أصابعي المجدي التي كانت تتبسط متحركة في نشاط:

- يوه، على قامتي.. حد علمي أن ظهرك طحين!

هكذا قالت في دل. قلت مسكيناً. كسير القلب:

- زحين يا حبيبتي، زحين وليس «طحين».

- زحين، طحين كله واحد. من يسمعك، أنينك واصل حتى قرص الدرج يقول أنك مودع، لا سمح الله تعالى، قبل نصف الليل.

- أألام إذا رددت أنت روحي إلي!

عاد الضحك الصافي الغفور:

- اتركني اكمل قياس ضغطك.

- أأنا ماسكك. ولكنني أعرف سلفاً أنه ألف.

- لا، طبيعي!

- كيف تريدين أن أمد يدي! حرام أن رَجُلاً رِجْلٌ في الدنيا ورجل في الآخرة يحب!

ثلاثة أيام، ثلاث ليال تستحق أن تحسب من عمري من حق وحقيق... في أثنائها غدت غرفتي صالوناً أدبياً وكافتريا ومقهى. جاءني رفاقي، بين الكثير الذي جاؤوني به، بأوراق وأقلام كتبت، فيما كتبت، رسالة إلى زوجي الروسية، نورا بابيلوفا، وهي - على عربيتها المتعوبة - مدرسة لغة عربية في جامعة موسكو! لغتها، حتى زواجنا، قاموسية يابسة مثل حطب في قطرميز.. بعد «بسمة» عدت لا أحبها. عدت أقدر لغتها المحنطة حق قدرها. كل هذا لا يهم. كتبت إليها - كنت أقول - رسالة وصفت فيها الحادث وقلت لها إن ظهري مكسور من جراء حادث سيارة. بعد أن غادرت المستشفى جاءني جواب الرسالة. أظرف ما كتبتْ. كانت تقول:

«لم أقلق يا حبيبي لقولك إن ظهرك مكسور من جراء حادث سيارة. حتى قبل تسلم رسالتك الثانية التي تقول لي فيها إن أشعة إكس أظهرت أن ما معك ليس بكسور في العمود الفقري وإنما رضوض، كنت على يقين من أن ظهرك لا يمكن أن تكسره غير الصبايا الرعبوبات الرهروهات المغناجات كما علمتني أنت، هل تذكر؟ يا لها أيام!».

٢ - النحات:

سمح لي الطبيب المداوي أن أترك المستشفى لأن الفقار المرضوضة تشفى من رضوضها مع الأيام. وأما الانتباج الضخم قرب عيني فهو كذلك سيظل بعض الوقت نائلاً من وسامتي بهذه الألوان الداكنة التي تؤطره.

وانتقل النادي الأدبي، من غرفة المستشفى أم خمس النجوم، إلى غرفة الضيوف في بيتنا بالقصاع، حيث توسدت كنبة الصدر وتدثرت بغطاء ورحت أشارك عُوَّادي الضحك والأحاديث والشعر والحي في حق الناس.

ذات يوم جاءت أختي تؤذنني بأن السيد غسان، النحات، بالباب يود رؤيتي. كنت أعرفه سماعاً مشوشاً. قلت:

- أدخليه من فضلك!

دخل، قدم نفسه بوصفه خريج كلية الفنون، قسم النحت، درجة جيد جداً، وحائزاً على الجائزة الأولى للنحت من وزارة الثقافة. لو لم يعرفني بنفسه لظننت أنه من تجار سوق الأرواح، أصحاب العتقيات، أو في أحسن الأحوال صانع عند تاجر في سوق الحميدية. أَمْيل إلى القصر، بداية سمنة، حركات من اليدين والرأس والأعين كأنها لتملق الشاري. العينان خصوصاً حاضرتان متنبهتان إلى أي حركة من جليسه لتكون موضع اهتمامه الأول.. بعد قليل، أفهمني بكثير من المقدمات اللافة الدائرة والتلطف المعسول أنه هنا ليس لعيادتي والسؤال عن صحتي لأنه أصلا لم يسمع بحادث انقلاب سيارتنا في ميسلون ودخولي المستشفى إلا من فمي الآن: إنه آت ليتشرف بمعرفتي أولاً، وليترسمل مني حول هذه المسألة: الوزارة تقديراً منها لفنه الرائد لم تكتف بمنحه جائزة النحت الأولى على مجموعة له نحتية عن «المقاومة الشعبية» التي «ستتكرم برؤيتها متى تماثلت قريباً بإذن الله، في مشغلي بالروضة، وستعجبك حتماً لأنها نحت حقيقي وليست صرعات مما يصدره الغرب الذي يغزونا ثقافياً..» وإنما صدر قرار بإيفاده في بعثة (كأنه كان في حاجة إلى دراسة أو بعثة... انظر إلى هذا التناقض من الوزارة!) وقد خيروه بين بلدين هما مصر، أي الإقليم الجنوبي، والاتحاد السوفياتي، أي الاقليم

الشمال شمالي، كاد يقول... ومن كلمة إلى كلمة أفهمني شيئاً آخر: إنه لا يهمه رأيي في أي البلدين أجدى على فنه وإنما.. إنه منذ ثلاث ليال سويا لا يغمض له جفن، لا هو ولا السيدة أمه، الداية القانونية التي أنفقت دم قلبها لتراه صائراً مصوراً نحاتاً قد الدنيا.. وهما يضربان أخماساً لأسداس ويقلبان الأمر على وجوهه وأقفيته، ويزوران هذا البلد وذاك ولا يصلان إلى قرار لا يندمان عليه في المستقبل لا سمح الله.

هنا، ستعذرونني إذا رأيتموني عاجزاً عن إيراد التفاصيل. يستحيل علي ذلك صاحبنا سرد لي بيانات مفصلة لا تدع شاردة أو واردة إلا أحصاها عن راتبه الشهري بالقطع النادر يختلف باختلاف البلد الموفد إليه بُعداً أو قرباً، وسعر القطع الأجنبي في مكاتب الصرف الحكومية أو في السوق السوداء، وما هي السلع التي إذا جلبها إلى بلده في أثناء العطل والإجازات تؤمن له ربحاً إضافياً من التجارة أو تهريبها.. إلى آخر هذه الحسابات التي تأخذ بالمخانق حتى الموت.. وقد فهمت منه أن دراساته المكثفة للسوق في مصر وحاله الاقتصادية قد تجمعت لديه تقريباً. وظهر أن الراتب سيكون أقل منه إذا هو اختار الاتحاد السوفياتي ولكن، ماذا عن المزايا الأخرى وهل تتفوق، هي الأخرى، في الروسيا عليها في مصر مثل الراتب؟

وهو لم يخطر له على بال - لأنه لم يكن يعرفني - أني طوال إقامتي في موسكو، حيث أعمل مترجماً في دار التقدم، آتياً إليها في الأصل بدافع الفضول أن ألم بإحدى كبريات التجارب الإنسانية في سدس الكرة الأرضية التي ما تزال مستمرة من تشرين الثاني سنة سبع عشرة حتى الآن... لم أهتم لحظة واحدة لأسعار العملة أو مكان إقامة تجارة، علنية أو سرية، أو ما أربح أو ما أخسر... ما أعلمه هو أني أحيا حياة مليئة طافحة، وأتعلم لغة جيدة جديدة، وأحضر كل عروض (البولشوي تياتر) ومسرح منجات ومعارض الرسم والنحت.. وأتسرب إلى أماكن لم تطأها قدم عربي قط قبلي.. وأني أكثر أيامي كنت مديوناً لزميل لبناني، مثله مثل جليسي النحات العتيد، لم يزر طول إقامته معرضاً ولم يحضر باليهاً ولم يفكر إلا في بيع الدولار في السوق

السوداء والوثب على أي مسافر إلى لبنان لإيداع فضل الربح في حسابه في أحد البنوك ببيروت!

إن ما أثار دهشتي - فوق دهشتي من ظفره بجائزة الدولة في النحت وايفاده إلى الخارج سنوات طويلة ننفق عليه من حر مالنا نحن المنتوفين - هو تحيره بين مصر والاتحاد السوفياتي لمجرد أن أحدهما أدهن من الآخر أو أجدى على الكيس من الآخر لا لتمايزهما في الفن والعراقة فيه، الفن الذي كان يقول قبل قليل إنه وهبه عمره واختار فيه سبيل الكلاسيكيين العظام في اليونان وروما وعصر النهضة كما أوهمني أنه يفعل..... وحاولت أن أتقدم خطوة أخرى في سبره مخافة أن أكون قد ظلمته «لا سمح الله» إذ حسمت الحكم عليه. حدثته حديث زيارتي لمعرض الخريف الأخير أنا وأحد زملائي الصحافين المهتمين للنقد الفني والأدبي: منذ أن دخلنا القاعة الأولى من قاعات المعرض الذي أقيم فيه المتحف كالعادة كل عام، لفت نظرنا أن الرسام العارض في أكثر جدران تلك القاعة ذو مدرسة مميزة، مكينة، صناع ندر أن تكون لغير أوروبي من ورثة أثينا وروما! لما همست بهذا التخمين في أذن زميلي قال لي «والله صحيح، تعال نتحقق من الاسم، قد يكون فناناً عربياً مقيماً عمره هناك...» قرأنا التوقعيات المذيلة بها اللوحات. كان تخميننا في محله: اللوحات لرسام روسي أبيض يعيش بين ظهرانينا منذ الثورة البلشفية!

وقلت للنحات الضيف: «المسألة أن الروسيا، حتى قبل بطرس الأكبر، الذي كان له الأثر الحاسم في انتماء بلده نهائياً إلى أوروبا المتأغرقة، كان الفن فيها، منذ دخولها في المسيحية، مزدهراً تشهد بذلك الأيقونات الباقية في الكنائس الأرثوذكسية والمتاحف مشهوداً على أن فنانيها المعاصرين لم يبدؤوا من الصفر مثلنا.. إن ثمة مشابه في سيرورة الرواية والشعر والمسرح. أنا لا أنكر أن في مصر حركة فنية خصبة، والنحت عند مختار مثلاً امتداد للفراعنة والبطالسة، ولكن، ما أبعد المسافة، الشقة الزمنية بين هؤلاء الأجداد ومختار. وبعد مختار، من نبغ عالمياً في هذا الفن؟ أنا لا أستطيع أن أفيض عليك في فنك أنت، ولكني أعلم أن لدستويفسكي، إذا لم تخني الذاكرة، كلمة

عميقة المغزى إذ قال: «كلنا خرجنا من - معطف - غوغول». وأنت تعلم أن المعطف قصة لنيكولاي غوغول المتوفى سنة اثنتين وخمسين من القرن الماضي وهو ذاته لم يكن بدأ القصة والرواية من الصفر كما تدل حادثة تأليفه «البر وفيزور» مستلهمة من بوشكين. لقد أراد دستويفسكي أن يقول إن لزملائه الروائيين تراثاً هم ورثته ومكملوه....

وبما أنني عملت في التدريس زمناً كافياً لاكتساب عاداته فقد أسهبت في شرح فكرتي، وأسمعته ملاحظة الامام الشافعي الذكية عن استحالة الجمع بين قضية توهب العمر، والتفكير في حركة سوق البصل أو تهريب العملة أو العمل في تجارة الشنطة. وضربت له أمثالاً من شعراء كانوا بشائر فيض مبارك من الشعر العالمي، ما إن استوزروا، أو استَتَسْفَرُوا، فأولعوا بالتسويق والبيع والشراء، حتى صمتوا صمت أهل القبور، فإذا تكلموا قالوا مكروراً ورددوا متردماً. حكيت أشياء كثيرة أخرى وعمدت إلى تهدئة اللعب قليلاً لأتبين مواقع أقدامي ورجع صدى خطبي العصماء المتعبة في «الفنان» الذي فيه، إذا كان فيه شيء.

قال: «والآن، بم تنصحني إذا اخترت مصر؟ يقال إن الأدوية فيها شبه مفقودة. من ناحية «قمر الدين» والفواكه المجففة، هذه حسبت حسابها. وأما إذا اخترت الاتحاد السوفياتي فما هي السلع الأروج؟ سمعت أن الأصواف عندهم نادرة، وعلب الموازييك لا يعرفونها، والنايلونات كذلك»..

يظهر أنه هو أيضاً معلم... معلم في إلحاح الفكرة الثابتة عليه والتكرار والصمم عما يقال له لطول تعوده أن يقول هو للآخرين. لقد أصم أذنيه عن كل محاضراتي. وقال وهو ينصرف:

- على أي حال يجب أن تزور مشغلي. أظن أنه يستأهل!

بعد أن تماثلت جاء النحات الحربوق ليصحبني إلى مشغله، مَنْحَتِهِ إذا شئت. كنت أفكر طوال الطريق في أنه، إذا كان حقاً قد اختار المدرسة الكلاسيكية في النحت، مدرسة التشريح الدقيق والنسب المضبوطة ومحاكاة الطبيعة بالمعنى الأرسطوطاليسي للمحاكاة، وأنه ما رفض الصرعات الحديثة

إلا لأن المفروض بالرواد، مهما يكن مجالهم الفني، أن يعودوا إلى الجذور، كأن يدرسوا في متاحف حلب وبيروت ودمشق وبغداد النحت السومري والبابلي والآشوري والتدمري.. إلى آخر، ويظلوا يتدرجون حتى الهلنستي والروماني والبيزنطي في استحالاتها في الأمكنة المختلفة كبلاد الشام مثلما في تدمر وبعلبك والبتراء وجرش وكاتدرائية سمعان العمودي... وهو لا بد - وأعني نحاتنا الرائد السيد غسان - أنه لم يتخذ موقفاً من النحت المودرن إلى أن درس آثار مور وبابللو غارغالو وبيكاسو نُحَّاتاً تعرض منحوتاتهم في الحدائق العامة والمتاحف والكنائس في شتى المدن الأوروبية.. وبدأت هذه المرة أيضاً أقوم بعملية سبر أخرى، فلم ألبث حتى فوجئت بأبواب تَلَقِّيه موصدة دون عملية السبر مثلما كانت موصدة لما كلمته على معرض الخريف وتفوق أوروبا، معلمة العالم، علينا في ميدان الرسم، فكيف بالنحت! صحيح أن أسماء مثل فيدياس وميكيل أنجلو ورودان.. لم تكن غريبة على مسمعه، ولكن على سمعه فقط، لأنه، لما جاء دوره في الكلام، أفهمني تلميحاً تارة وتصريحاً أخرى أنه، بعد زيارته الأولى لي، سمع أني صحافي مخيف وناقد مقروء قادر على أن أروج حتى بضائع «الفنانين» الذين لا يستطيعون اللحاق به!... هأنذا أمام فنان آخر لا يرى فيَّ إلا مسوِّقاً! ها، هاه! إذن فدعوته إياي إلى منحته لم تكن لله بالله. إنها هي أيضاً تدخل في باب السوق، في باب البيع والشراء والمربح والخسارة...

ودخلنا المشغل الذي كان يساكنه فيه الفنان أدهم الذي قضى فجأة وهو في عز شبابه.. وكان حقاً رساماً من فرقه إلى قدميه.. أراد أن يبهرني، أن يأخذ زودي كما يقولون عندنا في البلد، فأمسكني من يدي، بعد أن أشعل النور، وقال لي:

- أغمض عينيك قليلاً...لم أغمضهما. أوقفني في ركب، أمام مجموعة نحتية من الطين، قائمة على منصة على شكل قاعدة تمثال مدورة خشبية وقال:

- افتح عينيك الآن لترى نحات بلدك ماذا فعل... هذه يا أستاذي هي المنحوتة التي تحمل عنوان «المقاومة الشعبية» التي استحقت جائزة النحت الأولى وهي شغل أخيك العبد لله...

حركات يديه، حركات صانع التاجر في سوق الحميدية، رأسه، عينه، ابتسامته، كله كان مغتبطاً، قرير العين، راضياً عن نفسه، في السُّوق... عدت أنظر إلى اتجاه يديه. لم يكن فيما حول المنحوتة نحت آخر. هذا يعني أن هذه هي مطرح زهوه وحماسته واعتداده. حولت نظري عن يديه ووجهه إلى ممدوحته، إلى ما أسماه «مجموعة نحتية»... شيء فوق الظن. إنهما تمثالان صغيران من الطين، مكزبران، ارتفاع خمسين سنتمتراً أو أقل قليلاً، يمثلان - حسب نية نحاتهما والأعمال بالنيات - فتى وفتاة بالخاكي، فماهما مفتوحان في حركة صراخ كما أراده لنا، وإذا هما مفغوران مثل أشداق المجاذيب السارحين في الحارات العتيقة لا ينقصهما إلا أن يشط منهما اللعاب، وكل قسمة من الوجهين تصرخ فيها البلاهة بلاهة لم أر لها شبيهاً إلا في الأفلام الهندية المختصة في هذا الطراز، بلاهة من الوضوح أنك تخال صانع المنحوتة قد تعمدها بوصفها التعبير الوحيد عن الجسارة والاستعداد للفداء حتى النصر... وأما الجسمان فعموديان على القاعدة وإن كانت الأقدام في وضع مسير إلى أمام كأنما الحركة حركة دمى.. وأما البندقيتان فمحمولتان مشرعتين نظرياً ولكن وضعهما الأفقي أمام الأعين يجعلهما في وضع لا تدري معه أهو انطلاق إلى المعركة أم فراغ منها بصيحة الظفر! هذه الأوضاع الملتبسة كلها زادت الوجهين الأبلهين بلاهة. وجاء لون الغضار الكامد وبَدْلَتَا الشابين شبه العسكريتين فقطع الشك باليقين في إدراك السيد النحات، حامل الجائزة الأولى، عن المقاومة الشعبية والنحت المضبوط النسب جميعاً!

توقفت أمام منحوتة البلاهة هذه كأنما تحجرت، مثلما في حكاية ليشار كمال عن شخص نفثت فيه ساحرة سحرها فأحالته إلى تمثال من الصخر الصوان إلا رأسه.. وأما هو، النحات الرائد فقد زاده الوقوف في حضرتها حياة وكلامه تدفقاً وحرارة ولهجته ايماناً بأن صنيعه هذا إنما هو طرفته الكبرى Snchefdieuvre كما يقول الفرنسيون أو His Master piece كما علمني ابني أن الانكليز يسمونها.. أو ما نسميه في الشعر «بيت القصيد» وفي العمارة «حجر الزاوية»... واللهجة متناسبة مع الكل، لا تترك شكاً في أن صاحبها متشبع حتى وشك الاختناق بإيمانه بنفسه وأنه بلا مناجز. قال:

- من هو الفيلسوف الذي قال: خير لك أن تأتي متأخراً من ألا تأتي أبداً؟ أخيراً بدأ المسؤولون ينتبهون إلى أن نحاتاً حقيقياً يعيش في هذا البلد وهم لا يشعرون به، فمنحوه على هذه المنحوتة جائزة النحت الأولى وهم يوفدونه الآن إلى الخارج. هذه المنحوتة يا مولانا، مستوحاة من هموم الساعة: المقاومة الشعبية. أنا لا أهتم لمقاومة أو غير مقاومة. الفنان لا ينبغي له الاهتمام لغير فنه. ولكنهم «هم» يريدون!. إذن اشتغله يا ولد يا غسان نسباً مضبوطة، تشريحاً مضبوطاً، لا صرعات مستوردة ولا تأثر بأحد!خطر لي أن أسأله من «هم»؟ أن أستفهم عن المحكمين الأفاضل الذين ميزوه وقدروه حق قدره، «أهم» نحاتون أم موظفو جمعيات تعاونية، أم موظفو أرشيف في المعاشات، أم مديرون بشهادة سياسية تشهد بانتسابهم إلى جمعية المنتفعين من الحكم.. أي حكم؟

إذا كانوا - وهذا افتراض مستحيل نظراً للبينات الصارخة - من أهل الفن، فهل يرون رأيه في أن الملامح الصارخة بالاستلاب والانجذاب ملامح للجسارة والفداء والمقاومة؟ وكم كان عدد المتسابقين على جائزة النحت، أعني هل كان ثمة جائزة ثانية؟ وما هي مشروعات هؤلاء المتسابقين حتى ظفرت هذه بقصب السبق فكانت المجليّة حتى إن الوزارة أغدقت على صاحبها كل هذه الأعطيات؟.. ولكنني كبحت أسئلتي. لم أسأله حتى عن المواد التي يدرسونها في قسم النحت إذا كان من بينها مادة تدريس النحت، وأساطينه في أثينا وروما بدا صاحبنا أمام أسمائهم كأنما يسمعها للمرة الأولى! ولعله سمع أن النحاتين الكبار لا يصنعون «ماكيتاً» من الطين تمهيداً لنحته حجارة أو رخاماً أو برونزاً إلا بعد أن يقوموا بعشرات الدراسات رسماً له بالفحم كأن يرسموا لليد أو حركة القدم عشرات السكتشات كما ترى في متحف رودان مثلاً. أحد النحاتين الروس ممن عادوا من المهاجر أيام كنت أنا في موسكو اسمه «ارزا» كان يضيف إلى سكتشات الفحم تجارب على جذور الأشجار قبل أن يبدع تماثيله المتخذة كلها من هذه المادة وأهمها رأس ليف تولستوي.. وأما في منحت الأخ «المقاوم الشعبي» فلم أعثر على سكتش واحد بالفحم أو

الرصاص أو جذور الأشجار... أم أنه سمع عن ميكيل أنجلو العظيم الذي كان يعمل على المادة الخام مباشرة دونما ماكيت من غضار أو سكتشات بالفحم.. لا شيء إلا الإزميل والرخام!

شطحت أفكاري وتدافعت في كل اتجاه كالرياح.. تذكرت شكاة مستعرب روسي فرضوا عليه ترجمة ما أسمي «رواية» وهو لا رواية ولا غير رواية ولكن السياسة اقتضت ترجمة «آثار» كتاب عرب إلى الروسية لعرضها بين منجزات الخطة الخمسية على جبهه الفكر، فاختبر الروائي، صاحب «الآنتي - رواية» المذكورة لأنه يساري لا غير!إلام ينظرون إلينا، وننظر إلى أنفسنا، على أننا معوَّقون أو بدائيون من مجاهل الأمازون، أيش ما طلع مِنَّا خير وبركة.. وشيء أحسن من لا شيء كأننا قرود السرك المدربة؟!

وتركت المنحت الشاسع الخاوي، والأخر يقول لي وهو يطلع ورائي:

- أنا أشتغل المادة رأساً. أنا أنحت فقط نسباً مضبوطة، تشريح أصولي والـــ بدو أهلاً وسهلاً والـــ ما بدو الرزاق كريم.. ولكن قل لي.. أنا متأكد من أنك سررت، وأننا سنقرأ قريباً في الصحف، من هذا القلم السيال كلمتين ظريفتين عن هذا العامل ابن العاملة الذي شق طريقه بعرق الجبين إلى العلالي. على كل حال سأتشرف بالزيارة مرة أخرى لاستكمال دراسة مسألة الاتحاد السوفياتي والإقليم الجنوبي وأيهما أنفع النافع الله!

* * *

منصور إلهي

استوقفت سيارة أجرة من «المركز التجاري». قلت للسائق، باكستاني كهل، أنيس الوجه، بسام في غفلة طفولية:

- محطة الإذاعة.

وشفعتها بالترجمة الانكليزية، وإذ قرأت في وجهه حيرة حددت:

- ناحية مستشفى راشد.

وزيادة في الحرص، وحتى لا يذهب في خط مستقيم نحو باب التلفزيون رحت أقول له:

- شمال، يمين. خذ يمينك دائماً. استقم. اتجه الآن يميناً نحو سينما النصر. استقم.

عند باب الإذاعة تذكرت أن في محفظتي بضع رسائل مكتملة الطوابع فقلت للسائق:

- استمر من فضلك حتى مدخل المستشفى لأني أود أن أرمي هذه الرسائل في صندوق الرسائل هناك، لأن إدارة البريد التي بح قلمي وأنا أشكو إليها خلو بنايتنا التي أسكنها في المركز التجاري مع مئات غيري من علبة بريد.. فلا توليني إلا أذنين من طين وعجين! أليست في رأيك مصيبة أيها الأخ الكريم؟

كان واضحاً أنه لم يفهم إلا كلمة «سيدا» (دغري) فامتثل ومضى بي إلى آخر الشارع ثم انعطف داخلاً وأنا أدله حتى بلغنا مطرح الصندوق فرجوته أن يتلطف - لأنه أصبى مني - برمي الرسائل فيه من دون أن يحيجني إلى النزول. نزل. دار قدام السيارة. اتجه نحو الصندوق. هنا وقفت

حمارته. عترستْ: حاول إدخال الرسائل في أعلى الواجهة الأمامية للصندوق. لم يعثر على الفتحة التي كانت مخبأة خلف غطاء من جنس معدن الصندوق المطلي بالأحمر حتى بدت الواجهة كلها سطحاً متجانساً مغلقاً للناظر العابر إليها. حاول إدخال الرزمة في الخاصرة اليمنى، اليسرى، من أسفل، من السطح. لا سبيل. سدا!.. أنزلت زجاج النافذة وقلت له: «فوق» وحددت «جدّام». لم يهتد قط. ظننت أن كلمة «فوق» هي التي أشكلت عليه فصححت:

فوك، كدام!

كان مستمراً في موقفه تحت الصندوق يده مبسوطة بالرسائل، ووجهة في حيرة مستطرفة طفلية. نزلت وأريته كيف يفتح الصندوق وترمى الرسائل فيه (لم أقل له إني تحيرت ذات مرة حيرته بعض الوقت لما ركبوا هذا النوع من الصناديق!) وعدت أسأله: «ألا ترسل في العادة مكاتيب إلى أهلك في باكستان؟» فاندلق علي مثل شلالات نياغارا، ولكنها نياغارا أوردية، إلى أن أوصلني إلى باب الإذاعة. لعله قال إنه أمي لا يقرأ ولا يكتب وإنه يبعث رسائله إلى زوجه الأمية في كاسيتات (حدست ذلك من حركة دائرية من يده تمثل شيئاً كالأسطوانة) وقلت في نفسي: «هاك إنساناً»، كل قسمة من وجهه تفيد الرضى عن الوجود والناس وحركة الأفلاك والكواكب و«السيارات».. ومع ذلك هو لا يعرف - ولا السيدة زوجه التي في الباكستان - أي نوع من أنواع القراءة أو الكتابة... فماذا حصل في الدنيا أو للدنيا؟ هل أصبح دخل نجيب محفوظ قد ربع المدرب زاغالوا أو مساعده قبل أن يُفَنَّشَا مجاملة لي؟ هل رقي العالم الثالث إلى مرتبة العالم الممتاز؟ هل كسدت سميرة توفيق أو أخوها وليد؟ هل كف العرب عن دعم الانتفاضة، ملحمة العصر الأولى، بالشجب والاستنكار والمقالات المكافأ عليها؟ وسألته:

- وات إز يور نيم ولك يا عين العم؟

هذه فهمها. أجاب: «اسم مالي. أنا منصور إلهي».

- عاشت الأسامي. لماذا أراك خجلاً من أنك لم تهتد إلى فتحة صندوق الرسائل؟ أنت في الأقل تحتال على أميتك ببعض إلمام بالتكنولوجيا الحديثة إذ

ترسل رسائل إلى السيدة زوجك في كاسيتات، وتقود سيارة فيها أكثر من عشرين ساعة لرصد حركة البترول والحرارة وانفتاح الباب ونسيان السائق وضع حزام الأمان. وأما أنا فلا أحسن تشغيل المسجلة التي عند ابني، وضعيف حتى في قيادة الدراجة الهوائية... وبعد، يا منصور إلهي، هل أستطيع أن أزعم أني خير منك لأني قادر على أن أصك سمعك بمئة اسم أجنبي لمئة فيلسوف وشاعر وموسيقار ونحات ورسام وعالم؟ أم هل أستطيع الزهو عليك لأني أعرف القراءة والكتابة، شيئاً ما، وأخربش بين حين وآخر، شعراً مشدوداً من شعره وقصة تحتاج إلى عين الرضا ليقال إنها لا بأس بها، وأحاديث إذاعة تقفل بالقفل والمفتاح إذا صادف موعدها مع مباراة كرة قدم بين ناد سعودي من الدرجة الثانية ونظير له في الامارات؟.. المعرفة يا أخي «منصور» متوارية في مكان ما في اللانهاية. وأينما يقف الإنسان منها يعسُر عليه أن يزعم لآخر واقف وراءه: «أنا أقرب منك إلى ست البدور لأن معي فلك الرصد ورأس الشموط! لا أقرب ولا أبعد إذا كان الشوط بين اللانهايتين يا صديقي يا منصور إلهي!». وقلت له:

- أجرة المشوار من المركز التجاري إلى الإذاعة خمسة دراهم ورقاً أيها العزيز. فهاك سبعة، خمسة قطعة واحدة جديدة واثنتين معدنيين جديدين هما أيضاً كأنهما خارجان العشية من دار الضرب. خذ الكل. إن شاء الله تخرجه بالهناءة والسعادة والرسائل «المكيستة» إلى السيدة منصور الهي. ولكن أبق على هذه الابتسامة الراضية المرضية يطفح بها وجهك الطيب الأنيس. ودعها تنتقل عدواها إلي أنا الذي يعكر رضاي أقل الأشياء مع أن أخطرها كأنه لا يعنيني مما يضيف دليلاً على أن الإنسان: إما أحمق خلقة، وإما أشد حمقاً... وكان الله معك!

* * *

حكايات متفرقة يربط بينهن خيط

- ١ -

مرغريت وجاكي

كانتا رفيقتين على مقاعد الثانوي في دبلن طوال سنوات الدارسة، فلما تخرجتا افترقت سبيلاهما. مرغريت التي كانت منذ صغرها تهوى البيانو، تعاقدت مع فندق في البرتغال من الفنادق الفخمة على العزف في أحد مطاعمه، ثم عرض لها عقد مُغر هنا في دبي فتعاقدت. وأما جاكي، ابنة البلد، فقد انتسبت إلى معهد للسكرتاريا وتدبّرت ابنة خالة لها تعمل في إحدى الشركات عملاً فقدمت إلى المدينة قبل مرغريت ببضعة أشهر. جاكي لها صاحب مواطن، زميل لها في الشركة، دعاها ذات ليلة إلى الفندق الذي تعمل فيه مرغريت. تلاقت الرفيقتان القديمتان وتجددت المودَّة. زادها حميمية كونهما غريبتين. في تلك الليلة ذاتها، بعث صديق جاكي بناء على طلبها، بكأس من الشمبانيا لمرغريت. بين فترتي عزف حملت هذه كأسها. قالت:

- سأشرب كأسي معكما ولكن إياك أن تتصرفي. برنامج عزفي ينْتهي في منتصف الليل حين آتيك وأكون كليّ لك. والأحسن أن تنامي عندي. تختي عريض ومعي أحمال من الحكي. هل تتصورين منذ متى لم نتلاق!

وقال الفتى المواطن لجاكي: «أنا مضطر للانصراف. ابقي أنت إذا شئت».

عند منتصف الليل أغلقت مرغريت البيانو وهرعت إلى مائدة جاكي. بدأتا باستعراض راكض لسيرورة حياتهما منذ افتراقهما. شربتا. حُلّت العقد كافة. قالت جاكي:

- أنت هنا منذ متى؟

قالت مرغريت: «منذ خمسة أسابيع».

- أنا مضى عليّ نحو سنة.

- عقدي ينتهي في نهاية العام ويعرضون عليّ تجديده حتى أيار من العام أي خمسة أشهر أخرى.

- أقبلي يا مرغريت. ليس كمثل هذا البلد. الغريب فيه ملك على عرشه. وأما الغريب الأنكلوساكسوني فمن صنف الأباطرة. لعلك توافقينني على الرغم من قصر عهدك بالبلد. ثقي بي: كلما طالت إقامتك ازداد تعلقك بفرادته وازددت تملكاً لمفاتيحه التي لا يسلمها في سرعة، مثل كل بلد مميّز ذي شخصية خاصة.

- والله يا جاكي أنا أوافقك. البلد مريح ومتفرّد. في قلب الصحراء، حيث الصيف فرن. النساء المواطنات أكثرهن يضعن البرقع مازلن. الرجال ما تزال معهم أخلاق بدوية لا تخلو من بعض العنف. وفي الوقت ذاته تدخلين أماكن مثل هذا الفندق فتجدين نفسك في قلب أوروبا، لا تلك الكادحة المحرومة المُدْقِعة، أوروبا التسمم والسرعة والتدنيق، وإنما أوروبا القصور وقاعات الروليت وبيارتز وكان ودوفيل. حتى الناس، أنت تصادفين إلى جانب البرقع والشيلة والغترة والعقال رجالاً أنيقين ونسوة مثقفات يصلحون أن يزينوا أي مجلس أرستقراطي في أرقى الدول المتحضّرة.

قالت جاكي: «هل صادفتك طرائف؟».

- كثيرة.

- مثلاً؟

- دعاني جماعة من بلد مجاور إلى كأس في إحدى فترات الاستراحة قبلت. كانوا في الألبسة الأوروبية، يتكلمون الإنكليزية جيداً، وبعضهم بلهجة أهل بلدنا تصوري! سررت جداً. هم كذلك. أنا عبّرت عن فرحتي بمزيد من التجويد في العزف والغناء. وأوصلتهم إلى النجوم لما عزفت لهم لحن أغنية

خليجية ذائعة يحبونها جداً كنت نقلت نوطتها من صديق يعمل في الإذاعة. هم أيضاً عبّروا عن فرحتهم لي بمزيد من السُّكرِ. لقد أحكموا طوقاً محكماً حولهم وحولي بقناني الشمبانيا والأنبذة الفاخرة والويسكي شيفاز سالوت على وجه الحصر وهو ما تعلمين غلاء وندرة.. وما إن انتهت السهرة ونزلت إلى غرفتي وبدأت أخلع فستاني الرسمي، حتى بدأ طرق على الباب، صاخب، مُلِحَ. من أصواتهم وصخبهم عرفت أنهم هم، فرفعت سماعة الهاتف واتصلت بالاستقبال...

قالت جاكي مهتمة: «وبعد، كيف انتهت الليلة؟».

قالت مرغريت: «الاستقبال اتصل بأمن الفندق. هذا دفع بعجزه عن القيام بأي شيء ضدهم لأن الإدارة لا تحبُّ الإساءة إلى نزلاء ينفقون إنفاق من يسك عملة. على كل حال قال الأمن إن الإدارة ستتصرف. ولا أدري ما فعلته. المهمُّ أنهم بعد خبط ولبط وتهديد لم أفهم غير لهجته. انصرفوا مع خيوط الفجر الأولى.

وضحكت الفتاة ملء ثغرها الصغير الذي قد يضيق بملعقة شاي، حتى ازداد الورد الذي في خدّيها ضراماً فأمسى كأنه يشع ويضوع، ومسدت شعرها الأحمر الأجعد خلْقة وهو في غير حاجة إلى تمسيد. كانت شديدة البضاضة في المواضعْ التي لا يغزوها النمش كما في بعض وجهها وذراعيها العبلتين. إنها أميل إلى السمن وهي تخاف ذلك وتقتصد في الطعام والشراب إذ لو تركت لنفسها العنان لسمنت سمناً قد لا يروح لها لأنها قصيرة مختصرة الساقين والفخذين. ولكن أي يدين؟ يدا عازفة بيانو موهوبة ولا أزيد.

وقالت ووجهها ما يزال متهللاً: «لعله المناخ أو ماء البلد. ذلك أن الأمر لا يقتصر على أهل المنطقة: مدير الفندق نفسه وهو أوروبي حفي لساني عن شكوى غرفتي. غرفة ضيقة كأنها إنما صممت للخدم. وكان كل مرة يعدني ويستنظرني أسبوعين أو ثلاثة في الكثير. ذات صباح، أفقت مبكرة على غير عادتي وخطر لي أن أخرج في نزهة على ضفاف الخور. ما إن أغلقت باب غرفتي واتجهت نحو السلّم حتى رأيت المدير نفسه خارجاً من غرفة زميلتي عازفة الغيثار الانكليزي في المطعم المجاور، وهو طري مثل

برعم مروي. في المساء ذاته منحها، لا غرفة أوسع، بل «سويت»، جناح... مع أن غرفتها في الأصل خير من غرفتي وعزفها وغناءها أقل بكثير، هل تعلمين ما كان ردُّ فعلي؟ غلبني الضحك! أنا لا أبرئ نفسي ولكنني لا أبيعها حتى بفندق!

قالت جاكي: «معنى هذا أنك تستلطفين الجو عموماً وأنك لا بد مجددة عقد عملك حتى أيار من العام القادم؟

قالت مرغريت: «والله يا جاكي أنا حائرة: الجوُّ كما قلت، مريح، لذيذ متعددة تنويعاته وألوانه ونماذجه. ولعل هذا أمر يغري كاتباً أكثر من إغرائه عازفاً ومطرباً.

- يعني؟

- يعني يجب أن أقول لك شيئاً وأرجو ألاَّ تري فيه ميلاناً مع الغرور الذي قد يلازم أهل الفن. أنا أنفر من الاحتراف. والفنان الذي يحترف الفنّ ينتهي. ولذلك أفكّر في السفر إلى بوسطن لاستكمال دراستي الموسيقية الناقصة.

- الأجر حسن؟

- جداً.

- مثلاً كم تقبضين.

- نحو ألفي دولار مع السكن والطعام.

- هذه صفقة لا يُفرط فيها بسهولة.

كانت جاكي لا تقبض إلا نحواً من ألف مع تعويض السكن.

قالت مرغريت: «وأنت؟».

- أنا ألحق أربعة الاف.

- دولار؟

- أنت تمزحين... درهم. ولكنه كاف فأنا أسكن مع ابنة خالتي كارول وقد اشتريت الأسبوع الماضي سيارة.

- طيب، احكي الآن عن نفسك. ما أشد ما أنا أنانية. كدت استأثر بالحديث كله طوال الجلسة. احكي، قولي كل شيء.

- تستطيعين أن تقولي إني سعيدة. هل يُصَدَّق أن يدفع مبلغ أربعة آلاف درهم، أي نحو من ألف باوند لسكرتيرة لم تكمل حتى ستة أشهر في معهد السكرتاريا يعني راتب مهندس من الدرجة الأولى في بريطانيا!

وتضاحكت جاكي جذلي: «وتستطيعين أن تقولي إني لا أكاد أمدُّ يدي إلى محفظة نقودي إلا لكي أقبض. السيارة ذاتها هدية من هذا الشاب الذي كان معي هنا. والعشاق الآخرون ليسوا أقل منه.

- هل هم كثير؟ اغفري لي الفضول.

- هذا ما كنت أود أن أرويه لك، ولا سيما أنك تحبين مذ كنا في المدرسة، طرائف الحكايات، وأنا أحيا هذه الأيام قصة طريفة حقاً. ولكنني أجيب بادئ الأمر عن سؤالك: هل العشاق كثير؟ إنهم ليسوا كثيراً وحسب، ولكنهم كل أحد، كل أهل الشركة. من رئيس الادارة إلى المدير العام، إلى الضارب على الآلة، زميلي في الغرفة إلى الفراش الهندي. كلهم عشاق معاميد وما فيهم أحد، متزوجاً كان أو أعزب إلا خطبني همساً معرباً عن استعداده للجهر في حال موافقتي... وأكذب عليك إذا ادّعيت هذا الشرف لي وحدي: ابنة خالتي كارول برغم كونها متزوجة، كلاريسا تومبسون، إليانور كيلد، سعاد زهدي، سامية عبد الفتاح... لم تكسد أي واحدة منا في سوق هؤلاء العشاق الأبديين. العشاق بالقوة إذا شئت مهما تكن أعمارهم وأوضاعهم الاجتماعية في البداية لا أنكر أني ظننتني هدفهم الأوحد، أنهم يجتذبهم في جسدي الذي يمكن أن يقال إنه المثل الأعلى للجمال الجسماني الشرقي. الصدر النافر المتراقص لكل حركة من الجسد، الكفل المؤكَّم الرجراج، لون بين البياض والسمرة والحمرة تصنعه، لنا نحن، شمس الشواطئ ويسمونه في لغتهم «اللَّعَس» هذه الكلمة علمنيها رجل أشيب، يقول الشعر، مقبل على الحياة مستبشر أبداً، سأحكي لك حكايته بعد قليل.. ولكني لم ألبث أن تبينت أني كنت واهمة وأن كل امرأة، فتاة، عانس - ولا سيما إذا كانت أجنبية - معشوقةٌ

حتى التدلُّه! إحدى زميلاتي ضاحكت رجلاً متزوجاً من أحد الأقطار العربية ويعمل هنا. هذا الرجل يهيم حبّــاً بزوجه وأطفاله الستة (هؤلاء يحبون كثرة الأطفال على نحو مرضي لا أجد له تعليلاً، ربما لأنهم في حروب مستمرة بعضهم مع بعض!) زميلتي هذه مرحة وضحوك ولكنها مع هذا الرجل الذي يعمل معها في قسم واحد زادته مَرَاحاً وأغدقت عليه جذلها ومراحها طوال أيام. ولم تكن تتورّع عن رواية النكات المملحة له وهي تحبُّ هذا وتضمِّنه أحاديثها دائماً.. وإذا هي تفاجأ به ذات صباح - وهما وحدهما في المكتب - يمدُّ يده، هكذا، خبط لزق إلى ما تحت فستانها من ألبسة داخلية ويحاول أن... قالت لي الزميلة فيما بعد إنها ذُهلت أكثر شيء من نظرات عينيه الجارحة الشرهة لما همّ بها!.

وضحكتا كأنهما عصفورتان تزقزقان لنجوم الصباح. جاكي كانت هي أيضاً صغيرة الفم والأنف، عذبة الملامح، هادئة قسمات الوجه فيها شيء لا يسمى من الجاذبية الحسية والفتنة، شيء لا تستطيع تحديد مصدر الجذب فيه. وكانت مثلما وصفت نفسها مؤكمة حتى ولو لبست فساتين مما تلبس الحبالى في أشهرهن الأخيرة كانت فساتينها أبداً مشمورة، ولكنها - ربما لشعور بالنقص - بالغت في تصوير تكوُّر صدرها. كان صغيراً مثل بنت في بداية كعوب نهدها. قالت:

- وأما كهلي العامل في قسم الترجمة فعلى عكس هؤلاء الجوعى المنهومين على نحو عضال إلى الجنس، حتى الاستماتة والتوقع. كان هذا متشرداً حتى في عمله الوظيفي: لم تعرف الادارة ماذا تصنع به فتدبرت له مكتباً وضع عند مدخل غرفة المحاسبة. لعله أن يكون تجاوز الستين. يستخدم زوجين من النظارات للبعيد ومثلهما للقراءة والكتابة وهو ما يكبُّ عليه طوال وقت الدوام ما عدا اللحظات التي أدخل فيها على رئيس المحاسبة المكتب لأمر ما. حينئذ يسارع إلى وضع نظارتي البعيد. ويخالسني النظر على استحياء في دخولي وفي أثناء وقوفي للتحدث مع رئيس الغرفة وحتى خروجي... إنه يلجأ إلى حيل صبيانية مكشوفة غاية في السذاجة، كأن يحك،

بيده اليمنى، خدَّه الأيسر مما يضطره إلى الالتفات نحوي وأنا منصرفة.. وقد نلتقي على السلّم فأبادره «بصباح الخير» ناعمة يجيب عنها وعيناه إلى الأرض ولكنه ما إن أبتعد عنه صاعدة أو نازلة حتى يلتفت، ظنّـــــاً منه أني لا أنتبه إليه، فيطيل النظر إلى ظهري... في المدة الأخيرة لاحظت أن رئيس الغرفة يكثر من استدعائي بالهاتف ولا أكاد أدخل وتبدأ لُعَبُ الشيخ الشاعر حتى يتبادل الرئيس وموظفوه الآخرون نظرات جذلى تكاد تنفجر ضحكات مدوية..

وأطلقت جاكي ضحكة عريضة وقالت:

- موظفو القسم هؤلاء أشربوا فتاة سمراء ساذجة من قسم اللوازم مقلباً يميت من الضحك. سألها أحدهم همساً: «ألم تلاحظي أن زميلنا الشيخ الشائب يستبدل نظارتيه بأخريين كلما دخلت؟» قالت: بلى، لماذا؟» قال: «النظارتان اللتان يضعهما على عينيه وقت دخولك تتيحان له رؤيتك عارية مثلما خلقك ربك!» صرخت الفتاة المسكينة مروّعة: «الضلالي» وحرمت على نفسها دخول مكتبه!

بعد موجة مستجدة من الضحك سألت مرغريت:

- أنت قلت إنه في نحو الستين؟

- ربما أكثر، ربما أقل ما يدريني!

- هل يتكلم الانكليزية؟

- سيئاً. ولكنه يتقن الفرنسية على ما قالت لي كارول. وقالت لي إنه درس في باريس.

- سمين بعض الشيء؟

- نعم.

هتفت مرغريت منتصرة:

- إنه هو بابا.

- بابا؟

- مؤكد. لا يمكن أن يكون إلاَّ إياه، بابا فريد!

- كيف عرفت؟

- عرفني به أحد أجلاس المطعم، مواطن يريدني منذ مدة. قال لي إنه شاعر وسبق له أن كان مدرّساً للغة العربية. أبديت رغبتي في دراسة هذه اللغة لما تعلمينه من محبتي اللغات الأجنبية وإلمامي بالفرنسية والبرتغالية ولغتنا القومية الغيليك طبعاً.

- أعلم: وفي العربية بعض الحروف التي تتشابه وحروف غيليكية غير موجودة في الانكليزية أي، وبعد؟

- دعاني إلى بيتهم لفكرة تعليمي. ذهبت. جُنَّ لما قبلته على وجنتيه. قبل يديّ الاثنتين وجهاً وقـــفا ودعاني إلى الجلوس في حضنه قال: كما تفعل ابنتي. ولما بدأ الدرس كان يصغي إليّ أكثر مما يتكلم أو يعلم ويكاد يأكلني بعينيه اللتين تغزلان من خلف نظارتيه.قالت جاكي ضاحكة: «أي نظارتين؟».

وضحكتا. قالت جاكي: «وبعد؟».

- عشقت ابنه في مثل سني، ويجيد الانكليزية، حار القلب، خفيف الظل، عازف غيتار لا بأس به. سخي، انظري ما أهدي إليّ منذ الأسبوع الأول لتعارفنا.

ومدت يدها إلى جيدها وأبرزت طوقاً من الذهب واسطته قلب كتب في وسطه شيء بالعربية.

- هذا اسمي بالعربية، انظري، هذه ميم عندهم.

- ودروس العربية؟

- أخذت درسين فقط. أكملي لي قصتك بعد.

- كادت تنتهي. ظللنا عند ذلك الحد. ولكنّ نظرات موظفي المحاسبة الضاحكة كلّما دخلت مكتبهم كانت تثير فضولي. ذات صباح، اغتنمت فرصة وجود رئيس المحاسبة وحده في الحجرة وكونه في مزاج مؤاتٍ فسألته عما

يبعث الجذل بين موظفيه كل مرة أدخل فيها عليهم. ضحك وقال لي: «إذن أنت لا تعلمين أن عمّنا الشيخ المترجم عاشق لك غارق حتى شحمتي الأذنين في هواك؟ لقد خانقنا لأننا رفضنا أن نضع له مكتبه في حيث يستطيع أن يلمحك في غُدوك ورواحك. ولم يطب خاطره إلاّ بعد أن وعدناه بالإكثار من استدعائك فجن من الفرح و... الرضى!».

- أنا، قبل أن تكشفني تصرفاتي متعلقةً بابنه نظم لي بضع قصائد غزل مدعياً أنه نظمها لألحنها وأعزفها على البيانو.

قالت جاكي: «بالله عليك؟».

- أي بالله وترجمها إلى الفرنسية ولكن فرنسيتي أسوأ من أن أستطيع الغوص على كل ما فيها من المعاني، لا بد أنها فريدة. تبيّن لي ذلك بالحدس أكثر من الإدراك والفهم الأتم. لَم استغربت؟

- لأنّ رئيس المحاسبة قال لي إنه ينظم لي أنا أيضاً كلّ يوم تقريباً ووعدني بترجمة بعضها إلى الانكليزية، ولكن الخبيث ألمح إلى أنه «يخجل» من نقل أكثرها لأنها - على حد قوله - تكاد تكون من نظم أناس في مثل سننا (يعني نفسه وإياي!)صبوة وحسية!

وعادتا تضحكان مثل عصفورتين شاقتهما الزقزقة لصباح ربيعي وليد!

قالت مرغريت وهما تنهضان: «تعرفت عنده بشاب يعمل معه اسمه أيمن. أوصلني إلى الفندق بسيارة يابانية مقرقعة نافذتها الخلفية ملزقة بورق..» قالت جاكي: «هذا اسمه أيمن عوض أليس طويلاً، ضيق الجبهة خجولاً؟» قالت مرغريت: «تماماً» قالت جاكي. «وطلب منك موعداً!» قالت مرغريت: «لم يشذ عن القاعدة!».

وعاودهما الجذل...

* * *

- ٢ -

فوفو وأخوها دودو

لم تكن السيدة «فريحة» واقعة في حقل رمي «أيمن» رفيقها في المكتب. فهي أولاَ متزوجة ولها ولدان صغيران. وهو، وإن كان مسكوناً بالأطياف المعرّاة للفتيات الفيليبينيات والسيرلنكيات، يؤثر أن يسدّد رمياته إلى فتيات عازبات كما فعل حتى الآن مع عوازب الشركة التي يعمل بها وفريحة، كافة، سواء أكنّ أجنبيات أم وافدات عربيات أو مواطنات. وقد يقع له أن يتصوّر تصوُّراً حاداً أنه خطب إحدى هؤلاء، مهما تكن منيعة، وألبسها خاتم الخطبة واتفقا حتى على لون غرفة النوم وماركة الغسالة، وإذا هو يراها تمازح زميلاً من الزملاء في شيء من التحرر فيفور في قلبه غضب كظيم يعقد ما بين حاجبيه ويملأ نفسه بالمرارة والإحساس بأنه قد غُدر به فيقاطعها ويتجنّبها حتى بتحية الصباح التي تُفلت في رخاوة من رؤوس الشفتين، من قبيل فضّ العتب أو العادة... وهو يتخذ هذه الإجراءات من جانب واحد من غير أن يعلم أحد أو الطرف الآخر سبب حرده وتقطيبه وانكماشه... من جهة أخرى، السيدة فريحة امرأة ديِّنة صيِّنة تضع الحجاب الشرعي الذي لا يبدي غير وجهها ويديها حتى المعصمين، على الرغم من أن الفتيات الانكليزيات من حولها لا يأتين إلى الشركة إلا في فساتين تكاد تكشف عن صدورهن وأنصاف أفخاذهن أحياناً. وأما ثوب فريحة فيكنِّس الموكيت وراءها وقد تتعثر به فلا تأبه به مرضاة لله. ومع ذلك لما قالت لأيمن في دلال.

- أيمن، أنا عندي خبر لك بمليون درهم.

اهتم للأمر وسألها ملهوفاً:

- ما هو سيدة فريحة؟

- تصور أن أخي «دودو» جاء لزيارتنا..

- دودو!

- أقصد عبد الودود. هذا دلوع العيلة كلّها. أنت تعلم هو آخر العنقود.

وفكّر أيمن في سرعة فضائية: لماذا «تزفّ» إليه هو دون غيره هذه «البشارة»؟ وتدافعت على ذهنه قصص رواها له ثقات عن أزواج محجبات، ديّنات صيّنيات يتمسكن باللباس الشرعي ويقبضن عليه قبضهن على دينهن، وقد لا يُظهرن حتى وجوههن ومعاصمهن، سيدات لهن أولاد صغار من أزواجهن اللواتي لا يبعنهم بمال الدنيا كلها... ومع ذلك أقمن علاقات غرامية مع عشاق كادوا يخربون بيوتهن ويفصلونهن عن بيوتهن لولا لطف الله ثم وملال هؤلاء العشاق المعاميد.

قال أيمن متحمساً: بالله عليك؟

- والله.

- أعطيني عنوان بيتك حالاً.

قالت فريحة في دلّ أشد: «نحن لا نغيّر بيتنا يا سيد أيمن. ما أضعف ذاكرتك يا عجوز!».

سُرَّ من أعماق قلبه.. «يا عجوز» هذه لا تقولها فريحة لأي من فتيان الشركة أبداً. قال:

- ألم تغيِّروه؟

- لا، لم نُعَزّل منه. لا يزال عند دوار الساعة حيث أوصلتني ومحمود من المطار في العام الماضي كثّر الله خيرك. ولكن لماذا تسأل؟

- حتى آتي اليوم العصر وآخذ دودو وأفرجه على المدينة، هذا حقُّه علينا. هو ضيفنا.

- أنا لا أريد أن أثقل عليك. أنت دائماً خيرك طامرنا.

- لا تقولي هذا. أنت تعلمين أني أريد خدمة لك. وهو أخوك أليس أخاك. من جهة أخرى لا تعودي إلى ذكر ما قدمته لك العام الماضي. هذا شيء لا يذكر!

وتذكّر. بل هو لم ينس قط: أسبوع كامل، سبعة أيام، بعد تلك المنّة جعل الزوجان فريحة، ومحمود يلحّان عليه أن يتغذّى ويتعشّى عندهما كل يوم، ذاق أطباقاً لم تخطر على باله من قبل. الملوخية بالأرانب وحدها أكلها مرتين. كل هذا الخير جاء بعد دهر من الفلافل في السوق والبيض المسلوق والفول المدمس في كافتريا الشركة... ولكن، مثلما فتح ذلك الكنز الشهيُّ له على حين غرة، أوصد فجاءة على نحو كتيم، واعجبي!

قالت فريحة: «أحبهم».

- إذن قولي له ألاّ يخرج من البيت هذا المساء.

- لساني عاجز عن الشكر.

- فريحة!

- خلص سكتٌّ!

كان دودو في سن العشرين، أي أنه يصغر فريحة (وأيمن أيضاً) بنحو خمس سنوات، ويظهر أنه من فتيان الديسكو والسلسلة الذهبية في المعصم والطوق البلاتيني المتدلي حتى منتصف الصدر المفتوح.

وقالت لأيمن وهي تودعهما بعد أن شرب كاسين من الشاي.

- توصّ يا أيمن بدودو. هذا حياتنا.

كانت في ثوب البيت. لا عجب: أيمن زميل، والمرأة في بيتها لا ينبغي لها غطاء شرعي. أم ماذا؟ وقال أيمن وهو ينظر في فتحة صدر الفستان النضيرة:

- من عيني.

وتضاحك في غبطة وقليل من العصبية.

قاد سيارته اليابانية العتيقة على غير هدى. أراد أن يبدد الصمت ويريح دودو من التصفير وعزف نتف من موسيقى الديسكو بفمه:

- أليست فظيعة كارثة تشالنجر؟

سأل دودو بريئاً: «تشاماذا؟».

أقفل أيمن فمه. قرر أن يكتفي بدور الدليل - السائق. قال الآخر:

- ألا تذهب إلى الديسكو يا أيمن؟

بعد جولة عبر خلالها جسري المكتوم والفرهود أخذه إلى بيته في الراشدية، غرفة بمنافعها مقتطعة من بيت عربي قديم. ما إن دخل دودو الغرفة حتى هتف منتصراً:

- تلفون!

قال أيمن متساخياً: «هل تريد رقماً معيناً في دبي؟».

قال دودو: «أهو مباشر؟».

- طبيعي.

- اطلب لي إذن مصر. أريد أن أعمل مفاجأة لنونو.

- نونو!

- أيوه، ناريمان خطيبتي. أنا أحبها موت.

قال أيمن لنفسه: «يخرب بيتك، مصر ضربة واحدة!» ومع ذلك سأل دودو الرقم وركبه بعد أن بدأ برمز مصر الهاتفي. لما سمع كلمة «ألو» يقولها صوت خشن هرم على الطرف الآخر من الخط سلّم السماعة لعبد الودود وانصرف إلى أقصى الغرفة، حيث الشطر المخصص مطبخاً وتفصله عن باقي الغرفة ستارة من القماش المخرّم، وراح يتشاغل، من قبيل التهذيب بإعداد الشاي، وهلل دودو:

- ألو عمي، أنا عبدو. نعم عبد الودود... الله يسلمك، كيف حالك عمو.. وحماتي؟ الله يحفظك.

وراح يسهب في شرح أشواقه وأن عمه وحماته «وَحْشَاه موت» ولم ينس أن يصف له رحلته الهينة في الطائرة ومدينة دبي «ونيلها» الظريف الذي يشطرها إلى مدينتين اثنتين. وأكد له أن المدينة فيها بنايات عالية وسيارات في حين أنه كان يظنها تعج بالجمال والحمير ها، ها، هو... (وقفة

وضجة في السماعة تدلان على أن الطرف الآخر من الخط مبسوط هو أيضاً يضحك ملء حلقه).. ثم جاء ذكر أسواق دبي التي لا ينقصها شيء كما أكدت له فوفو وكما سيتبيّن هو بنفسه بعد قليل.. لأنه «أخابرك الآن من عند زميل لفوفو من عمري، مهضوم أوي أوي»!

يبست يدا أيمن في الجانب الآخر من الستارة المخرّمة على إبريق الشاي الفارغ ما يزال، وتسمرت عيناه على ساعته الكوارتز التي اشتراها بمئة درهم مضبوطة على الثانية وفيها منبّه يرنّ كلّ ساعة: انقضت ست دقائق، لا، انقضى ثمانية وأربعون درهماً، ربما أكثر يا دلوع. جحش! أنا لست إلاّ شقفة جحش بأذنين طول الواحدة كيلو متر. شربت ألف مقلب من وراء حساباتي الخنفشارية وما تربيت. ولك يا حيوان، ما كان أغناك عن هذه الأريحية التي ركبتك هكذا مثل موت الفجاءة؟ سبع دقائق ونصف يا طالب الدبس، يا صاحب الخطط الجهنمية، هاك ما جرّته عليك آفتك التي لا شفاء لك منها، آفة الاحلام المستحيلة! وسمع الآخر يقول:

- اعطني امرأة عمي... ليه! هي وناريمان عند الجيران... عند أي جيران؟ انده لهما من فضل حضرتك.. أنا منتظر، لن أقفل الخط.

صمت.. عبد الودود يصفر لحناً من ألحان الديسكو: آي ام يورمان. لجورج مايكل. إنه الآن متمدد على السرير المرتّب بعناية، في وضع مريح، من غير أن يخلع حذاءه. تماماً كما في الأفلام الأجنبية. ولما طال انتظاره ثلاث دقائق أخرى ظنّهن أيمن ثلاثة أيام صوم دونما إفطار أو سحور. ومدّ دودو يده إلى جراب ساقه اليمنى وأخرج علبة دخان «كينت» ومن جيب القميص المفتوح الصدر نسل قداحة بحركة عريضة وأشعل سيكارة وسحب سحبة مترفة.

عند الجيران! ماذا لو كان هؤلاء جيران البناية المجاورة أو المواجهة، ويسكنون، زيادة في الإيجاع، في الطابق العاشر والبناية بغير مصعد؟ وغامت عينا أيمن، ولكن هذا لم يَحُلْ بينه وبين أن يرى في وضوح، رأي العين، برغم عينيه المغمضتين، شبحاً يسدّ عليه الأفق، يلبس بدلة زرقاء ويضع

عمرة على رأسه وفي يده رول ضخم مما تطبع عليه الصحف ويوضع أمام الآلة الطابعة، آلة السحب، الضخمة، في رأس الرول المكرور بعض الشيء كتب «فاتورة أيمن.. المشترك رقم...».

وانتفض منتزعاً نفسه من كابوس اليقظة ذاك. نظر في ساعته يا ويلي: اثنتا عشرة دقيقة، يعني مضى ستة وتسعون درهماً... كاد يُجَنُّ. ما العمل يا ربي دخيلك؟ كان فكره مسدوداً كأنما بصخور من الصوان قطعة واحدة مما توصد به المغاور. ما من فكرة تندّ عن هذا الفكر كالرحم العاقر تحمل إليه نسمة أمل بخلاص من هذه الداهية الدهماء، يوم مات أبوه كان أهون. الموت أرحم وحق كتاب الله.

وعاد صوت دودو يلعلع في شبه زغردة.

- نونو، أنا دودو. وحشتيني يا حبيبتي وحشتيني مو....

أربع عشرة، يعني مئة واثنين وثلاثين. الآن بدأ الحكي في الغرام يا حيوان. لا بد أن الأخ المائع سيظلُّ منشباً أظفاره في السماعة مئة واثنين وثلاثين درهماً آخر في الأقل. أحسَّ أنه يغرق، يغرق حتى الموت التام، الزؤام ولكن من عزة الروح رفض فيه شيء الاستسلام. الله سبحانه وتعالى كبير. جاءه الخلاص في طرفة عين إذ لمح المقص الذي كان نسيه على المصطبة قرب البريموس. هتف بينه وبين نفسه: «ها هو برُّ الأمان!» ووثب عليه واندفع منسلاً خارج البيت حيث شريط الهاتف يتسلق عضادة الباب ليدخل من زاويته اليسرى... وقصّ الشريط بقوة!

وعاد إلى البيت خفيفاً كأنّه تخلّص من حمل رصاص، وجهه متهلل ينضح بعرق العافية والارتياح. وفيما هو متجّه نحو الغرفة بخطى وئيدة تناهى إليه صراخ دودو:

- يا نونو! نونو، يا نونو. ناريمان ليه قطعت الخط.. نونو!

قال أيمن: «نونو في عينيك يا ابن الكلب أنت وأختك الآفة!».

* * *

- ٣ -

شهادة العم فريد

كانت مرغريت تتغذى عندنا اليوم. قدمت بعد أن كانت أختي قد أعدت الطعام وأكثره نباتي لأنهما، مرغريت وأختي، نباتيتان. وكانت مرغريت قد آذنتني هاتفياً، حوالي الظهر، بعزمها على المجيء، بعد أن كنت دعوت أيمن عوض - الذي لا يحتمل لوحة واحدة في مـــثل هـــذه الأمور المغذية - إلى الغداء عندي مثلما أفعل أكثر الأيام، ولا سيما عندما تكون نوبة ابني في الشغل ظهراً لأنه يستثقل دم أيمن ويكيل له أقذع الشتائم، وهو أيمن، لا يرفض ولا مرة. وأما اليوم فمرغريت ضيفتنا ولا أريد أن يشاركني أحد فرحة وجودها. وأما ابني فلا أعتبره أحداً. إن له من سنواته الثلاث والعشرين ومن إران هذه السن وصلفها وتَشَرُّبه ذاته لَمَا يجعله أكثر انشغالاً بنفسه عن رفيقته حتى ولو كان لها عاشقاً. وهي، لأنها تعمل حتى منتصف الليل بموجب العقد بينها وبين إدارة الفندق، وحتى الثالثة أو الرابعة صباحاً إذا كان السمار الطاعمون من أهل ايرلندا، بلدها، إذ يتشبثون بها لتغني لهم أغنيات ايرلندية يسمعونها بتجاوب عارم، يشاركون فيها، يشربون ويبكون.. أقول: وهي متى تأت للغداء فكأنها إنما جاءت للفطور قد شبعت نوماً ونضرت كشجرة ورد هضبها ندى الصباح إلا فلول نعاس في عينيها الصغيرتين الزرقاوين على زمرد. وهي لا ترن الجرس لأن الباب مفتوح دائماً تدفعه وتدخل على رؤوس أصابعها وأكون أنا، ظهري إلى الباب، أتسلى بالفرجة على مسلسل الساعة الواحدة من محطة أبو ظبي، فتدلف من ورائي وتضع أنفها وشفتيها المحمرتين خلقة أعلى من أي برعم وردة دمشقية في الدنيا.. وألتفت لأرى، من خلال فتحة البلوزة العريضة، نهديها اللعوبين الناصعين

المشربين بلون الفجر وتقبلني على خدي فأمد بوزي شبرين إلى الأمام مثلما يفعل الشامبانزي وأقبلها على هذا الخد وذاك وأنا أهتف بالفرنسية: «يا قلبي الصغير الحبيب».. وتضع محفظتها البيضاء المتثنية الجلد أينما اتفق وتقبل أختي التي تجلس عادة على المقعد الذي عن يساري ثم تتخذ مجلسها الذي لا يتغير على الكنبة عن يميني وأمامنا مائدة صغيرة (منضدة الوسط) ونبدأ الأكل والحديث وأنا أتشهاها على نحو مؤلم.

في البداية شرد ذهني إلى ما قبل ثلاثين سنة، أيام كنت أدهش لأثر الحديث الملون العذب المتصل في اجتذاب البنات، اللواتي أتعرف بهن في باريس أو موسكو أو حتى في دمشق، إلى شباكي. لم يكن يخطر لي على بال أن ما كان يلعب دوراً حاسماً في الحظوة التي كنت أتلقاها إنما هو شبابي، أسناني مثل اللؤلؤ ما فيهن واحدة محشوة أو ملبسة أو مقلوعة.. ليس فيهن كما هن الآن جسران متحركان، نصف طقم أسنان، أحدهما في الفك العلوي الأيمن والآخر في السفلي الأيسر، يشوهان لا النطق وحده ولكن الوجه كذلك علاوة على التشويهات الأخرى التي سببتها التجاعيد والذقن المزدوجة والعينان الواهنتان بنظارتيهما السميكتين... وهكذا، لما بدأت مرغريت تأتي أكثر من مرة في الأسبوع، تعاميت عما كان واضحاً من أسباب حميمة تمتد بينها وبين ابني، ابن جيلها وصباها، وقلت في نفسي: «ستكون لي. لا أتصور مخرجاً آخر لتباريحي المحرقة. وإذا كان لديه - هو - الشباب والرونق فأنا لدي اللسان الذي يخرج الحية من وكرها بإذن الله!» واغتنمت إحدى غيبات الولد في الشغل (حيث يعمل كل يوم في ميقات مختلف) وشننت عليها هجوماً مثل زخ المطر الموسمي: فتحت عدة جبهات مستخدماً فرنسية راقية أعلم أن لها عليها سحرين من جدة وتذكر لذيذ يحسهما كل من يعرف لغة أجنبية إلى جانب لغته الأم... وإمعاناً مني في تشهي الغلبة، كنت أقطع الجملة عند كلمة أنا متأكدة من أنها لا تعرفها، أو أن لها في ذهنها معنى غامضاً، فأسألها: «هل تعلمين ما معنى هذه؟» وهؤلاء لا يكذبون، فتقول لي: «لا، لا أعرف»، فأشرح لها تفصيلاً واستمتع بلمعة عينيها الغريبتين الذكيتين.. الثيمة الرئيسية في حديثي كانت شقشقة قديمة مكرورة عن حاجتنا نحن الفنانين إلى ري

الحس والنهل من لباناته حتى يتحول إلى شعر عندي وعزف عندها، ولا بد أنها أدركت إلى أين كنت أريد الوصول، وإن يكن انتباهها الشديد وتجاوبها مع كلمة تعرفها وسؤالها عن كل أخرى لا تعرفها، كل أولئك غرر بي، فتح أمامي باباً عرضه السماوات والأرض لدخول الأمل في أن أراها بين ذراعي... ولكن الباب لم يلبث حتى أوصد بضربة واحدة لما قالت لي في بساطة مؤسية إن صلتها بإبني قد قطعت شوطاً بعيداً وأنه - الملعون لم يقل لي - يقضي أيام عطلته في سريرها بالفندق!

وإذا كان في دمائنا، بتأثير الدين، أن نحجم عمن كن لأولادنا فقد ظللت أجد لذة فائقة، تكاد تكون جنسية، في محاورة مرغريت وقبلاتها الصغيرة «الأبوية» حتى بعد أن دعوتها مرة إلى القعود في حضني «كما تعمل ابنتي أميمة» ورفضت، لم أكف عن النظر إلى استدارات ردفيها وهي تنحني لتقبل أختي، وإلى صدرها وجذور نهديها اللذين من عسل وفل. ولكن، لم يكن أمامي ذلك اليوم سبيل للاعتذار من أيمن. هذا العجز، سمه الخجل إذا شئت، جعلني عصبياً بعض الشيء معه، ولكني لم ألبث أن قلت في نفسي مهدئاً: «خفف عن بغلتك يا رجل. هذا من عادته فور إجهازه على زبدية الزيتون (هو يحب الزيتون جداً ولا يستغني عنه مهما تكن ألوان الطعام على المائدة لذيذة) وطبقين أو ثلاثة من الأطعمة الأخرى؛ أن ينصرف حتى ولو لم ينته مسلسل الساعة الواحدة في تلفزيون أبو ظبي. فهو، الشهادة لله، ليس لديه ضعف أمام مثل هذه الأشياء...

وصلت مرغريت بعدنا بدقائق أمضاهن أيمن بمعاونة أختي في تهيئة المائدة. هو - أعترف - لا يفوت فرصة يستطيع أن يخدم فيها إلا انتهزها في حرارة متى ما كان مدعواً.

مرغريت تدخل. أنا على مقعدي. أيمن ينحني على المائدة الواطئة ليركز زبدية البامية وطبق الرز اللذين جلبهما من المطبخ. قبلات حارة. «يا قلبي الصغير الحبيب» مرغريت تعتدل من انحناءتها علي لتذهب إلى مجلسها المعهود على الكنبة وهي تسأل:

- أين سامر؟

- في الشغل.

أيمن كأنه مأخوذ، مسحور، ينظر إليها في إحداد، فمه مفغور على مصراعيه. كدت أطلق ضحكة ولكنني استدركت. داريتها بتقديمها إليه:

- مرغريت، بنتي الصغيرة.

وتقديمه إليها:

- زميلنا أيمن، تستطيعين الكلام معه بالانكليزية.

تمتم ما لم أفهمه. ربما: «لا، أنا...».

وعدت أثني عليها وأقول إنها معلمتي وعازفة البيانو التي لم أصادف مثل يديها الرشيقتين وفهمها الناضج للفن قط.

الغداء. كنت أتكلم كعادتي ولكني لا أترك أيمن يفلت لحظة واحدة من شباك نظراتي. كان يتصرف على نحو غريب يشبه فتاة جاء أهل فتى لخطبتها، أو تقليبها كما يقول أهل الشام. لم يرفع رأسه عن صحنه إلا استراقاً. لم يملأ صحنه حتى الشفة. لم ينه ربع زبدية الزيتون الصغيرة. تنهد عدة مرات. غام وجهه خلف سحابة أسى ثم لم يلبث أن أضاء. مرغريت لم يتغير في سلوكها شعرة. ولم تلتفت إليه ولا مرة حتى حينما نهض مستأذناً وأنا واثق من أن ربع بطنه لم يشبع تماماً. قلت:

- أنت رايح؟

- نعم عمو. يلزم شيء؟

التفت إلي مرغريت:

- بابا، أيمن يعتذر. عليه أن يذهب.

كانت مرغريت قد شبعت هي أيضاً لأنها على سمنها القليل تأكل كما ينقر العصفور. منيت النفس بجلسة حوار لذيذ لا واش فيها ولا رقيب بعد انصراف أيمن إلى بيته وانصراف أختي إلى غرفتها لتنام... وإذا أنا أفاجأ بمرغريت تسأله:

- معك سيارة؟

- نعم.

أراد أن ينكت: «ولكنها...». لم تدع له الفرصة. التفتت إلي:

- هل تغفر لي إذا استأذنت أنا أيضاً؟

- لماذا؟

- أنا لم أنم جيداً هذا الصباح. والليلة ليلة أحد. أنت تعلم. قد يمتد بنا السهر، ولا سيما إذا اندفق علينا طاعمون من أهل البلد.

- لا بأس عليك يا حبيبتي. أيمن يوصلك.

انصرفا وانصرفت أنا إلى السرير لأحلم قبل أن أنام رضي النفس مع ذلك.

في اليوم التالي لاحظت أن أيمن يكثر الدخول علينا في المكتب متذرعاً مرة بحاجته إلى أن أقرأ له خطوط بعض المترجمين، ومرة ليقول لي أنه طلب لي كأس شاي «على حسابه» من الكافتريا.. إلى أن عاد لا يستطيع صبراً. قال:

- ما هذه الملكة على عرشها؟

تجاهلت إشارته: «من هي»؟

- مرغريت، من غيرها؟

- أرأيت. ألست على صواب في حبي إياها أكثر من ابنتي أميمة؟ كيف رأيتها أنت؟

- قبل أن أجيب، اسمح أن أسألك: هل بينها وبين سامر شيء؟

- ربما. أنا من جهتي أكتفي منها بجانب البنوة الذي تهبنيه. ولكن لماذا تسأل؟

- لأنها كلمتني عن نفسها طوال المشوار وقالت لي إنها عازفة في مطعم الطابق العاشر ودعتني إلى المجيء لسماعها.

- اي رح. فرصة!

- ألا يزعل سامر إذا أقمت علاقة معها؟

- لا أظن. وافرض أنه زعل. لا تهتم. في مثل هذه الأمور يجب أن يسري ما يسري في الرياضة من روح فروسية؟

- هذا رأيك؟

- طبيعي. إذا كانت أحبته وعادت لا تحبه فما عساه أن يفعل؟ أهي جارية مشتراة من سوق النخاسة؟

أضاء وجهه: «طمأنتني!».

- وهل تنوي الرواح؟

- لقد كانت ايجابية جداً معي.

أنا من جهتي أكره هذه الكلمة «ايجابية» لا أعلم لماذا. قال:

- المطعم الذي تعمل فيه مرغريت رخيص؟

كدت ابتسم. قلت: «يعني احسب حسابك إذا أردت أن تأكل لك صحن طعام، لحم مشوي مثلاً، وتشرب كأس نبيذ، أن تدفع مثلما تقول مئتين، ثلاثمئة».

- ثلائمئة أيش؟

قالها مروعاً. قلت: «درهم».

- أعوذ بالله.

قلت له في نفسي: «إذن لا خطر على ابني سامر منك!».

ظهر اليوم ذاته، جاءت مرغريت. كانت مورقة. مؤكد أنها تعلم أن سامر في البيت، ومع هذا فقد أشرقت لما رأته. وطالت الجلسة إلى الطعام بعض الشيء وطال الحديث مشبهاً الزقزقة. وقبل أن أستأذن لأنام مخلصاً إياهما من عذول غير ثقيل ولكنه يظل عذولاً، سألت مرغريت:

- بابا، كيف رأيت أيمن؟

- أيمن؟ أنا لا أعرفه.

- الشاب الذي كان يتغذى معنا هنا أمس.

- نسيت.

- الذي أوصلك بسيارته إلى الفندق.

- هاه، تذكرت. مابه؟

- سألتك كيف وجدته؟

- لا بأس.

انصرفت وأنا أضحك في سري: أضيف اسم جديد إلى قائمة أيمن دون جوان المخطوبات غير الداريات!

*   *   *

الممثل

كان الممثل هابط الوجه يبث زميله شكواه. قال:

- هذه المسرحية التي كنت أحكي لك عنها نصح المؤلف، ذات نفسه، باختياري لبطولتها، منذ أن سلم مخطوطتها لإدارة المسرح قبل أكثر من ستة أشهر. أعطوها لأول مخرج، للسيد مجدي شيء لله. قرأها. دعانا إلى جلسة في النقابة. رحنا. بدأ يخطب فينا وينظر فيّ أنا من دون بقية الخلق. قال إن عليَّ أن أشتغلها على أساس سورمالي...

- على أساس شو؟

- سور لامي.

- سوريا لي يا فهيم.

- ضراب السخن، أأنا أعلم! بعد تلك الجلسة غط الخبر. استفهمنا. قالوا إن حضرته تخانق مع إدارة المسرح، قاموا سحبوها منه، وأعطوها لصاحبك عبد السميع. هذا قال إنها مسرح واقعي مئة بالمئة، حتى الراديو الموجود في الديكور كإكسسوار يجب أن يشترى من العتقيات التي في سوق الأروان. هيأنا نفسنا على هذا الأساس. درن! علق في مشاكل مع الإدارة والمؤلف وما أدري مع من لأنه طول عمره شرّاني... بلا طول سيرة سحبوها منه. كلفوا صاحبنا عمر تنفيذها. جينا وقصدُنا كله أن نخدم، أن نتعاون معه لأنه ابن حلال ودرويش وعلى الحديدة شروانا. قلنا، منذ الجلسة الأولى أردنا أن نضع الرجل في الصورة. حكينا له القصة من طق طق إلى السلام عليكم. وقلنا له: والله العظيم احترنا والله حيرنا. إن قلنا لهم إننا نشتغل في هذه الصنعة من أكثر من ثلاثين سنة واتركونا نشتغلها على طريقتنا... قالوا لنا: هذه طريقة

أكل عليها الدهر وشرب وأنتم جماعة توقفتم عن اللحاق بالتقدم. قلنا لهم: ما اختلفنا، هاتوا فصلوا لنا أنتم حتى نلبس نحن، يلعن أبونا إذا زللنا بحرف عن تعليماتكم. قولوا لنا كيف تريدوننا أن نشتغل هذا النص نشتغله على العين والراس... أما أن تتركونا معلقين مثل مال الوقف، فهذا، مثلما تقول، ثقيل شوية... احزر ايش كان جواب السيد عمر فلليني الذي كنا نظن أنه لا شوكة ولا ذباحة لا هم له إلا شقفة نص يخرجه.. اي سيدي، ما شفنا لك إياه إلا انطمز، أخذ على حاصله، وقام على طوله، وراح يضرب القرد بالدب، ورمى أوراق المسرحية على الطاولة، وقام تسلم باب الغرفة وهو يبربر بكلام ما فهمت منه رأسه من ذنبه إلا طاريش كلام:

«لا، الجوع أحسن... ألِلى هذه الدرجة هنت عليهم...» وشي من هذا القبيل... شو صار له؟ حتى الآن علمي علمك. ما أعلمه هو أن إدارة المسرح، على ما بلغني، تفكر في سحب البطولة مني وإعطائها إلى زميل آخر ما ودنا نحكي في حق أحد. الله يرزق كل أمة محمد. إي مالك علي يمين ما أنا زعلان. ربك هو الرزاق الكريم. يخلق الممثل ويخلق رزقه معه ولا يتخلى عن الطير الطاير في السما. ما يقرقني هو هذا السؤال: أيش صار في الدنيا حتى العين الهؤلاء الناس، الفنانين بلا قافية، كأنهم «بارود اهربوا»؟ يظهر أنهم بطروا يا أخ! يرحم أيام سينما القصر وقت كنا نمثل مسرحية من ثلاثة فصول بعشا تسقية!

قال هذا ونفخ نفخة كافية لإحراق بيدر!.

*   *   *

الباب

كانت حُصَّتُه من ميراث أبيه، كما أمر الشرع (أو كما حكم وجوه الضيعة، هو لا يدري) هذه الغرفة من اللَّبن. غرفة ذات نافذة صغيرة ضيِّقة زجاجها أغبش ولها قضبان حديدية مربعة... تطلُّ على الزقاق خلف الدار. السقف واطيء، من جذوع الحور وقطع من حصير العشب، مدهون بالسخام من أيام الأثفيّة والطبيخ على الحطب في قلب غرف النوم. بجدران حتى الأرض، وحتى داخل المكتبيات، مطليَّة بالكلس أو بما كان كلساً قبل أن يسيَّع هو أيضاً بالسواد. لا ننسى أن هذه الجدران، على ارتفاع قامة إنسان ربعة، مزنرة بإفريز يتخذ بمثابة رفرف لوضع ما شئت من الأشياء الصَّغيرة مثل البيض والجوارب والأمشاط والثوم والبصل ومرطبانات المخلّل والمملحة.

ولكن ليش نكران النعمة؟ طلع له مع الغرفة حصة في أرض الدار الواسعة المفلوحة المزروعة على عادة أهل القرى في الإفادة من أفنية دورهم: أيام المرحوم أبيه كانوا يزرعون الباحة كلها فولاً وأشجاراً مثمرة حيناً وأحياناً خضرة: خس، باذنجان، فجل، زهرة، سلق، سبانخ...

الغرفة لا بأس بها، سترة. وشمساتها ملاح، وسقفها ما هو عال فيحتاج إلى مدفاءة كبيرة. المدفأة التي طلعت له من ضمن الميراث المنقول كانت كافيه. وهي على الحطب لا تحيج إلى براميل للمازوت وتنكة ذات زنبوعة وزقّ واختفى المازوت وغلي.. ولكن حرقة القلب في هذه الغرفة أنها بغير باب لا خشبي ولا حديدي. لقد ورثها على عيبها، بستارة، بدل الباب، هي بساط منسوج من الخرق باخت ألوانها من قبل أن يبلغ هو سنّ التذكر. هذه الدنيا لا تكتمل مع مخلوق أبداً: غرفة مثل هذه ظريفة، على الأربعة

والعشرين. ولكنها يا حسرة بغير باب. لماذا كانت الأمور على هذا الشكل اللهم لا تخلنا نحكي كلمة كبيرة. ولكن المشكلة أنها لا تدفأ. أوقد من الحطب إن كنت توقد! لو أن لها باباً، باباً حقيقياً من الخشب، أي خشب حتى ولو كان كان خشب سحارات، له قفل ومفتاح مثل الخلق والعالم! ولكن من أين يجيء بالباب؟ صحيح أنه، قبل أن يبرك بركته المديدة هذه، اشتغل بعدة شغلات كان خلالها مستوراً، نستطيع أن نقول إنه كان مرمقاً. ولكنه لم يبلغ في أي يوم من الأيام حداً من «الترمق» يجعله قادراً على رفع قرشين على جنب لشراء باب، ولا سيما أن الخشب يهب يوماً عن يوم بنار. ومنذ تلك الأيام، أيام «الطقطقة» بعدة شغلات، أخذ قياس الباب بالشبر مرة وبخيط مصيص مرة أخرى. أخذ طوله، عرضه، ارتفاعه. وما يزال يحمل قياس الباب معه. ينقل خيطه المصيص كلما بدل سرواله. ومنذ البداية، استبعد فكرة شراء باب جديد، أصلاً، الباب الجديد، فوق كونه مكلفاً، لا يتناسب مع قدم الغرفة والبيت كله بل والحارة. ولماذا الباب الجديد وكل يوم تهدم إلى الأرض دار من هذه الدور القديمة لترتفع مكانها بنايات على الطراز الحديث؟ هذه الدور القديمة فيها أبواب تفي بالغرض، أبواب من كل مقاس، بعضها مشغول كأنه التنتنة آمنت بالله. وهي تباع بالبلاش ولا تنفع في البنايات الجديدة، ذلكم أنهم صاروا هذه الأيام يتفننون في صنع الأبواب من الخشب الإيطالي أو الزان أو - وهذا هو الزي الأشيع - من الألمنيوم الذي انتشرت محلات صنعه وتفصيله من الميدان إلى الشيخ محي الدين ومن المهاجرين إلى باب السلامة. ناهيك - لمن يؤثر الأبواب الخشب - بعشرات المخازن في الحريقة وشارع العابد، التي تبيع ألواناً لا أجمل ولا أنقى من مستلزمات الأبواب الجخّ كالمقابض والأكر، والمفصلات والتزيينات والشناشيل التي تطير العقل.

لماذا، بعد هذا العز كلّه لم يوفق بباب لغرفته؟ لماذا لم يوفق بعد هذا الشقاء كله في شيء؟ خذ مثلاً هذه المرأة التي عنده، زوجته بلا قافية. امرأة، من آخر ما عمّر الله لا لسانها مثل لساننا ولا رستاقها من رستاقنا. من عفرين أو إعزاز أو منبج، ما يُدريه! تجيء لزيارة أقارب لها في الضيعة. وما إن

تَحُلّ بها حتى يتلبس نساء الأسرة عفريت: العين التي تراهن رائحات جائيات و: «يا أبو أحمد عروس لقطة، هذه الغريبة. يا أبو أحمد آن أوان أن تشوف لك أحمد لا بالاسم. يا أبو أحمد لا تضيعها من يدك: لطافة، ذوق، إذعان. صحيح أن لسانها هكذا مثلما تقول معووج قليلاً، ولكنها، معها معها، تتعلم لساننا. وهي مقطوعة من شجرة لا وراها ولا قدامها، ودبة شغل. اي والله إذا قعدت على طشت الغسيل لا تقول إلاَّ عشر نسوان.. وخبزها التنوري...» حتى تزوج! هنا. جاك الموت يا تارك الصلاة: من الأسبوع الأول وهي دُبُرُها عند الرتا. قال أهلها. (طلع لها أهل زيادة في حرقة القلب!) لما زارتهم في بلدهم نصحوها بأيش يا حزرك؟ قال قالوا لها: أنت لازم لك أكل مغذي. كأنهم اكتشفوا المريخ! كأنها كانت في حاجة إلى طرق مشوار من ألف كيلو متر حتى يتعلّم ما يعلمه البُلهاء والبهائم.

فتناك بالحكي. في البداية عمل جنيناتياً في الشام (كان يذهب إليها بالدراجة) ولكن، مذ أخذ «هذه التي عندي» عاد لا يستطيع الغياب طويلاً عن البيت، فعمل في مصنع بلوك غير بعيد من البيت حيناً، وأجيراً زراعياً حيناً، إلى أن استقر على زراعة قطعة الأرض هذه التي في أرض الديار (الفناء) صار يزرع فيها أنواع الزهور، يبيعها هنا وهناك في محلات الأزهار في الشام ويتعيش منها. هذه كانت مورده الأوحد. ربك حميد أن الله تعالى لا ينسى أحداً من عبيده إذ ما عسى أن يحدث لولا أن يسر له هذا الحكيم الشامي، ابن الحلال من ظهر حلال، الذي فتح عيادة في الضيعة كثر الله من أمثاله وطوّل عمره. كلما مرضت «هذه التي عندي» تزنرت على باقة قرنفل لا يعدل بها كشفية وسنّدت هذه التي عندي ورحت بها إليه. كل مرّة يؤهل ويسهل وأهلين يا أبو خديجة وسهلين يا أبو أحمد وكيف حالك يا أم خديجة. خير إن شاء الله يا أختي خير.. وهات يا معاينة بقلب ورب. إي سيدي عليه الله يسلمه، جسّ مفصل لا يوقف عليه حكيم وحطة سمّاعة مثل مرّ النسيم. إي الإبرة التي يضربك إياها لا تكاد تحس بها سبحان الذي خلقه ما ألطفه! ليس هذا فقط ولكنه يجيب سماعة ثانية معها صندوق فيه زئبق الله العليم ويخرج من الصندوق رباطاً بني اللون ويلفه حول زند هذه التي عندي ويدس السماعة

الثانية ويأخذ ينفخ، يضغط من يده، إجاصة من المطاط والزئبق في الصندوق الواقع يطلع وينزل. قال إن هذا ميزان الضغط. ضغط ايش؟ استحيت أن أسأله. وبعد هذا يضربها ابرة على الأربعة والعشرين. ولكنّ النكتة أنه لا يكتب لها على دواء من عند صيدلي الضيعة، هذا الجبار أبو قرعة وكرش الذي العين ال تراه عابس والعياذ بالله مثل قتال الحسنين، وعندما يطلع حسابه كذا ليرة وفرنكين يزور المريض ويقول: «والفرنكين؟ الفرنكين قبل عشر الليرات. الفرنكين مربحنا. أنا أيضاً بدي أعيش» كأننا، عندما ندفع له فاتورة ناقصة فرنكين إننا نمنعه من العيش!

ولكن حزرك هذا العذاب وهذه المرمرة تفيد؟ تأخذ الدواء من عند الرجل ونروح إلى البيت: خذي الدواء في مواعيده يا بنت الناس. هكذا قال الحكيم. ولكن بنت الذين هي بنتهم ترفض أخذ الدواء إطلاقاً، ولا ملعقة. دواء مثل المسك، وجديد من طقة إبرته تحنن الرجل به علينا، إي تفوه عليه؟ عليها من الله ما تستحق ما أشد ما رأسها يابس. لا تقول إلا بغل شموس، البعيد! ليش لا تأخذين الدواء يا بنت الحلال؟ قال لأنه بالبلاش لا ينفع لا للخل ولا للخردل. معلوم، أنا سعري عندك سعر الكلاش، لا قيمة ولا مقدار إن مت أو عشت... ولا يقف ركوبها رأسها عند هذا الحدّ: انها ترفض ارضاع الصغيرة، طفلة وحيدة مسكينة وجاءتنا على عدم، حلوة مثل الصلاة علي النبي. وترفض أن تغير لها. وترفض أن تمدّ يدها إليها ولو فحمت من البكاء.. برداية يا حكيم تخرج الدين من الصدر يا حكيم. مجنونة، ديني على حرام مجنونة رسمية!

- قمت أنت الله يسامحك صبّغت لها جسدها منذ متى وأنت تضربها على هذا الشكل يا منظوم؟

- والله، لي صديق شروى احسانك يعمل في مستشفى ابن سينا شية المجانين. حكيت له حكايتها. قام قال لي: ما لك غير نربيش الماء. هذا أحسن دواء. لا يخرم. موصوف لحالات من هذا النوع. نحن لا نستعمل غيره عندنا في المستشفى... وهكذا تركناها نصف ميتة في البيت.

- هذا حرام يا أبو خديجة. وأنا أعرفك.. رجل طيب، معدل.

- والله يا حكيم مثلما تفضلت جسدها مصبغ من فرقها إلى قدمها الله يلعن الشيطان.

- طيب الآن، بعد أن تنتهي العيادة أذهب معك فأكشف عليها. ما هذا الذي وضعته هناك؟

- شيء ما هو من قيمتك يا حكيم، عرقين قرنفل.

- طيب، أنا أقبلها ولكنها كبيرة جداً. ما عساي أن أصنع بكل هذا القرنفل؟ اعطني عرقين أضعهما في هذه المزهرية الصغيرة هنا على المكتب واحمل الباقي تسبَّبْ به.

- باطل يا حكيم. القرنفلات كلها على اسمك. علي الطلاق لا يرجع منها عرق.

- أنت دائماً بلا عمل؟

- دائماً. ولكنني الحمد لله مبسوط. الله سبحانه وتعالى جبر خاطري وفرحتي اليوم لا أعطيها لأحد.

- خير إن شاء الله. بشر!

- ركبنا باب للغرفة.

- باب؟

- إي، باب. ظني أنك نسيت.

- لا (جذلاً) لم أنس.

- ولكن أي باب! الله الوكيل لا تقول إلا مفصل على الغرفة خصوصي.

- من أين حظيت به؟

- كانوا يهدمون اليوم بيت أبو محمد الحاج علي. قمت ضربت عيني عليه فركضت على العمال أضرب يدي في زنارهم وأقول لهم: الله يستر حريمكم بشويش على الباب.

- تهانينا والله يا أبو أحمد.

- أي شوتهانينا. بدك تتفضل تتعشى عندي الليلة وتتفرج عليه. باب يا دكتور لا تشتهيه إلا لكل صديق. من دون مبالغة سماكته، الله لا يخلينا نحكي كلمة كبيرة، نصف متر. ولا تسأل عن الكشكشة والتطريز كأنه تنتنة!.

*   *   *

سيا

سيا امرأة سيرلانكية صبية تعمل منذ ستة أشهر خادماً عند «نارمين» وزوجها أشرف مسعود. لم يكن راتب أشرف في الشركة التي تستخدمه يحتمل ترف استقدام خادم مقيمة، ولكن رقة قلبه، ضعفه، رثاءه لوضع نارمين، وهي ابنة خاله في الوقت ذاته، حملته على ما يحتمل. مزيداً من الإيضاح؟ طيب. الخادم المقيمة باهظة. لأنها آكلة شاربة كاسية مدفوع عنها ثمن بطاقة مجيء من «كولومبو» إلى دبي، وبطاقة أخرى إجبارية عند انتهاء عقدها بعد سنتين، علاوة على أجرة شهرية قدرها أربعمئة درهم لا تنفق منها فلساً، وإنما تبعث بها إلى زوجها المُسَرَّح إلى ما قبل شهر، إذ أعيد إلى الخدمة إعادة ليتها لم تكن - كما تقول سيا - لأنهم إنما أفرزوه إلى مخفر في منطقة «جفنة» حيث تحتدم المعارك بين السنهاليين، قومه و«التاميل» قوم جفنة والمنطقة الشمالية الشرقية المطالبة بالانفصال. وسيا لها من الشرطي ثلاثة أطفال، صبيّان وبنية أكبرهم في السابعة أو الثامنة. وحتى لو سلم الشرطي من رصاص التاميل وقنابلهم يظل عملها هنا ضرورياً، لأن الحرب الأهلية أشعلت الأسعار بنار موقدة، وأقساط المدارس جحيم، والعيش (الرز) في تلك الأرض المرزأة أصبح نادراً، لا بل الشاي نفسه عاد مفتقداً.

وسيا ضرورية لنارمين العاجزة إلا قليلاً، تواظب على قسم المعالجة الفيزيائية بالمستشفى القريب كل يوم، لعلاج شلل الأطفال أصيبت به مذ هي طفلة، أو في الأقل لوقفه عند حد مهما يكن سيئاً... ذلك أن تفاقم العلة يوقظ فيها مخاوف غامضة أو تريدها هي أن تبقى مجلببة بالإهمال والتناسي.. الجارات القدامى اللواتي كن في البناية منذ نحو اثني عشر عاماً، أيام جاءت

نارمين إلى شقتهم هذه عروساً مجلوة، يقلن إنها كانت هذه حالها دائماً: تغربل، تهودج في مشيتها، تهوج وتموج، ويخيل لمن يراها أنها على وشك أن تهوي من طولها مع كل خطوة تنتزعها من المشي... وأما هي، فلم تكف قط عن التأكيد لجارتيها اللطيفتين الطريفتين، أم محمد الكبرى جارة الطابق الثالث (رشدية، ٤٧ سنة) وأم محمد الصغرى جارة الثاني (مها، ٧٢ سنة) تؤكد لهما، مثل أي مهزوم يكذب على نفسه، أنها لما جاءت البناية عروساً بهرت النساء قبل الرجال، حتى إنهم هتفوا هتفة الرجل: «فرح ديبا، الخالق الناطق، آمنت بالله!»... كان هذا قبل أن تختصم هاتان الجارتان معها من أجل «سيا» نفسها، كما سنبين لك تفصيلاً بعد قليل...

كانت أمّا المحمدين، على فرق السن الكبير، متلازمتين. إذا لم تكن إحداهن عند الأخرى جلستا إلى الهاتف تثرثران ساعات عن نارمين وفرح ديباها، عن غيرتها على زوجها أشرف مسعود، الغنمة بين يديها، عن غسيل بنت وليد صباغ المنشور على الشرفة المقابلة لشرفة أم محمد الصغرى، وكيف أن ال«بوي»... (صرنا غير قادرين على رفع يدنا عن رجلنا، خزيت العين، إلا إذا كان عندنا بوي بثلاثمئة في الشهر!) هو الذي يغسل وينشر حتى ألبسة «الست» الداخلية.. عن أم منقار أعقف (وهي جارة أخرى تسكن تحت، شديدة القبح وسوء الخلق مما جعل زوجها يصاب بذبحة صدرية ويسكر كل ليلة هو وأبو محمد الأكبر كما سنفصل بعد حين) التي تجلس كل مجلس وتنق شاكية من أن زوجها أبا منقار يلح عليها هو وأهله أن تحبل للمرة الرابعة فيما تستمهله هي مدافعة بأن جسمها ضعيف وأن الصغير «عبودة» قشاش البطون، ما يزال ابن نفاس.. عن ماري زوجة أحمد سلام، ذات القدمين المسطحتين والعجيزة العارمة الحفيتية - نسبة إلى جبل «حفيت» في «العين» - وما تسميه أم محمد الكبرى، رشدية، «اللوص والحر» أو «تمشية الخابية» أي الإيقاع بين الجيران والتحرش بهم، وإيغار صدورهم، صدورهن، بعضهم على بعض.. وربما انسرقت سيا من بيت معلمتها نارمين متذرعة بأنها تريد أن تنزه أحمد آخر أولاد هذه الأخيرة... فدخلت بيت مها أو صعدت إلى

الثالث لتعاون «ماما أم محمد الكبرى» وتشكو لها، بعربية مكسرة جداً، ململمة من اللهجات الأردنية واللبنانية والفلسطينية ومكسرات من لغة الإنكليز، عن ظلم «ستها» وبطشها إذا شئت الدقة، ومعاملتها إياها بأذل ما يعامل الكلب الشارد أو النعل البالية: «تصوري يا ماما، هذا نارمين يموت من الغضب كلما شافني واقف قدام أشرف أخدمها.. وأما الأكل فهو ممنوع إلا في المطبخ، وبعد أن يأكل الأرباب[1]، ومن نصفه يأخذه هذا نارمين ويرميه في الزبالة.. النوم يا ماما على الأرض، عند الباب. هذا مكيف لا يوصل برودة في الصيف إلى محل ما ينام أنا، أقوم أنا أخاف أختنق. أفتح باب دار وأشم شوية هوا. يا ماما هذا نارمين ما يخاف بوذا ولا الله ولا رب مال نصارى كريستين. هذا قلبه ما فيه رحمة على سيا أبسليوتلي[2]...».

وقد يدخل أبنها المشتعل كالبارود (محمد، ٤٢ سنة) فيسمع نثار حديث سيا، فيثب إلى وسط الغرفة خطيباً باللغة الانكليزية وعيناه إلى شفتي السرلانكية اللاحمتين وصدرها الرابي وذراعيها العاريتين الكنازين بلون الكاكاو.

«اتركيهم يذهبون إلى الجحيم. أنا المدير العام للهجرة صاحب أبي. أنهي عقدك معهم فأنقل إقامتك على جواز أبي. أنت إذا أردت أن تصبحي سيا مستتة، ملكة غير متوجة فليس لك إلا هذا البيت. هو قد عقلي كما ترين لا يحتاج منك إلى أكثر من ساعتي عمل في اليوم. والسكان هم نحن الثلاثة فقط: بابا، ماما وأنت. وماما أنت تعرفينها، وظفنا لها أكثر من «بوي» و«بويه» فارتاحوا على أكتافها من شدة نيرانيتها... لم يكونوا يرفعون يدا عن رجل إلا ويدها بيدهم... ماما إذا لم تشتغل شغلتها بيدها فإنها تمرض. وغداً أتزوج أنا من صاحبتي «ساندي» الفيليبينية أو إحدى صويحباتي فلا يبقى لك إلا أن تعملي ربع.. هذا طبعاً قبل أن يطل ابني الأول ذو العينين اللوزيتين...».

---

(١) كل الهنود وأهل سيرلانكا يسمون رب العمل أرباب وهم يسمون:«رفيع».
(٢) إطلاقاً.

ويظهر أن هؤلاء الأقوام الآسريوية، مثل الأوروبيين، يجهلون النفخ والفَشْر... وهكذا، يوماً بعد يوم، بدأت سيا ترى نفسها في جنة أم محمد الكبرى ورضوان الخطيب المفوه بالانكليزية، محمد، واقفاً، يقول لها: «ادخليها بسلام لا خوف ولا حزن ولا حاجة بزوجك الشرطي أن يلقي بنفسه في جفنة!».

ظلت أمَّا المحمدين أمداً طويلاً تلهجان برواية إحدى زياراتهما الأخيرة لنارمين ديبا. هذه الزيارات يجب أن تتم في غياب أشرف لأن المضيفة تغار من رشدية السبعينية فكيف بمها الصبية الحلوة مثل الفلة، الطيبة الغريرة، الملونة كمساكب القرنفل في حدائق المستشفى الرحيب المجاور! اللهم نعم، تغار حتى إن الشاعرة، قبل العثور على ابن الحلال، فلاح فوّال خان، كانت إنما تنشد باسمها حين «أنشدت»: أغار عليك منك فكيف مني! أي نعم، لا زيارات نسائية لنارمين أم مسعود إلا صباحاً.

قالت نارمين للمرة لست تدري كم: «والله، في المرة الأخيرة يا ستات، صارت رجلي توجعني. تعالي يا بنت يا سيا. تعالي وليك».

قالت أم محمد الصغرى: «تضربي إن شاء الله شو حيوانة! لماذا تنتهرينها على هذا الشكل؟ أليست خلقة الله مثلي ومثلك؟».

- لا يا ست الستات. أنت ما عندك شغالة ولا تفهمين شيئاً في هذا الجنس الواطي. هؤلاء لا ينفع معهم الريق الحلو. أنا أريد أن أعلمها الحياة!».

- علّمك ضرّاب يلعبجك! أبَعْدَ ثلاثة أولاد لها في سيرلانكا وزوج وغربة في الأردن وبيروت تريدين أن تعليمها الحياة!

- أي خذيها أنت يا ست الستات، الله يبارك لك فيها. أنت في حاجة أكثر مني لها. أنت أم ثلاثة أطفال أكبرهم بنتك سُها التي دخلت المدرسة السنة. خذيها يا ستي خذيها.

في هذه الأثناء كانت سيا واقفة، يداها متصالبتان وعيناها الغزلانيتان تغزلان في ذكاء لا تخفيه محاولة التظاهر بالطاعة. قالت:

- نام (نعم) نارمين؟

قالت نارمين وهي تشيل حاجبيها الخفيفين الباهتين: «شوفوا لي هذه العبدة السوداء الزرقاء، تقول لي «نارمين» حاف كأنها كانت معي في جامعة عمان والعياذ بالله! ما بقي أحد يعرف قيمته ومقداره يا ستات. والله مسألة لا يطاق عليها ثياب (لسيا) روحي إلى المطبخ يابتّ، روحي، كفاية قلة أدب!».

قالت مها معاودة الكرة عليها: «لماذا تتواقحين على هذا الشكل، والله هي امرأة على سلامتها. شوفي بيتك كيف كان قبل أن تأتي وكيف صار.. أبكي عليك، في القليل بان لون كنباتك!».

قالت نارمين دون أن يظهر عليها أنها أعارت انتباها إلى مها: «تضربي في سوادك (لجاريتها) وطول النهار بالمزلّط قدام أشرف زيادة في النكاية!».

قالت رشدية لتغير الموضوع: «أما تزالين تذهبين إلى المستشفى؟».

- أي نعم، كنت أروح يوماً أي ويوماً لأ، صرت أروح كل يوم، تأخذني هذه (تشير جهة المطبخ) إلى قسم الطب الطبيعي. ولكنني لا أتقدم. من الهزات يا ستات، من الهزات. أين كنت وأين صرت يا ست رشدية؟ أنا لما جئت هذه البناية عروساً مجلوة كان أهل الحارة يتعنقدون على البلكونات وهن يتصايحن: «جاءت فرح ديبا!» أي نعم، لا يرفعونني ولا يحطونني إلا بالامبراطورة فرح ديبا.. إلا عمتي...

- عمتك؟

- أي نعم عمتي، يعني حماتي أم أشرف التي طلعت لي حية برأسين بعد أن أحبني أشرف.. وابنتها!

قالت مها في براءة: «أنا حماتي عمرها فوق الخمس والثمانين، وكلما رحت في الصيفية إلى عمان تسرق لي فستان عرسي وتلبسه وتأخذ من حمرتي وبودرتي وصبغة شعري وتلطخ نفسها!».

قالت رشدية متعجبة: «يوه، ليش؟».

قالت نارمين: «أي والله، كانوا يقولون: راحت الشاهبانو وجاءت الشاهبانو! تعالوا شوفوا أيش صار بالشاهبانو يا حسرتي!».

قالت رشدية ضاحكة: «والاستاذ أشرف، ألم يكن يقلن عنه الشاهو؟».

استأنفت مها: «آخر مرة نزلت فيها إلى عمان احزري أيش ركبها؟».

- من هي؟

- حماتي، يوه!

قالت نارمين: «صحيح أنها عمتي أخت أبي ولكنها قوية. وبنتها آفة هي أيضاً. ليلة رأس السنة بقيت ترقص هي وأشرف طول الليل ألله يقطعها!».

قالت مها: «ركبتها فكرة أنها مخطوبة لجارنا أبو اسماعيل..».

قالت رشدية: «لم أفهم! حماتك التسعينية؟..».

قالت نارمين: «أنا قبل أن يخطبني أشرف كنا نحب بعضنا بعضا من...».

قالت مها: «دخل في رأسها لا أحد يعرف كيف، أن جارنا التسعيني هو أيضاً يخطبها...».

قالت رشدية: «يخطبها أبو ملعون إن شاء الله. إذا كان ابن تسعين فمن أين له الحيل لخطبتها؟».

- هذا ما طلع في رأسها.. يظهر أنها بدأت تخرف.

- اي، وبعد؟

- كل يوم تأخذ واحداً من فساتيني وتجلس تنتظره وهي منرفزة، تقوم وتقعد وتتخانق مع ذباب وجهها وتضرب أولادي. أيش الحكاية؟ تقول إن وجدانها يعذبها: هي، من جهتها راغبة في الستر، ومصير البنت إلى الزواج، وظل رجل ولا ظل حائط... ولكن كيف يجي من قلبها أن تطق عبده، ابنها، يعني زوجي، بعم زوج أم؟ ماذا لو ظلمه، ضربه، أكل رزقه؟ لا شك أن أبو اسماعيل، هي تعرفه، جيرة أربعين سنة، رجل آدمي، محب، لطيف.. ولكن من يدري كيف يكون بعد الزواج منها! قد يغار من عبده!

- وعبده هنا في دبي بينه وبينه ثلاث ساعات في الطائرة!

قالت نارمين وهي تقطع ضحكتها الخلية وتنظر في ساعتها الاسورة:

- قرب موعد أشرف.قالت رشدية: «يعني نقوم ننصرف؟».

- لا، معنا وقت شرب فنجان قهوة. ياسيا، يا بت (بالمصري مثل الأفلام)!

قالت مها: «لا، شكراً، نحن أيضاً وراءنا شغل».

- والله بدري!

- بدري من عمرك. قومي يا أختي نروح إلى بيتنا، على كل حال، خففي ولك نارمين من هذه الغيرة. لا تخافي كثيراً على أبو مسعود. ما أحد يخطفه منك!».

- يوه يا مها، أيش هذه الأفكار التي عندك؟

قالت رشدية: أنا من جهتي عمري فوق الخمسين.. إذن الغيرة منك أنت يامو! أنت حصنتك بآيات الله الباهرة، قمر مصور. يدي على الخشب!».

ضحكت مها من حبور وقالت: «البركة فيك.. على كل الغيرة ما لها علاقة بالسن. سيا ما هي صغيرة هي الأخرى!».

وهمست رشدية في أذن مها وهما تنهضان: ما معها حق في الغيرة على أشرف: هو بفرد كريمة، يعني أزْوَك لا يرى إلا الشطر الصاغ من فرَحْدييباه...».

وتضحك الزائرتان في حين أن نارمين تشاركهما بضحك بادي الافتعال، عضلي إذا شئت ولكنه لا يخلو من تنفس الراحة لعزمهما على الانصراف. وقالت، وهي تستند إلى ظهور المقاعد والجدران في نهوضها وسيرها نحو الباب لوداعهما:

- يخرب بيتك يا مها من أين تخترعين هذه السِّير؟».

- إذن أنت لست غاضبة على سيا، الثالثة خلال أقل من سنتين أنت لا تغارين منها. احلفي لي على المصحف لأشوف!

- أنا أغار من هذه العبدة الحنش، العين تصيبها! أنا لا أريدها لأنها عفشة شرنّة وثرثارة. طول النهار تهرب إلى تحت لتطق حنكاً مع رفيقاتها الشغالات.. هي لا تعرف غير بضع كلمات بالعربي ومع ذلك تقص وتشبر على بلد ولا يدخل لسانها حلقها...

- ولأنها تخطف رجلها وتزورنا أنا ورشدية؟.

- وأشرف أيضاً، على الطالعة والنازلة يقول لها «يا حبيبتي» و«ياماي سيا»! هو لا يقولها بقصد غير شريف أعوذ بالله، هو قلبه طيب ومهذب مع كل الناس، حتى مع الشغالات.. ولكن من يدري ما عسى يحفر في رؤوس هؤلاء الهمج إذا الواحد كلمهم بريق حلو!

- وأنت ما فعلت لما قال لها: يا ماي سيا؟

- قوّمت البيت وقعدته. كدت يغمى علي: شقفة خادمة يقال لها «ماي» أنا أعرف الانكليزي مثل البلبل و«ماي» ما «ماي» لا تصير معي!

قالت مها ضاحكة وهي تدفع رشدية أمامها في لطف نحو الباب: «إذن، أصبحت المسألة واضحة مثل عين الشمس يا ست الستات. خاطرك!».

وانصرفتا جذلتين.

ولم يلبث أشرف حتى أذعن لضغوط ابنة خاله وإلحاحها وعواصفها وطفرها من سيا: هاتف أبا محمد الكبير وسأله إذا كان، حقاً كما قالت له سيا، يرغب في نقل إقامتها على كفالته لأنه هو يريد أن «يكنسل» تأشيرتها ويسفّرها إلى بلدها.. الآخر، أبو محمد الكبير، لم ير مانعاً ولكنه استمهله حتى يسأل في الهجرة والجوازات عن إمكان النقل. وينتظر أشرف طويلاً. أبو محمد الكبير مثل أم العروس فاض مشغول، موزع بين التأليف والعمل في الشركة -زميلاً لأشرف - والتشرد في الحانات ومطاردة «رائدات» الفنادق الكبرى من مضيفات طائرات أو «عاملات» على الرغم من أنه يدنو بقدم ثابتة من السبعين.. هنا يجب أن نجلو أمراً قد يلتبس على القارئ: أبو محمد الكبير رجل مطلق من أكثر من عشرين سنة، ورشدية هي أخته البكر،

عانس، ربت ولده محمد لما هجرته أمه بعد الطلاق فأضحت يقال لها «أم محمد»...

ويمل أشرف من إهمال أبو محمد مشكلة تقلبه هو على جمر، فيذهب إلى الهجرة والجوازات ليطرح السؤال التالي: إذا ظفرتُ بزبون يدفع لي بطاقة طائرة خادمتي، جيئة إلى دبي، وينقلها إلى كفالته، فهل أستطيع استحضار خادم أخرى؟ قال أشرف لأبي محمد حين صادفه أمس في مدخل البناية: - سألت في الهجرة والجوازات. أنا آت من هناك للتو.

- أيش قالوا؟

- لا يجوز.

- اي سيدي، نأخذ حسبنا الله، هل تعلم أني مفتون بابنك الأوسط المطبلج البسام دائماً أليس اسمه محمد؟

- بلى، ماله؟

- هذا منذ أن انتسبت إلى المجلس الثقافي البريطاني تلميذاً في ال «بي تو» وهو لا يعطي فرحته لأحد: «كيف الدروس عم أبو محمد؟ هل تعلم أن عمتي في صفك؟».. وأقول له مبدياً الدهشة: «في صفي أنا، هل أنت متأكد؟ إذن لماذا لا أراها؟!» فيقول منتصراً: «لأن دوامها صباحي عم أبو محمد. كل النساء دوامهن الصبح!» أقول «لا، نحن عندنا في الصف بنات ودوامنا مسائي» فيقول متخابثاً: «هؤلاء لسن متحجبات إذن!».

تنهد أبو مسعود وهو يبتسم مغتبطاً لأخبار ابنه الأوسط ولم يقل لأبي محمد إن زوجته تغار أيضاً من أخته مديحة - أخت أشرف - منذ أن راقصها في عيد رأس السنة. قال عالياً:

- قالوا في الهجرة والجوازات إني إذا أعطيتك إياها امتنع عليّ استقدام خادمة أخرى. ولذلك سأقطع لها غداً بطاقة عودة... وأما أنت فلا تستطيع أن تعيدها إلى هنا قبل مضي ستة أشهر تقضي اللوائح.

قال أبو محمد لنفسه: «طز، أختي أصلاً لا تطيق خادماً ثابتة. تقول إن البيت صغير ولا تعلم أين تنيمها. عند الباب مثل نارمين الجلادة؟ مستحيل،

قلبها لا يطاوعها. وأنا لا يطاوعني قلبي أن أقول لها: أنيمها عندي في الغرفة وليقض الله أمراً كان مفعولاً! على كل حال يجب أن تضرب ضربتك يا ولد خلال هذين اليومين. لا بد أن سيا قد نضجت! وقال عالياً:

- أيش علتها في الواقع؟

- والله يا جار وسخة وثرثارة.. وهذه التي هناك.. (أشار إلى مدخل البناية المجاورة، المشتركة في بنايتهما هما الاثنين، بساحة واحدة، حيث كانت «جو» خادمة ماريا الفيليبينية. وكان أبو محمد قد تحرش بها أيضاً في غياب معلمتها بإنكلترا خلال شهر كانون الأول الماضي. وما ان مد يده.. حتى قالت له: هل تريد أن تكون ماي بوي فرند[1]؟ قال: أي نعم. قالها وهو يلهث. قالت: أنا عشيقي من يساعدني، هل تساعدني؟ فلم يلح واكتشف بعد أن بردت همته أن لها رائحة فم، فأعطاها ما فيه النصيب على أن تأتي كل ساعتين تساعد أخته في شغل البيت. ولم يلبث أن وقع على كشف آخر يوقف القلب على شعرة: المسكينة أم لأربعة أولاد، صبي في الجامعة وثلاث بنات إحداهن متزوجة من عاطل عن العمل، لها منه ثلاث أطفال والأخرى في الثانوي والثالثة راهبة.. وقد كتب رسالة مفصلة إلى صديق له قديم، مقيم في باريس، بالوقائع مفصلة ولم ينس ابن السبعين هذا أن يضمن رسالته وصفاً دقيقاً مؤثراً لبؤس ثياب «جو» الداخلية وانطفائها في تقبل مداعباته البعيدة بعض الشيء في بداياتها!..».

واستمر أشرف يقول: «أي نعم، هذه التي هناك، خادمة ماريا، هي أسباب البلاء كله. تجمع الخادمات وتعلمهن طق الحنك والتمرد على ستاتهن وأسيادهن. يقطع عمرها قديش ما هي حية برأسين..».

كانا في تلك اللحظة أمام المصعد. أبو محمد يحس بغير قليل من الخفة والعرفان كأنه إنما زفت إليه بشارة.. حِمْل أزيح عن كتفه. أصبح في حل من الذي قطعه لسيا وأخته أن يبذل جهده لنقل إقامتها على اسمه. كان يخاف -

---

(١) صديقي الذكر.

فيما يخاف - أن يتعب ويعنى في نقلها، حتى إذا وُفِّق، لطشها ابنه، ابن الخمس والعشرين ربيعاً! ماذا لو حملت منه والعياذ بالله؟ هو لم يفكر في أنها قد تحمل منه، هو الأب، أيضاً.. ورفع عينيه إلى وجه أشرف. كان يضع نظارتين ظليلتين، بنيتين، دامستين ولكن إلى حد إخفاء عيني الرجل. قال في نفسه مدهوشاً: «كيف لم أنتبه إلى أن عينه اليسرى، أستغفر الله العظيم، يا رب لا تجعلني أحكي كلمة كبيرة أؤاخذ عليها..!».

لا بد أن القارئ، تبعثر بما شرقت القصة وغربت فتشتت... إنه أمام أربع نساء أو خمس، وعدة رجال.. وكل منهم يستحق أن تكتب عنه قصة طويلة أو رواية.. فيما لم نصنع نحن أكثر من خص كل شخصية بضربتي قلم أو ثلاث عجلى، وقلنا له: «أرنا عرض كتفك!» فكيف نلملم هذا الشعث لنضفره في خاتمة؟ الراوي، كاتب هذه الأسطر، يتعاطى هذه الصناعة منذ دهر وما يزال، مثله مثل طفل يقرزم بكلماته الأولى وإن يكن، الراوي، أكثر وعياً بأنه يقرزم، أكثر حياء! ربما كان الحل في مقطع من رسالة بعث بها أبو محمد، الشيخ المتصابي إلى صديقه الباريسي، يحدثه فيما حديث البناية وما يلقاه مع هذا الربيع الاستثنائي حلاوة، ومن دفق طوفاني لعشرات الفكر الذي تستحق كلها أن تسجل، ولكنه - الشيخ - مضطر إلى الاكتفاء برؤس أقلام جزئية من كل يكاد يكون فضائياً. بل إنه يضطر حتى إلى قطع رسالته إليه:

«... هأنذا أقطع الرسالة وأتوقف عن متابعة الكتابة: خادم الجيران تحت - واسمها سيا - وهي غير الفيليبينية «جو» التي سبق أن رويتُ لك قصتي معها ومع ثيابها الداخلية... تطرق الباب (عدت إلى الكتابة): سيا سيرلانكية، كنت نصبت لها كميناً، لعلمي أنها آتية لتعيد علي شكاتها، شكاة جعلتها تبكي طوال ليلتين، أي منذ أنذرها أشرف مسعود، معلمها، أنه سيسفرها إلى بلدها.. وعجزنا نحن عن نقل تأشيرتها إلى جوازنا: قفزت على فرصة نزول أختي أم محمد إلى أم محمد في الطابق الثاني وغياب ابني، العذول في مدينة «العين» لأشق لها نغماً، كما يقول أهل بلدنا، أي لأتحرش

بها بقصد الغزل وهات وخذ، لاحياء في الدين! ولم أكد آخذ بوسة من شفتين مقفولتين بالضبة والمفتاح وأمد يدي.. حتى فاجأتني، برغم أحزانها وبلبالها وعينيها اللتين تحملان، ما تزالان آثار الدموع، بضحك طويل عريض من حلق مفغور على مصاريعه جميعاً (فم لا حم يغري، أستغفر الله، بالنهش) وهي تقول، وكأنني أكركرها، بابا، أنت تضحكينني، اكسكيوزمي[1]، ولكنك عجوزة، أكبر من ماي فاذر[2] في سيرلانكا!».

«ما هذا؟ العمى، صحيح أن بشرتها كاكاو، لذيذة، ملساء مثل المرآة.. ولكن ساقيها من تحت لا تقولهما إلا محراكي تنور، رفيعتان، ممصوصتان.. وفمها كبير ليكاد يصل بين أذنيها، يا رب عفوك! اقول: رضينا بالهم والهم ما رضي بنا! ما الحكاية، ألم يبلغ هذه الغشيمة أني شاعر وكاتب مسرحي وقاص قد الدنيا؟ على كل حال كنت أشبه ما أكون بمن وثب بكل قواه لنجدة شخص وقع في ضيق فاستقبل بخرطوم حريق يصده أقسى صد وأَقْتَلَه... وما إن فجرت المخلوقة هذه القنبلة حتى عادت، وكأن شيئاً لم يكن إلى الإبداء والإعادة في موضوع تفنيشها: أنها ستكون هزأة أهل الضيعة وأضحوكتهم ومعرة زوجها وملامته. وهي إلى ذلك على كف الرحمان ما معها فلس إلا بضعة الدراهم التي أعطيتها إياها الأسبوع الماضي لما ساعدت أختي في عمل البيت.. ومثل من يتحرك في نومه، مددت يدي إلى جيبي وأخرجت خمسين درهماً ووضعتها في يدها. لم تكف عن الكلام. لم تجد وقتاً حتى لشكري! وإذا لم تخني الذاكرة فقد زلقت، وأنا أعطيها المبلغ، ما يفهم منه أني مُضاعِفُهُ لها إذا كان الغد وفي وكدي أن أتصباها ليحن قلبها على هذه «العجوزة» المقطوعة التي هي أنا.. وهي لا تزغرد فرحاً ولا تخرج من جلدها لا بالخمسين الجديدة ولا بالوعد، وإنما تتدفق علي بوصلة طويلة تقول لي فيها - كأن لها معي حق زيت مغسول بتلك البوسة وحيدة الطرف التي تسخمت على عمري وخطفتها من فمها - المحارة المغلقة. إن خمسين درهماً

(١) لا تواخذني.

(٢) أبي.

لا تكفيها، إنها في حاجة إلى خمسينيات تنطح خمسينيات، لأنها لا تستطيع أن تسافر بعد غد إلى أهلها وهي يد من وراء ويد من قدام، لا هدايا للأولاد ولا شقفة بدلة لزوجها أو فيديو لأهله.

- إذن أين شهرياتك؟

قالت في سرعة: «بعثت بهن أولاً بأول» ثم نطت أسرع لتذكرني بأن علي ألاَّ أنسى ما قطعته على نفسي من وعد أن أتدبر لها تأشيرة بمجرد حصولها على جواز سفر جديد نظيف من أي إشارة إلى إقامتها هنا لأن القديم عاد غير نافع طوال ستة الأشهر القادمة.. وأن «جو» وغيرها من الزميلات قلن لها إن «بابا» يده طايلة وكان في وسعه أن يجعلها تبقى هنا بعد مشوار إلى «البحرين» يغنيها عن العودة إلى سيرلانكا وما أدراك!

«كانت تنهمر علي من كل جانب وأنا، كأني أنا المتحرَّش به، خفيض الطرف، عيني مكسورة وقلبي أيضاً، منطفئ إلا بقايا رمضاء استعصت على غض الطرف وكسر العين والقلب وخرطوم الحريق نفسه! قد يكون همودي مرده إلى خلق عريق فيّ لا يشبهه إلا أخلاق الأطفال وأهل الله المجاذيب: تخطف من أحدهم قطعة حلوى كان يلحوسُها هانئاً، لعبةً حصل عليها قبل قليل، فينخرط في البكاء، بكاء صاخب شديد يخيل إليك أنه مستمر فيه سحابة النهار وهزيعاً من الليل... فجاءة تحين منه التفاتة إلى غصن شجرة عليه زيز (جُعَل) من ألف لون جعلته شمس الصباح يحمى فأخذ ينشر جناحيه من تحت غلافهما الملون القزحي ويهم بالطيران... فيستغرق تأمل هذه العجيبة وإذا هو ينقطع بكاؤه كأنما بموس حلاقة إلا بقايا وشل في الخد ولؤلؤ في الموق.. هل قلت: طفل! كان علي أن أقول: بل رجل! فأنا أتذكر أبداً حكاية ابن المقفع في كليلة ودمنة عن ذلك الإنسان الذي هرب من وحش كاسر ولاذ بجب فاجأه فيه تنين، إلى آخر الحكاية التي روعت تولستوي الكبير ذاته لشدة انطباقها، رمزاً، على المصير الإنساني الحزين حتى اليأس، اغفر لي هذه النوبة من التفلسف عليك تدهمني بين حين وآخر: أليس التفلسف ذاته نوعاً من لعق حبيبات العمل على الغصن الذي في أشطان البئر في حكاية ابن المقفع، رمزاً للعجز واليأس والغفلة عن مأساة المصير الإنساني! لا نطيل عليك، بقي سيدي

كما يقولون عندنا في الشام، أنا أيضاً أنساني وضعي الذي يرثى له، وضعي التراجيكوميدي: مغازلاً راضياً بمحراكي التنور اللذين يرفضانه.. أنساني هذا كله تأمل حالة هذه المرأة التي أذعرها الفقر والحرب عن زوجها وأطفالها فلاذت بهذا البلد الميسور، المشهور بيسره، واطمأنت نفسُها إلى أنها، من دون عشرات الألوف، الملايين من أترابها اللواتي يتعفنَّ في الوطن، من المحظوظات اللواتي سنح لهن عقد عمل مدته سنتان هما كافيتان، في مثالها، لإيقاف الأسرة على أقدامها التي كسرتها البطالة لزوجها والخراب والموت لقومها (يظهر أن مثال الشعب الفلسطيني يُطرد من دياره وتُكسر عظامُه.. يعم، بفضل الفكر اليهودي والسلاح الأمريكي، العالم أجمع!) وما كادت تزفر زفرة الراحة حتى وجدت نفسها، وأسفاه، في وضع قد لا تكون أية من أترابها العاملات في الخارج قد حاق بها مثله: تلفظها امرأة نصفها مشلول بالبوليو وشلَّ نصفها الآخر، العلوي، أشنعُ أنواع الغيرة وأشدها قسوة وعماء. ما جدوى أن غيرة هذه المرأة لها ما يبررها في آخر تحليل ولكن هذا لم يجد سيا. لم ينفعها كذلك أنها صبرت على ميوعة ثلاثة صبيان، كل واحد منهم يعامل معاملة ولد وحيد جاء والديه بعد عقم مديد، ثلاثة صبيان أشقياء يسومونها العذاب والاحتقار.. لم ينفعها الرضى بنومة الكلب الجعاري عند مدخل الشقة حيث لا يصل إليها هواء المكيف في أشهر القيظ الثقيلة الخانقة فتضطر إلى مواربة الباب لتشم ريحة ربها... وأخيراً جاءت ثالثة الأثافي في هذا اليفن السبعيني، أنا، المتصابي حتى يكمل النقل بالزعرور.. كان يخيل إليها، أغلب الظن، أنها تحيا كابوساً لن تلبث حتى تراه يتطاير أدراج الرياح مع عودتها إلى اليقظة. من هنا، ربما، كان إلحاحها على طرق الموضوع بالمطارق كأنها حداد واستمرارها في الطرق، هنا، وفي بيت جارتنا أم محمد تحت، وفي باحة البناية مع «جو» وسرب الخادمات الأخريات من البنايتين، بعد أن صفعها «سيدها» نصفُ البصير، الأكرش، الذي يرى في إذعانه لزوجه، نصف الواقفة، عملاً من أعمال التقوى والقربى من الله زلفى سيفتح بها باب الجنة ويدخلها ليقيم فيها تمليكاً.. من هنا، أيضاً، ربما، كان زهدها في غزل «بابا»، أنا، على الرغم من وعوده المعسولة المغرية، لأن تعاطي الغرام، حتى لو كان من برة القلب يحتاج قبل كل شيء إلى حد أدنى من

الأمان، الشبع، الرشد!.. قد تقول لي إن الفقراء أكثر نسبة مواليد من الأغنياء. صح، وإن تكن نسبة المواليد العالية لا تعني نسبة غرام عالية في كل الأحوال... فقد يكون غني شديد الغرام ويرشِّد حمل زوجته! ثم إن الفقر، من جهة أخرى، مثل اليأس الذي قيل فيه إنه إحدى الراحتين! وأما «سيا» هذه فقد واربت لها الآمال كوة أضحى سدها موجعاً: اعتادت خلال عملها خادماً، ولا سيما في الأردن عند زوجين مسيحيين غاية في التهذيب اعتبراها من أهل البيت، ولبنان حيث لم يكن مقامها سيئاً لولا الحرب الأهلية وبداياتها عند نارمين معلمتها هنا. اعتادت نوعاً من العيش أرفع من وجودها الطاحن في بلدها، ففقدت القدرة على راحة الفقر اليائس المعرى من كل مثال سبق أن عيش، من كل أمل أو عزاء عن اللا أمل!

«وأفكر أن هؤلاء خير منا على كل حال: نحن في الخوف والجوع مثلهم ولكنهم في الأقل يعرفون لهم كلمتين بالانكليزية، يا حسرات قلبي علينا!

«وليست التراجيديا، ضرب لازب، سلسلة من الخبطات المسرحية، التوتر حتى وشك الانقطاع، قدراً يقرع الأبواب.. تنتهي كلها إلى ما يسر له قَبلياً: مصرع الأبطال - أبطال التراجيديا - على بكرة أبيهم إما إعداماً أو قتلاً أو انتحاراً.. ليس لمثلي أن يعترض على هذا الاستلهام يستلهمه الكاتب التراجيدي للحياة خارج المسرح... ولكن في السرائر، في حيث لا صراخ ولا تشنج ولا «هملت» ولا جثث تتكوم على الخشبة... لتراجيديات أبعث للرعب، للأسى، لرثاء المصير الإنساني من كل ما قتل الثلاثي اليوناني التراجيدي (سوفوكل، اسخيلوس، يوبيبدس) وشكسبير مجتمعين...».

تاريخ الرسالة التي نقلنا هذه الفقرة منها هو الثاني من آذار. وقد تركها أبو محمد الكبير مفتوحة حتى الرابع منه حين أضاف:

«كانت سيا عندي الآن. يظهر أنها مرت بأم محمد الصغرى، مها، في الطابق الثاني، واطمأنت إلى أني وحدي في البيت لأن أختي كانت عندها: لم تكن قد خرجت من دوامة كابوسها. لم تكد تغلق الباب وراءها حتى عاودت الطرق على سندان أذني، إلى أن قالت عرضاً، كأن الأمر لا يحتاج إلا إلى تذكرة عابرة:

- أنت ما تزال عند وعدك، أليس كذلك؟ تذكر أنك وعدت.

- بم؟

- باستدعائي حالما أحصل على جواز جديد.

- نفكر بالأمر عندما تحصلين عليه.

- هل تريد أن تبوسني؟

- لا.

- هل أنت غاضب؟

- لا.

- راض؟

- لا.

- أرجوك لا تزعل، أنا خادمك!

«كادت تُبكي قطعة اللحم المستخرجة من الثلاجة للتو: أنا. فتشتُ في محفظة نقودي. لم يكن معي غير مئة درهم أعطيتها إياها ولكن دموعي لم ترتدع إلا على حساب صدري الذي أوشك أن يختنق!

«خلص، خلص. سأنهي هذه الرسالة وأغلفها وأروح بها إلى صندوق البريد حتى لا تأخذ على خاطرك مني لأني انصرفت عندك طوالها. لا بأس، قد لا أطرق هذا الموضوع كرة أخرى، موضوعاً بدأ مزاحاً وتصابياً وثرثرة ولكنه لم يلبث حتى عاد مندبة، لازمة تعزية. فقد جاءت سيا هذا الصباح تودعنا وتسأل أختي حقيبة سفر لا تحتاج إليها. وكانت هذه الأخيرة قد أنبأتني البارحة أن سيا المسكينة لبست بلوزة بيضاء وتنورة لونها ألماسي جعلتاها تشع بأضواء أبنوسية خلابة، وذرذرت شعرها الفاحم الذي يصل إلى ردفيها وقصدت بيت أم محمد الصغيرة لتودعها. قالت أختي: «كانت المسكينة تضحك على الرغم من أنها كانت محمومة. أنا لمست رأسها. كان كالجمر. وبعد أن ضاحكتنا لحظات ذهبت إلى المطبخ فجلت الجلي وعادت تقول لنا، ضاحكة دائماً، إن نارمين أجبرت ابنها مسعود على خلع بنطال جديد كان

اشتراه له أبوه.. لماذا؟ قالت سيا: لأن لونه يشبه لون لحمي، ولم تنس نارمين أن تشتم زوجها وأولادها وتضرب عن الذهاب في نزهة كانوا استعدوا لها منذ الصباح.. وتستخرط في البكاء!».

«قلت لسيا: أين الحلة البيضاء الألماسية التي لبستها البارحة لوداع مها؟ أليس لنا في الطيب نصيب؟.

«قالت ضاحكة: حكت لك ماما! لا تزعل، سألبسها مساء غد وآتي لوداعكم مرة أخرى. أنا الآن عنده شوغول (عندها شغل)!

«المساء فهمنا أنها منذ مطلع الشمس حتى الآن لم تتح لها نارمين لحظة تلتقط فيها أنفاسها على ما هي فيه من حمى. ولكنها كانت تضحك وقبلت أختي مرتين وقبلتني. أختي بكت وأنا أخذت مفتاح البيت وهربت متذرعاً بأن علي شراء بعض الأغراض من السوق. في الطريق لست أدري لماذا عاودتني ذكرى ابن خالتي عدنان. كان رأس محامي البلد، فحلاً من الفحول، تزوج من اثنتين ثم انتزع الثالثة وهي امرأة متزوجة كانت جارتهم لأنها - كما يقول الجاحظ - من جنس البغال لا تنجب وهو يكفيه ما عنده من الأوليين نعمة وخديجة: دزينة! سنة ألف وتسعمئة وست وستين أصيب بسرطان في الأمعاء. ابتزه جراحو بيروت بعمليتين جراحيتين وهم يعلمون أنهما دون جدوى. بعد سنة، في أوائل السبع وستين، نصح هؤلاء الجراحون أنفسهم أهله بإعادته إلى بلده ليموت فيها إذ لم يبق أمل. أخوه الأصغر. بشار، وامرأته العاقر نفوس التي لم تغادره طوال مرضه قيد أنملة إلا في بيروت (كما سنعلم بعد قليل حيث تدبرت قطعة غيار وأعدته إلى ما بعد الترمل!) هاتفانا، الدكتور يحيى وإياي لكي نأتي لوداعه قبل أن ينقلوه إلى مسقط رأسه بلدتنا التي في الشمال. يحيى وأنا، منذ سفرته الأولى إلى بيروت وعمليته الأولى، قرأنا التقرير الطبي المكتوب بلغة انكلزية ماكرة، ملتوية. وكان هو يجهل هذه اللغة. سأله عدنان:

- أيش معي؟

لم يكن في التقرير ذكر للسرطان وإنما لورم. قال الطبيب يحيى وهو يخرج من جيبه ورقة وقلماً ويروح يخربش كروكيا للمعدة والأمعاء:

- هذه هذ المعدة. في أسفلها كان ورم بسيط. هنا في نقطة التحام المعدة بالأمعاء. قاموا شالوه.

أنا أعرف يحيى. حينما يرسم فمعنى هذا أنه يريد أن يتكلم لكي لا يقول شيئاً.

حضرت السيارة التي ستنقلهم إلى البلد. وقفت تحت شباك الغرفة التي كان فيها. أنا جَبُنْتُ.. بقيت في الدهليز أرى إلى مؤخرة رأسه التي دب فيها الصلع والشيب خلال سنة عذاب الشهادة الماضية. ما كان في قدرتي أن أنظر في وجه ابن السبع والأربعين سنة هذا الذي كان زينة الشباب في ثانوية حلب.. كان فهداً لا يعرف الخوف فأحاله المرض إلى كومة عظام مكسوة بجلد كامد يضرب من النصوع إلى لون جلد فأرميت. القطعة الصلعاء من مؤخرة رأسه كانت تنبيء عن البقية. ويظهر أنه أوجس النهاية، ولكنه كان حياً والحياة مهما تكن واهنة لا يمكن تصور الموت. الموت هو اللاتصور وألف «لا» أخرى. ويظهر أنه أوجس حتى ضيق نفوس ذاتها به (ستتزوج من البيروتي بعد انقضاء عدة الوفاة مباشرة!) واستعجالها دفنه... ربما أحس أنهم نفضوا أيديهم منه، تركوه لقدره. أحس صقيع الوحدة، الموت سمعته يقول مع ذلك ليحي (وكانت هذه الجملة آخر ما سمعته ورأيته لأني لذت بعدها بالفرار) قال:

- كل طبكم عجز عن نجدتي. أنا مع ذلك لا أتألم. شو القصة ولك يحي!

قالوا: وارتمى على صدر نفوس في خان شيخون.

* * *

ينعنو.. ينعنهون

- إلى إبراهيم صموئيل -

«لا تصدق إن قيل لك إن حاكماً ما، إذا حط في فكره أن يخلع الناس من ميلهم الولادي إلى التسيُّس، لأنه توصل إلى إيمان لا يأتيه الوهن أو الشك من بين يديه أو من خلفه، إيمان غرانيتي، بأن الحكمة، الصواب، السداد.. ألقت إليه مقاليدها، وأنه الليع (الأحرف الأولى من الذي لا يُستغنى عنه)، الذي قالوا له إنه هو الرم (أي: رابع المستحيلات)، الذي قال في حقه الشاعر... إلخ، أقول: لا تصدق أنه يستطيع، حتى ولو شُبِّهَ له، لكثرة ما عنده من عسكر، وأعوان، وعسس، يصورون له أن الخلق أمسوا في يده مثل الخاتم، بعد أن شملت (تربيته) كل أحد من رعاياه، إما بفلقة مرتبة، أو أرجوحة أبطال، أو (دك) في قبو حسن الإضاءة، ونسيانه حتى أجل مسمى، أو غير مسمى.. لا يا سيدي، لا يستطيع، وأكبر فايدة وبرهان، كما يقول باعةُ دواء الدود في مدخل سوق الحميدية، هو زميلي في أرشيف النفوس (هو يلفظها النيفوس زيادة منه في مَفْصَلَةِ الكلام، أيده الله!)، صديق عمري أبو محمد السيد محمد.....».

هكذا استهل صديقنا سامح الكاتب «مداخلته» لما احتدم النقاش في مجلسنا ذاك حول مسألة طرحها أحد الحاضرين مفادها أن السياسة في الأمم تطبُّعٌ لا طبع، وأنها ليست، مثل الأكل والشرب وشم الهواء، حاجة حيوية يجب تلبيتها قبل ما أسماه «بلوغ يفاع الاستبصار»[1] المتمثل في الفلسفة والسياسة والعلوم والفنون.

---

(١) سامح الكاتب والراوي مخطئان، لأن هذا التعبير للإمام الغزالي.

ثم إن سامح الكاتب تنحنح وعاد يقول: «اي نعم يا اخوان؛ كان زميلي ومتقدمي في «النيفوس» العم أبو محمد السيد محمد أكبر برهان على أن الشعب، أي شعب، لا تقدر أي قوة في الدنيا، غير عزرائيل عليه السلام، أن توفق إلى لا تسيُّسِهِ، إلى شلعه من الشروش الضاربة أطنابها في روحه وكيانه حتى قرن الثور. أبو محمد، خلال عمره الطويل، ذاق الصاب والعلقم من السياسة. ليس هو شخصياً، ولكن أحد أفراد الأسرة. هذا كان فتى سيء الحظ. طلعت عليه سيرة أنه يشتغل بالسياسة، وأنه انتسب إلى حزب هو الآخر يشتغل بالسياسة. هذا ما قالوه، الله ما بيننا وبينهم. أنا من جهتي لا أحطه في ذمتي. ما أشهد عليه أمام الحق تعالى هو أن هذا الولد لم يتغير فيه شيء. أنا أعرفه مذ هو شَلَفون[1]، حتى قبل أن تفقس عنه البيضة، إلى أن كلبجوه أول مرة، والثانية، والعاشرة... ما لا حظت عليه شيئاً جديداً إلا بعض القهرمة بعيد عنكم. طيب يا سيدي، افرضه طقطق له شوية في هذه الشغلة. شب واشتهى مثل كل الناس أن يقرأ له جريدة، قصة ممنوعة، يسمع إذاعة دولة بيننا وبينها ما فيه طيبات... أي شو صار؟ أي أنا نفسي لا أستطيع مباشرة عملي كل يوم قبل أن أفلي الجريدة من الباب إلى المحراب. إذا كانت الجرايد إنما يطبعونها هم، ويوزعونها هم، فلماذا يخرطون ابن عمنا المسكين في الحبس كلما طق الكوز بالجرة، أقصد كلما شافوا في يده جريدة!

كان العم أبو محمد صادقاً، يصور الواقع كأنه كاميرا، أقصد من ناحية عصيانه على اللاتسيُّس. ومثلما قال، كل صباح مع فنجان القهوة، يبدأ قراءة الجريدة من وراء نظارتيه العصمليتين (العدستان شكل اهليلجي!)، غالباً بصوت مسموع، وهو يلح على أن أترك كل شاغل من شواغلي، سواء أكان وظيفياً أو شخصياً، وأصغي إلى أخباره التي لا يتخير منها - وليس مثلما قال من أنه يقرأ من الباب إلى المحراب - إلا السياسي المثير:

---

(١) الديك الصغير.

- ولك تعال اسمع لي هالسمعة، أبوس يديك، قال هذا بوكاسا، الذي نصبه الفرنساوي امبراطور أفريقيا الوسطى، غضب من المعارضة، قام أكل ستة وتسعين تلميذ مدرسة هم أولاد المعارضين. ينعنو(٢)! هو لا يقرأ في النص المكتوب في الجريدة أبداً. إنها نصوص، إذا شئت، مستلهمة من الخبر المنشور حقاً أسود على أبيض بين يديه. نوع مما نقرأه عن الفن من أنه الحياة، الناس، الكون منظوراً إليه بعين فنان. ويضيف:

- ولك أبو السمح كيف ركبتْ معه هذه الطريقة في الرد على المعارضة: أن يأكل أولادهم؟

أروح أنا أشرح له:

- لأنهم هم، أعني المعارضين، كبار، أصغر واحد عمره، ربما، جاوز الأربعين الخمسين. والكبار، أنت سيد العارفين، لحمهم قاس، لا تقول إلانِعال. ناهيك بأنهم سود، والسود جلودهم أسمك من جلودنا.

كان صوته يحافظ على مقام واحد، طبقة واحدة، ممطوطة، مغنية على طريقة أهل الشام الخُلَّص.

- أي جلودنا جلودهم أنت التاني؟ كله بني آدم، ينعنو. إي وصلت مواصيله إلى أكلهم، ينعنو!

- أي سيدي كثير من الدول البيض الشقر مثل الفرنساوي والانكليز والألمان والروس.. ونحن قليل ما قتلنا بالجملة؟

- أنا لا أقول لك: لا. ينعنهون.

- ونحن؟

- ينعنَّا. وأما أن يأكلهم؟ ينعنو!

لم أقل له إن أكل الخصوم أو أولادهم أثوب، أو إذا شئت، أنفع ألف مرة من تعذيبهم ونقعهم في الزنزانات كما كان يصنع سالازار في البرتغال

---

(٢) أي: يلعنه، بالشامية.

وستالين في روسيا وشاوسيسكو في رومانيا، مثلاً، يفعلون هذا وأكثر من هذا، مجاناً، سدى. وأما بوكاسا فهو، في الأقل، ينعنو، يتغذى!

وأما هم فينعنهون أكثر!

* * *

السعادة

كان إذا التقاني يتكلف تحيتي أو ردّها كأنها سخرة ثقيلة. وقد يتصنع الشرود والإطراق إن استطاعهما لكي تمر لحظة تقابلنا بغير تحية.. وأذكر أن «كمال عبد الحميد» فسّر لي جفاء «أبي ربحي» تفسيراً لا يخلو من غرابة، قال: «أنت أعزب، ومعروف عنك أنك لا توفر حتى الخادمات السيريلانكيات السود مثل الفحم، وهو رجل يغار على زوجته!».

- زوجته؟ أيهن من نساء البناية؟ أخشى أن تكون تلك الصغيرة الرأس مثل الفأرة والفم العريض مثل أفواه دمى العرايس والكرش الرابية بغير عجيزة تحفظ توازنها!

- هي نفسها.

- عجبي!

- لا تتعجب. شرط الحاجة أن تعجب صاحبها، كما يقول المثل. أبو ربحي يجد حرمه أحلى من «فيفيان لي» أيام كانت على سروج خيلها.

ولكن أبا ربحي، جاري العزوف عني عادة، تغير جذرياً لما تسلمتُ برنامج الأطفال في التلفزيون. أصبح، حتى إذا مررت به شارداً مطرقاً، غير منتبه، يعترض طريقي باسطاً ذراعيه، هاتفاً، على طريقة الممثلين المصريين: «ال آخذ عقلك يتهنى به. اي الله خلق الخلق، نحن أيضاً لنا حصة في فناننا الكبير، معبود أطفالنا.

- أستغفر الله العظيم. أنا تحت أمرك.

- نحن الذين ننتظر الأمر، أي خدمة.

ويميل بصلعته التي تؤلف مع بقية رأسه كرة تكاد تكون هندسية، ويتابع بصوت خفيض، نسوي، متواطئ: «ومحاسيبك، نحن أيضاً، لنا في الطيب

نصيب. لنا في العيد حمص، وعلى رأي المثل، لنا في القصيد بيت (يتضاحك راضياً عن نفسه) نحن، مثلما تقول أسرة فنانين إلى حد ما.. ولا أكتمك أن أختك أم ربحي ترفض النزول عن كتفي. صدعت رأسي بإلحاحها: قل للأستاذ - تعني حضرتك - أن يتفضل يتعشى عندنا عشاء. ما عليه إلا أن يختار اليوم، تقول لي، أطبخ له بضع أكلات من التي علمك منهن تؤكل الأصابع وراءها. خير البر عاجله، ما قولك في يوم غد؟

أجبته بمثل الفجاءة وأنا لا أدري لماذا على وجه التحديد: «ما عندي مانع» وأضفت متأثراً ربما بطريقته: «لا يأبى الكرامة إلا لئيم!» وضحكت في سري من سرعة تحولي إلى حكيم. قال متهللاً:

- ونعمل المدينة من فرد باب. أقدم لك بنتي ناتاشا.

- ناتاشا!

- أي نعم ناتاشا بنتي الصغيرة الكربوجة الموهوبة، نجمة برامجك المقبلة كلها. أنت متى ما تعرفتها لا تستغن عنها في أي برنامج. أنا لا أقولها لأنها ابنتي، ولكنك سترى بعينك وتحكم. فلتة الله يسلم، أيّ رقص، أي بهلوانيات، أي غناء. الله يفرحنا بعرشك ويرينا لك دستة أولاد يفتحون العين من العمى مثلها. فرجة. غرام. «مصطفى أبو السعود» سلفك قتل حاله عليها. أنا ما قبلت. خلنا نقولها صراحة ودون مواربة: هذه الصنعة لم تكن تروح له. نحن نعلم كلنا أنهم لم يعينوه إلا من أجل امرأته الممثلة من الدرجة العاشرة، ولكن العفريتة عرفت كيف تدوِّخ المسؤولين. الشهادة لله لم تكن تصلح لبرامج الأطفال. برامج الكبار هي التي تروح لها حفر وتنزيل (يقلدها): هزه السوره يا أتفال الخير درورية لتأليمكم(١) (يضحك).. والدليل على أني لا أفتري عليها الكذب أنها ما إن تركت العمل هنا حتى قالوا لزوجها: «أرنا عرض أكتافك» وكنسوه. كل دعاواه في أنه مختص من أربعين سنة في برامج الأطفال وأنه هو الموحي بـــ «افتح يا سمسم» تبخرت بعد طلاقهما المدوي...

(١) هذه الصورة يا أطفال الخير ضرورية لتعليمكم.

لا بد أن أبا ريحي أوسع اطلاعاً مني أنا ابن المهنة، مع أن المشرف السابق أبا السعود كان جاري وكنت أسمع في الليالي الأخيرة من جيرتهما أصواتهما تملأ أدراج البناية، وهي ألفاظ «فنية» بارعة الإقذاع والبذاءة!

مساء اليوم التالي كنت عند أبي ربحي. كان البيت حقاً بيت فنانين موهوبين، عباقرة: الستارة الكبرى التي تجلل باب الشرفة العريض في صدر الصوفة مشلول نصفها وهابط يجثم على الموكيت المحلّى بجميع أنواع البقع والحروق. النصف الثاني الذي لما يسقط متخشب لا يتحرك كما تبين لي لما حاولت من غير أن أشعر أحداً تحريكه... منافض السيكارات كلها في غير مواضعها، أي ليست على مناضدها وإنما في مكان غير مخصص لها كحافة النافذة أو ظهر التلفزيون أو مساند المقاعد. وهي كلها - المنافض - فيها عيب من العيوب، كأن تكون مشعوبة أو منجوفة أو طار نصفها.. جهاز التلفزيون بغير هوائي، تحته فيديو منطفئ. زجاج النوافذ لم تمر عليه خرقة مبللة منذ سكنى أبي ربحي هذا البيت ربما! الأولاد الأربعة يلبسون ثياباً جاهزة لا إخالهم اشتروها من عند الليلام[١] لأنها تنبيء بأنها، وهي جديدة، لم تكن رخيصة وإن كانت الآن إنما تشكو كل قطعة منها من آفة، إما في العرى أو الأزرار أو القياس أو في طريقة اللبس التي لم تخضع لأي مراقبة: بنطال مؤخرته عند الركبتين، بنطال آخر أحد كميه أطول من الآخر.. حذاء لُبست فردتاه بالعكس أو سرق من أحذية أحد الأبوين.. مع أن ربة البيت التي «صدعت رأس زوجها في طلب زيارتي» قد علمت منذ الأمس بقدومي، وأمرَّتْ يديها بالترتيب والتنظيف على البيت وسكانه جميعاً، كما يفترض...

انصرف الأولاد إلى التلفزيون إلا «ناتاشا» التي تقدمت ترحب بي - بوصفنا زميلين - ثم تغامزت وأمها التي قالت لي معتذرة:

- لا تؤاخذ ناتاشا. رايحة تلبس.

---

(١) بيع الألبسة من قبل باكستاني يحملها في صرة عارمة ويطوف بها على البيوت.

اجتاحني فضول عارم وأنا أنظر إلى هذه البنية تبدو كأنها اسطوانة غاز. بادية السذاجة حتى كأنها من أهل الله، قصيرة الساقين، ليس لها عنق، قدماها مسطحتان تشبهان الطباشات الخشبية التي كانت تستخدم في تربيص السطوح قبل إعادة تطيينها قبيل دخول الفصل الماطر.. ما عساها أن تقدم من مشاركة في برنامج للأطفال كثر الأخذ والرد فيه وتهاطلت الانتقادات!

في انتظار عوة «الفنانة» إلى الظهور، جلس الأبوان، فما هما إلى آذانهما من انبساط يجاذبانني الحديث. عاد الأب يمتدح زوجته: ربة بيت لا نظير لها في الدنيا، لا ولا في بلاد أرِبَّا (أوروبا) ذاتها.. والمرأة القصيرة السمينة الضاحكة ضحكة ابنتها الفنانة ذاتها تخفض رأسها في خفر ابنة العشر حيناً، أو تدافعه بصوت ثاقب كالشفرة:

- يوه أبو ربحي، على قامتي إن شاء الله. الآن يظن الأستاذ أن ما تقوله صحيح... لا تصدقه، لا تصدقه!...

لم يكونا في حاجة إلى مساعدة مني لكي يأخذا حريتهما. ومع ذلك قلت:

- والله يا عم أبو ربحي أنت لم تصف لي من السيدة إلا نصف حقيقتها. أنت حظك من السماء. أتصور أن فوزك بهذه السيدة العظيمة لم يكن سهلاً، نزهة عسكرية كما يقولون في الجرايد. لا بد أنك اقتحمت جيشاً من الخطاب حتى غنمتها...

ما كان أشبه كلامي بالهزيج الذي يعقب طيران سدادة قنينة شمبانيا واصطدامها بالسقف! أخذ الزوجان يقهقهان سعيدين ويصدران أصواتاً تشبه نبحات جراء رضعت للتو من أثداء أمها... واستطعت أن أميز من بين هذه الأصوات شبه أهزوجة موقعة: «مرحى، مرحى، يسلم ها الفم»... ولم يلبث الأولاد الثلاثة الذين أقعوا عند قدمي جهاز التلفزيون حتى انضموا إلى جوقة الأبوين وشاركوا في «الشد».. وواربت ناتاشا الباب المؤدي إلى غرف النوم فألقت نظرة فرحة ثم اختفت. كانت في قميص النوم ما تزال، وخطر لي أن إحدى القريبات التي لم تظهر هي التي تُعنى بتزويقها استعداداً لتقديمها إلي.. وتدافعت التعليقات من الزوجين وتداخلت حتى تعذرتْ على الفهم إلا لمحاً،

فتافيت، استطعت أن أركب منها جملاً مفيدة تجعل مسألة فتنتها وهي عازبة وصراع الخطاب عليها مسألة ذائعة الصيت لبثت حديث أهل بلدهما ردحاً طويلاً من الزمن، حتى ما بعد ولادة ناتاشا وربحي. وكأني إنما فهمت - أو خيل إلي - أن أحد الخطاب هدد أهله بالانتحار... المهم، بعد أن هدأت العاصفة عاد أبو ربحي إلى منطلقه:

- أنا لا أقولها لأنها أم أولادي...

قاطعته ضاحكاً: «ولأنها معلمتك!».

- وست راسي تسلم هذه الملافظ الحلوة. لا أقولها لأنها ربة البيت ولن أدوخك بالتفاصيل، في دراساتها، في اللغات التي تتقنها، في تربية الأولاد وفق أحدث النظريات، في تدبير المنزل... يكفيني، لكي أعطيك فكرة عامة عن هذا الكنز، أن أسألك: ما قولك في اللبن؟

قلت بعد أن تأكدت من أني لم أخطئ سماع الكلمة: «الحليب؟».

- لا، اللبن الروب، اللبن الزبادي كما يسميه أهل مصر...

قالت أم ربحي في تواضع: «اليوغورت يعني». ونكست رأسها تواضعاً فيما ازداد وجه الزوج إشراقاً:

- الله يرضى عن أصحاب العلم! أي سيدي، هل في الدنيا طعام مغذ أكثر من اللبن؟ ستقول لي «لا!» وأنت، عدّاك العيب، غير مخطئ. فالخمائر اللبنية تشفي من خمسين داء. والعلماء في أرِبّا يجربونه الآن لعلاج السرطان وتصلب الشرايين والجلطة بأنواعها. ومن يدري ألا تسمع في غد أنه مفيد في القضاء على الآيدز. ألست معي في أنه غذاء كامل؟

- بلى. وأغلب الظن أنه غذاء أهل الجنة.

- أنت قلتها يرحم والديك. ولكن أي لبن هذا الذي يستحق كل المدح؟ إن شاء الله ذهب فكرك إلى لبن السوق؟ (يضحك بقوة) حاشاك من هذا الظن. لبن البقاليات كله بلا قافية مغشوش، بودرة وماء حنفية فقط لا غير. وأما اللبن اللبن، مأكول أهل الجنة مثلما تفضلت، فلن تحظى به، حظيت بك

السعادة، إلا من تحت يدي أختك أم ربحي (أم ربحي الآن ذائبة خجلاً وتواضعاً) هذا في الدنيا كلها لن تجد له أخاً (يضحك لخفة دم الكلمة) حتى ولا ابن عم!

أم ربحي، على رغم ذوبانها، وإطراقها وبربرتها بكلمات احتجاج غير مفهومة، كانت في النجوم.. وأظهرت أنا الدهشة والافتتان وتوجهت بكليتي إليها، وقلت لها في لهجة رجاء:

- لا، لن أفوت لك هذه ياست أم ربحي. ستعلمينني طريقتك.

ازدادت خجلاً. مالت بعنقها إلى اليمين إظهاراً للحرد. قال أبو ربحي موضحاً: «تخجل خزيت العين! ولكن ظني أنك تريد أن تسرق سر الصنعة هكذا مجاناً. هذا يا مولانا كار متعوب عليه، صعب. أم ربحي، هل نعلمه؟»

هزت رأسها عدة هزات وهي تغمض عينيها في ولدنة دلالة الموافقة. قال أبو ربحي:

- ما دام الأمر السامي قد صدر فأنا أقول لك كيف تصنع أعظم لبن في الدنيا. بعض الناس يا مرحوم البي يظنون أن المسألة أهون من شربة ماء: اغلِ الحليب الطازج، إن حصلت عليه (يضحك) وانتظر حتى تستطيع أن تغمس اصبعك فيه وتعد حتى الأحد عشر. غَطِّ القدر. جللها بكنزة صوف. بعد ثلاث ساعات تحصل على اللبن.

- هذا ما أعرفه إجمالاً.

أبو ربحي يغرب في ضحك صاخب ولكنه غفور. قال لامرأته وهو يقطع كلماته بالقهقهات العريضة: «هل تسمعين يا أم ربوحة ما يقول الأستاذ؟ يظن أن هذا هو كل شيء! طيب، عليك نور، قل لي أبوس يدك: إذا صار الحليب لبن زبادي أيش نعمل؟».

- جاء دور أم ربحي بالضحك: «لا، الله يسلمك!».

- إذن؟

قال أبو ربحي: «هنا حطنا الجمال. أم ربحي، هل نعلمه؟» هكذا أعاد السؤال ثم تابع: «السر كله طال عمرك في ما نعمله بعد أن يصير الحليب طنجرة لبن».

قلت: «حزرت: نضعه في البراد!».

ضحك رحيم.

- بس؟

- بس.

- إلى متى؟

- ساعة، ساعتين.

عادا يضحكان. أم ربحي تخلت عن خفرها:

- يومين. اللبن الله يسلمك لا يقطع قبل مضي يومين. وفيه مسألة مهمة أخرى.

- أيضاً؟

- طبيعي: لا نتركه مغطى في البراد.

قال أبو ربحي منتصراً: «أرأيت!».

قالت أم ربحي في تواضع: «السر كله في المدة!».

قال أبو ربحي: «آه يا سرك يا أم ربوحة الباتع!».

وأقيم عيد صغير لهذا الانتصار الذي لم يكد يهدأ أثره حتى نده أبو ربحي ابنه البكر، وهو أيضاً ولد كروي بغير عنق:

- ربحي!

بعد عدة صيحات اقتلع الولد نفسه من مجلسه أمام الشاشة الصغيرة، وقال: «شُوّ؟».

- تعال أقول لك كلمة.

جاء الولد متثاقلاً. همس الأب في أذنه شيئاً. غاب وراء الباب الذي اختفت خلفه «الفنانة» ناتاشا من قبل. سألت:

- ما اسم هاتين البنتين الصغيرتين؟

- نورا ولارا.

قلت متعجباً: «لماذا البنات وحدهن بأسماء أجنبية والولد ربحي يعني اسم ابن عرب؟».

قال: «ربحي اسم المرحوم الوالد».

- والوالدة، هل كان اسمها ناتاشا؟

ضحك: «لا، ولكن لما جاءتني الله يسلم لك كل غال نظرت في وجهها مثل فلقة البدر ابن أربع عشرة قمت استخسرت فيها الأسماء العربية. ما عسى أن أسمي هذه الثريا؟ حفيظة، خديجة، رحوم؟ أعوذ بالله!

وعاد ربحي ومعه علبة بسكويت من الصفيح سأتبين بعد قليل أنها فارغة، وأخذ أذن أبيه كلها وشدها نحو فمه كأنه يريد أن يعضها، وهمس له بشيء لم أسمعه فركز الأب العلبة على فخذه وراح يضرب عليها «مارشاً» قديماً يشبه أن يكون بولكا مما كان الآلاتية قبل نحو خمسين سنة «يدقونه» إيذاناً بظهور راقصة من أمّات هز البطن. هذا المارش كانت له عندنا في البلد كلمات تؤهل بالقادم وتؤكد له أن «تشريفه لنا، قد زادنا هنا».. وما هي إلا لحظات حتى اندفعت ناتاشا مثل عدل طحين، طلقة واحدة إلى منتصف المجلس وهي في ثوب رقص أو ما يشبه أن يكون ثوب رقص أبيض مكشكش الأكمام كلوش الذيل.. منذ أن وضعت قدمها في المجلس كانت ترقص، قل تهز يديها وقدميها، وأما خصرها وعنقها فكانا أمتن من أن يتحركا.. وبعد أن طافت حول المكان دنت معي، متراقصة دائماً، وثبتت إحدى قدميها على الأرض وقذفت الأخرى في وجهي حتى كادت تمسه بنعلها وهي تنحني بجذعها إلى الوراء بين تصفيق عارم شارك فيه كل أحد، ولم تقصر البنتان الصغيرتان هما أيضاً فيه.. هنا حدث أمر لا أدري ما سببه، أهي شدة حماسة الفنانة التي أرثها التصفيق، أم ثقل جسمها: لم تحتمل الساق اليسرى الحركة فهوت ناتاشا على ظهرها و... رفعت الأربع جميعاً! الأغرب أن التصفيق ارتفعت حرارته حتى أصبح محموماً، وتصاعدت هتفات

«مرحى، مرحى، ما يبلى...» أرجح الظن أن المتفرجين ظنوا أن السقطة جزء من خوريغرافية الرقصة... لا نستطيع أن نفترض أن الأب في الأقل كان بعيداً من هذا الظن، بدليل إسراعه إلى إنهاض ابنته التي ما إن وقفت على قدميها حتى عاودت الرقص أشد مما كان والتصفيق مستمر وصرخات الإعجاب المزهو تملأ البناية.

* * *

البصبصة

كان النائب العام فتى في مقتبل العمر، لما يمض على تخرجه من كلية الحقوق وقت طويل. وقد حل بالبلد منذ أشهر قليلة، فاستولى عليه، لست تدري لماذا، إحساس بأنه موضع تحد من هيئة القضاء كتاباً ومحامين وقضاة. من هنا كانت عنايته الشديدة بمرافعاته وصحف إتهامه، وإكبابه عليها الليالي، ليالي لما يملأها المعارف والزملاء بالسهرات الآعلية (كما يسمي السهرات العائلية احتقاراً منه لها!). أصلاً هو غير متزوج بعد، والقضاة أو المحامون المتزوجون لا يدعونه إلى سهراتهم إلا لماماً، ومن قبيل فض العتب.

قضية «البصبصة» كما اسمتها الصحف، التي دافع فيها هذا الاسبوع، مثال واضح على اجتهاده ولمعانه. قضية بسيطة يمر في المحكمة آلاف مثلها، ولكن، أية مرافعة «نقش» فيها! أين العبقرية في أن يتميز نائب عام في قضية مثل قضية سفاح «رأس الخيمة» التي هزت الدولة من رأس الخيمة إلى جزيرة داس؟، أو في قضية سرقة موصوفة كقضية سوق الذهب في «أبو ظبي»؟.. العبقرية في أن يلمع في قضية مثل هذه، و«ينقش» فيها صحيفة اتهام تنشرها الصحف كافة، لا لأنها تحفة قانونية وحسب، ولكن لأنها تحفة أدبية أيضاً.

ما يزال يبتسم لبراعة الاستهلال: «يا حضرات المستشارين!».

كان، كله، لصحيفة اتهامه، فلما هدر بـــ «يا حضرات المستشارين» هذه، لم ينتبه إلى الوجه الذي صار على القاضي، وجه لا تخفى سخريته وهو يهمس في ذات نفسه:

«تضرب في شكلك، شكل التيس. أين هم المستشارون يا فهيم؟ المحكمة كلها هي أنا وهذا الكاتب الذي وجهه على إصبعين!».

كان أبو صلاح القاضي كهلاً، أميل إلى السمن، بادي الطيبة، يحب خلال مرافعات النائب العام الفتى أن يرسم، وهو يحلم أن رسمه ظريف، وأنه لو كان في غير هذا البلد الذي لا هم له إلا الأكل والشرب والتقاضي، لكان كرس نفسه كلها للفن، وربما عاش فيه. ألم يرسم لوحة حصان جامح وأهداها إلى صديقه عبد الكريم في التلفزيون، فعرضها، يوم سباق الخيول الأصيلة في «الجميرة»، على الشاشة الصغيرة شارة للبرنامج! الابتسامة ذات التهكم الطيب الخفيف التي استقبل بها «يا حضرات المستشارين» مردها إلى أن عينيه شافتا أرمالاً من هذا الطاووس الذي يؤمن أنه، بـــ «يا حضرات» ـــهِ هذه قادر على أن يجلس محور الأرض الأعوج!

وأما الكاتب، ويسمونه هنا أمين السر، فقد كان وجهه عريضاً، وجبهته بارزة عريضة، وشارباه عريضان. وكل هذه «العروض» لا تتناسب بأية حال مع دقة عنقه التي تشبه عنق الديك الهندي، وصدره قفص العظم، وبطنه الغائر، وساقيه الدقيقتين اللتين يخيل إليك أنهما ستنقصفان تحته لو زاد وزنه عشرة غرامات! هذا الكاتب، هو أيضاً، همس لنفسه قائلاً:

«الله يسامح أهلي الذين ما تركوني أكمل تعليمي وآخذ شهادة الحقوق، حتى صار مثل هذا الديك في موقف النائب العام وأنا في مجلس أمين السر».

ومضى النائب العام الفتى يقول:

«أمامكم أيها السادة المحلفون...، أقصد المستشارين، قضية ولا كالقضايا، قضية قد لا يتسنى لي في مثل هذه العجالة [إلحاح على كلمة «العجالة» ولفظها بشيء غير قليل من الزهو] الإحاطة بأبعادها الاجتماعية والسيكولوجية والديموغرافية والسياسية جميعاً. لذلك سأكتفي بالكلام على بعض أخطار الجرائم المماثلة، وتهديدها أمن المجتمع، وأكاد أقول: وجوده. ذلك أنها، في الدرجة الأولى، تمس ميراثنا القومي الذي يتسلمه الخلف، كالراية، من السلف الصالح، ولا سيما في معاملة الجار، التي تعرضها جرائم من هذا النوع للشباب والبوار. وأنتم لا تحتاجون إلى من يذكر حضرتكم بأن نبينا صلى الله عليه وسلم [ظل يوصي بالجار حتى حسب الصحابة الأبرار

رضوان الله عليهم أنه سيورثه. ناهيكم بأن المتهم الواقف أمامكم «مُعَجِّز مكرَّر» - يبتسم - كما كان يقول عريف صفنا في المدرسة الابتدائية، وأعني - بالتعبير القانوني - أنه صاحب سوابق.

وسأؤجل الحديث في الآثار الأخرى المشؤومة التي تترتب على جريمة كجريمة المتهم إلى ما بعد عرض الوقائع، ما هي هذه الوقائع حسب تسلسها الواقعي!

في الزمان:

المتهم الماثل أمامكم اعتاد التلصص على بعض المنازل الواقعة في منطقة «فريج المرر»، إلى أن وقعت أنظاره الآثمة على أحد المنازل فتسلق جدار سوره واستطاع بهذه الطريقة الدخول خلسة حيث ظل واقفاً عدة دقائق خلف باب الحمام، متلصصاً على سيدة البيت البريئة التي كانت وحدها حينئذ. تصوروا يا سادة، كانت وحدها، وهو يتلصص من ثقب الباب في أثناء قيامها بالاستحمام، فأعجبه النظر إليها، ولكن استمتاعه بالمشهد «اللطيف» لم يدم طويلاً. وخلاصته، حين شعرت السيدة المحترمة بأن حركة غير عادية تدور بالقرب من باب الحمام، ولما تأكدت من ذلك، أطلقت صيحاتها القوية كما يجدر بسيدة عفيفة أن تفعل، فحضر الجيران لانقاذها من براثن عينيه حيث تمكنوا من إلقاء القبض عليه، واقتياده إلى المخفر صاغراً.

في أثناء التحقيقات التي أجراها رجال الشرطة مع المتلصص اتضح بعد ذلك أنه يدعى جورج كوتي ويبلغ من العمر ٢٢ سنة ومن ذوي الجنسية الهندية ويعمل في إحدى المؤسسات الواقعة في «هيرة» ويقيم في «دبي» منذ سنوات في منطقة «فريج المرر»، حيث أقر - دون أي ضغط أو إكراه ولمجرد ذكاء محققي الشرطة في توجيه الأسئلة واستخلاص الأجوبة كما عودونا دائماً - عند تدوين أقواله في محضر تحقيق الشرطة بأن الواقعة، التي روتها المشتكية، صحيحة، وأنه كان يتلصص عليها بوضع إحدى عينيه في ثقب باب الحمام، مستغلاً فرصة خلو المنزل من بقية أفراد أسرة المشتكية. وبناء على هذه الاعترافات تمت إحالته إلى النيابة العامة لتقديمه إلى المحاكمة، وهذا ما فعلته هذه الأخيرة.

أيها السادة الأكارم...

قد يخطر على بالكم أن تجدوا للمتهم العذر، وأن تقولوا إن فتى في مثل سنه قد يقع له هذا مرة واحدة بنتيجة أن يخطئ، ولكنكم ستصعقون إذا أظهرت لكم أن المتهم قد سبقت له حوادث مماثلة واضبارته في الشرطة أكبر دليل. فقد عمل حاله قد وقع بالساعة وذلك في أحد شوارع بر دبي المكتظة، فتمدد على طوله فوق أحد الأرصفة، وقد وقَّت في لحظة مرور سيدة أجنبية تلبس روباً من نوع «الكلوش» قصيراً، من قربه، وحكَّم وقوعه تحت الروب مباشرة، وتظاهر بأن عينيه مغمضتان ولكنه، في الحقيقة، كان يغمض إحدى عينيه احتيالاً، وأما العين الثانية فكانت مبحلقة بدليل أنه أزاح بيده طرف الروب كأنه يفتح مظلة، وفتح عينيه الاثنتين. صحيح أن السيدة الأجنبية لم تدَّع عليه يومئذ، لأن الأجانب متساهلون - كما تعلمون - في هذه المسائل...، ولكن أهل الشارع الذين هرعوا لإسعافه، ظناً منهم، بالسلامة نياتهم! أنه صدقاً واقع في الساعة، شهدوا عليه بسوء النية والرغبة في التلصص بعد أن تبين لهم أنه صحيح معافى، وقد حكم يومها بالسجن أسبوعاً حكماً تخفيفياً لأن المحكمة أخذت بعين الاعتبار أن المتهم لم تكن له سوابق وأنه يعول أسرة في بلده، الهند.

وهكذا ترون - أيها السادة - أنكم لستم أمام مجرم صدفة وإنما مجرم عمد. وهنا لا بد لي من إلقاء الضوء على جانب آخر من جوانب خطورة جرائم مثل جريمة المتهم جورج كوتي. ذلك أننا إذا سمحنا لكل هندي أن يتلصص على السيدات المحترمات في الحمامات، أو أن يسيء إلى سمعة البلد السياحية بالتمدد تحت أرواب السيدات الأجنبيات، لا لذنب جنينه إلا أنهن يلبسن فساتين قصيرة، فإننا نكون قد أبحنا السرقة؛ إذ ما هي السرقة إذا لم تكن ضرب عيني السارق على مال الغير؟... وجسد السيدة (م.ن.) وكذلك ساقا السيدة الأجنبية إنما هي مال زوجَيْ هاتين السيدتين ورأسمالهما، أي أنها - أعني الجسد والساقين - المال غير المعرَّض للأعين المتلصصة، أي السرقة!».

وتدخل القاضي وهو يخفي ابتسامة كادت تغلبه فتظهر عريضة جذلى، قال في صوت لا يكاد يذهب إلى أبعد من النائب العام:

- أرى من أوراق القضية أن السيدة (م.ن.) المشتكية أرملة! فاحتد النائب العام، وقد أوقعه القاضي في الفخ:

- هذا لا ينفي أن جسدها عارياً هو مال الغير. إنها ما تزال صبية نسبياً. وقد تتزوج مرة أخرى،.. «الشاكية تخفض عينيها إلى الأرض على استحياء». والآن - أيها السادة - ستسمعون تفاصيل هذه الحادثة المروعة من فم المشتكية (م.ن.) نفسها.

وتقدمت السيدة المدعية من قوس القاضي الذي أحد فيها النظر مدهوشاً قال في نفسه:

« أيش هذي؟ هذه سوداء زرقاء!».

فعلاً، لم يكن في وجه المرأة ما يغري. وشعرها وحده كان فيه آثار عمل عند الحلاق. ويظهر أنه خفيف فقصته غلامياً. كانت امرأة نصفاً، ضيقة الجبهة، واسعة الفم، ظاهرة العصبية والحدة، أميل إلى الطول ولا سيما ساقاها، حشو جلدها، في هندامها محاولة تأنق لا تظهر إلا في ضيق فستانها الشديد. قدماها كبيرتان، وعجيزتها رابية.

وبعد أن أقسمت اليمين القانونية بوصفها شاهدة إثبات، سألها النائب العام:

- هل أنت على معرفة بالمتهم يا سيدة؟

- لا يا سيدي، أنا لا أعرفه ولا يعرفني.

- اروي لنا تفاصيل الحادث من الأول.

- والله يا حضرة الحاكم...

- النائب العام من فضلك.

- ... كنت قد قلعت فستاني وبدأت أفك...

وأسرع النائب العام إلى إسكاتها مع أنه هو الذي سألها أن تروي الحادث تفصيلاً. قال:

- وبعد هذا بماذا شعرت؟

- شعرت، حضرتك سيد العارفين: الحر خاطره دليله.. لما فككت الـــــ...

- بعد الفلك، بعد الفك...

- بعد الفك، الله يسامحك، نزلت الــــ.....

- بعد التنزيل، بعد التنزيل.احتدت المشتكية:

- بعد التنزيل صفيت...

- بعد أن صفيت، بعد أن صفيت...

تسرب إلى صوتها الفتور وعادت حركاتها خلواً من الحماسة البدئية التي مازت مستهل شهادتها. قالت كأنها تسمع محفوظات:

- بحركات مريبة وراء الباب.

- من هنا ابدئي من فضلك.

زاد صوتها هموداً، وتابعت رواية الحادث بما لا يخرج عما أورده النائب العام في صحيفة اتهامه. ثم إن القاضي استدعى المتهم فتقدم من موقفه بين شرطيين كان ظاهراً عليهما الملال والاستسلام. وبعد أن حلف اليمين سأله:

- ما هي شهادتك؟

فاعترف بكل ما قالته السيدة الشاكية في شهادتها من أنه قام فعلاً بتسلق سور منزلها، وبعد أن تمكن من الدخول تبين له أن المنزل خال إلا من السيدة، وهي المشتكية، التي كانت في الحمام، عرف ذلك من حركة الحياة الوحيدة الصادرة من المكان المذكور، فأثير فضوله، ووضع عينه في ثقب الباب، وإذا هي قد قلعت الفستان فبدت استدارات جسد رائع....

وأسرع النائب العام يقاطعه:

- اقفز إلى الحوادث رأساً...

قال المتهم في براءة:

- ولكنني قلت لسعادتكم قبل قليل إني قفزت سور...

- قلت لك اقفز إلى الحوادث!..

اعتذر المتهم جورج وقال:

- حاضر سيدي.

وأما المشتكية فقد تهلل وجهها بالبشر وتندى صوتها بالمرحمة وقالت في دل، موجهة الخطاب إلى النائب العام:

- خله يكمل سيدي.

فانتهرها النائب العام:

- المهم هو الحادث.. أكمل.

قال المتهم:

- فلما بدأت تفك.. الـــ...

- بعد الفك، بعد الفك.

بدأ صوته يكتسب عصبية وحدة. وقال المتهم:

- أخذت تنزل...

- بعد التنزيل...

بلع المتهم ريقه وقال:

- القصير اللطيف.

صاح النائب العام:

- بعد القصير قلت لك.

- كان جسداً مذهلاً يا صا...

قالت المشتكية وهي تكاد تذوب وقد لفتت وجهها لفتة خفر قبل أن تخفض عينيها إلى الأرض:

- يوه، شوها الحكي هذا؟!

وقال النائب العام باتراً:

- يعني أنك تعترف!

قال المتهم في رنة تنطوي على طيف من مكر وتسليم للقضاء والقدر:

- أعترف أن جسد السيدة أذهلني حتى شعرت أن عيني التصقت...

- أوجز، أوجز..

- ووجهها أيضاً...

- يوه!

- وبعد، وبعد؟

- وبعد، فوجئت بعد لحظات لم تطل - مع الأسف - بفتح السيدة المشتكية الباب على مصراعيه وهي...

وسأل القاضي الوحيد وهو يكتم ابتسامة دائماً:

- هل كانت عارية لما فتحت الباب على مصراعيه؟

تنهد المتهم وقد عاد ينظر إلى السيدة:

- تماماً يا سيدي «تماماً».. وهذا ما أدى إلى القبض علي.

- أوضح.

- لقد شلني المنظر فلم أستطع الهرب.

- يوه...

- أي نعم، صار في وسع طفل ابن خمس سنوات أن يقبض علي.

- يوه، والله مهضوم.

واستطاع النائب العام آخر الأمر إسكات «الشاهدَيْن» وأكمل قراءة صحيفة اتهامه وطالب بانزال أقصى العقوبات بالمتهم الذي يهدد قيم المجتمع، ويتلصص على أملاك الغير. وجاء دور المتهم فطلب الرأفة لأنه يعول أسرة في الهند ليس لها غير الله وكرم أخلاق المشتكية والمحكمة الموقرة، ولم يخيبه القاضي الذي كان طول الجلسة بادي الجذل، فحكمه أسبوعين.

* * *

وقد أطرفتني هذه القضية فظللت أسعى حتى تعرفت بأحد السجانين وهو بلوشي لطيف، وسألته عن أخبار جورج كوتي، فأخبرني أن سيدة محجبة، طوالاً، حشو جلدها، تحمل إليه كل يوم سفرة كاملة لا تنقصها حتى الفاكهة، والمرة الأولى التي جاءت فيها الحبس فور احتجاز جورج كان مع الطعام مروحة صينية أنيقة عليها صور يدوية غرامية.ويرى صديقي السجان البلوشي أن مبرر هذه الهدية ربما كان خلو السجن من مكيف للهواء!

*   *   *

سهرة على غوار

هذه القصة، من أبطالها حماة وكنّة، ولكنها ليست من النكات، التي تروى عن هذين الخصمين الأزليين، للضحك. فقد تزوج صاحب لي صاحب معطم اسمه عبد الكريم ويدندش فياقل له: كرمو، أو كرُّوم، تزوج زواج مصلحة من أخت مالكة عقاره العانس التي تجاوزت الأربعين ولكنها، مثل أختها، مريِّشة، معها وعليها، سواء من الإرث الذي هبط عليها وعلى أختها وأخيها من المرحوم الوالد أو من «اليد الماسكة» التي كانت شعار الأسرة جدِّهم العشرين فيما يقول مؤرخو الشام.

في البداية، لما لّمح كرمو بأنه «يتعشم» أنه إذا طلب القرب فإنهم لن يروا مانعاً، زلقت سعاد خانم، الأخت الكبرى، مالكة العقار الذي في أسرة العاصمة، أن الزواج ليس كلمة في الفم، ولا سيما أنهم أسرة عريقة بيت النجار وما أدراك.. أحد أجدادهم الأعلين كان باشكاتب ولاية، وأن بعض الوقت ضروري للسؤال عن حضرة طالب القرب، على الرغم من أن كل الظواهر تدل على أنه ابن عيلة، أكابر، بدليل أنه كان عقيداً في الجيش وأحيل على التقاعد لخناقة بينه وبين رؤسائه.... ولكن كرمو، وهو نفسه تحت الأربعين، وما أقدم على التلميح لصاحبة الملك إلا على كره، تحت ضغط ثقل أجرة العقار وهو ثلاث دكاكين سيَّاحة نيَّاحة... قال للسيدة سعاد خانم مستقلعاً حاسماً:

- تسألين عن أيش يا سعاد خانم الله يطول لي عمرك. كل ما تريدين معرفته اسأليني عنه. أنا، صحيح أني كنت برتبة عقيد في الجيش ولكني لا أخجل من أن أقول لك: إني رجل صنعت نفسي بنفسي. أهلى كلهم وأولهم

أبي إما لحامون أو سائقو سيارات أو قهواتية. أبي كان رجلاً محترماً، محبوباً، في الحي والبلد. ولكنه لحام. في بعض الأحيان كان يزلق في بيعه من لحم ضأن قطعتين صغيرتين - يجب أن أقول إنصافاً له - من لحم الماعز. ثم إني دخلت الكلية العسكرية، وتخرجت ضابطاً قد الدنيا. خدمت في فوج مشاة ولكن زملائي الضباط، حتى من كان منهم رئيسي أو أعلى مني رتبة في سلاح آخر كانوا يحبونني ويألفون مجلسي ويعشقون اللعب معي في البوكر مع أني كنت، في أغلب الأحيان، أشلحهم حتى خرجية الجيب. قلت لك «في أغلب الأحيان» لأني في أحيان أخرى كنت أتعمد أن أخسر وأتركهم يربحون ليلة، ليلتين. أحياناً ثلاث ليال متتابعة حتى يظلوا «مشهلمين» على اللعب. في الليلة الرابعة، الخامسة أضرب ضربتي: أزعم أني ذلك الصباح تصبَّحت بوجه فتاة بنت أربع عشرة مثل زر الورد.. وأقبش كل ما في جيوبهم.. ولكني، ربما في الليلة ذاتها، أقرضهم ما يلعبون به حتى نهاية الشهر... قد تسألينني: كيف يتم ذلك؟ أنا أقول لك: أنا أغش، أعلِّم الورق. طريقة شيطانية علَّمني إياها ابن أبو قدرو البّواب الذي كان يلعب مع يا وران الملك فاروق ويخسرهم. طريقة ابن أبو قدرو يطول شرحها وقد ظلت ناجعة إلى أن انكشفت في نادي «البخت» في حلب. هذه أيضاً قصة طويلة. المهمُّ أن تعلمي من هو العقيد المتقاعد عبد الكريم، أو كروم حتى لا تقولي لي أنت أو الآنسة سحر شقيقتك كان وما كان واني غششتكم. أنا شاري سحر من جهتي بقلب ورب وأسرتنا، بيت كروم ما وصفت لك لم أزل عليك بحرف. الله الوكيل ومهما سألت عني ومهما كان المسؤول ممن يبغضوننا فلن يقولوا لك عنّا أكثر مما قلته أنا. روحي اسألي أهل بلدتنا الصغيرة، وأهلها كلّهم إما فلاحون أو متعيشون من خير الله وخير هؤلاء الفلاحين.. فإذا أعجبكم البازار فالست سحر خانم في عينيَّ الثنتين وإذا لم يعجبكم فالزواج قسمة ونصيب.

سعاد خانم التَخَمَتْ على الرغم من لسانها الذي يقال عنه: إنه بشَطَلين. بهتت وبدت كأنما فقدت قوة شخصيتها وهيمنتها لا على أخويها وحدهما ولكن على كل من يعرفها، ومنهم زوجها السابق، مطلّقها، السفير السابق، وهو

انسان وديع طيِّع، ديبلوماسي وما أدراك، ولكنه لم يستطع معها صبراً.. قالت أخيراً:

- أنا والله يا كرمو بك ما عندي اعتراض.. ولكن تجربتي لما كنت سفيرة أنت أدرى الناس بها.

قاطعها حتى يكون انتصاره ساحقاً:

- ولا أخفي عليك أن أم محمد، أمي، ستسكن معنا. نحن خمسة شبان ولكني أنا المفضّل عندها..

استمرت تقول باللهجة المحيرة ذاتها:

- ثم إن أختي سحر.. من صنف الأراضي وحدها.. انفرز لها من تركة المرحوم بابا، بستان دفع فيه نهار البارح أربعمئة ألف..

أربعمئة ألف! يا ربَّ السماوات.. إي هو، كرمو، اشترى بيتاً في «التجارة» أرضه رخام وآخر في «أبو رمانة» خمس غرف، وما دفع من القمار أكثر من الجمل أذنه.. قال وقد لان صوته الذي هو في العادة مثل تكسير حجارة رصف الطرق:

- سعاد خانم. أنا لست ممن يدخلون على طمع.

- أعوذ بالله. حاشا لله أن أكون إنما قصدت.. ولكني أعتبرك منذ الآن بمنزلة الصهر ولا أكتم أن أخي سمير صاحب أوجاع وأمراض ووكيل البستان، بستان أختي سحر، مثلما تقول نمرود يتصرَّف وكأنه هو المالك.. يحتاج إلى رجل يوقفه عند حده... وعلى كل حال اعتبرني أنا شخصياً موافقة ولكن....

قال مداهنا: «يعني الأسرة كلها موافقة. من يستطيع مخالفة سعاد خانم السفيرة، على سن ورمح؟ إي ديني عليّ حرام الملوك تتشرف بكلمة من جنابك».

لا يدري كرمو، ومن ثمّ لم أدر أنا بما دار بين الأختين.. ولكن كان هذا الحوار بين سعاد خانم وكرمو يجري مع افتتاح المطعم ضحى لما استوقفها

ورجاها أن تسمع منه كلمتين.. فما أذَّن المؤذن للعصر حتى كان جرس الهاتف يرن على مكتب العقيد المتقاعد، مكتب مثل المطبخ، والموائد، إذا نقعتها في نهر الفرات ظل الزفر يطفو على صفحة مائه شهراً ثلاثين يوماً..

إنه صوت سعاد خانم تدعو «صهرها» إلى التفضل بشرب فنجان قهوة في بيتهم في الطابق الثاني فوق المطعم.

حاولت أن ألم بأدق الدقائق وأصغر التفصيلات مما جرى خلال تفضله بشرب فنجان القهوة «فوق». انصرفت أسئلتي أول ما انصرفت إلى ردود فعل العروس، حركاتها، طبقة صوتها، زينتها...

يشجعني على ذلك أن كرمو، على عسكريته وقماره، محدث بارع، عندما يحكي لك قصة جرت له يحملني على الظنّ أني أعيشها أنا نفسي بكل حواسي فألمس وأذوق وأشمّ وأسمع. وهو مثل أهل بلدنا كافة يحب النكتة ويطلق اللقب على الشخص فيلبُسه لبساً حتى يُنسى اسمه الأصلي.. ولكني لم أظفر منه بصيد وافر.. كان في غمرات فرح بما واربه له مشروع الخطبة من أبواب على بساتين في (عقربة) وبنايات في ساحة المرجة وأموال سائلة في البنوك... لا تدع له أن يرى في العروس العتيدة وأختها السفيرة وأخيها الممروض قفص العظام، الذي لن يلبث حتى يحمل لقب «أبو عصّ» إلا النبالة الشامية الباقية منذ القدم، والسّخاء والمودة والأنس بالغريب.. حتى إن كرمو، في إحدى جلساتنا آخر الليل حين نبقى وحدنا فَنُنْزِل الغلَق، ونكمل السهرة، باح لي بسر «طالما كتمته عنك حتى لا تقول إن أخي كرمو منّان».. فلما سألته عنه قال:

- أخوك أبو كرم يعجبك تماماً.. إنه يرسم بعيداً. خططه لن تعود بالخير عليه وحده..

- طبيعي إذا كنت أنت في خير فإخوتك..

- صح.. وأول إخوتي أنت.. هل تعلم أني بدأت أزلّق بعض الكلمات لسعاد؟

- في أي موضوع؟

- إي أنت أبو الفهم ولا تحتاج إلى مثلي ليقول لك إني أرسم عليك...

- عليَّ أنا!

- أي نعم (وبعثر شفتيه على طريقته إذا أراد أن يلفت النظر إلى علو قدمه في الملعنة) ستكون عديلي... وشرح لي ما يُفهم منه أنه فكّر في زيجاتي السابقة جميعاً فوجدها نيلة وزفتاً وقطراناً لأن أزواجي، دون استثناء، طفرانات، وأن الحب بلا قافية يزيد الناس طفراً على طفر الحب:

- ولك يا خاي (يا أخي بلغتنا) صدق الذين قالوا: هؤلاء الأولون ما تركوا حكمة إلا قالوها. قالوا: الدراهم كالمراهم حطها على الجرح يبرأ. وقالوا...

- ولكنها يا أبو الكرم مطلقة.. والأولون قالوا: إياك وحاجتين: الأرض المعلقة والمرة المطلقة.

- اي بلا مطلقة بلا بطيخ. إي إذا نجح رسمي ورضيت بك فاضحك في عبك. لا تنسى أنك تجاوزت الخمسين!

- وهي؟

- هي؟ هي تجاوزت الخمسمئة ألف ملحفة تخش مثل جنح الدبور يا عين عمك.

- يا أبو..

- لا تقل لي كلمة. حط عقك في راسك وادع لي أن يوفقني الله في مخططي. هذه يا أبو محمد فرصة العمر التي تخلصنا من حياة الكلاب الزقاقية التي نحياها...

- الجعارية وأنت الصادق!

- عمرك أطول من عمري!

لم أكن أحسّ أني كذلك ولكن كنت أعلم من خلوات سابقة أني إذا لم أسايره فإنه لا يأخذ حريته كلها في الكلام، ولا يصرّح لي بأن «الجماعة» طقّ عقلهم وراحوا يبدون فنوناً من الدلع ولا ابنة العشرين.

- أكابر يا خاي أكابر. قالوا: خذ الأصيل ونم على الحصير. وقالوا أيضاً: الخير يخيِّر والشر يغيِّر: «الجماعة» أنا أخذت هويتهم لأمشِّي معاملة كتابة الكتاب. الست ليست مثلما فهمنا من الأخت. السن فوق الأربعين، ولكنهم حتى سعاد، يلزمني القتل إن كنت أزل عليك لا يعطون أكثر من ثلاثين وإن شقّت حالها خمسة وثلاثين (يخفض صوته) وخاتم في إصبعي.. قلنا لهم: كتاب فقط. نحن كبرنا على العرس والمعرسة. قالوا: ما يخالف. كتاب على السكيت والدخلة في نفس الليلة. كلٌّ أخوتي عندهم عرس ما عدا المجنونة قصيرة الجن...

- من هي؟

- أم محمد، أمي.

- ليش؟

- تنوّح أختنا باللّه وتندب: «أسفي على صباك يا عين أمك، يا كرمويا ابن أبو محمد يا فلتة الشباب. ما كان أملي منك أن تدفن نفسك وأنت في عز شبابك. ألف واحدة تتمنى ظفرك!

كنت أعرف أمه، رحّوم، أم محمد. قصيرة، شعرها أحمر حتى وهي في الستين. نيرانية. لها نمش في وجهها، ذكية جداً. ونزقة لا تحتمل اللمس حتى من أغلى أولادها على قلبها، كرمو. وأذكر أنه ذات مرة وكنت أتعشى عندهم في البيت مازحها مزحاً ثقيلاً بعض الشيء لأنه كان يشرب.. فانتترت في حدة وسددت إليه كلمة غاية في اللوم يفهم منها أن قلة الأدب مع الأم في وجود الأغراب ممن يسوى ولا يسوى ليست مما يزين الشبّ حتى ولو كان عقيداً في الجيش.

إمرأة قوية حقاً. أميَّة كأكثر أمهاتنا ولكن ذكاءها ما يتجاوز وسطها. وقد ترملت وهي صبية ما تزال فانصبت أشواقها على صبيتها الخمسة وبنتيها الاثنتين المتزوجتين، وإن ظلت دائماً تخصّ كرمو بحدب خاص وترفض مساكنة أي من أولادها الآخرين الذين يكبرونه.

ومثلما تشبثت أمُّهُ به من ترمُّل ومن كونه الوحيد الذي شبهَ عن طوق المهنة فرفع الأسرة كافة... تشبثت سحر من حرقات عنوسة امتدت كأنها الأزل في نفق معتم بارد. وإذا هي فجاءة في صباح من ورق ورد وياسمين. ماضرّ أن البيت فيه أفعى وأن رائحة لحم الضأن في كل مكان، وأن اللغة غير لغة الأهل؟! طبقة وتعبيرات!

وهكذا أغمض الرجل عيناً وفتح أخرى ليرى نفسه موضع تجاذب، تشبث، استماتة أربع أيدٍ وصدرين وأربع أعين وقلبين يزيدهما ضراماً غيرةً هي أيضاً في حال تصاعد يوماً بعد يوم، غيرة أمّ صحت فجاءة، بعد خمسة وثلاثين سنة مِن تَمَلُّك مطلق لهذا الذي حملته في بطنها، لترى امرأة أخرى غيرها «تكاد» تقاربها سناً... تشاركها في ملكيتها وأكثر... وغيرة زوج لا تصدق عينيها وتوشك أن تكذب أذنيها إذ ترى إلى هذه الفتوة العارمة والقوة الفائقة والوسامة واليسر.. لها، تستطيع أن تقول له «كرومتي».

تلك الأيام كان التلفاز في أوائل انتشاره بالبيوت، حكرة أهل النعمة وأولهم صنف العساكر والأطباء والتجار، على الرغم من أن شهرة غوار كانت في إبانها والفرجة على مقالبه كان زياً شائعاً مثل الفساتين وقصات الشعر النسوانية.. حتى قيل: إن أحد المرشحين لمنصب نقيب الأطباء - وكان أمله في النجاح ضئيلاً - فاز بما يشبه الإجماع لأن الانتخاب قد صادف توقيته قبيل ظهور غوار على الشاشة الصغيرة.. فتزاحم الأطباء على صندوق الاقتراع وأخذوا يلقون فيه «على العمياء» أول اسم ورد في قائمة المرشحين... هذا مع أن أكثر الأطباء درسوا الطب في أوروبا وأمريكا، يعني يفترض فيهم أن يكونوا قد صادفوا ضروباً من أهل الكوميديا، من أمثال شارلو وفرنانديل وكتاباً من أمثال شكسبير وموليير يجعلونهم أقلَّ لهوجة في اختيار نقيبهم.

أردت أن أقول: إن غوار تزامنت موضة الفرجة عليه مع قلة أجهزة التلفزيون في البلد، فأصبح من يملكون أجهزة «يعزمون» أقرب جيرانهم وأصدقائهم على السهرة عليه، كأنما على «مرسح» أو على «تاترو» ترقص

فيه تحية كاريوكا أيام زمان... على هذا الأساس أراد صديقي كرمو، وهو العريس الجديد، وأنا العديل المحتمل، أن يقوم بإيماءة دماثة نحوي فدعاني إلى مشاهدة غوار على شاشة تلفزيونه الجديد الذي اقتناه مع ما اقتنى من أثاث لبيت الزوجية...

كان قد مضى نحو أسبوع. عشرة أيام، على زواج صاحبي. يعني مدة كافية وزيادة لأم محمد أن تلملم شعث روحها التي أطارتها الضربة شعاعاً.. هذا ما انتهت إليه منذ أن أدخل كرمو المفتاح في القفل وفتح الباب قبل ذلك كان يقول لي وهو يبعثر شفتيه كالعادة:

- ماصوص ابن يوم من أهل العروس ذاق العرق بشفتيه، ولكن العروس وافقت على عمل سفرة مازة على شرفك من الأكلات الشامية المصيتة (وخفض صوته) الغيرة نار. لم تحتمل هي وتربيتها المشايخية أكثر من كلمتين:

أولاً: أنا أشرب وأفضّل الشرب في البيت وأنت جنبي نتفرج على غوار.

ثانياً: أبي كان يشرب ولذلك ذاع صيت المازة التي تعملها أمي في أربعة أطراف البلد...

لم نجد أحداً في الصالون المتخذ غرفة قعود في نفس الوقت.. ولكننا سمعنا قرقعة ماعون آتية من المطبخ وما يشبه أن يكون نقاراً على الناعم. بعد لحظات، يظهر أن أم محمد سمعت صوت المفتاح وفتح الباب، خرجت تتدحرج وعيناها الرماديتان تغزلان في شيطنة وتظاهر بالغضب:

- أهلاً يا ابني (هذه لي). لعبت بعقلك «نويرات»(١) خانم وقبّعتك بأختها البايرة «الغمة الجمدانة»؟ أي طول عمرنا ونحن نعمل مازة لكاس الممحوق لا يعمولنها في زحلة ذاتها! عشنا وشفنا. (كل هذه السحبة لابنها).

---

(١) هي تقصد سعاد. وأما «الغمة الجمدانة» فهي سحر، العروس، وكلمة «غمة» عندنا تعني رأس الخروف وتوابعها وهي «النيفة» في الشام.

قالت هذه وانعطفت بقوة صبية بنت عشرين عائدة إلى ميدان المعركة في المطبخ... وعادت أصداء الأخذ وردّ تتناهى إلينا كأنها مخنوقة.. ولم تلبث أن ظهرت العروس وهي تحمل عدة أطباق صغيرة فتضعها على منضدة الوسط وتقف على استحياء ونظرها إلى الأرض كأنها بنية لما تتجاوز الرابعة عشرة:

- أهلاً وسهلاً أستاذ. شرفت.

- مبروك يا سيدة سحر عقبى لولي العهد.

ذابت خجلاً وإطراقاً. حركة تنكيس رأسها مائلاً بعض الشيء نحو كتفها اليمنى زاد من إبراز التجاعيد في الجيد، وفي الناحية الوحشية من العين وعادت إلى المطبخ.. ولم تكد حتى ظهرت الحماة محمّلة مزمّلة هي أيضاً. قالت تخاطبني وهي تقرب المائدة من صف الكراسي المواجه لجهاز التلفزيون حيث اتخذنا، كرمو وأنا مجلسينا:

- كيف شفت لي عروستنا الجديدة يا عين خالتك. ألا تفتح العين من العمى؟

أذهلتني لهجتها. هي الآن لا يجوز عليها غير الرحمة، ولكن مخزون التهكم الذي بدا في تلك اللهجة ربما كان نادر الوجود حتى عند أبرع الممثلات الكوميديات العالميات. قال كرمو رحيماً:

- اتقي الله يا حرمة أنت حاجة الحرمين..

قالت باللهجة الساخرة ذاتها:

- ليش أنت وعروسك وأخوتك تركتم لي قطرة من ثواب الحجة!

وعادت تقول لي في صوت حاولت أن يكون خفيضاً:

- ما قلت لي: كيف شفتها؟

- عروس!

تضاحكت وهي تقول: «أوافقك ولكنها، الله لا يجعلنا نحكي كلمة كبيرة مثلما تقول، العظمة والجلد، الغراب الشاطر لا يحصل منها نصف درهم لحم».

وفيما كانت تتحرك نحو المطبخ عادت الأخرى. واستمر المكّوك إلى أن اكتملت السفرة، فجلسنا كأنما باتفاق سابق على صف الكراسي:

أنا أقصى اليمين. أم محمد عن يساري، فكرمو، فالعروس. وبدأت حلقة غوار التي كان ذلك (الهنار) من أجلها.

لم أفهم كلمة واحدة من الحوار. كل ما أذكره: صور غير متماسكة: غوار في القبقاب والطربوش والشروال ذي الألية التي تنوس كلما تحرك، وحسني البورظان سالتة نظّارتاه عن عينيه، إحداهما أكثر من الأخرى ووجهه فيه كدمات من حفلة ضرب. أو شيء من هذا القبيل: لم أفهم كلمة لأن السيدتين الحاضرتين عن يساري كانتا تتسابقان مستقتلتين على شرح ما يجري على الشاشة، ونقل الحوار بعبارات مقاربة للأصل إحداهما بلهج بلدنا والأخرى بلهجة الشاشة الشامية المبينة. قلت (شرح ما يجري). وأنا أعني ما أقول، لأن السيدتين، رغبة منهما في الفوز بقلب الحبيب، والانتصار كلٌّ على غريمتها، راحتا لا تقتصران على تكرار كلمات الحوار كلمة كلمة وحسب وإنما تنبئاننا أيضاً مرتين بكل حركة وسكون يتحركها الممثلون أو يسكنونها:

- يوه، ضربة، شف يا كرمو كيف لبس قبقابه.
- يظهر أنه ضربه بالقبقاب قبل أن يلبسه.
- اسمع رنة قبقابه، كأنه ما عمل أي شيء بحسني.
- وقبقابه (يجنقر) كأنه دايرة.
- ها، هاه، طقق لي خواصري من الضحك، شفت كرّومتي!
- ولك يا كرمو قال له شوي.
- الآن يقول له: شوي هلأتيه.
- آه يا ضرسان يا غوار من أين يجيء بكل هذه الحيل؟
- حيلجي ها الغوّار.
- يوه، شفت نظارته كيف زاحلة؟
- لُك، لُك نظارته سالتة إلى أنفه.

فجاءة تنتبه الأم إلى أن معركة تشن عليها من دون أن تدري: رفعت طبقة صوتها قليلاً وبدأت:

- إي شايف يامو. ما هو أعمى بعيد الشر إلا وقت نقّى دون استشارة أمه.

- أنا أحكي مع زوجي. قال: يا داخل...

- والله الحق معك وأنا أستحق فردة صرماية على رأسي.. واه الواه.. قالوا: صح لها زوج بالحيلة قالت: أعور وله قيلة.

- لو الجمل تطلع إلى حدبته وقع وانكسرت رقبته.

- يا شاري الهمّ عن قلب صاحبه. جيل والعياذ بالله!

إلى آخر ما يتوقع حدوثه في مثل هذه الحفلات الخيرية من وشك وثوب الحماة على الكنة والكنة على الحماة.. وهبر الشعر المتبادل والريح والجرصة التي تنتهي عادة بحردِ العروس عند بيت أهلها، أو الطلاق...

هذا الأخير لم يقع تلك الليلة لا هو ولا حتى الحرد. الحرد فيما أعلم وقع لما أزف موعد دفع القسط الثاني (ثلاثة أشهر) من أجرة العقار - المطعم - وطالبت به السيدة سعاد كاملاً ما فيه قرش مراعاة خاطر... وأما الطلاق فقد وقع بعد أن استطاع العريس اقتلاع وكيل بستان (عقربة) وإعطاء الإشراف عليه لآخر لقاء مبلغ مبحبح لم ير منه كرمو ليرة واحدة، وإنما من يد المستأجر إلى بنك التسليف الشعبي سقط لقط.. لشراء شهادات استثمار طويلة الأجل... هنا، تكثّفت حملات الحماة على (الغمة الجمدانة) وحملات مركو على (أبو عص) ومهاتفات الشتائم مع (نويرات) التي كان لسانها يظهر في أحسن حالات شحذه تقطيعاً في الخصوم ونهشاً بنفسها لأنها كانت عمياء حين وافقت على زواج أختها التي ما باس فمها غير أمها، الشريفة بنت الأشراف، التي أختها سفيرة اضرب واطرح، وإذا هي ترميها بين يدي قصيرة الجنّ، الآفة، القصّابة، شرّيبة العرق مع أولادها اللحامين أباً عن جد:

«أختي. هذا الطائر المغمَّض، لا تسامحني دنيا آخرة على ماجنيته في حقها تقبر قلبي»... وترد الحماة وقد لعبت لها حمامة ورأت نفسها في هذه المعمعة في مائها تماماً:

- إي روحي انضربي في شكلك المبعجر مثل الخابية المشرشة من الرطوبة، نويرات الزفت، وشوفي طائرك المغمض ال قاحمة ركبتها، الصافرة الشيب، أم طقم أسنان نصف عمره ال مشتريته من عند حفّار قبور الله العليم! صدّقت الغمة الجمدانة أنها صح لها عريس مثل طربون الحبق. نقطة في المصحف مثل ابني.. والله ما أنا مزوجته إلا واحدة من عمر حفيداتها من بلد الألمان حيث كان يدرس.

كاتب هذه الأسطر حتى لا يجنف على الإنصاف، يميل إلى الظنّ أن بند طقم الأسنان الوارد في سلسلة اتهامات أم محمد، ربما كان مبالغاً فيه بعض الشيء.

* * *

نعيمة زعفران

نصف نهار فقط

عندنا في البلد يقولون إن ترك التدخين، على من يتعاطونه من الصفر، أصعب من قلع الضرس دونما بنج.. ولا كذلك حال المدخنين على كبر.

المرحوم أبي كان من الفئة الأولى إذ تعلمه وهو مراهق فلم يطق الإقلاع عنه في عمره كله أكثر من نصف نهار.كيف كان ذلك؟ ولماذا نصف نهار فقط؟ هاك البيان: في أحد أعياد الفطر، اليوم الثالث، أفاق مفتي البلدة، وإياه أعني. وهو يقول لنا في إلحاح كأنه يريد أن يتمرن على ما يقوله استعداداً لاستكماله وإلقائه في أمكنة أنسب:

- أم العيال، لا تغلي لي فنجان قهوة. القهوة أنتم تعلمون تجر السيجارة وأنا قررت بإذن الله ترك التدخين.

أمي ونحن الصغار لم نفهم بُعدَ هذا الاستهلال الصباحي. أمي استغربت لأن فنجان القهوة منذ زواجهما طقس صباحي لم ينقطع إلا في أحوال المرض. أخي الأكبر، على أنه أجسرنا، غلف تساؤله بكثير من التهذيب والاحترام.

- ياب (يا أبي) أملنا ألا يكون السبب صحياً لا سمح الله؟

استأنف الأب خطبته/ البروفة:

- لا، أنا لا أشكو بحمد الله من أي شيء. ولكنني وافقت وأنا أجيل في رأسي هذه الفكرة: في مثل سننا، الكهولة، ماذا يتبقى لنا من المتع؟ لا شيء مذكوراً. وإذا بقي القليل فقد الطعم الذي كان له لما كنا في مثل سنكم أنتم الفتية والفتيات.. وأعلّقُ هذه المتع، تصوروا، السيجارة، ويا لها متعة مهزولة مكرورة مقيتة مؤذية للمال، وللأبدان. التبغ هو اللذاذة التي بقيت لنا؟ أي سيدي بالناقص منها.

وكان تدخينه مضراً حقاً بالمال والأبدان، لأنه، أولاً، يدخن كثيراً، ثانياً يدخن، مذ هو مراهق، خليطة مكلفة من تتن قرة ضوغان، أبي رائحة، المجلوب من جهات اللاذقية، وتبغ أخي تركي يشبه دخان (الينيجه) المعروف، يضاف إلى ذلك دفاتر سيجارات ماركة (الشام) لأنه كان يزيد متعه بمتعة لف اللفافات بيديه الرقيقتين تشبهان يدي عازف بيانو.

قلنا إنه كان مفتي البلد، وأحد وجوهها، وقد جرت العادة أن يخصص اليومان الأول من كل عيد لاستقبال المهنئين، وأما اليوم الثالث فهو يوم رد الزيارات.

وأضاف إلى الخطبة فقرة جديدة، مبرراً جديداً لإقناع نفسه أغلب الظن. قال:

- هل حسبتم مرة كم بيتاً نزور في اليوم الثالث من أيام العيد؟

كان العدد كبيراً جداً. في بعض الأعياد كان يصل الثلاثين.

- افرضوا أنها نحو عشرين، ثلاثين.. إذا اقتصرنا على أصحاب «القناقات»..

«لقناق» كلمة تركية تعني المضافة والمجلس لأن البلدة كانت لا تعرف الفنادق تلك الأيام والغريب ينزل عادة في أحد هذه القناقات. أما قناقنا نحن فيحصل هذا الاسم تجوّزاً لأنه في الأصل زاوية شيخ الطريقة الرفاعية، الصيادية، أبي، ودار الإفتاء فيما بعد..

نحو ثلاثين قناقاً، اضربوا لي إياها بفنجان قهوة حلوة في كل قناق، زائد أربعة، خمسة فناجين قهوة مرة زائد سيجارة سيجارتين.. كم يصير معنا في اليد يا سيد مواهب (هذه لأخي الله يرحمه الله)؟

- كثير والله يا ياب!

لم يكن أبي يعلم أن مواهب يدخن مذ هو مراهق.

واستكمل بمعونة أمي، لبسته. كان أنيقاً. العمامة يلفها على نحو لا يباريه فيه شيخ في البلدة أبداً. عندما يبدل الشاش، يضع الطربوش على ركبته ويروح يهندس الطيات كأنه نحات كبير. والجبة من أغلى أنواع الجوخ وألطفه تحت اللمس. الطقم الإفرنجي وربطة العنق الغلاسية اللماع.. بكلمة إذا خلع الجبة ظهر كأنه سعد الله الجابري بعمامة.

وبدأنا نركض وراءه من قناق إلى قناق.. لو كان علينا أن نرد زيارات الناس العاديين (أصحاب القناقات يمثلون زعماء أحياء أو عمداء أسر) لوجب علينا وصل شوال بذي الحجة! إذن كنا نخرج من قناق وندخل ما بعده، أبي في المقدمة ونحن وراءه مثل المهار بألبستنا الجديدة التي سهرت في الفراش معنا ليلة العيد حتى الصباح.. وأحذيتنا القاسية «تزقزق» وتضربنا في كعوبنا وكواحلنا وأصابع أرجلنا لأنها ليست أحذية كيفما اتفق، حاضرة مثلاً، ولكنها تفصيل شغل حذّاء الأسرة أباً عن جد..

استمر ذلك العذاب الجسدي الملازم لكل عيد حتى ما بعد الظهر: كل قناق جديد، متى ما يقدم الخدم - أحياناً صاحب القناق نفسه احتراماً لنا - القهوة وعلبة السيجارات كان المرحوم أبي يبدأ بتقديم تنويع جديد لنظريته المستحدثة في اللذات التي نَصَل لونها مع تقدم السن وقل عددها مع هزالها حتى لم يبق غير التدخين الذي تهافت في ميزان المتع حتى تساوى الاستمرار فيه وهجره.. أكثر من هذا، كانت بعض تنويعاته، بما قرأ الكثير من الكتب العصرية (رأينا بين أوراقه ملخصات لأكبر الفلاسفة اليونان والمحدثين مستلهمة من كتابي زكي نجيب محمود وأحمد أمين عن الفلسفة اليونانية الحديثة) تحلّق عالياً حتى لتكاد تسحر الحاضرين الذين كانوا يثملون بطبقة صوت، «الخطيب» وفصاحته أكثر من نشوتهم بالمعاني التي لم يكونوا يفهمون منها شيئاً في مثل هذه الأحوال كان يبسط في حذق، دون أن يذكر الأسماء، فلسفة أبيقور في اللذة والألم ويظل متتبعاً خط الفيلسوف المنطقي إلى أن ينتهي إلى هشاشة التعلق بعادة كالتدخين. حينما كان يصل إلى هذه النتائج المفهومة طبعاً تسري بين الحاضرين البسطاء همهمة استحسان أو دعوات «الله يكرهنا فيك يا سم الأفاعي أنت يا سيجارة الكلب!».. في قناق وحيد آغا المعلم. تصور، رمى أحد الحاضرين «باكة» التبغ الحموي مع يمين طلاق؟ ألا يعود إليها طوال عمره.

عدنا إلى البيت بعد الظهر عرقنا مرقنا على رغم الطقس الربيعي. من الباب صاح الوالد عصبياً جذلاً في آن معاً، نادهاً أمي:

- عيوش، علبة التبغ!

- حالاً يا سيدي!

يظهر أنها نسيت مجلس الوعظ الصباحي.

نحن، أخي، أنا، أولاد عماتي الذين لم تزل خطبه طوال ما قبل الظهر تسكن مسامعنا.. خيل إلينا أنه يمزح!

لا مزاح ولا هذر!

ها هو ذا قالي التدخين، وفيلسوف هجره والاستغناء عنه، يقبل على علبة التبغ فينقر عليها نقرات عذاباً كأنها الدعاب ثم يفتحها ويبدأ يتنسم عبقها، ثم ينسل دفتر ورق الشام من غطائها الداخلي حيث «شكل» بعناية بوساطة ما يشبه النابض.. ثم يكب بأصابعه الهيفاء الفاتنة يلف سيجارته الأولى ذلك النصف النهار بطوله.. حتى إذا ما فرغ منها ولصقها برأس لسانه، أشعلها من قداحة لطيفة، أنيقة من جنس علبة التبغ ولون معدنها.. وامتص مصة غير عنيفة ولكنها مديدة مستأنية.. حينئذ فقط انتبه، من خلال سحائب الدخان الرمادي، إلى وجوهنا المذهولة.. فلم يُحجِ أخي الجسور إلى طرح سؤال خجول متجاسر اذ بدأ هو خطبة لطيفة، وديعة، بصوت قراره الطمأنينة والغبطة والاقتناع يفلسف هذه الفكرة الجديدة:

- الكهول، ما عسى أن تدع لهم السن من لذات ومتع؟ الأكل خل عنك مع هذه الأسنان المرقعة بالجسور والحشوات والأسنان الذهبية.. النزهات في الكروم، من ذا الذي تسعفه ساقاه على الضرب في الدروب القاسية؟»

وهكذا يورد كل ما يخطر على البال من أسباب لإدخال السرور على القلوب وينقيها، إلى أن يبقى التدخين وحده متعة يتيمة ممكنة، فيتساءل:

- هل تُستكثر علينا، سامحكم الله، هذه المتعة المسكينة المهزولة الباقية لنا في زمهرير الكهولة؟

يقول هذا ويداه تتحركان للف سيكارة ثانية!

* * *

القسم الأول : «بعض أخبار الوافدين»

١ - حلاق دبي..، ونماذج أخرى
٢ - نعيمة زعفران

حلاق دبيّ .. و « نماذج أخرى »

قبل أن يتعاقد (خليل إبراهيم أحمد) مع هذه المؤسسة تعاقَدَه الأخير الذي لا يزال قائماً، سبق له، قبل سبع سنوات، أن عمل عشرة أشهر فيها وأقام علاقات صداقة مع أكثر موظفيها، واشتهر بوسواسه اللغوي وتزمته والأحكام على النصوص المقدمة، كما اشتهر معداً للبرامج ميسور العبارة، مُتَنَخَّلُ الأسلوب فلما استقال أبدوا أسفهم وأكدوا له إقامتهم على الود، هم الذين تنشب بينهم. كما في كل مكان، إحن مرة وضغائن وضروب من التحاسد ولاسيما إذا كانوا وافدين من بلد عربي واحد.. ولعل نجاته من الوقوع في مثل هذه الأجواء المستوبأة يعود إلى أنه مأخوذ كله بالقراءة والكتابة، واهيٍ التعلق بهموم الرواتب والعلاوات والترقيات.. يعني أنهم لم يجدوا فيه خصماً أو منافساً يذكر.. فلما وفد ليقيم نهائياً في هذا البلد الخليجي، بعقد خارجي في المؤسسة ذاتها بعد أن تغير ملاكها القيادي وتسلم منصب المدير العام زميل له قديم في الحجرة ذاتها وخصص له مكتب مع زميل آخر قديم، هرع إليه رفاقه القدامى كافة ومعدو البرامج الذين عُينوا في غيبته، وكذلك المذيعون الجدد (لم يبق أحد من القدامى).. واستبشر أهل الكاس والطاس واللهو والمزاح بعودته أخيراً لما عرفوا وسمعوا عن أخبار مجالسه الحافلة وسهراته البيضاء حتى الأسحار؛

من هؤلاء الجدد إنسان ربعة، نحيف، فيه خنث وتأنث وخصلة متمردة على عمد فوق جبينه يدردرها كل حين كالبنات أو يتركها على طريقة هتلر.. قدم نفسه، في لهجة من التواضع المصطنع لم ينتبه خليل إليها في البداية إذ قال:

- تلميذك عبد الكريم دهب.

فسأل خليل في براءة

- في الأدب والشعر.

وأضاف بعد وقفة: - أنا هنا بوصفي كاتب زوايا، وتمثيليات إذاعية إذا اقتضى الأمر، وهذا هو عملي في وطني الثاني، الأردن.

- وهذا البلد هو الثالث! مرحى. والله الموفق.

أحس خليل أن كل ما في الرجل مصطنع. عاد عبد الكريم يقول:

- هنا لا يوجد شعبة دراما ولذلك أنا أكتب لمصر وسورية والأردن والكويت. يا دوب ألحق.

- سورية أيضاً؟

- طبيعي. عندي طلبات كثيرة من التلفزيون السوري.

- عال جداً.. وهذه المحطات لا تزال تشكو من أزمة النصوص!

- ولكن مدفوعات سورية هزيلة نظراً لأن ليرتهم بستين سبعين فلساً.. شيء لا يساوي تعبه وأما في الأردن، بلدي..

- الثاني..

- إذا شئت.. فالدينار بإثني عشر درهماً وكسور.

- وتكتب لهم؟

- موصى على مسلسل سأقبض عنه ما بين سبعين إلى تسعين ألفاً.

- دينار؟

- لا، دراهم إمارات.

- وراتبك هنا، كم؟

- شيء لا يذكر. مثلك. هنا عندهم شيء اسمه السقف. أنا منذ تعييني سنة خمس وسبعين لم يزد راتبي درهماً واحداً، ولكن، أخيك أبو الكرم قد وقته: من البرامج الأخرى أحصل قد راتبي مرتين. أحياناً أقبض أكثر من أحمد حميد ذاته..

- أحمد حميد، مذيع التلفزيون؟

- ذاته.

كان خليل إبراهيم أحمد يعرف أحمد حميد هذا، طاووس شبه أمي، ولكنه، وراء الميكرفون يقوم بحركات بهلوانية ويقول عن الولايات المتحدة بفتح الواو خلافاً لمذيعي العالم كافة، وعن المرَجان بفتح الميم في سورة الرحمن «المُرجان» بضم الميم.. وهو يسكِّن أبدأ واو «لقوا» و«رضوا» و«نسوا» ويقول عن الخُطة المضمومة الخاء (لأنها تعني: المشروع أو المنهاج) خِطة بكسر الخاء.. ولكن الأنكى والأزرى أنه لا يعرف التجويد ويظن أن خطف ألف المد قبل الهمزة مثل «وأنزلنا من السمأمأ» وقراءتها «وأنزلنا من السماء ماء» منتهى الفصاحة... وهو يخطب في حيث لا حاجة به إلى أكثر من تقرير وقائع علمية.. هذا الأحمد حميد بهر الناس بأناقته على الرغم من أنها ريفية بعض الشيء وقامته الباسقة ووقع السين التي تخرج من فمه شيناً.. فاعتبروه زعيم المذيعين.. وما ذلك إلا من (القلة)؛ لأن مذيعاً مثل أحمد ومعدّاً مثل عبد الكريم دهب (هذا الذي نروي لكم قصته مع خليل الكاتب) إنما يؤلفان مدرسة من الغثاثة والتفاهة والغثاء الأحوى يكاد يتخلق بها الوافدون كافة، الذين نسجوا على منواليهما.. حتى إن الأجهزة التي يعملان فيها قد أصيبت بعوار وآفات لا شفاء منها..

وسأل خليل:

- هل لك مؤلفات منشورة؟

لا، بعد. ولكني أدليت أكثر من مرة بتصريحات أدبية للصحافة المحلية هنا أحدثت ضجة ودوياً كبيرين في أوساط المثقفين والمسرحيين والسينمائيين.. وأنا أقرض الشعْر أيضاً. وأما النشر في كتب فلا أهتم له كثيراً.. إذا كان نجيب محفوظ اضرب واطرح لا يصدر له أي من كتبه بأكثر من خمسة آلاف نسخة.. في حين أدنى مسلسل تلفزيوني أو إذاعي يراه أو يسمع اسم كاتبه الذي يتردد في كل حلقة من حلقاته عشرات الملايين.. فكيف يطمح عاقل إلى النشر ويترك العمل للتلفزة والإذاعة؟!

- إذن، أنت كاتب مسلسلات تلفزيونية؟

- مطلوب جداً.

- في الأردن، بلدك؟

- وفي مصر ذاتها نفسها.

- في مصر أيضاً؟

- طبعاً. ولي كذلك مسلسلات إذاعية.

- وهل بُثَّ لك شيء؟

- لا، بعد. ولكن مفاوضات تجري بيني وبين بعض شركات الإنتاج الإذاعي والتلفزيوني.

- ما هي الأفكار الرئيسية التي تطرحها في أعمالك التي لما تذع بعد؟

- رومانسية.

- والآن، ما هو عملك؟

- أنا أسهم في برنامج صباحي يومي، مثلما تقول: يقوم على كتفي وحدي، هو «صباح الخير» برنامج منوع.

- تقصد: كلمة تعقبها أغنية؟

- مدة ساعة ونصف.

- هل تطلعني على بعض كتاباتك في هذا البرنامج؟

لم يكذب خبراً، نهض كأنما دفعه نابض واندفع إلى باب الغرفة وعاد حاملاً مصنفاً ضخماً فتحه الجديد..

- أستاذ خليل سأقرأ لك أشياء من الماضي، نماذج (لفظها «نمازج» بالزاي) ومن بعد أقرئك بعض الجديد..

قال خليل وهو يمد يده إلى المصنف:

- لحظة من فضلك.

وقلب المصنف على اللصيقة التي في صفحة الغلاف الأولى وإذا هي مكتوب عليها بالخط الفارسي: (نمازج من إبداعات «صباح الخير»).

قال خليل: «من كتب هذه اللصيقة؟ خط جميل أه.

- هذا خط أخينا أبي الأدهم مراقب التنفيذ وعنده محل للخط والإعلان في حي السطوة.

- محل باسمه؟

- طبيعي، الله يرزقه ويرزق أمة محمد.

- والإدارة لا تقول له شيئاً؟

- تقول له ماذا؟

- مزاولة عملين في آن معاً.

- لا، هنا لا يفتشون في مثل هذه المسائل. حلال على الشاطر، أنا زوجتي مدرسة لغة عربية في المدارس الحكومية وفاتحة صالون نسوانية.. رئيس المرأب عنده سوبر ماركت..

- وأنت؟

- أنا أتقن الحلاقة، ولكن الإبداع الأدبي والفني يأخذ أكثر وقتي. الفن يا أستاذ مهنة حزينة، كما قال كاتب من بلدكم ذات مرة..

تسائل خليل بينه وبين نفسه: (هذا الشخص لم يسمع باسمي كاتباً فلماذا يهتم بي كل هذا الاهتمام ويعرض علي «إبداعاته» العبقرية؟ أغلب الظن أن صحبتي القديمة مع المدير العام الذي كان زميلاً لي في غرفة واحدة قبل سبع سنوات وذيوع العقد الخارجي الذي بعث به المدير العام إلي في الشام.. هما اللذان أدخلا في عقل هؤلاء المتعيشين أني ذو نفوذ كبير في المؤسسة أقضي وأمضي وكلمتي لا تصير اثنين لدى أعلى مقام فيها..»

ثم أن «الحلاق» كما سيلقبه خليل منذ تلك المقابلة ويذيع اللقب اعتذر بكثرة أشغاله وكون «صباح الخير» لولاه ما كان أصلاً، وأن آلاف المستمعين حتى في إيسالا بالسويد من الجاليات الإسلامية يضيقون بالإذاعات العربية

كافة إذا أوقف إسهامه في البرنامج يوماً واحداً (كما تتحدث مئات الرسائل التي ترد يومياً منهم ومن غيرهم).

وانصرف عبد الكريم وهو يقول:

- مكتبي هنا لصق مكتبك، تفضل أشرب كأس شاي عندي متى ما فضيت، أسقيك ما هو معروف في كافتريا الإذاعة باسم «كريم تي» أي: شاي كريم.

- أتشرف.

- هل خصصوا لك بيتاً في إحدى بنايتي المؤسسة هنا مقابل المستشفى؟

- لا، بعد. أنا ما أزال في دار الضيافة، ولكن مسؤول شؤون الموظفين وعدني بتدبير شقة لي هذا الأسبوع.

- وهكذا نصبح جارين في السكن كما نحن جاران في العمل.

- يحصل لنا الشرف.

بعد أن أنصرف عبد الكريم مكث خليل لحظات طويلة يستعرض في ذهنه «النمازج» التي عرفها في حياته وما أكثر ما عرف وفيها مشابه من عبد الكريم هذا.. فانتهى إلى أن يقرر:«قد أكون عرفت من يشبهه ولكن يستحيل التطابق المطلق. هذا نسيج وحده في الادعاء وقلة العقل والتشرب حتى الطفح بذاته حتى ليصح أن تدخله في قائمة المصابين بآفة تورم الذات!» وقفز فكره قفزة واحدة إلى صبري أرظروم رفيق الكأس في خمارة فريدي في الشام، ولكنه سرعان ما اعترف: شتان ما بين الاثنان! صبري يمتلك أغواراً وضروباً من المعاناة.. وأما هذا فمؤكد أن امرأته تعمل له ثلاث حفلات ضرب قبل كل طعام لهشاشته وخرقيته!»

وما إن تذكر صبري حتى اندماج الابتسام في وجهه ورآه كأنه محضر أمامه الآن يعلق على كلمة أحد الرفاق الذي قال له لما وجد قنينة عرق منسيه على السقيفة في بيت صبري بالهامة «صبري بك، بيت السبع لا يخلو من

العظام!» فندعك وجه صبري النحيل جلداً على عظم وقال له متقززاً «عظام، عظام.. هذه يفرح بها الكلاب، وأما السبع يعني صبري ارظروم فيحتاج إلى لحم، إلى هبر. صبري أرظروم لاحم في الأفكار والحياة. «هيدغر» مات ولم يخلف غير صبري وحده!.

وأطلعه رفيق آخر من رفاق الكأس على نص يمجد عبد الناصر الذي يعبده صبري، فلم يستطع قراءته لأن نظارتيه لم تكونا معه.. فقال متأففاَ «في الظلمة نحن عمي والنور الباهر يعشينا يعني أننا سنظل لا باردين ولا حارين.. أنا إنسان تيتون خارق، أموت رعباً من أن أكون بين بين!».

* * *

بعد نحو أسبوعين كان قد خصص لخليل منزل، شقة في إحدى بنايتي المؤسسة اللتين تشملان ستين شقة وباحة واسعة وحدائق غُلباً، ولكنها كثيرة البحص قليلة الخضرة فيها بعض نخيلات عجفاء إلا الجنينات الملحقة ببعض الشقق في الطابق الأرضي ويسكنها زملاء يحبون الأشجار والأزهار. هؤلاء جعلوا في هذه الجنائن، فضلاً عن الجنائنية الهواية، بستنة صغيرة ناجحة تنتج بعض الخضراوات..

وفيما هو عائد مساء ذات يوم من نزهته المسائية في حدائق المستشفى المجاور، ألقى القبض عليه عبد الكريم الدهب، الحلاق، متلبساً باجتياز الباحة إلى بيته ودعاه إلى زيارته:

- لابد لك من زيارة صومعة أخيك أبي الكرم ورؤية مكتبه حيث تولد إبداعات «صباح الخير» التي ذاع صيتها في أربع القارات..

سأل خليل:

- إبداعات صباح الخير وحدها؟

لم يفهم. قال:

- ألم تسمع واحدة منها!

حزر خليل أن الآخر غير ذَكُور، مخالفاً بذلك المثل النصيحة، إذ نسي أنه كاتب مسلسلات إذاعية وتلفزيونية تصدر إلى مصر ذاتها، أم المسلسلات والفن السابع غير منازعة..

ذهب معه.. كانت صالات الشقق في هاتين البنايتين طرازين: طراز بصالة واحدة، في هذه الحال يكون المطبخ مباشرة وراء باب الشقة الخارجي والصالة واسعة.. وطراز بصالتين يفصل بينهما المطبخ. شقة عبد الكريم من الطراز الأول شرفتها تطل على الجهة الجنوبية، أي على عيادات المستشفى المجاور الخارجية.. وهي أنيقة فيها ما يوجد عادة في صالون للحلاقة من أشياء صغيرة ورفوف عليها قناني ريحة وسشوار. الكنبة والمقاعد ذاتها جلدية لماعة أمامها مناضد صغيرة عليها مجلات وصحف.. تماماً مثل تلك التي توضع للزبون ليتسلى قبل أن يَفضى كرسي يقوم فيشغله ويبدأ القص والنتف في رأسه ولحيته.. في الصدر، قرب باب الشرفة، مكتب من مكاتب المؤسسة، صناعة بريطانية ووراءه خزانة من النوع المعد للصحون والأطباق وفي وسطه مساحة للتلفزيون.. أحد الرفوف وحده اتخذ مثلما تقول مكتبة.. دنا خليل منها ومد يده فنسل مجلداً من بضعة مجلدات حسنة التجليد وإذا هو مجموعة مجلة «الشبكة»، نتر المجلد الثاني وإذا هو «الكوكب»، الثالث كتاب عنوانه «ثلاثة آلاف نكته جديدة» الرابع يضم بضعة أعداد من مجلة الموعد.. بضعة المجلدات الأخرى كانت من حجم أصغر لم ير قياسه من قبل. مد يده إلى أحدها وإذا هي شيء لا علاقة له بالكتب إلا بالشكل.. التفت نحو الزميل مستفهماً قال هذا في لهجة لا تخلو من الاستغراب:

- ولكنها أشرطة فيديو.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها الأستاذ شريط فيديو. قال في برادة:

- فيديو، فيديو، مثل الذي نقرأ عنه في المجلات؟

لم يخطر للأخر، وهو المقيم هنا منذ أكثر من ست سنوات حيث الجهاز الألكتروني كما كان أبو حمدو رفيق خليل الأخر، في خمارة فريدي الذي

يخترع في اليابان اليوم يصل غداً إلى هذه المدينة العربية الأوربية الثابتة غير بعيد من صحراء الربع الخالي. قال:

- ههنا أشرطة فيديو من نوع فيامكس..

- ليش فيه منه، هذا، أنواع؟

بدأ رب البيت يفهم أن خليل يرى هذه البدع للمرة الأولى في حياته على الرغم من أنه سبق أن عرف عنها بعض معلومات ظلت غامضة لأنها لم تقترن بعيان. قال:

- أي نعم يوجد أنواع ولكلٍّ مقاس.

خيل إليه أنه سجل على خليل نقطة لصالحه: «إذا كنت مصيّتاً في اللغة والأدب ولك مؤلفات منشورة فأنت يا سيد خليل متخلف في علوم العصر والتكنلوجيا!» وقال له كأنما يسأل عرضاً:

- أنت حتماً تعرف تسوق سيارة. هنا السيارات مثل الخبز ضرورية جداً.

- لا والله، أنا ما تعلمت سوق السيارات (وأضاف مبرراً هذا العيب الجديد) عيوني لا تساعدني.. يظهر أن معي، ما خلا قصر النظر، ماء أبيض أو شيئاً من هذا القبيل:

ولم تلبث أن جاءت زوج عبد الكريم من الخارج ومعها خادم عرف خليل بعد قليل أنها سيريلانكية تكاد تكون بلون الفحم على هزال شديد يشكل تناقضاً صارخاً بينها وبين ستها التارة، الكناز، الربعة، البادية العجرفة والصلف كما توقع خليل.. وقبل أن تتقدم للسلام نبَّهت زوجها قائلة:

- عبد.

- نعم أم ساندي.

- شف لك صرفة مع هذه الحيوانة (تشير إلى الخادم التي مرقت إلى المطبخ).

- مالها؟ حمرنة جديدة؟

- كادت تقلب عربة ساندريلا وهي تدفعها..

(ولخليل من رؤوس شفتيها):

- أهلاً.

ومدت له يداً ميته كان يؤثر لو أنها لم تفعل ذلك لأن أكره ما يكرهُ إنما هي اليد الميتة التي لا حرارة فيها في التحية..

قال عبد الحميد وهو مشغول الفكر يتلفت ناحية المطبخ:

- الأستاذ خليل زميلنا الجديد.

قالت المرأة: أظن أنه كان هنا قبلنا!

قال زوجها: أي نعم، كان مراقباً عاماً للبرامج، المستشار اللغوي وصاحب برنامج «في اللغة» الذي بدأ يومياً منذ أسبوع. أنت حتماً سمعته.

- مش بطال:

قال خليل في شبه اعتذار وعلى استحياء:

- أنا لست بمجاز من كلية الآداب، قسم اللغة العربية مثل حضرتك على ما روى لي الأخ عبد الكريم ولكنني هاو. أبي المرحوم كان مفتي في بلدتنا الصغيرة في الشام الأعلى، لم يخلف لنا كثيراً من الأملاك ولكنه أورثنا كتاباً طريفاً جداً في النحو والصرف أستطيع أن أقول إنه سابق عصره على نحو من الأنحاء..

لم تكن تصغي. خليل بارع جداً في قفر الجليس الذي يصغي من الآخر الشارد الذهن.. تعلم هذا لأنه، قبل الإعلام، عمل بعض الوقت في التعليم. ولكن شرود هذه المرأة لم يمنعها من أن تظهر علمها أمام هذا الدخيل على الكار في تصورها. قالت، من رؤوس شفتيها دائماً:

اختلفنا نحن أستاذات اللغة العربية في معنى هذا البيت لعنترة:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عَرضَهُ.

أنشدت «عرضه» بفتح العين والضاد. بُهت خليل، فالبيت للسموأل، وسأل وقد استبدل بالحياء الدهشة:

هذا البيت أنشد بوصفه من شعر عنترة؟

الإعراض عن الإصغاء مستمر. وأضافت دون أن تجيب عن تساؤلاته:

- مستوى الاستاذات. ولاسيما الجائيات من قطر عربي معين متدن جداً ويزداد تدنياً. (لزوجها) تصور أن إحدى الزميلات أعربت يعموهن في قوله «دعهم في طغيانهم يعموهن» مفعولاً ثانياً لـــ «دعهم».. مع أنها لو كانت كذلك لكانت يعمهين بالياء والنون.

قال خليل في نفسه: «الله محيي المثل البيت:

لكل ساقطة في الحي لاقطة وكل كاسدة يوماً لها سُوقُ

اكتملت الآن صورة ما كان يجري في غياب خليل سبع السنوات تلك وما يزال، والعياذ بالله: حميد لغويٌّ المؤسسة، الحلاق كاتبها. الحلاقةُ يعمهونها هي وزميلاتها من القطر العربي الشقيق. العملة الرديئة تطرد الحسنة من السوق هنا أيضاً. ولن تلبث يا خليل أن تتعرف آخرين أشد رداءة من هؤلاء الوافدين المتسلبطين على الخليج المسكين ولن تلبث شكوى أحد أذكياء القلوب من المواطنين أن تـــظهر لك بكل هولها: آه منكم يا أخي يا أبا إبراهيم، لماذا لا تصدرون إلينا غير البضائع الكاسدة لديكم!

هذه المرة أحس خليل أن برجاً من يافوخه قد طار، وجعل يقول في نفسه على طريقة فتوات أهل بلده عندما يستقتلون، أي يضعون دمهم على كفهم ويصرخون: إذا دَنَت يا مرحبا بها.. والمنية ولا الدنية.. جعل يقول لنفسه: «الآن يا أبو إبراهيم ستضرب عرض الحائط بالتظرف مع السيدات، لأن هذه حتى ولو كانت امرأة ليست بسيدة!».. فبدأ خليل يوجه الكلام إلى السيدة أم ساندريلا وداخله يغلي ويفور كأنه قدر على نار عظيمة:

- اغفري لي بعض الجرأة على حضرتك: هل أنشدتن في المدرسة هذا الشعر بوصفه لعنترة وهل أنشدتن «عرضه» بنصب العين والضاد؟ عفواً سيدتي اسمحي لي أن أنتهي من أسئلتي كلها - لأن لدي أسئلة متجاسرة أخرى إذا أمرت - ثم أدع لك أن تجاوبي (قالها بقوة وحسم فكفت إطلاقا عن

مقاطعته) وهل أنت وزميلاتك تحملن الابتدائية أو المتوسطة؟ والمدرسة التي تعلمن فيها، أهي حضانة أم تمهيدي؟ ويعمهين في اللغة ما فيه. و «يعمهون» ليست إسماً حتى تكون مفعولاً أو فاعلاً أو حتى نائب فاعل.. يا أسفي على الأجيال التي ستتخرج على أيديكن و..

انقطع خليل ههنا. قطعه صوت صراخ ثاقب آت من جهة المطبخ، صوت عبد الكريم يجأر بالانكليزية وهو غاضب، ثم أعقب ذلك صوت صفعة، فعبد الكريم يصأى بالانكليزية مرة أخرى، ثم صوت الخادم السيريلانكية كما تبين من اللكنة الخاصة بالهنود وسكان الجزيرة... حينئذ رأيا، السيدة أم ساندريلا وخليل، ما لا يكاد يصدق حتى في قصص الجان: الأستاذ / النموذج، رب البيت منطلقاً من صوب المطبخ وخلفه على الأثر الخادم العجفاء جلداً فاحماً على عظم من خيطان السلوك وفي يدها ساطور.. لا نبالغن، قل سكين مطبخ ضخمة مما يجرم به اللحم قبل طبخه..

أم «يعمهون» ولولت دون اعتبار لكتاب سيبيويه أو لمغني اللبيب.. ونطت نطة واحدة إلى خلف مقعد خليل الجلدي قرب باب الشرفة.. عبد الكريم الدهب عز نصره لا تقول إلا أن وجهه لو ضربته الخادم عليه بالسكين لما نزلت منه قطرة دم.. ليمونة خالصة.. خليل، ابن الستين المبحبحة هو الوحيد الذي احتفظ ببعض الدم البارد، ومع ذلك أمسك بظهر كرسي خيزران وحال بين البنية الذئبة وطريدتها الحلاق، وخاطبها بصوت هادىء، حنون، مستخدماً النزر اليسير من الكلمات الانكليزية التي تعلمها من هنا خلال إقامته السابقة قبل بضع سنوات قال لها ما معناه «يا ابنتي العزيزة، هدئي من انفعالك وطامني من غضبك واحكي لي أيش هذا الذي جرى؟»

قال خليل وهو يروي هذه الحكاية في المؤسسة فيما بعد: «والله، لولا تسارع الأحداث بعد هذه الواقعة لما تركت هذه اللبوة تسفّر إلى بلدها على أثر هذا الواوي الخرقة الخرقة (يقصد عبد الكريم). لقد كان أملي ومناي أن أتزوجها بسنة الله ورسوله لو أنها رضيت بي، لأن فارق السن بيننا أكثر من٤٢ سنة. أي فتاة خارقة هذه المهرة الأصيلة مع هيكلها العظمي البادي. لو

أن الدنيا كان فيها عدل لكانت هذه هي الست وهاتان الخرقتان المبتلتان، أبو ساندريلا بلا قافية وأم ساندريلا بلا قافية هما الخادمين...».

وخليل لم يفهم ما كانت تقوله له الفتاة لما تشفّع بالاثنين لديها.. كان صوتها متهدجاً فيه وشك دموع لكنه كان طافحاً بالكبرياء والاحتقار والرثاء لنفسها أن تلجئها الظروف والحاجة إلى خدمة هذين الجروين وفأرتهما الصغيرة ذات الاسم الفرنجي في المهد.. لا بد أنها كانت تقول وهي تهز السكين الضخمة في يدها الأشبه بمحراك التنور: «اتركني عليه وعلى هذه المرأة الكريهة حتى أعلمها كيف يعاملون الناس ما داموا من منشأ وضيع لم يعلمهما غير النفخة الكذابة والفجعنة والعزة بالهبوط إلى أسفل سافلين. آه لو لم تكن هنا أيها الشيخ الكبير الرحيم العذب كقرص العسل، البسام مثل رضيع نائم!».

ثم إن الفهدة السوداء ألقت سكينها بين أقدامها فنقزا، ورفعت إلى خليل نظرة حار الشيخ في معانيها ولكن رقتها وعرفانها كانا واضحين من بين تلك المعاني الكثيرة التي حيرته وبدا له أنها أحنت رأسها فيما يشبه التحية وانسحبت إلى ناحية غرفة النوم.. المرأة، الست، استخرطت فجأة بالنشيج والشهقات العصبية. «سبع السبنبع» كما يقول أهل الشام تنفض وأعلن في تفخيم مخاطباً زوجته ولا أحداً في آن معاً:

- لن تنام هذه المجرمة هنا. أنا رايح أجي بالشرطة.

* * *

كان يسكن في الشقة رقم واحد من البناية التي يسكنها عبد الكريم مترجم شيخ في حيطان السبعين، شبه مقعد ولكنه ما يزال يعمل في البيت، أي أن قسم الترجمة يرسل إليه الأفلام والمسلسلات الانكليزية التي عليه يترجمها فيشتغلها في البيت، في الصالة الواسعة (شقته من ذات الصالة الواحدة، مثل شقة الحلاق) قرب النافذة التي تطل على الباحة فيهيئ للسيدة أم اليأس وله هو، أبي اليأس، مرقباً ممتازاً للاطلاع على أحوال الستين شقة: من يزور من؟ من عشق من؟ من يتسوق الخضار والفواكه بالصناديق والسلال ومن

يمتار لأهله بالقطارة.. هذا الشيبة - على حد قول أهل البلد هنا - سبق أن فتح النافذة أول يوم سكن فيه خليل البناية الثانية (التي تبدأ أرقام شققها من ٣٠ حتى الـــ ٦٠) وصاح به:

- أستاذ خليل، حلت البركات.

- بالمؤهل يا جارنا الكريم.

- نحن أيضاً نعرف كلمتين فرنسيتين غير الانكليزية التي نتقنها كأهلها. وشرع يغني بفرنسية جيدة.

دومينو، الربيع فيّ

أود أن أعشق

دومينو

وضحك الاثنان، أبو اليأس من داخل البيت وراء النافذة المفتوحة الزجاج وخليل تحت النافذة، في الباحة فوق مسكبة من البحص. قال أبو اليأس:

- وعندنا لأجل شوارب أبو إبراهيم راعي الحصان كاس ويسكي بلاك ليبل أصلي.

- هذه لا ترد، أدخل.

- مئة ألف أهلاً وسهلاً.

وبعد أن شربا كأساً وازدادا على تعارفهما الخاطف في المؤسسة حينما كان أبو اليأس يقبض راتبه. وقدم هذا الأخير زوجته أم اليأس السمينة التي لم تغير إقامتها في لبنان، منذ سقوط فلسطين، كلمة واحدة من لهجتها الحيفاوية حيث ولدت وعمل زوجها أبو اليأس سنوات طويلة في جمرك الميناء مع الانكليز.

أطال خليل الإصغاء إلى أم اليأس خصيصاً التي قدمت له تقارير مفصلة بكل، أو أكثر أهل البنايتين ومنهم زوجة عبد الكريم، الحلاق، وتكبرها وسيطرتها على زوجها حتى إنه أضحى «يكلم روحه» وهو هامش.. ولكن

أبا اليأس صحح لها هذه النقطة إذ قال لها إن تكليمه نفسه مثله مثل الخصلة المتمردة على الجبين مثل الأنف الذي يشبه ابن آوى ومثل دلائل العبقرية.. والدليل على ذلك أنه، الحلاق، قد أشاع أينما جلس أن شركات الإنتاج التلفزيوني والإذاعي في الأقطار العربية ما لك رجل تدوس على بابه، مع أن أحداً لم يسمع بأن مسلسلاً أو برنامجاً في أي محطة إذاعة أو تلفزة، إلا هذا البرنامج السليخ المليخ الذي (كما قلده أبو اليأس).

- عزيزي المستمع، بعد أن استمعت إلى رأي الزميل عبد الكريم في الصداقة والصديق والحياة والأحياء نقدم لك هذه الأغنية لفريد الأطرش: يا بو ضحكة جنان...

وضحكا على الكأس طويلاً.. وأحب خليل - كعادته في كل معرفة - أبا اليأس وأم اليأس ووجد فيهما نموذجين (لانموزجين!) جديرين بالكتابة عنهما طويلاً من قصص ومسرحيات ولكنه وجد في أبي اليأس خاصة شيخاً «شيبة» طروباً على قدر من الاطلاع وكثير من التجارب... وعلم منه أن الذي تدبر له هذا العمل المريح إنما هو ابن حزبه أحمد حميد، وهو حزب قديم انقرض أو كاد يموت زعيمه في أواخر الأربعينات ولكن أعضاءه اشتهروا بالترابط. ولم يأبه خليل لهذه التفصيلات لأنه - مرة أخرى كعادته - انبهر بالشخصية ريثما يبلغ ما يسميه «الطحل» الموجود في كل إنسان ولكن إنساناً يختلف عن إنسان آخر بمقدار بُعد هذا الطحل من السطح.. نقول، في بداية هذه المعرفة الجديدة تحمس خليل لأبي اليأس ورجاه بحرارة أن يشرفه بغداء أو عشاء وأن لا يتحرج من سؤال أي شيء يحتاج إليه من السوق لأن خليل، في إعادة تعرفه بالبلد بعد غياب سبع سنوات، دأب على النزول إلى سوق الخضرة بحي الكرامة. قال أبو اليأس:

- نقبل دعوتك أنا وأم اليأس بكل سرور. وأما من حيث سوق الخضرة فأنا لا أرفض، حتى ولو كان كل نزلة تنزلها إلى السوق، أن تحضر لي ما تستطيع حمله من اللوبياء، لأن عمك أبا اليأس وامرأته يهيمان بهذه الخضرة السماوية.

- حاضر. بكل سرور.

ذلك المساء، بعد الوقائع العاصفة، التي كان خليل شاهدها، استأذن من السيدة زوجة العبقري بعد أن ترك زوجها البيت إلى مخفر شرطة المستشفى وتسلم المصعد ونزل حتى الباب الخارجي للبناية حيث وجد أبا اليأس في مرقبه من النافذة كأنه ينتظر خروجه من عند الحلاق.

- أبو إبراهيم.

- أمر أبو اليأس؟

- الباب مفتوح.

- حاضر ولكن ما معي لوبياء.

ضحك الشيبة وازدادت صلعته لمعاناً تحت أضواء الصالة التي بدأت تشعشع وقال:

- وأما أنا فعندي كاس بلاك ليبل.

- والله يابو اليأس يجي بوقته.

- تعال احكي لي.

ما أن دخل ورحب به الزوجان واستأذنت أم اليأس:

- لحظة وتكون كأسك قدامك ولكن لا تحك حرفاً واحداً أبو اليأس في غيابي ايش أقول لك؟

- تأمرين أم اليأس.

هم أبو اليأس وهو يعرج أن يستند إلى طاولة السفرة الشاسعة (وهي التي يتخذها مكتباً في الوقت نفسه) ليغلق النافذة فنهاه خليل.

- ألم تر عبد الكريم خارجاً وهو يأخذ أذياله بين أسنانه قبل أن أنزل أنا من عنده بلحظة؟

- بلى.

- الآن ستراه عائداً وهو مخفور؟

- مخفور؟ ليش؟ ليش فيه إشي؟ إحك إحك.

- اترك الشباك على حاله وانتظر حتى تعود أم اليأس من المطبخ حتى أحكي لك أعجب ما حدث في هاتين البنايتين منذ أن بنيتا حتى يومنا هذا.. ولكن خل عينك على الباحة.

وجاءت ربة البيت ذات العجيزة الضخمة والوجه الفضولي والحركة السريعة التي تتناقص مع عجيزتها الرابية وسنها المتقدمة وبدأت رواية الأحداث الملحمية التي عاشها أبو إبراهيم قبل قليل في بيت «حلاق اشبيلية» كما سماه أبو اليأس.. وأما أم اليأس، فلم تكد تترسمل بالخطوط الأولى للأحداث حتى ركضت على ساقيها القصيرتين إلى حيث جهاز الهاتف في أقصى الجهة المواجهة للمائدة عند باب البلكون وركبت رقماً وقالت تكلم الطرف الآخر من الخط:

- جورجيت.. الله يسلم عمرك أين أنت.. إذا كان شغلك الذهب طبّيه من يدك وتعال يا أمي مثل البرق.. عبد الكريم كادت شغالته أن تذبحه.. أي نعم، زوج أم نفخة.. عمك خليل سماه الحلاق وأبوك سماه حلاق اشبيلية..

وكف الرجلان الشيبتان عن الإصغاء إلى هواتف أم اليأس (لأنها لم تكد تنتهي من جورجيت حتى تسلمت أم فوزي) وراحا يعلقان على الحادثة. سأل أبو اليأس:

- لم تستفهم لي عن اسم الخادمة؟

- اسم سيريلانكي صعب لم يعلق في فكري.

- تعال نسميها اسماً يناسب إنجازاتها العظيمة في هزم سبع البرمبه.

قال خليل: نسميها جان دارك، وإن كان هَزَمُ واحد مثل أبي الكرم ليس انتصاراً كبيراً مثل تأليب الشعب الفرنسي على المحتل الانكليزي.

فجأة، بعد الكأس الثانية، لما توقع خليل أن يزيد أبو اليأس شفوفاً وظرفاً وابتعاداً عن شواغل أدنى المعيشة كما يقول ذو القروج.. ازداد الرجل دنواً من خليل وقال له في لهجة تواطؤ:

- ايش فيه عندنا فوق؟

لم يفهم خليل شيئاً، لا طريقة الهمس ولا من ألفاظه:

- فوق؟ يعني أين

- في محيط الكبار أصحابك؟

- الزعماء العرب؟

- ولك لا؟ زعماؤنا نحن، المدير العام ومن لف لفه.

- تقصد أحمد حميد والمحاسب ربحي وزكي رئيس شؤون الموظفين؟

- أحمد حميد لا تذكر لي إياه أبداً، بتاتاً.

- لماذا؟ ظني أنه ابن حزبك!

- كان.. أيام كنت أنا مثل ما تقول وزير مالية الحزب.. ولكنه لما وصل، هذا الوصولي، غلب (المحمديٌّ) الذي فيه فتى الحزب الذي رضع لبانه وهو ابن أربعة عشر عاماً على يدنا نحن اختيارية الحزب، رفاق الزعيم.. نسي أيام كان يأتي إليّ في بيروت مثل القملة المفعوسة من خوفه من الأبهة والهنار اللذين كنت فيهما.. وإذا هو يعمل علي هنا رئيساً ومرؤوساً..

- عفواً، عم أبو اليأس، كأني سمعت خطأ. هل قلت عن أحمد إنه محمدي؟

- ماذا تريدني أن أقول، أليس محمدياً مثلك؟

- غلب على خليل الضحك من هذا السبعيني الذي ينتمي إلى حزب ملحد ولكنه يقول عن واحد من حزبه إنه محمدي كأنه ينبزه بقوله (كافر أو آبق).. قال خليل:

- لا، نحن إسلام.

- إسلام، محمديون، كله مثل بعضه بعضاً.

عاد خليل لا يطيق صبراً. قال في نفسه:«ولو يا بو اليأس، ظننت أن طحلك بعيد المستقى، أن مرضك وشبه كساحك وغربتك شفَّت من روحك

حتى رفعتك فوق التعصب ونظرة الخنزير المقوس في اتجاه واحد. ماذا فعلت هذه الأحزاب الشمولية في إنساننا الطيب، المتسامح، الغفور؟.. أيام الاحتلال كان واحدنا يعيش دهراً مع المسيحي، وقبل إسرائيل، مع اليهودي ولا يفكر في أن يسألهما عن دينهما..» ثم إنه قال لنفسه كلاماً كثيراً أميل إلى الحزن، بيد أن طبيعته الممراح وظرفه الطبيعي انعطفا به عوداً على بدء إلى مزاجه المعتاد، الرائق فقال إجابة عن تساؤل أبي اليأس الذي قذفه كأنه شتيمة من غيظ كظيم نحو أحمد حميد:

- لا يا عم أبو اليأس، نحن إسلام لأننا نؤمن أن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكنه لم يشأ إلا أن يخلق أمثالك من حزب متعصب.

في لحظة خاطفة ظنها نكتة، فتضاحك متوجساً فاغتنم خليل الفرصة وقفز مغيراً الموضوع قائلاً:

- طال غياب حلاق اشبيلية في المخفر.

- وقال في نفسه: (مؤكد أني سأهجر الويسكي بعد اليوم حتى ولو كان ممتدح السيرة من بلاط صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمى بوصفه سكوتلندياً من «المالت» الخالص.. ولكني، حتى ولو صادفت كل يوم حلاقاً جديداً أو أبا اليأس جديداً لن أهجر مراقبة «النمازج» وما أكثرها في هذا البلد الأممي حتى ولو متّ همّاً كما يقول المثل).

* * *

بعد نحو سنة، سنة ونصف من إقامة خليل الجديدة في البلد بدأ يقدر هذه الإقامة حق قدرها ويتبين أن العيش فيه نعمة، ويسر وسياسة حكامه حكمة ونظرة واقعية للأمور والجغرافيا والتاريخ.. كل هذا عال العال لو أن هذه الحلاوات التي لا تنضب كان فيه عبق امرأة! كان يقول في نفسه: ««أبعد ست سبع زيجات وحياة في أوروبا لم تنم خلالها ليلة واحدة إلا وعلى كتفك اليمنى رأس جميل على الرغم من أنك أفلس من طنبورة مقطعة أوتارها.. وها أنت يأتيك راتبك رغداً وتذيع زواياك الإذاعية (الحلاق يكتبها:

إزاعية!) وتقبض عنها الفلفل والقرنفل، كما يقولون في الشام،.. ومع ذلك لا تعانق في الليالي الطويلة، وكلها ظريفة، دافئة أو باردة من التكييف على هواك.. إلا الوسائد والأغطية!».

هذا الكبت طوال السنة والنصف وجد له خليل أقنية في الصحافة. عمل في خمس الصحف الموجودة في الدولة. ومن كتابها علم أن أكثر الذين يعانقون الوسائد، ويبقون مع ذلك مسهدين يهرعون إلى أقرب مكتب أسفار فيقطعون تذكرة طائرة ذهاباً وإيابا إلى.. بانكوك.

وكان قد تعرف عرضاً على فتاة تايلاندية من أصل صيني، في عمر أحفاده أعطته عنوانها في بانكوك فسافر إليها. بداهة ألا يفكر فيها، ولكنها، لطبيعتها ولطافتها سألته:

- بابا، ألم تشبك واحدة من فتيات الفندق؟

- كلا.

- لماذا بابا؟

- أخاف المرض والأطباء الجنسيين الحرامية، فقد ابتلى أحد زملائي في المؤسسة بوسوسة صحية لجأ على أثرها إلى طبيب اسمه..

- بابا أنت ثرثار.

- لماذا؟

- كنا في شئ صرنا في شئ آخر. أنا أسألك: ألم تتخذ لك صاحبة من فتيات الفندق، يعني جيرل فريند؟ فتجي بسيرة لها أول مالها آخر عن طبيب دجال!

- طيب اسألي فلا أخرج عن الموضوع: لم أتدبر أمري لأني أخاف. عرّفيني بامرأة من سن السيدة والدتك، يعني مثلما تقولين في حيطان الأربعين تتناسب مع باباكي وإياي أعني ابن الستين مبحبحة.

- قم معي إذن.

- إلى أين؟

- إلى بيتنا.

- لماذا، لتعرفيني بالسيدة الوالدة؟

- لا، الوالدة لها زوج هو أبي وتسكن بعيداً من بانكوك.

- إذن؟

- جارتي في البيت.

- ما أسمها؟

- مالا.

- توكلنا على الله حلوة؟

- الآن تراها.

- أرملة؟

- لا، على وشك الطلاق من زوجها.

- لماذا؟

- لم يتفقا.

- لها أولاد؟

- صبيان.

- مسلمة؟

- لا. بوذية.

- وزوجها؟

- مسيحي، وأطمئنك، هي عادت لا تحمل.

- والله يا ست ريتا أنا ما عندي مانع، وإن كنت أتمنى أن تكون قادرة على أن تجئ لي بصبي.

- لماذا، أليس عندك أولاد؟

- عندي ولد، مشطوط.. فاذا جائني آخر ساقوه إلى العسكرية وخلصت منه..

* * *

لا أحد يطلعك على خفايا بلد تحل به للمرة الأولى مثل النسوان. أخذت ريتا خليل إلى بيت يجب أن تعبر النهر لكي تصل إليه من الفندق الذي نزل فيه. بيت تايلاندي نموذجي (رجعنا إلى النماذج) كان من عادته متى ما حل ببلد عليه أن يهرع إلى أقرب مكتبة تبيع كتباً أجنبية ويشتري منها دليل البلد باللغة الفرنسية، اللغة الأجنبية الوحيدة التي يلم بها ألماماً حسناً لأنه درس في باريس في أوائل الخمسينيات.. غير بعيد من الفندق الذي يقع في منطقة أعظم معبد من المعابد الثلاثة آلاف التي تضمها المدينة العاصمة بانكوك، عثر على مكتبة فيها كتب فرنسية عن الديانات والصلوات البوذية، وفيها أثار أدبية مترجمة من التايلاندية إلى الفرنسية.. بيت مالا وريتا كان نموذجياً لأن سكانه تايلانديون أصلاء. كيف؟ أغلب الظن أن هؤلاء الناس يعشقون الأرض ويجلون الحيوانات مثلاً: في بيت مالا طاووس وببغاء وكلب روح قلبه اللعب مع قطة نزقة كثيراً ما تضربه، وقد يتفق الاثنان، فيما يكون ابنا مالا إلى المائدة بالقمصان والبناطيل القصيرة أن يدغدغا راحات أقدام الصبيين...

«مالا» أمرأة في التاسعة والثلاثين راقت جدا لخليل ولكنها لا تعرف كلمة واحدة من أي لغة غير التايلاندية. عندها سيارة صغيرة (زوجها صاحب كراج تصليح).. استقبلته بقميص النوم. جسدها مثل الزبدة الغنم، عذوبة في الوجه، أميل إلى السمنة، تخجل مثل بنت الأربعة عشر.. صعدت به إلى غرفة نومها ومعها ريتا مترجمة.. تصور الغزل في هذه الحال. لغة خليل الانكليزية ليست خيراً من انكليزية مالا، يعني شبه لاشيء.. ولكن ذكاء فؤاد ريتا الرائعة ومعرفة لها قديمة بقليل من الفرنسية جعلتهما يستنبطان لغة ثالثة هي التي استخدماها في سؤال مالا إذا كانت توافق على الانتهاء من طلاق زوجها نهائياً ما داما في حال انفصال جسدي كما يقول المسيحيون...

غرفة «مالا» تقع في الطابق الأول، كل البيت من الخشب، الطابق الأرضي لما في البلد من أنهار ورطوبة - لا يتخذ للنوم أبداً.. قعدوا يتفرجون على التلفزيون.. الولدان أطلعاه على كتابهما الانكليزي الأول.. استفاد منه أبو إبراهيم لأن أكثر الكلمات كانت مصورة: Cat قط، لأن قرب

الكلمة صورة قط.. خليل بوصفه ابن عرب مفجوعاً تظاهر بأنه يود أن يشرح لمالا أسرار اللغة الانكليزية فأدنى وجهه من وجهها حتى كاد يقبلها.. يشمها، رائحة أنوثة.. حبور وغبطة عظيمان.. الأولاد تعشوا ويوشكون أن يناموا لأن عندهم في غد مدرسة.. خليل اقترح على مالا وريتا أن يذهبوا فيتعشوا عشاء تايلاندياً أو صينياً لا يخلطه خالط ولا ينقصه حتى الشاي بالثلج.. قامت المرأتان فلبستا، أمامه تقريباً. مالا هي التي ساقت السيارة القديمة المكلثمة.. قبيل المطعم استأذنت ريتا التي كانت في المقعد الخلفي أن تنزل لتشتري حاجة عرضت لها. بقي خليل ومالا في السيارة وحدهما. التفت نحوها. كان وجهها مشغولاً. اكتشف من بعد أنها كانت غارقة حتى أذنيها في تركيب جملة بالإنكليزية وُفقت بعد لأي ووشك عودة ريتا إلى قولها: أي أم لافيو! قال لها في شبه صراخ فرح: «مي تو، وحياة مالا!».

لم يكن قادراً على البقاء أكثر من أسبوع، فاتفق ومالا من خلال الترجمانة على أن يغيب بعض الوقت تكون مالا خلاله قد فرغت من الإجراءات القانونية للطلاق فيتزوجان. في هذه الأثناء تقرأ هي بعض دروس في كتاب ابنها الصغير حتى تكون نديدة له في اللغات الأجنبية على الأقل.

ما بقي من الوقت لم يكادوا يفترقون إلا في أخر الليل. القيلولة كانوا يمضونه في فندق خليل حيث يحتل غرفة بسريرين. فرّجاه على أكبر عدد من معالم المدينة التي يشبهونها بفينيسيا لعوم الاثنين فوق الماء.. ولكن شتان ما مدينتان إحداهما أوربية كانت دولة تجارية جمة النشاط شاركت مع سواها من الدول الأوربية منذ بداية عصر النهضة، أو منذ روما، في العملية المتصلة، عملية نهب الغرب للشرق والإثراء على حسابه رغباً أو رهباً حتى تطوّرَ الأمر إلى استبدال الرهب المتمثل بالقوة الغاشمة بالرغب. ما أجمل هذا الشعب الذي استطاع، نسبياً، أن يحتفظ باستقلاله طويلاً، ولكن الغرب لم يدع له هذا الاستقلال أو شبه الاستقلال إلا بعد أن جره إلى معارك أثخنت فيه وأدخلته في مجموعة الشعوب الشحاذة. لقد قرأ خليل في أحد الأدلة التي اشتراها من المكتبة ما معناه:

«نحن شعب تحت مستوى الفقر»

ويضيف الكاتب على هذا الدلال الساذج:

«ولكن شعبنا يجد دائماً ما يضعه تحت أضراسه فلا يموت جوعاً، يجد أحياناً الشبع..».

وأما وجه الشبه مع فينيسيا فهو أيضاً يحمل على أشد الأسى، ذلك أنك تجد أحياناً أحياء بأكملها، مثلما في فينيسيا، عائمة، ركائزها الخشبية غاطسة في النهر، ولكن أي نهر، كأنه ماء الجلي بعد غسل طناجر وصحون مسودة من النار والزفر.. أحياء عائمة وأسر كاملة تحيا في قوارب مسقوفة بالتوتياء يكاد سكانها يقبعون تحتها في سراديب لا يرون من خلالها ضوء النهار ولا يشمون أنسام النهر العظيم.. أما البعوض فمن الجحافل والبطش والجبروت أن أبحاثاً تجرى في الأوساط العلمية التايلاندية لكي يُضَرّى نوع من أنواعه التي لا تحمل جرثومة الملاريا فيفترس النوع المحدث للملاريا.. ومع هذا كله يقدم إلى تايلاند سنوياً مئة مليون، ويقال أكثر، من الزناة والشاذين جنسياً وحاملي الأمراض الجنسية الفتاكة فينفقون مئات الملايين يفترسها بدورهم الرهبان المتبطلون وتماثيل بودا من الذهب الخالص والقصور التي يرتع فيها ويمرح الملك/الراهب الأكبر فيما تغص شوارع العاصمة الجميلة الوارفة بأشجار جوز الهند، بألوف مؤلفة من الشحاذين الذين يحاصرون بعض معابد تفاخر فيها «بودا من الذهب الخالص وعيناه من الحجارة الكريمة وزنه خمسة أطنان..

* * *

قال الراوي: لا تواخذونا على هذا الاستطراد، أي الخروج على الموضوع وهو فينا خُلق متأصل، ونحن يعلم الله أننا قد أعدنا كتابة هذه الحكاية أكثر من مرة، كل مرة كنا نخفض من استطرادتها قدر المستطاع.. ولو تركناها كما هي في الكتابة الأولى لرميتموها من أيديكم لثقلها وفظاعة التشريق والتغريب فيها. وحتى هنا لم تقرؤوا ريتا تقول لخليل أنه ثرثار.

جاء دور حلاق دبي. عاد خليل من بانكوك كأنه منوم، مسحور. خاف أن يكون قد فاته شيء من جمالات تلك الرحلة فلم يسجله في دفتر يومياته هناك. أكب على نقل متفرقات اليوميات واستذكار ما لم يضعه فيها.. إلى أن وصل إلى وداع مالا وريتا والولدين في المطار.. وكيف بكى هؤلاء الناس الطيبون وهم يرونه يغيب ذاهباً إلى قاعات الانتظار المخصصة للمغادرين. قال في نفسه: «طوال ذلك الأسبوع كانت اللغة تجعل بينك وبين هؤلاء الناس حاجزاً صفيقاً. في أحسن الأحوال تلف بضباب كثيف كثيراً مما أردت أن تعلمه علم اليقين.. ولذلك ليس أمامك إلا الرسائل فيما بقي لك من وقت يفصل بينك وبين ميقات رحلة العودة إلى مالا بانكوك أو بانكوك مالا.. وهو ما - لا غنى لك عنه.. يعني ليس لك إلا الحلاق الذي طالما فاخر بأنه بلبل في الانكليزية، وأن هذه اللغة سبق له تدريسها للسيدة زوجه لما كانت طالبة في الثانوية، وهو الأمر الذي كان وراء هذا الزواج السعيد (وضحك للذكرى) الزواج الذي كنت قد رأيت فيه مشابه من زواج العناكب حيث تنهش الأنثى الذكر نهشاً قاتلاً بعد السفاد.. رُح يا رجل وقل له أن يكتب لك رسالة الرسائل، الرسالة الأولى لما لا يطيق القلب صبراً عنه..

كنية الحلاق، لا مؤاخذة، على العريض: أبو أحمد.. وقال أبو إبراهيم خليل لبو أحمد على سن ورمح:

- بو أحمد أنا قاصدك، أقصد قاصد لغتك الانكليزية التي تجي بخبر مرغريت تاتشر.

استجاب الصوص للحكي العريض وقال:

- يا مرحبا بأبو إبراهيم. أمر؟

- والله يا محفوظ السلامة ما يأمر عليك ظالم، أنا قاصدك بخدمة.

القصة وما فيها أن عمك أبا إبراهيم عاشق.. على مهلك: لا يذهب فكرك بعيداً.. في سننا ينتفي الغرام الذي قال فيه الشاعر:

ولو لم يكن في الحب سخط ولا رضي فأين حلاوات الرسائل والفكر.

قال أبو الكرم:

- الله «يديّك» طولة العمر..

معسها أبو إبراهيم لأنه في حاجة إلى علوم الآخر الانكليزية، ولم يقل له إن هذه «يديك طولة العمر» هي المكتسب الوحيد، ربما، الذي تعلمه من كتابة المسلسلات نكاية بالمصريين.. ذلك أن كل ما تمنفخ به عن الخناقات التي تنشب بين أصحاب شركات الإنتاج الفني على باب داره كذب بكذب، أو إذا أردنا تعبيراً أكثر تهذيباً وتحضيراً قلنا إنها نوع من الأمنيات والتشوق إلى ما يحب عبد الكريم أن يكون غيرة منه من هذه الطوفانات من الأعمال الفنية حوله وحواليه لا عاصم له منها ولا متنفس إلا من هوائها.. وهكذا تبين أن المسكين خالي الوفاض بادي الإنفاض إلا من هذه «الموهبة» موهبة جمع الكلام الذي يشبه الأكل في المنام، النافل الذي لا يثاب سامعه ولا يعاقب الطافش منه إلى حبل يعصمه منه ما دمنا قد جئنا على الإشارة إلى ابن نوح قبل قليل.. تبين أن كرومه لا يصلح إلا لهذا، ولشيء آخر ظهر فيه ابن بجدتها: «البث المباشر» الذي لا يختلف كثيراً عن «صباح الخير» و«إبداعاته» و«نمازجه» التي أضحت حديث الناس من رأس الرجاء الصالح إلى إيسالا في السويد..

قال خليل:

- كلمتين ورد غطاهما..

- ولا نصف كلمة قبل أن أبوس رأسك، هذا الذي يبدع (مولع أخونا بالإبداع، هكذا طبعه أمنت بالله!) البرنامج المصيت حتى ليقال أنه يشبه «صباح الخير» مال أبو الكرم وأعني «خاطرة المساء».

قال أبو إبراهيم في نزق فعل من يريد التخلص من هذا الدبق:

- بُس رأسي خلصني.

الحلاق يبوس.

- أنت حالق، هذه بوسة الحلاقة. ولكنها لا تكفي.

- ماذا أيضاً؟

- تشرب «كريم تي» (يرفع السماعة ويركب ثلاثة أرقام الكافتريا) يا مصطفى تو كريم تي تو كريم يعني عبد الكريم.. جلدي (جلدي هذه هندية تعني: بسرعة!).

- أي سيدي في انتظار الشاي أود أن تنقش لي رسالة عابرة قارات.

قال العبقري يقاطعه

- وحتى بعد شرب الشاي قدامك مفاجأة يخبئها لك زميك وحبيبك أبو الكرم، أو أبو أحمد، ستسر قلبك وخاطرك لأنه يعلم تماماً أنك تفرح له من قلبك من جوة عندما تراه يفيض إبداعات كل يوم جديدة..

- الله يجيبك يا طولة البال! ولك أخي لنا هذين السطرين للمخلوقة وبعدها أبدع ما تشاء..

عبد الكريم يقوم إلى خزانة المصنفات. يقول خليل:

- نمازج أخرى؟

- شي فوق فوق، لم يبدعه قلم من قبل (يفتح مصنف «النمازج») ههنا يا طويل العمر، برنامج تلفزيوني خارق سيضرب حتى الإذهال ويشد المشاهدين مهما تكن لغتهم (يغمز خليل) وحتى أفهم أحمد حميد الطاووس أني إذا كان راتبي الأساسي لاشيء أمام رواتبه وتعويضاته فأنا من البرامج أحصل قد راتبه وتعويضاته إذا لم يكن أكثر.. أسمع يا بو إبراهيم وأقرأ قل أعوذ برب الناس وانفخها في وجه أخيك أبي الابداعات من شر حاسد إذا حسد، أولاً: الشارة. صورة: صوت فريد الأطرش يغني. صوت:

يا بو ضحكة جنان مليانة حنان..

(بلهجة تواطؤ هامسة): البرنامج كله همر.

- أيش هذي هَمَر؟

- يعني فكاهة بالانكليزية.. كله همر وضحك.. بعد ذلك تبدأ التيترات: «يا بو ضحكة جنان» برنامج ضاحك من إبداع الكاتب الكبير عبد الكريم أحمد دهب..

وجاء مصطفى الكافتريا بالشاي، بكريم تي، وناضل خليل نضال الإبطال المستقلين حتى استطاع صرف الحلاق عن حديث إبداعاته إلى (الخطين) اللذين يريدهما لإرسالهما إلى مالا المنتظرة على نار في تايلاند. قال لما ذهبت رياح الآخر:

- مثلما قلت لك. كلمتين ورد غطاهما: فُضي مسألة الطلاق المعلقة بينك وبين والد الصبيين. اكتبي لي ولو كلمتين بالتايلاندي لأطمئن على صحتك. متى ما اتسلم منك رسالة تفيد إنجاز الطلاق نهائياً أحضر لعقد زواجنا في إحدى القنصليات العربية إذا لم يكن في بانكوك تمثيل قنصلي سوري. قبلات، يعني هذه أنا أعرفها Kiss .

أشعل صاحب «يا بو ضحكة جنان» سيكارتين «وكمان وكمان».. شفط. كانت كأس الكريم تي قد انتهت من أمد. هاتف مصطفى مرة أخرى. طلب اثنين كريم تي إضافيتين. حك غرته المتمردة على الجبين خلقة، فزادت تمرداً وشعثاً. أدار في فضاء الغرفة نظرة فارغة، شاردة، تكاد تكون مجنونة، أو إذا شئت الدقة محترقة بنار الخلق مثل الإبريق الفخار بعد أن ينتهي من القالب ويساق إلى لـــ «يُفخَّر»، شحطة سيكارة ذات زخم متعاظم. الحلاق يمسك القلم يحرن في يده لحظة مديدة، ثم فجأة يأتي الإلهام دفعة واحدة فيكتب ثلاثة أسطر طلقة واحدة (من الطلق عند المخاض لا من البندقية) ويتوقف لاهثاً. خليل يكاد يصرعه الفضول. ينهض على رؤوس أصابع قدميه يدور خلف عبد الكريم. يشرئب من فوق كتفه. يقرأ وهو مروع، لا يصدق عينيه هذه الكلمات التي كتبت بأحرف كبيرة حتى إن السطر لا يتسع أكثر من أربع خمس كلمات بالكثير.

«دار لينغ فؤادي

أصغي إلي يا معبودتي

عدت لا أستطيع التحمل

توبي أورنات توبي ذات إز كويسشن

«To be or not to be that is the question

كاد خليل يصاب بداء السكت. قال متحشرجاً وهو يقبض على كف عبد الكريم الصغيرة كأيدي البنات، كف طرية مثل الخس قبض عليها وعلى قلمها جميعاً بيده اليمنى ومد يده اليسرى إلى ذقن (الكاتب) التحرير ولفت وجهه نحوه بشيء قليل من الشدة:

- ايش هذا؟

- مثلما قرأت. ايش فيه؟ أليس شيئاً مبتكراً في عالم الرسائل الغرامية؟

- هل كنت تكتب، أيام الخطبة، مثلها لزوجك الحالية؟

- طبيعي.

- الآن فهمت الأمر..

- سر أيش؟

- ولا شيء. هذه الكلمات هنا لشكسبير أليس كذلك؟

- بلى، من مسرحية، مسرحية أيش يا بو أحمد اللهم صل على النبي..؟

- أفهم ولكن ما دخلها هنا؟

- دخلها؟ عجيب سؤالك.. أسوق لك شكسبير ذات نفسه.. أنا درست..

- لا تكمل. الحق ما هو عليك يا «إبداع» الزفت ولكن الحق علي أنا الحيوان الذي يصدق كل نفخ ينفخه المنافيخ أمثالك علي. في حياتي لن أتربى، كأني لم يكفني كذب أخر مطلقاتي وابني وثلاثة أرباع العالم الذين هم حولي وحوالي في المؤسسة والصحافة وكل مكان. العمى، وحياة كتاب الله لن يقصف عمري ناقصاً عشرين سنة إلا النفاخون والكذابون والدخلاء وأصحاب ال كلا كلا الذين يبلعون المنديل فيخرجونه من فمهم حمامة.. الله يلعنني في سبعة الكتب إذا لم أتعلم الانكليزية وأكتب لمالا بنفسي.. قال توبي أرنوت توبي قال..

هذه الجملة الأخيرة قالها وهو يفتح باب الغرفة، وأكملها في الممر بعد أن صفق الباب صفقة هزت الجدار..

* * *

إبداعات الحلاق ماشية لأنه المعد الوحيد القادر أن «يعد» كل ما يطلب منه، سياسة اقتصاد، أعياد، برامج دينية، هَمَر، مسرح، الخ. قليلة هي البرامج التي لا تدخل فيها، مثل رسالة إلى مالا، كلمة هاملت «تكون أو لا تكون تلكم هي المسألة» قليلة كذلك هي الصفحات «الفنية» في الصحف والمجلات (ماغازين) التي تخلو من مقابلة مع معد البرامج عبد الكريم دهب، ومن تحصيل الحاصل أن تنزل صورته أنفه الواوي الأعوج ووجهه الذي يبدو كأنه مر بملزمة تجليد كتب.. وبداهة. الخصلة المتمردة على الجبين مع تصريح خطير عن.. عن ماذا؟ أنا أقول لك. فناننا صاحب «الإبداعات» أَرضَةُ أشرطة فيديو. طوال النهار العين التي تراه في المكتبة يغلي ما يرد إليها من أفلام سواء ذات موضوعات مستقلة: فرنسة بعض مسرحيات شكسبير ثم ترجمة «السكريبت» إلى العربية.. تلفزة بعض كوميديات موليير وترجمتها إما على الفلم كتابة أو ترجمة منطوقة تأتي المؤسسة مع المادة الفلمية.. أي سيدي، بما أن الرقابة معدومة على إعداد البرامج، إما لأن الرقباء لا يعرفون شيئاً مذكوراً، أو من «القلة» واقتصار جهاز الإعداد على الحلاق واثنين أو ثلاثة أسوأ منه وأكثر ادعاء ولا اختصاص وأكثرهم (الكار ما هو كارهم إطلاقاً).. أقول بما أن الحال على هذا المنوال فقد لعبت للحلاق حمامة وخلا له الجو فباض وصفر.

* * *

في السنة الأولى لعمل خليل في المؤسسة اقتصر عمله في زوايا إذاعية نقدية مسائية يومية تحت عنوان «خاطرة المساء»، ثانياً قدم والمدير العام برنامجاً طريفاً (قراءات شعرية) تكلم عليه الناس ونوّه به أساتذة آداب ولغة عربية في الجامعة. ثالثاً: برنامج يومي «في اللغة العربية». رابعاً، برنامج أسبوعي: قراءات في القصة القصيرة المحلية.. ومن جهة أخرى ما يزال يذكر من كانوا يستمعون للإذاعة (لم يكن في البلد تلفزة) قبل سبع سنوات برنامجاً طريفاً كان يقدمه خليل، متواضع المطالب لأنه حديث في الغباء المسرح اعتقاداً منه أننا، في البلدان العربية كافة، نحرق المراحل زيادة على

اللازم: أكثر من سبعين بالمية من قومنا أميون، الثلاثون بالمية الباقون، سبعون بالمئة منهم درسوا وحملوا الشهادات الجامعية، حتى قبل أن تخصص الجامعات في تخريج الأميين المثقفين كما هي الحال بعد انتشار وباء الثورية والدعوة إلى ثقافة (تغير الوجود) لا تشرحه وحسب أو تفهمه وحسب بل تغيره نقول حتى في ذلك الزمن الطيب للجامعات لم يكن المتخرجون من الثانويات يدخلون الجامعات في سبيل غاية علمية وإنما تحسينا لأوضاعهم لأن راتب المجاز الجامعي يكاد يبلغ ثلاثة أشغاف حامل الثانوية وحدها.. وأما بعد انتشار وباء الأحزاب الوحيدة والزعماء الوحيدين وتغير الوجود فقد دخل بقية السبعين بالمئة من الثلاثين بالمئة في عصر الأمية الجامعية كما رأيت في حال السيدة أم ساندريلا حاملة الإجازة في الأدب واللغة العربيين، زوج صاحب «الإبداعات» الذي تنزل صوره كل يوم في الصحف والمجلات بحكم انتشار وباء الأمية الثقافية حتى في الدول العربية غير الثورية.. المدير العام، خلال إحدى جلساته المؤنسة مع خليل، تذكر برنامج هذا الأخير عن أبجدية المسرح قال:

- أبو إبراهيم، هل تعلم أني ما أزال أذكر برنامجك الإذاعي خفيف الروح عن أوليات المسرح؟

كان يحبه كل واحد، حتى الذين قلعوا أسنانهم وأضراسهم في هذا الكار.. كانوا يجدون فيه شيئاً جديداً من حيث الشكل أو من حيث تذكيرهم بمنسياتهم الأولية في اليمين، اليسار، الكواليس، المستوى لأول، الخ.

قال خليل متحننا: «يالها أياماً يا أخي! هل تصدق أني بعد ذلك البرنامج أغربت بالكتابة للمسرح حتى كدت أهجر القصة القصيرة والشعر (يتضاحك) فيه عندنا في الشام مثل يقول (والداري بخطاط امرأة الأعمى مَن).

- خطاط، ما هذا؟

- هو شيء بين الكحل وتخطيط الحواجب.

- الله يرضى عن أصحاب العلم الكحلي.

- شكراً.

- لا، ارفع المزاح. ما قولك أن تجدد هذا البرنامج بروح جديدة؟

- والله فكرة لا بأس بها، ولكن ينبغي لي أن أعود إلى شرائط البرنامج القديم في مكتبة الإذاعة.

- لماذا هذا؟

- من قبيل الاستئناس. ويجب علي أن أبحث في الأشرطة الأخرى الخاصة بالمسرحيات المقتبسة من المسرح اليوناني مثلاً، الكلاسيك..

- خل عنك هذا.

- لماذا؟

- أولاً، لأن كل الأشرطة القديمة أو أكثرها مُحي واستخدمت الأشرطة لتسجيل برامج أخرى.

- خسارة.

- أنت لا تحتاج إلى نماذج إذاعية.

- أحتاج إلى ماذا إذن؟

- إلى مسرحيات متلفزة.

- أنت تقصد أن البرنامج هذه المرة سيكون تلفزيونياً؟

- طبيعي، الإذاعة عندها ما يفيض عن حاجتها من الإنتاج المتوفر ومن البرامج المحلية. التلفزيون هو الذي يفتقر لمثل هذه المواد الترفيهية التعليمية في آن معاً.

- ولكنني طول عمري إذاعي.

- صر تلفزيونياً. العصر عصر التلفزيون كما تعلم.

فكر خليل قليلاً ثم قال:

- المادة الفيلمية تحتاج إلى من يعرف موجودات المكتبة في التلفزيون.

- هذه ميسورة. ليس لها غير الجرذ.

- حزرت من هو.

- من؟

- الحلاق.

- مال المكياج؟

- لا، عبد الكريم دهب.

- هل لحقت تلقبه؟

- من أول أيامي في الإذاعة.

ضحك:

- الله يجيرنا.

- لا تخف، أنت مدير عام.

- هذه أنكى.

- وللحلاق لقب آخر.

- ما هو؟

- توبي أورنات توبي.

المدير العام يركب رقماً ثلاثياً: عبد الكريم.. رح بعد قليل إلى غرفة خليل واستمع منه إلى ما يطلبه منك.. لا تتعالم عليه هذا معلمنا كلنا. استغفر الله. في أمان الله.

يضع السماعة. قال خليل:

- لو أنك تدبرت لي أجيراً أقل تورم ذات.

قال المدير العام وقد تبلج وجهه الأسمر الطيب مغتبطاً:

- سبحان الذي خلقك، دائماً عندك شيء جديد اصطلاح جديد تطلع به علي.. ما هذه الـــ «تورم الذات».

قال خليل ضاحكاً:

- وى يا بو إسماعيل، هذا مرض العصر وأظهر ما يكون عندك في المؤسسة ومن «الوافدين» من نواحينا على وجه الخصوص. ألا ترى أننا كلنا

عباقرة في بلادنا ولولا هذه الوطنية والهيمان بوحدة الأمة العربية داء عضال فينا لما أثرنا التغرب إلى بلاد الرمال والأحد عشر شهراً ونصف الشهر في جو من رصاص مذاب وجواني حمام مال البخار...

قال الآخر:

- ما يخالف، تحمله من أجل خاطري ستجده إن شاء الله «أجيراً» على حد تعبيرك أطوع من الخاتم في أصبعك. لا تنس أن هذا البرنامج يهمني.

- على العين والرأس. اللهم ألهمني الصبر على ذوي الوجوه الحامضة.

وتسلم المصعد النازل إلى مكتبه وهو يقول لنفسه في إثارة من أسى: والله لولا هذا الرجل الذي يقطر طيبة لما كان لي مطمح في غير الاستسلام إلى الكسل وكتابة القصص النافلة بين حين وآخر من دون أن أترك وأنا في هذه السن التي لا ينفع لها شيء مثل الراحة ونومه الضحى أما كان أسلافنا على حق في التغزل بنؤوم الضحى، ولاسيما إذا جعلتها نومه الضحى بعجيزتين كأنهما رفان قابلان لصمد أدوات الزينة. ما كان أغناني، لو أن الدنيا دنيا عن الهجولة والجفاف حتى التيبس في هذه الصحارى الأنيقة، حسنة التبريد!..

* * *

واتفق خليل والحلاق على أن يجتمعا في بيت الأول ذلك المساء ذاته (ليضعا الخطوط الكبرى للبرنامج العتيد). فلما كان المساء جاء الحلاق من شقته في البناية الأولى يسعى. دعاه خليل إلى صالة السفرة، الأولى. أحضر له شاياً وحلوى ودفاتر وأقلاماً. وما إن استقر بهما المجلس حتى قال خليل:

خّذ ورقة واكتب يا سيد عبد الكريم.

قال الآخر وهو ينفذ وقد ظهرت عليه علامات الفكر:

نقول من قبيل العنوان.. يجب أن نقول شيئاً لم يسبقنا إليه أحد.. ماذا نقول؟

- اكتب مثلاً، بكل بساطة: «المسرح من الألف إلى الياء» أو: المسرح من ستارة البدء إلى ستارة الختام...

- لا، هذه أوجه (يكتب) المسرح من شارة البدء إلى شارة..

- ستارة وليس شارة.. ما أشد ولوعك بالشارات!

عبد الكريم يصحح وهو يردد:

مّن ستارة البدء إلى ستارة الختام.

- اكتب: «إعداد خليل إبراهيم وعبد الكريم دهب».

توقف عبد الكريم عن الكتابة. حرن بغتة وهبط وجهه وتطبقت جبهته ثنيات كامدة وبرطم. قال خليل:

- مالك؟

جمجم الآخر بكلام غير مفهوم. أعاد خليل الكرة:

- ولك ما بك، أحك. ما هذا الذي تبربر به مثل حاخامات اليهود؟

عاد يصدر رؤوس الجمل:

- اسمي أنا..، لا، كنت لا.. فهمت غير شي.

- ولك فهمني بم ترطن.

- كنت أقول إن أنا.. اسمي.. شد.. المستمعين...

مثل لمح البصر خطر في ذهن خليل خاطرة، ولكنه استبعدها مستهولاً: «هل هذا ممكن؟ مستحيل. لا بد أنك فهمت خطأ يا بو إبراهيم.. غير معقول أن يخطر للولد مثل هذا الخاطر ولو من مسافة فضائية! ولكن ماذا لو أن غروره ونفخته الكذابة أقدمتاه على مثل هذا الاحتمال غير المحتمل؟ تعال نسبره، ماذا سنخسر» وعاد يقول له:

ولك عبد الكريم قل لي ماذا تريد أن تقوله لي صراحة. كف عن هذه الخنخنة رايح تطلع خلقي هه.

عاد الآخر يجمجم الكلام ولا يتبين منه إلا كلمة: «أنا» وكلمة: «اسمي».

قال خليل أخيراً وقد أعتزم المغامرة بالإفصاح عن هذا التفسير الجسور لهرير الحلاق وهو ما يزال في شك من أن يكون أصاب الهدف ونطق بالصواب ولم يظلم لرجل:

- على ألا تكون قد ذهب فكرك إلى أن وضع اسمك مقترناً باسمي إنما يحط من قدرك..

- أنا اسمي، لا تزعل، أنا لم أقصد، أنا لا أهين أحداً.. أنا، الناس كلها، تعرف، اسمي...

- يعني أن تفسيري...

عبد الكريم مستمر وبصره إلى المائدة:

.. له مكانته ولا أريد له أن..

لا تريد له أيش! أن ينال منه جواره مع اسمي..

وقال خليل في نفسه (إذن لم أكن مجازفاً لما ذهبت هذا المذهب في تفسير خنخنة هذا الخاسر. هذا الذي كان ينقصنا: أن يرى مثل هذا القزم، الخرقة، الأمي الذي تضربه زوجته أم عين مشتورة ثلاثة أحذية قبل الطعام.. أن يرى نفسه أرفع منك.. يا ضيعة عمرك يا ابن أبي خليل..

قالوا في الشام: خل العسل في كواره حتى يجي بمقداره.. أنت العامل في هذا الكار منذ أكثر من أربعين سنة.. وفي الاذاعة منذ وجدت في الشام.. ولك في السوق أكثر من عشرين مجلداً منشوراً ما عدا ما في الأدراج.. أ إلى هذا الدرك أوصلتنا الغربة مضيعة الأصول!).

كان داخله يعج عجيجاً بشتى الانفعالات منها ما هو براكين تفور وأعاصير تدمر ومنها ما هو أميل إلى لا مبالاة الحكماء الأساسية وهدوئهم المستطرف أمام غرابة الواقع ولا معقوليته ولا واقعيته.. من هذا العجاج والرهج وصبا نجد مجتمعة. قال الآخر في لهجة هادئة الظاهر متنافر هدوؤها مع حدة الكلمات كأن ذلك مرتسم لما يجري في داخله:

ولك كلب، أ إلى كعبي تتجاسر فتتطاول يا خرقة يا بزاق. شف بعد ثانية ونصف الثانية إذا لم أراك وقد تسلمت باب الزقاق هذا وصرت في المصعد، إذا لم تنفذ كسرت لك عنق الديك الأعجف المنتوف هذا الذي تحمله بين كتفيك ولعنت والد التي قامت عنك يا ابن.. يا بو الغرة المخنثة المتمردة...

* * *

الصفحات السابقة تسلمتها من الراوي صديقي (محمد أحمد) الذي عرف خليل إبراهيم عن كثب، وقامت بينهما - ولا تزال - علاقة صداقة حميمة ومعها الرسالة التالية:

«أخي الكريم، هذه القصة واحدة من بضع قصص أرسم فيها نماذج لمن يسمون هنا بالوافدين، ويقصدون الآتين من البلاد العربية (لأن الآخرين يسمونهم: الآسيويون) لما لاحظته من تخلق هؤلاء، منذ انغماسهم في المحيط الخليجي، بخلائق جديدة يفرضها هذا المحيط ليس أبرزها عبادة الدرهم. ولعلك في النماذج (وليس «النمازج» كما يكتبها ويلفظها عبد الكريم دهب!) القابلة أن ترى خيطاً غير منظور يكاد يربط فيما بينها أو فيما بين تسعة وتسعين بالمئة من هؤلاء الوافدين وهو ما لاحظته إحدى زميلات خليل إبراهيم، وهي مواطنة، خريجة الجامعة الأميركية في مصر حينما أسرت إليه قولها: «والله يا عم خليل أنتم، في بلادكم تصدرون إلينا - إلا فيما ندر - الناس السيكوندهاند دائماً من أمثال عبد الكريم دهب وأحمد حميد وأبي سعيد بزك (هذا له فصل خاص إن شاء الله) وكمال باذنجان.»

قال إن هذا شرحه يطول ستأتيك تفصيلاته أول بأول، وخلنا الآن في هذه القصة التي فرغت من كتابة جزئها الأول اليوم ١٩٩١/٥/١٨، وما كاد يوم العشرين من الشهر يأتي حتى فنّش توبي أورنات توبي المسكين (فنش منحوتة من الانكليزية وتعني: أنهي عقده، طرد) وهو أمر نال استحسان الجمهور التلفازي على بكرة أبيه - إلا إياي وخليل إبراهيم، الشهادة لله - وزاد استحسانهم أن الحلاق سرّح في نفس الوقت مع كمال باذنجان المرابي

وصاحب التماثيل (نحات) المصممة للبشر ولكنها في الواقع المنفذ تشبه قرود الأورانغ أو تانغ. إن تسريح الحلاق سيكون موضوع الجزء الثاني من الحكاية. وقد كان في البداية نوعاً من التخيلات لما يمكن أن تكون عليه ردود فعله إزاء الحادث، والسيدة زوجه، ولاسيما أن الصحف، في صفحات المنوعات، أنشأت بنوع من التزامن غريب، تنشر كل يوم صورته في إيضاح أرتستيّة ومعها خبر عن إبداعاته والخصلة التي على الجبين أكثر ما تكون تمرداً وشروداً عبقرياً.. والوجه أكثر من أي وقت مضى شبهاً بالواوي، اللهم لا تجعلنا نحكي كلمة كبيرة.

وهكذا وجب علينا أن نعود فنصل ما انقطع من حديث الحلاق وما جرى له بعد التسريح من مغامرات ونحن لا نتوخى من حكايتنا هذه، وغيرها، إلا ما كان يستهدفه قدامى كتابنا من رسم صورة قد تنفع الناس في تأليف (خيالي) للجو الذي نعيش فيه نحن الوافدين وعشرات الألوف غيرنا ممن تزيد أعدادهم يوماً بعد يوم حتى أمسينا ننافس - ديموغرافياً - الهنود والباكستانيين والفلابنة...

تعال الآن نزيدك علماً، أو نزيد علمك بنوع البرامج التي كان يقدمها الحلاق و«يعرّق» يجرم منها الألوف ويسميها إبداعات ومادتها كلها مما اصطلح على تسميته «مواد ربط» وهي، كما قلنا، كلام ليس له أي معنى، لا يضر ولا ينفع.. ينقله المعد عادة على أفقية أوراق الروزنامات، وأما إذا أراد أن «يبدعها» بقلمه فإنما يفعل، مثلما في حادثة «توبي اور نات توبي» على نحو سليخ مليخ لو لم يكن عاجزاً عن «إبداع» خير منه لقلنا إنه من أنصار الفلسفة الكلبية يستهين بالقائمين على المؤسسة وجمهورها وكل أحد مثله في ذلك مثل مترجم عرفناه كان يتضاحك وهو يروي أخبار هزوه من الإدارة والمشاهدين إذ نسي مرة «ريلاً» (جزء من فيلم) كاملاً لم يترجمه ولا من شاف ولا من دري.. وأما الحلاق فمن أين تريده أن يأتي بالجديد المطرف أو المستحدث الذي يعلمك أو يضحكك أو يحثك على التنقيب والبحث أو التفكير في خلق السماوات والأرض.. مادام هو إنساناً مسكيناً، جاهلاً، بعد الثانوي لم

يقرأ كتاباً واحداً، لم يقرأ غير الأسطر المكتوبة بالعربية ترجمة للأفلام التي يسطو عليها ليعلق على مادتها متخذاً منها برامج تشتريها منه المؤسسة التي (كله عند العرب صابون).. في هذه الحال، أي إذا عف عن نقل أوراق التقاويم (وقلما فعل) فهو لا بد كاتب - إذا كان البرنامج صباحياً مثل «صباح الخير» الذي يشد الناس،.. من رقابهم حتى يكاد يخنقهم - أقول لا بد كاتب مادته الرباطة هنا على النحو التالي:

* * *

من يوميات خليل إبراهيم:

١٠/١٥ دخل عليّ صباحاً المكتب عبد الكريم دهب أو الحلاق أو توبي أور نوت توبي! منذ متى لم أره؟ منذ أشهر طويلة يقيناً. ومنذ حزيران الماضي، لما حكيت، طوال سهرة بأكملها، حكايته معي لمحمد أحمد غاب اسمه وذكره في أدراج النسيان، وهذه عادة منعمة في: أنفعل حتى الغليان، من شخص أو من واقعة، فإذا ما حكيتها، أو حتى أخذت بخطوطها الكبرى رؤوس أقلام حتى لا أنساها، أي لأظل «حاقداً» على صاحبها، أو ربما كفاني أن أرويها لصديق - كما هي حالي مع محمد أحمد الذي إذا غاب أكب إليه بما يعذبني أو بما يطرفني - وما أن أفرغ من رؤوس الأقلام حتى أراني وقد همد احتقاني بالغضب حتى أعود مثل سماء بعد مطرة ربيعية.

كان يحمل محفظة «كارتابل» على طريقة الحلاقين المطهِّرين. ركز المحفظة على مكتبي وهجم علي يعانقني، وهي عادة منه «مرذولة» لم يستطع التغلب عليها أو صرفها مهما تكن العلاقة بيننا في ذروة صفائها أو في غاية من اعتكارها، مثلما هي الحال لما طردته من بيتي بعد معركة المسرح التي رويناها. وقد نعتّ عادة العناق التي من هذا النوع الخالي من العاطفة والكرامة بـــ «المرذولة» لأني وجدتها حكرة فئة من الناس تميزت خصوصاً بالجبن والتسطح والوصولية والتخنث... أرجو عفوك، أنا لست بمعلم للأخلاق حتى أفيض في صفات ما أراه رذيلة معينة، ولكنك إذا كنت في الأصل لا تحب تقليد العناق بين الرجال، كما فعل ذات يوم المسيو جوبير

وزير خارجية فرنسا لما أظهر تعجبه لهذه العادة المألوفة بين العرب.. ولا تراها في موضعها بين جنسين مختلفتين، رجل وامرأة، فكيف لا يتضاعف نفورك من عناق شخص لا يكن لك أية مودة، لا يكن لأي من زملائه أي حب، لأنه في الأصل عاجز عن الحب؟

إذن، هجم علي الحلاق يعانقني في حرارة. وكنت قد نسيت هذه العادة منه فلم أحرك ذراعي وأما خداي فقد أسلمته إياهما شبه ميتين، وباردين من المكيف الذي لم يستطع نسيمه تبديد رائحة عرق شنيعة طفرت من جيده، من خلال قميصه المفتوح حتى السرة أو يكاد على طريقة أولاد الزي والحلاقين الأكابر.. وبعد العناق «الحار» جر مقعداً من وراء أحد المكاتب الكثيرة التي أضفت على مكتبنا شكل ردهة في البنك.. ظل يجره ويقربه من مقعدي حتى ألصقه به وقال:

- أي سيدي، من أولها.

- شوهي هذه التي تريدها من أولها؟

لم يفهم. قال يصل حبل أفكاره المسبقة.

- قصيدتاك فوق فوق. و «فوق فوق» يريدون برنامجاً إذاعياً كاملاً عنهما.

القصيدتان اللتان يقصدهما هما مرثيتان في الحاكم السابق نشرتا في الصحافة المحلية ووجد فيهما أهل الشعر ضرباً من الرثاء جديداً لما فيهما من تأملات عن الموت والحياة...

سألته: «هل قرأتهما أنت؟».

- إذن لماذا أنا هنا؟

- لم«فوق فوق» يريد أن تنشدهما أنت بصوتك وأن أعلق أنا بقلمي السيال عليهما. قصيدتان (جمع سبابته إلى أبهامه وقبلهما) عسل.. يا بياع العسل أنت.

- اقرأهما أنت.

- أنا ما كان يكون عندي مانع.. ولكن قالوا: يا كحلا من فمك أحلى.. خطر لي أن أجسه جساً هيناً فأرى إذا كان على نفخته الكذابة العضال ما يزال أو أنه نزل عن بغلته. قلت:

- اقرأ لي مطلع الأولى.

قال وهو يفتح ورشته:

- أنت تعلم أن لك قاموساً.. ما عساي أن أقول.. أنت اختصصت به..

- أسمعني على أية حال.

كان مطلع القصيدة الأولى: كل حي، كالبدء، رهن ختام وكنت على يقين من أنه لم يفهم شيئاً لا من المطلع ولا من الختام.. ومع ذلك راح يتأتىء:

- كل.. أيش هذه؟ حي؟

- حي بالكسر.

- طبيعي أنها بالكسر، مفعول به.

- مضاف إليه.

- اضرب أنا. أخربط بين المفعول به والمضاف إليه. أي سيدي الحق عليهم كل الحق عليهم.

- من هم؟

- هم، جماعة فوق.

- ليش؟

- لا يرفعون يداً عن رجل إلا بتعال ياكرمو يا بو أحمد.

- طيب هات البيت الأول من الثانية!.

عاد يضرب أخماساً بأسداس: «الجزع»..

- أتجزع..

- والرجل المؤمن..

- والرجل المؤمن.. خلصني ياعم خليل قم معي إلى الستوديو أسجلهما لك بصوتك وأقعد أكتب السكريبت على هينتي ومهلي..

- أيش تعني؟

- يعني اقرأهما أنت. أليس هذا البرنامج مكافأ عليه؟

- بلى. أخوك أبو أحمد منذ متى وهو يكتب برامج صدقة عن روح أمواته؟

- أي إذن رح اقلع شوكك بيديك، أنا ما دخلت. وفي طريقك..

- قلت لك أنهم «فوق»..

- وفي طريقك قل لـــ «فوق» أني أرفض المشاركة في أي عمل غير عملي الرسمي، مراقبة النصوص لغوياً، رفضين..

- ترفض «فوق»؟

- رفضين، أكرر. رفضاً لأنك أنت المتعوب، اللاهث، شبه الأمي، معد البرامج ولا تحسن قراءة بيت واحد من الشعر مثل نقده مجلة الناقد.. وأما الرفض الثاني فلأن «فوق» بتحريض ابن بلدك «الكرش المفترس» مفترس الإدارة كلها، أكل علي مكافآت برامج شقيت في إعدادها وطفق المدير السابق، رحمة الله عليه، يبعث بها إلى المحطات الصديقة بوصفها غاية الأحكام والبراعة واللغة.. أكل علي مكافآت برامج أقول لك من حزيران الماضي حتى آذار من هذا العام..! أي آلاف الدراهم التي كنت أنتظرها لأدفئ عظامي الهرمة أو أبردها في رحلة إلى أوروبا.. في حين أن الكرش المفترس وأمثاله، يعني أمثالك، يقدمون برامج تشبه التثاؤب، تافهة، لا تعدو أن تكون كلمتين في الضباب «الحياة حلوة» أو «إنما الأمم الأخلاق» أو «بلادي وإن جارت..» ثم «يا بو ضحكة جنان» وهات يا أيها المحاسب افتح خزائن ملكك وصب في حلوقكم.. قم تضرب في أنفك المعووج هذا ورائحتك رائحة التيس، قم..».

وقبل أن أتفقه بـــ «قم» الأخيرة الحاسمة هذه، كان قد تسلم باب الغرفة.. وهو - كما يقال - لا يلوي على شيء. أو إذا نحن استخدمنا جملة

متهرئة أخرى قلنا: أخذ ذيله بين أسنانه (أو ولّى الأدبار) وهو يتلفت وراءه كأنه إنما يتوجس خيفة من أن ألاحقه وأعمل له كفين مثل فراق الوالدين.

* * *

الرابع والعشرون من تموز:

كان قد مضى على تفنيش (تسريح) عبد الكريم توبي أورنات نحو شهر ونصف شهر وهو التفنيش الثالث أو الرابع على مستوى الإدارة منذ أن عدت إلى هنا. ومثل كل ما سبقه ذاع في لمح البرق فأحدث في مباني الشركة الثلاثة والوحدات السكنية للموظفين ما يشبه زلزالاً من سبع درجات بمقياس ريختر.. بركة راكدة المياه طفقت ذراع بلدوزر عملاق تقذف إليها كتل الحجارة الضخمة التي تستعمل في إنشاء أرصفة الموانئ.. اللغات الموجودة في البلد كافةً نقلت الخبر.. حتى لغة البشتو واليابان والأوردو.. علي أبو الحسن المراسل الإيراني الذي يحب التنكيت فيما يوزع صحف الصباح على الموظفين كان يقول للمرعوبين خلقة مثل مسعود:

- أستاذ (يلفظها أستوذ) مؤود.. قالوا إنه فيه قائمة تاني.

فيرتعب هذا ويهرع إليّ معتبراً الخبر قضية مقضية:

- تضرب هذه الدولة من بابها إلى محرابها يا بو إبراهيم.

فأقول له متظاهراً بالجهل:

- ليش، خير إن شاء الله؟ أي والله العظيم هذا البلد خير من البلاد العربية كلها..

- ولك ما اختلفنا، لكنهم يعيشوننا تحت الدّكّة والرعبة.

- فيه شيء جديد؟

- أي نعم، قالوا فيه قائمة جديدة. ومتى زف لي الخبر؟ الآن، وأنا رايح في إجازة إلى بلدي بعد ساعتين.. عملت مثل أبو عقل وعقلين جيت أودع الزملاء قام طلع لي هذا الخبر.. تصور هذه الاجازة كيف سأتسخم واقضيها!

- لا يكن لك فكر. لم تجر العادة على تسريح الموظف وهو في إجازة.

هاهاه! إذن أنت لم تقرأ أخر قائمة، القائمة التي أذيعت أمس قائمة الحلاق والمرابي..

- أيش فيها؟

- فيها ليلى فاخر المصرية.

- أي والله، هذا صحيح.

- تضرب هذه الإجازة التي سنقضيها مثل لقمة الزقوم!

- إن شاء الله لا يصير إلا كل خير.

- ولك متى زف لي الخبر؟ بعد أن انبسطت كل البسط لتسريح المرابي بياع العرق!

هذا ما جرى يوم صدور قائمة التفنيشات قبل نحو شهر ونصف، ولكني، شخصياً، لم أر الحلاق عبد الكريم توبي منذ وفات المرحوم الحاكم السابق في منتصف الشهر العاشر من العام الماضي لما جاء سألني سؤال المنعم المتفضل علي أن ألقي في برنامج له بمناسبة وفاة الحاكم قصيدتين في رثائه.. وكان ما كان.

ها هو ذا اليوم يعيد ما وقع ذلك اليوم من إقبال علي، مشغوفاً مشتاقاً، معانقاً، راكزاً هذه المرة مصنفاً ضخماً من النيلون على حرف المكتب، بعد أن قرب مقعداً من مقعدي. الفارق أنه، العام الماضي، كان الشهر شهر تشرين أول، أما الآن فالشهر تموز وما أدراك ما قيظ تموز. ورطوبة تموز وروائح بدن العباقرة الذين لا يجدون وقتاً للاستحمام لأنهم آناء الليل وأطراف النهار غرقى إلهامهم، وهكذا فقد مثل أمامي حلاق العام الماضي مزيداً عليه، منذ شهر ونصف هم التفنيش اللهم لا شماتة وألهم الله أصحاب الشأن إعادته إلى العمل رحمة ببناته الست وولده الوحيد. صحيح أنه مرصص الخزنة، كما يقال، وقد عمل قرشين ثلاثة أو بناية بنايتين في عمان، ولكنه صاحب عيلة، فيا رب أقل عثرته وخفف من رائحة عرقه..

كان يلز علي والرائحة الخانقة تزداد لي حصاراً. تأملته في اهتمام كأني إنما أراه للمرة الأولى. كان يحاول أن يظهر بمظهر القوي المتحمل الصبور الذي مهما تقذف به الأرض ينزل واقفاً. محاولات تضع القلب على شعرة لأنها تبوء بالفشل دائماً ويعود بعدها أكثر ضياعاً وحيرة وبلبالاً وإنه يتذبذب بين التراجل والاستسلام الطفولي البائس فيعطفك عليه كل العطف ولكنه لا يلبث طويلاً حتى تعاوده الولدنة والنفخة الكذابة التي أوردته موارد البطالة.

زادت الخصلة على الجبين تمرداً. وأنفة! هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها أن نهايته معوجة، متجهة إلى يمين الوجه، الأسفل.. وأما الهندام فقد ازداد إهمالاً وسوءاً دخله عنصر جديد: في الماضي كانت فوضى مدروسة، مخططاً لها لتوحي بأنها فوضى عبقرية لأن جماع روح صاحبها منجرف كلياً إلى الشؤون العليا دون صغائر الأشياء الدنيوية.. وأما الآن فقد لاحظت أن هندامه زاد عنصراً جديداً هو القذارة! أكان ذلك لكي يستدر عطف أهل «فوق» أن يحن قلبهم فيصدروا قراراً يلغون به قرار تفنيشه. ليس هذا على الله بمستبعد. لقد حدث للكثيرين..

أخذت أفكر في رائحته الخانقة وأتعجب من أن يكون إنسان في مثل سنه ونحافته وتصدر عنه رائحة عرق على هذا القدر من القوة...

لم يدع لي فرصة أن أفكر طويلاً في رائحته الخانقة، إذ سحب من المصنف النيلون كدسة أوراق بسماكة دفتر مدرسي من خمس وسبعين ورقة، ووضعه أمامي وقال ملهوجاً الكلمات على عادته:

- قالوا لي إنك أنت الذي يجيز النصوص. هنا في هذه الرزمة دوكمنتري (وثائقيات) طريف جداً شغل أخيك أبي أحمد.. طج لي توقيعك عليه.

- على أيش؟

- على الدوكمنتري.

- هكذا خبط لزق. انتظر حتى اقرأه.

- تقرأ ترجمتي؟ أقول لك هذا شغل أخيك أبو أحمد. طج لي توقيعك. طج.

- أبو أحمد أنا لا أطج توقيعي على عماها. يجب علي أن أقرأ قبل أن أوقع.

- حتى لبو أحمد راعي الحصان؟ أنت تعلم أني كاتب.

- حتى لو كنت شكسبير زمانك..

- لو كنت تجهلني كان فيها ما فيها..

- أنت كاتب على راسي وعيني ولكن، هل عرضت علي ذات يوم ما تكتبه؟

- أنا.. أعرض .. ما..

- الأصول يا أخ هنا هو أن يعرض المترجم الذي على القطعة مثلك ترجمته على «بَزِّكْ» رئيس القسم..

- بزك!

- أي نعم، يعني هذا الجاثم في الغرفة المقابلة للباب الذي تفضلت ودخلت علينا منه.

- تقصد أبو سعيد؟

- هو نفسه.

- ولكنه..

- أعلم، ستقول لي أنه أمي في اللغتين الانكليزية والعربية وبقية لغات الأحياء منها والأموات.. وأنا لن أقول لك كلا.. ولكنه رئيس قسم الترجمة ونحن هنا في هاتين الغرفتين زلمه ورعاياه..

- أنا لولا الوضع الذي تعلم..

- أعلم.. لما كنت رضيت الانحدار إلى هذا الدرك، أن يراقب شغلك واحد مثله. أعلم تثمينك له التثمين المطلق لأمثاله من الذين وصلوا بضربة

حظ وهم لا يستحقون حتى أن يظفروا بمنصب هذا الفرّاش الهندي الدؤوب.. ولكنها الحظوظ يا أخي تفرض عليك أن تمر بنصك المترجم على سيادته أول كل شيء ليرى صلاح ترجمته.. حتى إذا طج توقيعه الكريم الشاهد بذلك أحاله إلي لأنظر في لغته العربية.. - ولكنك أنت.. ماعسى أن أقول؟ أعلم بالحال!

- على كل حال في القسم خمسة مترجمين ينبغي لي رؤية ترجماتهم وهم أولى.. وهم مقدمون على غيرهم..

- لم أقل له «على الذين يأتون من برة».. كنت أصارع على جبهتين، دفقة العطف عليه والمرحمة.. والأخرى نفوري القديم منه ومن غروره هو الإنسان الأمي، وامتلائه عجباً بنفسه في حيث لا ينبغي غير التواضع واللطافة ومعرفة حدوده.. قال متأففاً:

- وبعد أن تنتهي من قراءة النص أنت، يبقى علينا الآلة الكاتبة والتصحيح ومراعاة التوقيت بالثواني والقطع حيث يجب القطع و..

- ما أدراك أنت بكل هذه التفصيلات، أليس هذا هو عملك الوثائقي الأول؟

- أنا لا يفوتني شيء في هذا المبنى. ما عسى أن تتصور لإنسان ابن ضيعة مثلي مضى عليه فيها خمس عشرة سنة. دبرها أقول لك. أؤكد لك أن النص كامل مكتمل شغل أخيك أبو أحمد بالذات، ويحسدني عليه خمسة المترجمين هؤلاء وحتى أريح المقدم أو المقدمة شكلت كل كلمة في النص.

- قلت في نفسي وأنا أتذكر كتابته نماذج بالزاي أخت الراء. جاءك الفرج يا ولد! هو الذي افترى على نفسه بشكله النص، والله لأرض رضن عظامه..

وقلت بصوت عال وقد تغلب القاسي الذي فيّ:

- في هذه الحال يجب علي أن أقرأ النص مرةً والشكل مرة أخرى فيحصل معنا باليد كم مرة؟

- لم أفهم جيداً.

- أنا أفهمك جيداً.

- لماذا الشدة يا رسول الله؟ اعملها فض عتب. بضع صفحات من الأول وبضع صفحات من الآخر تحكم رأساً أن شغلي ثقب لؤلؤ بشكل ودون شكل.

- هذا ما سأفعله أمامك.

- وبدأت أقرأ. من السطرين الأولين، نحو عشرين كلمة ظهرت خمسة أخطاء في الأصل، لغوية ونحوية وسبع خطيئات في الشكل، كأن يشكل المنصوب مرفوعاً أو مجروراً. كنت أصحح بالقلم الأحمر وأنا لا أكف عن الكلام:

- يا بو أحمد، يا بو أحمد، ما كان أغناك عن الشكل. هاأنتذا تفضح نفسك. هذه (كتب) يا عبد الكريم يا ابني تكتب بضم الكاف وكسر ما قبل الآخر، فلماذا شكلتها (كتب) أي ضعّفت عين الفعل؟ وي وي أيا فضيحتك! (ثابت) بالثاء أخت التاء يا عبد الكريم فكيف تكتبها مثل الشيخ الذي في تلفاز الشارقة سامحه الله بالسين؟ شف يا أبو أحمد، ثلاثة أرباع المترجمين هنا يخطئون، ورئيسنا مثلما قلت أمي يزوج القط للفار في النحو.. ولكنه لا يعرض علي ترجماته إما كبرياءً أو خوفاً من لساني.. هو أساساً، قلما يترجم. كل نشاطه اقتصر، منذ أكثر من عشر سنوات، أي منذ أن ابتلي بي، على مراقبة دوام بنات الآلة الكاتبة حتى استحق بجدارة لقب «مراقب الآلة الكاتبة» وأما الآخرون فقلما ينفذون نصاً إذا لم أطلع عليه. فإذا كنت مجازاً لم يضعوا أسماءهم على الفيلم.. وعلى كل حال لا يشكلون لأنهم يمشون الحائط الحائط ويقولون: يا رب الستر.. إنهم يعلمون علم وضعهم وافدين مصيرهم كله على كف عفريت.. أقل هفوة تطيرهم مع بنات نعش، فلماذا يلفتون الأنظار إليهم كما تفعل أنت! انظر ما فعل بك حبك الظهور. في المدة الأخيرة، صرت أنت، الذي إذا ضربت على أصابعك دهراً لا تندّي بفلس، ترشو المخبرين الصحفيين حتى يحكوا عنك في الصفحات الفنية وينزلوا صورتك والغرة

المتمردة على الجبين بوصفك عبقري الإعداد.. وأنت تعلم علم إعدادك وهزاله.. فكان أن فتحت العيون عليك ففتشوك تفتيش عزيز مقتدر.. لا تظنن أني سررت لتفتيشك! اللهم كلا. أنت بخيل. معقد، فلسطيني أخرجت من ديارك إذا لم يكن أنت فوالدك وإن لم تكن زوجك فوالدها.. ما عسى أن تصنع وقد نزلت بك أكبر ظلامه يمكن أن تحل بشعب! اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر قبل الميلاد لم يستولوا على فلسطين كلها. وهي أرض كنعان وما تزال في أسفارهم تحمل هذا الاسم، يعني أنها أرضك أنت.. وكان أن لفقوا كتاباً جعلوه «مقدساً» فجعلوا من تملكهم المزيف لهذه الأرض عقيدة وهوى ومواجد صوفية. «الكتاب المقدس ما فيه شيء من القداسة».. ومع ذلك استطاع أن يوحدهم، أن يؤيد هوى «أرض الميعاد» في أعماق وجدانهم إلى الأبد.. حتى إذا ألحد اليهودي ظل مشدوداً إلى مهوى آبائه وأجداده وصلواته.. فلما طردهم ثيطس من فلسطين سنة سبعين لم يصادف أغناماً. جابهه قوم أرثت الديانة في قلوبهم نيراناً حارقة. الكنعانيون لم يبق منهم من يطالب بأرضه، أرض ما قبل الغزوة اليهودية الأسطورية التي تقادست ليس عند اليهود وحدهم ولكن مع بقية الديانات التي تأثرت باليهودية، مع أن هذه الأخيرة لمامة ديانات قديمة وثنية تركت ميسمها على اليهودية إلى الأبد.. أما قرأت كاسدوفسكي وعشرات من الباحثين والآركيولوجيين..؟ ولكنه الكتاب الذي تقدس هو الذي حفظ اليهود حلمهم وأشواقهم إلى الميعاد المزعوم المصطنع.. الكنعانيون لم يبق لهم كتاب فيحفظ أحلامهم وأشواقهم. ما أصدق يوريكايونغ حينما قالت إن اليهود سمموا البشرية جمعاء بعقدة الندم. انظر إلى اليابان التي لم يلوثها اليهود إلى أي ذرى ارتفعت! أنى لصوت مثل صوتنا الوحيد. الواهن أن يطغى على إلحاح الأصوات التي أطلقها اليهود منذ أكثر من ألفان، أو ثلاثة آلاف سنة وكلها تطرق على حديد متوهج ليل نهار لتثبت في الأذهان قيماً جمالية وقيماً أخلاقية يجب أن تكون موضع ظنون وشكوك وتمحيص وفحص يقظان.. ولكن الإلحاح كالوقف جعل مجرد وضعها موضع تفحص نوعاً من الهرطقة أو الزندقة..

*　　*　　*

لم أكمل القراءة، نظرت إليه نظرة جانبية. كان وجهه مبعثراً مكروباً. ضربة التفنيش كبرته لا أقل من عشر سنوات. عاد لا يهتم حتى للخصلة المتمردة على الجبين. في حركة من يده أعادها إلى موضعها ولم يعن ببعثرتها كما ينبغي كمفارق النابغين.. قلت له في رقة:

- دع لي النص يا أخي يا أبو أحمد فأكمله على هينتي وعلى مهلي وأرده لك خالصاً في غد.

لم يحتج، ازداد انكماشاً وزاد مقعده دفعاً إلى الوراء فأصبح بشكل من الأشكال ورائي كأنه يتورع من الجلوس على صفي ومساواتي. لم ينفر من العودة إلى حجمه الذي طالما رفضه وأبى الاعتراف به فجاء التفنيش وهذه الخطيئات الكثيرة فأنضجته وجرته إلى الرضي به..

قال: أعود غداً.

فاض بي الحنان:

- عد فتجده جاهزاً مصححاً عند فتيات الآلة الكاتبة.

- حاضر .

- تكرم.

- شكراً.

- وقد أنجزه الآن.

- تكون متفضلاً.

قلت ضاحكاً لأزهزه الجو وأنفي عنه الكرب:

- على ألا تشكل لي أي نص منذ اليوم.

رفع يديه الاثنتين مستسلماً وقال ضاحكاً:

- التوبة على أربعة مذاهب الإسلام!

* * *

نعيمة زعفران

مكتب الترجمة في شركة الكترونكس. الحجرة واسعة تشبه ردهات المصارف. في الوسط مكتب منيب زهدي، شيخ في نحو السبعين من عمره، ولكنه متهلل الوجه، قليل الشيب، فيه شيء يشبه الغفلة.. عن يمينه مكتبان لسيدتين دائمتي العبوس، مكبَّتين أكثر الوقت على أوراقهما. أو غائبتين لأمر يتعلق بالكمبيوتر الملحق بالقسم في الطابق الأرضي. عن يسار، مكتب واحد يشغله مسعود محمد، وهو رجل دون الأربعين يسميه منيب «حمال الأسية» خاصتي، وهو أميل إلى الحمرة الداكنة، ربعة، يلهوج الكلام لهوجة. يكن للشيخ مودة خاصة ولا يندهه إلا «عمي منيب»، ويرى فيه، وهو لا يمل النظر الحنون إليه، منتهى الرشاد والحكمة، مخالفاً في ذلك غالبية أهل الشركة الذين يرونه شيخاً غريب الأطوار يكاد يكون خرفاً، يكون في موضوع وإذا هو يقفز إلى آخر ليس له علاقة بالأول، متخذاً في هذا وذاك أسلوباً من الصراحة خلواً من أبسط قواعد اللياقة أحياناً، حتى إذا تعلق الأمر، أو لاسيما إذا تعلق الأمر به نفسه:

أنا لم أحب في زورباتشوف..

يقاطعه مسعود:

غورباتشوف عمي منيب.

- يظهر أنك لم تقرأ زوربا لكازنتزاكي. لقد سبقك إلى استباحته عدد وافر من كتابنا وروائيينا، وأنت؟ سمعان ما هو هنا. كنت أقول لك إني لم أحب في زورباتشوف شيئاً مثل حبي لهذا الذي أسماه «الغلاسنوست» أو المكاشفة. يا بيّي لو أن الدول، الناس، العشاق، الكُتّاب.. في العالم،

وخصوصاً عندنا، اختاروا هذه السبيل مخلصين.. وأما السوسة التي تلومني عليها الشركة.. وألم تصرِّح، وهي سوسة قرض الشعر، فالحق على الشركة صحيح أنها مشكورة إذ لمَّتني من البطالة والخصاصة اللتين كانتا ملازمتين لي في مسقط رأسي، ووظيفتي براتب أبحبح من راتب آذن بقليل، مع أني أحمل ليسانس آداب من قبل رؤية مديرنا العام النور؛ ولكن نعمة، ولا يكلف الله شركة إلا وسعها.. فأنا أعلم أني لن أُقَدَّرَ حق قدري قبل حلول القرن الثاني والعشرين، مثلي في ذلك مثل أبي صياح بياع الجرائد الذي كان يبسِّط بضاعته على رصيف قهوة الروضة في شارع العابد.. هذا كان الله يعفوا عنا سكيراً عضالاً، يفطر على بطحة عرق ولا يرفع العرق من رأسه بقية اليوم. من ناحية الشكل كان يشبه الأورانغ أو تانغ حتى كأنهما توأمان على نظارتين سميكتين ونحافة تجعله يبدو أشبه بهيكل عظمي عليه بعض الجلد الشاحب. ولكنه مع ذلك دائم الحركة والصراخ. كلما اشترى عابر سبيل منه جريدة صاح: «خذها الله يكون في عونك. كلها كلام جرائد. ما فيه أحد صادق غير أخيك بو صياح راعي الزرق. (يصرخ) يا ذل العرب من بعدك يابو صياح. يا مأكول يا مذموم مثل لحم الحمير!»

«أجهزة الهاتف الموزعة على المكاتب من النوع الجديد: لكل موظف رقم يفتح به الخط وتكبسه إذا أردت مهاتفة داخلية وتضيف الرقم تسعة إذا أردت مخابرة في المدينة. منيب زهدي قلما يمد يده إلى الهاتف حتى ولو أضاء رقمه، خمسة... مسعود هو الذي كان يتولى الرد. ذلك الصباح أضاء رقم منيب، فتناول مسعود السماعة:

آلو نعم؟ أي نعم موجود.. عمي منيب هاتف لك.

قبل أن يرفع الشيخ السماعة، يسأل مسعود إيماء: «امرأة؟» فيجيب الآخر: «نعم»، «من هي؟»، لا أدري».. ورفع السماعة فجاء صوت أنوثي لا يعرفه، شاميُّ الجرس:

- ألو.

- ألو نعم؟

- أبو زهدي. صباح الفل أبو الزهد.. أي شُوِّوه، ما عرفتني ضنِّي!

لا والله، حضرتك؟

ضحك على الطرف الآخر، ضحك مصطنع ذكَّره بامرأة عرفها من أمد بعيد كانت تضحك ضحكة جوفاء مثل هذه، ولكنه استبعدها من أساسها لأن تلك كانت لإحدى مطلقاته، وكانت خَنَّاء.. قالت هذه في محاولة ناجحة بعض الشيء لتقليد لهجة بلده:

أشو ولك خاي ما عرفت بنت بلدك وكارك؟

- نعيمةّ

هي بجمالها الاسبانيولي البري وعينيها أُمَّيَّ الشرَّطة الدعجاوين الحوراوين الوطفاوين.. قال ضاحكاً: «وليك(١) نعيمة أنت تتقلين عن عمك منيب. هذا الكلام لي، ولكنني نسيت لمن قلته ومتى؟

- لي أنا يا «اختيار». وأما متى فقبل نحو ربع قرن، في مطعم الشموع في الصالحية؟ بأمارة ما كانت ثالثتنا آخر زوجاتك هنية، وكنت أنا غاطسة حتى شوشتي في حب أنور..

- الذي قلت أنه سيموت فيك لأنك لعوب عروب ولكن أهله يعارضون رغبته في طلب القرب لأنه كان أحد وزراء ذلك الزمان... أيش صار فيه وليك؟

- تزوجنا في باريس وتطلقنا، وهو الآن، المسكين في السويد!

يا حرام! في السويد؟ قطَّعتِ قلبي. وحده؟

- لا تزوج بعدي واحده من هناك؟ الله ييسر له.

- من جهة تطلقتما أعلم، وأما من جهة تزوجتما...

- أنا لا أذكره إلا بالخير. أنا لما لحقت به إلى باريس كنت أعلم أنا أنني..

- سمعت أن الدكتور يعقوب لحق به إلى باريس بعد إطلاق سراحه.

- أي نعم، والمسكين الآخر في السويد الآن.

- مرحى! ياله من «منفى»بائس شظف على المناضلين بلدُ إنغريد برغمان هذا. هل تعلمين يا سيادة المناضلة أنت أيضاً، أني ذات يوم في استوكهولم كمنت للعاملات المنطلقات ظهراً من أحد المصانع. خرجت مئة، مئتا قمورة تكسف الشمس وكلهن أفتن من إنغريد برغمان لما كانت على سروج خيلها. ولك تشهيت أن ألمح حرمة واحدة يتيمة تشبه هالة شوكت. لا والله ما شفت!

- ضحكت بقهقة: «والله أنت على حطة يدي. أنا الآن هنا...»

- أين؟ هنا؟

- عندكم في أبو ظبي. غداً في الشارقة. كيف أستطيع أن أظفر بمرأى ابن شيخي، شيخ حارتنا الشرقية في البلد؟

- شو جابك من باريس إلى هنا؟

- حكاية طويلة أرويها لك غداً. أنا آتية من ب. حيث استقبلت بمراسم رئيس دولة، والرئيس س. عمل لي تكريماً خاصاً واستشهد في إحدى خطبه بي.

- مع أنك خائنة!

أنا يا منظوم؟ لماذا أنا خائنة من فضلك؟

- لأن في لهجة بلدنا ما فيه رطانة شامية.

- ولك يا خاي أشو يطلع في يدي؟ بنت أربعة عشر تركت البلد ولبست في الحزب والجامعة وبعدها باريس...

- حيث تركت أمثالي من أولاد بلدك الفاتنين ورحت تزوجت لي شقفة فرنساوي..

- ولك أسلم، أسلم!

أخشى أن يكون إسلامه مثل إسلام روجيه غارودي وغالي شكري وبو كاسا..عادت تضحك هذه الضحكة التي كان الشيخ يسميها «السمن العملي» أيام كان المعتَّرون وحدهم هم الذين يدخلون السمن العملي على مطابخهم وفي

طبخهم.. لم يكن رآها منذ أكثر من سنة في لقاء عابر، بإحدى ردهات فندق من فنادق مدينة ب. فأحس أنه أثقل عليها بالمزاح وأراد أن يتلطف بها فقال وهو صادق:

- وليك نعيمة، أنت التي تعيرِّيني بأني ما أزال أبن زقاق حسان في حارتنا الشرقية، هل تعلمين أنك بنت حلال يا بنت الدبش أنت.. على فكرة، في حياتك ما قلت لي لماذا بدلتم بالدبش زعفران.. أيش فيه لقب الدبش.. طيب سنتناقش في هذه المسألة عندما نلتقي. أنا الآن أود أن أقول لك أنك بنت حلال خَصَ نَصّ..

- طبيعي أني بنت حلال. طول عمرهم الدباشنة أولاد حلال، أما كان أبي الضابط المتقاعد..

- احم احم.. ضابط بسبعتين لفوق على ذراعه!

تضرب! والله ضابط!

هذه المسألة الأخرى نناقشها فيما بعد. كنت أقول إني قبل هاتفك هذا كنت أتذكرك. لأني تلقيت رسالة من صديق ابن بلد وكاتب خفيف الظل يثني فيها عليك ثناء طيباً.. يظهر أن الأخ مزهو بك ولاسيما بعد قراءته روايتك الأخيرة «الوطن في حشاشة العين السوداوين».. أنا من جهتي..

- هل يسمي هذه الرواية بالاسم أو يذكر عنوان روايتي الأولى: «بسمة حزينة لصباح الوطن الغائم».. وأيش قال عني بالحرف. بصلاة محمد اقرأ لي. أنا أعلم أن روايتي الأخيرة جننت الناس، ولكن الله لا يوفق نجم صالح، الدكتور بلا قافية!

لماذا؟ ألم ينشر لك روايتك الأولى في دار نشره؟

- هو؟ هو باس يدي الاثنتين.. أي هذه حكاية أخرى، قل لي أيش قال عني ابن بلدنا؟ شو اسمه؟

- بعدين بعدين. أين ستنزلين في الشارقة؟ تعالي انزلي عندي هنا في دبي. ابني طلع عني وعندي غرفة فاضية بتخت وخزانة وآلة تسجيل تركها لي الولد.

- أنا أنزل عندك! لا والله، أنا أخاف على نفسي.

- لا تخافي، أنا لم أبق مثل أول ذلك المشلهم على جنس النساء. صار عمري فوق الأربعين!

عاد السمن العملي يقرقر:

على كل حال أنا مستعجلة الآن ولا أستطيع إطالة المكالمة..

- جنى؟

- ما هذه الجنى من فضلك؟

- هذه اختراع منيبي لكلمة «ديجا» الفرنسية، و«الريدي» الانكليزية اضطررت إلى نحتها، لأني لم أر لهاتين الكلمتين، أو نظيرتهما في الروسية «بيشو» مقابلاً بالعربية!

- فهيم!

ما قلت لي أين ستنزلين؟

- في الكونتنتال. أنا لا أنزل، أينما كنت، إلا في أحد فروعه. فنادق تعجبني.

- مثل فنادق زقاق حسان أم خمس نجوم عندنا في البلد، على رأيك، كما تقول خبازتنا أم الزاكي، الله يرحم أمواتنا..

- لا، مطبخهم فاخر يشبه مطبخنا.

- مطبخ بيت دبش؟

- تضرب، مضاعفة!

- لا تزعلي، أنا ينطبق علي قول الأول: «لساني عليه وقلبي معه». أنت تبقين خرخوشة عقل بلدنا وابنته المدللة الغالية.

- أي هه، الآن بدأت أتعرف منيب زهدي ابن بلدي، والذواقة الذي لا يجارى في الشعر والأدب واكتشاف المواهب الصاعدة. إلى غد! بكرة تسمع العجب مما عملته بدكتورك نجم صالح هذا الذي صار آخر الزمان محكماً في الجوائز الأدبية. خاطرك!

وأغلقت الخط. راح منيب يكلم نفسه: «ذواقة بس؟ مكتشف مواهب واعدة وحسب؟ دكتور نجم صالح المقاول الأدبي لا غير؟ يا ضيعة العمرّ ولك أنا نظمت الشعر قبل أن تبيضك أمك امرأة الدبش بأكثر من عشرين سنة.. كم عمرك الآن؟ المهم. خطية، حريمة ومصابة، شفاها الله، بتورم الأنا. من عمرها وهي مصابة بهذه الآفة (مثلنا كلنا نحن أولاد آدم وحواء، ليش الكذب؟ أولاد العرب خصوصاً.. هذا مرض العصر عندهم: تورم الذاتّ) وضحك ضحكة قريرة وهو ينظر إلى السماعة. وسأله مسعود من وراء مكتبه، وقد كان يراقب طوال هذه المدة:

ضحكنا معك عن منيب، مّنْ؟

- واحدة بنت بلدنا.. هذه تتعاطى الكتابة. أنت حتماً تعرفها: السيدة نعيمة زعفران، دبش سابقاً. ألم تسمع باسمها؟

- لا والله ماسمعت.

- هذه ياسيدي واحدة من حارتنا في البلد، أي أدروش حارة وأفقرها. أبوها كان، أظن، برتبة عريف في الدرك، ولكنه كان يحب العلم، فقطع عن فمه وفم عياله وأكمل لها تعليمها، فاشتغلت بالسياسة ولبست في سلك النساء المتمردات، وهي الآن بعد مغامرات طويلة متزوجة من واحد فرنسي، وتعمل في الصحافة من باريس.

- هذا الاسم ما هو غريب علي.

- قلت لك إن لها روايات ودواوين شعر.. من جهة الشعر ذكرتني الآن بقصة طريفة جرت لي معها لما كنت أعمل في الإذاعة..

- لا، الاسم ما هو غريب علي صحافياً. قل لي: ما الذي جاء بها إلى هنا؟

- هي آتية من ب. حيث استقبلت من زعيم البلد بمراسم رئيس دولة وتكريم خاص بها، على ما قالت لي.

فكر مسعود فترة، وقال بغتة:

الآن تذكرت. أنا قرأت لها مقالة مدح في الزعيم ع. مقالة تشبه كل المقالات، التي كانت تكتب وما تزال لزعماء يظهرون، من الجهالة الضاربة أطنابها، على أنهم المسيح المنتظر

قال منيب في براءة وحيرة: «هل أنت متأكد؟»

جداً

- أظن أنك اختلطت عليك الأسماء.. ع. هو الخصم اللدود للآخر الذي استقبلها بمراسم.

الخ. إذا لم تخنك ذاكرتك فما عساي أن أقول (يحك رأسه) فنحن أمام حال يمر بها العرب ما قدر على تصورها حتى ميكيافيللي، أو هي ببساطة لا يُعرف لها رأس من رجلين، مثلما كان أبو كاعود غرسون قهوة البلور في باب توما يقول حينما كان يراني مشرعاً جريدة أقرأ فيها... كان أمياً، ومع ذلك كان ينتر الجريدة مني، ويمسكها كيفما اتفق، العناوين تحت، فوق، ما يخالف،.. ثم لا يلبث حتى يضرب بها المنضدة وهو يزفر محروراً.. أسأله: «كيف شفت لنا هذه الدنيا يا بو كاعود؟» فيقول وهو غريق الفكر «مخربطة!»

- ألم تقل لك لماذا هي هنا؟

- لا، لم تقل، ولكنني أظن أنها آتية لتغطية أخبار الجائزة الأدبية التي أعلن عن حفل تسليمها بعد غد.. هي لم تقل لي، ولكن حملتها على نجم صالح المحكم الأول هي التي جعلتني أستنتج ذلك.. وقد تكون مهمة صحافية أخرى، ما يدريني؟

- ما حكيت لي القصة التي قلت لي إن لها علاقة بالشعر، وجرت لك معها أيام كنت تعمل في الأذاعة.

- تلك الأيام تعرفتها للمرة الأولى في الإذاعة. دخلت علي غرفة التمثيليات مثل المهرة البطرانة في الربيع. أدهشتني جرأتها: «أشو يا خاي

ابن بلدي، وفي بلد واحد ولا يعرف واحدنا الآخر!» سألتها بعد أن تأملت هذا البنطال الحفر والتنزيل على جسدها الصبي. والشعر آلاغارسون، والبلوزة المفتوحة الصدر مثل الرياضيين وقلت لها: «بنت بلدي؟ صحيح أني هاجر البلد من عشرين سنة..ولكني أعرف أهلها ما أزال لمجرد رؤيتهم!» قالت: «لست من البلد وحسب، أنا من حارتكم! » قلت: «من بيت من؟» قالت: «أنا نعيمة زعفران!» قلت «مستحيل إلا إذا كنتم إنما سكنتم البلد مع موجة هجرة الريف إلى المدن. بيت زعفران في حارتنا الشرقية ما فيه!» قالت: «ولك من بيت دبش، رحنا شفناها ثقيلة فرجعنا إلى أحد أجداد أمي وكان اسمه زعفران.. أي أنا لم آتك لأعلمك شجرة نسبي...» وفتحت محفظة يد كانت معلقة بكتفيها وأخرجت كتاباً وهي تقول: «أنا أعلم أنك تكتب في الصحف وخصوصاً جريدة حزبنا على الرغم من أنك غير قادر على أن تلبس (استخدمت اصطلاحاً من البلد) في أي حزب. يعني أنك مقروء جدلاً، وتظهر أحياناً في التلفزيون، ولك زوايا إذاعية، فخذ ديواني الأول هذا «رعشات قلب بنية عاشقة» واكتب لي عنه. أطرز مقالة حلوة من النوع الذي تتقنه والذي إذا وضعته على الجرح يبرأ. أيش أقول لك؟» ولملمت شعثها وهي تنهض قائلة: «أنا مضطرة إلى الانصراف.. معي موعد مع أنور .. أمر عليك فيما بعد!» ... واستبقت الباب أشد بطراً لأن لها موعداً مع أنور، هكذا حاف مع أنه كما كان واضحاً.. الدكتور أنور أيوب وزير الإعلام الذي كان له مكتب، ما عدا مكتبه في الوزارة عند جسر فكتوريا.. عندنا في الإذاعة.. في حياتي لم تخاطبني بنت مثل أولادي.. لا، أنا لا أبالغ لأني كنت يومها شاباً، مثلما تقول، فيَّ لحالي ما أزال.. ولم تسنح في حياتي امرأة إلا غازلتها ورحت أكيلها الأشعار الحارقة .. هذه، مثلما تقول ، جرح كاتم على فساد في عمك منيب . ما في اليد حيلة!

مسعود يضحك مثل الأطفال: «أي وبعدين ؟ قرأت «الديوان» أم عملت لها «ديوان»؟

- لا هذا ولا ذاك. تصفحت الكتيب. المكتوب مبين من عنوانه : شعر منثور من هذا الذي تكتبه التلميذات المتأثرات بمدرسيهن، إذا كان هؤلاء ممن يكتب أو ينظم. أنا أصلاً قلما أقرأ شعر حديثاً لأني - مع ركام ما ينشر في الصحف - أصابني القمه. صدت نفسي. وهذا الصدود لا يقتصر على الشعر. إنه يشمل الرواية والقصة والمسرحية .. لاعتقادي أننا في حال عقم يزيدها فداحة «إعلام» الأنظمة الثورية.. التي تؤمن بحرية الكاتب إيماناً فريداً: ليكتب الكتاب ما يشاؤون وأما نحن ففي أيدينا وسائل النشر!!

عمي ، أنت رايح تفقع مرارتي قبل أن تكمل لي الحكاية.

- لا تفقع مرارتك ولا على بالك . الحكاية انتهت أو كادت: بعد نحو خمسة، ستة أشهر اقتحمت المهرة مكتبي في الإذاعة من جديد. تلك المرة كانت غاضبة، جموحاً، حردانة: «منيب شو ها البلد؟» قلت لها: «خير إن شاء الله، شو بها هذه البلد الطيبة؟». قالت: «طيبة؟ هذه وائدة النبوغ. تصور ديواني صادر منذ ستة أشهر، وحتى الآن لم يكتب عنه أحد.. كنت أظن أنه سيكون سُبَّحة الصحف والمجلات كلها.. قال طيبة قال، ما أحد طيب غيرك!».

* * *

صباح اليوم التالي، هاتف آخر:

- منيب أنا أكلمك من الشارقة.. يجب أن أراك لأمر ضروري. قد أمر بك في الشركة. متى تخرج عادة؟

- حوالي الواحدة. مري بي فآخذك أغديك عندنا.

- غداء؟ أأنا فاضية لغداءات وعشاءات؟ يجب أن أراك الأمر ضروري وبعده قل لي: تيسري في حال سبيلك! أنا في رقبتي مئة شغلة. على كل حال انتظر مني مخابرة ثانية..

- أنا منتظر . ما عساي أن أفعل غير الانتظار الذي أمرتني به ؟ حُكم القوي على الضعيف!

- كفاك ثرثرة ، مثلما أقول لك افعل.

- حاضر يا ستي.

الساعة الثانية عشرة سمع في المجاز أمام غرفته ضجة ضحكات رجالية فيها نكهة السمن العملي ولا سيما ضحكة أنثوية كانت طبقتها الصوتية هي العليا. ولم يلبث الباب أن فتح ودخلت نعيمة ومعها موكب مؤلف من ثلاثة رجال أحدهم موظف كبير في العلاقات العامة بالشركة، والاثنان الآخران من البلد العربي الذي قدمت منه كما تبين منيب من أولى الجمل التي نطقا بها رداً على ترحيبه. قالت:

- منيب ، متى أراك ؟ أنا الآن..

- أنت الآن مدعوة وهؤلاء السادة المحترمين إلى تشريفي بقبول دعوتي للغداء في البيت أو في مطعم ظريف أعرفه...

شكر له الآخرون ، وقال لها أحدهم:

- سيدة نعيمة، إذا أردت البقاء مع الأستاذ..

- شو بقاء. أنا أريد أن ألحق السوق. خذوني معكم. (لمنيب) أتصل بك هذا المساء. لا تنس. أريدك لأمر ضروري، ضروري جداً، فهمت؟

- متى تتلفنين؟

- الثامنة مساء.

- على الضبط هاه.

- في الكثير الثامنة والنصف.

- اتفقنا.

ولكنها لم تتصل حتى التاسعة حين هاتفه مسعود وخرجا معا لقضاء السهرة في مطعم يرتادانه بين حين وآخر، على خلاف العادة، لأنهما اعتادا أن يخصصا ليلة الجمعة للسهر في ذلك المطعم مع أصدقاء آخرين.

مساء الخميس، وكان مسعود في بيت منيب، تلفنت نعيمة. اعتذرت بداية عن تأخرها إلى ما بعد التاسعة مساء أمس. ألحت كذلك على أن يوافيها منيب في الكونتنتال. قالت:

- أعرّفك بفلان (ذكرت اسم شخصية معروفة) والدكتور متعب الشيخ، وهو رفيق قديم لي في السوربون يشرب مع الماء العكر. تعال. حالاً وأجرة التاكسي عليّ!

- شوفي يا نعيمة أنا الآن لست وحدي، عندي صديق وزميل كان موجوداً لما جئت الشركة أمس ومعك الركب الفاضل. هذا الصديق واسمه مسعود، ومحسوبك اعتدنا أن «نزيّتها» يوم الخميس، وفندقك هذا متوضئ حتى في شهر شعبان هذا وهو شهر فضيل ولكنه ليس فضيلاً مثل رمضان الذي قال فيه ابن الرومي ما قال .. وهو آت بعد بضعة أيام يعني امتناع كل زيت حتى الخروع، فهمت؟

- فهمت عليك. أنت تعال وكل شيء لخاطرك.

- وفلان هذا ؟ هذا مقطع حصر الجامع أنا أعرفه.

- ولكن متعب مثلك ومثل صديقك، متشرد وابن دمعة.

- طيب ، إذا كنت كافلة ضامنة فامهليني لحظة حتى أشاوره.

شاور مسعود الذي وافق على مضض لأنه اعتاد ألا يرفض طلباً لعمه منيب. في السماعة: - توكلنا. أين نجدك؟ - في المطعم. أنا ميتة من الجوع.

* * *

راحا. لم يكن مسعود مبسوطاً. منذ الجسر الأول سأل منيب:

- من أين أروح ؟

- تسألني أنا ؟ أي أنا من عشر سنوات ما دعست هنا ..

- وأنا أيضاً. شف عمي منيب أنا أوصلك إلى الفندق وأرجع. لا تؤاخذني، ولكن ليلة الجمعة أنت تعلم، نحن نشقى طوال الأسبوع مثل حمير الطرابة.

- فهمت ، فهمت ..

- لا ، أنت ألست تحب الصراحة ؟ أنا سهرات طق الحنك هذه ليس لي فيها. أنت إذا كان..

- ولك يا ابني يا عيني، أنا نفسي يقلب وجهي على إصبعين في مجالس المثقفين والمنظرين.. إذا كانت السهرة ناشفة مثل قبقاب الوضوء سبقتك إلى الباب.. لا تخف على عمك منيب، أنا في الدنيا ما لي أخ في القدرة على الهرب.. وبعد، لماذا تسألني من أين تروح؟ ألا تعرف الفندق أنا حد علمي أنه على طرف البحر .

- أنا من ثماني سنوات لم أدعسه. نسيت أين يقع.

- من ثماني سنوات ؟

- من يوم ما توضأ على حد قولك.

وضحكا. كان الليل ناعماً، أنيساً. لا قمر ولكن أضواء الشوارع تحيله إلى صياح. المصابيح كالنجوم القريبة تتلألأ في كل مكان وأنسام الليل وحتى الضياع نفسه كان ينعكس على الشيخ غبطة وحبوراً. قال :

- ما أجمل ! سنة أربع وسبعين لم تكن الشارقة إلا شارعاً واحداً فيه فندق اسمه «سبأ» وشجرة ربما كان عمرها أكثر من مئتي عام اسمها «الرولة» ومسجد بناه مهندس باكستاني فنان وجعل مئذنته في الفناء منفصلة عن جسم المسجد. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها مئذنة مسجد ليست منه وفيه. ما زلت آسف لأني لم أحتفظ بصورة للرولة، التي اقتلعوها، واحسرتاه! وللمسجد الذي أعادوا بناءه بمئذنتين منه وفيه مثل الكثير من المساجد ، واحسرتاه مرة أخرى !

وصلا إلى حرف البحر أو إلى جرف بحر ما فيه أثر للفندق ضالتهما الذي يعرفان هندسته الخصوصية المميزة وإن ضيعا مكانه . توقفا عند مطعم اسمه «عروس البحر» من النظرة الأولى عرفا أنه لبناني. وفيه أفواج من السياح الشقر إذا كانوا فتياناً والشيب إذا لم يكونوا. مسعود سأل ساقياً فدلّه. منيب كان غائصاً في مقعده وغبطته وقد ترك الشقا على من بقى، أي على مسعود. لقد فهم أنه حتى ولو حصر فكره وركزه لفهم ما يقول الدليل فلن يكون نافعاً في شيء. قال جذلان :

- الحمد لله على نعمة العشا وقلة رخصة السوق !

لم يعره مسعود أي انتباه. كان يركز انتباهه على تعليمات الساقي

بعد لأي لاحت كتلة الفندق الضخمة. بعد سؤال في مكتب الاستعلامات اهتدى الصاحبان إلى المطعم ونعيمة التي أهّلت وسهلت ودعتهما إلى مشاركتها العشاء. قال منيب:

- ألم نقل لك إننا لسنا طلاب نقل؟ أين صاحبك الذي قلت إن عنده ما صنع النّقل من أجله؟

- لحظة واحدة آكل لي لقمتين لأني والله على فطوري، وأفرغ لكما.

كانت تجلس في مواجهة شرفات الطوابق المطلة على الردهة الكبرى حيث المطاعم والجناين المعلقة والمكاتب.. في لحظة ما أشارت بيدها إلى إحدى الشرفات وهي تقول باسمة: «ولك متعب تعال، إلى متى ونحن ننتظرك؟ الجماعة وصلوا !» طبيعي أن صوتها لا يمكن أن يصل إلى أبعد منا نحن الاثنين، ولكن إشاراتها كانت تترجم أقوالها بالحركة. قالت:

- قال لي : عشر دقائق ينتهي من صاحبه ويأتينا .

- قال منيب مخاطباً مسعود :

- ما رأيك معلمي ، ننتظر أو نتيسر ؟

قال الآخر حيياً :

- ما تأمر به عمي منيب !

- شوفي يا نعيمة . إذا لم تكوني مالئة يدك من متعب هذا فاتركينا نتيسر.. فيه وراءنا أشغال. واحد راكبه شيطان ويود أن أقرأه وأكبّسه لأنه يعلم أن أسرتي أسرة مشايخ ويدنا فيها البركة. ألم يحك لك المرحوم أبوك عن ولاياتنا ؟ أما «سقاه» أحد أعمامي ضد سم الحيات ؟

ضحكت ضحكتها المألوفة وقال :

- ما قلت لي من هو هذا المعجب الذي كتب لك عني ؟

- ما قلت لي أنت أيش جابك إلى هنا، هل هي تغطية أخبار الجائزة وحضور الأمسية الشعرية التي رافقت توزيع الجوائز؟ وهل حضرت الحفل في الأقل ؟

- حلم عليّ شوية. نعم يا سيدي حضرت حفل الكرنفال المستمر منذ الهوجة والدرّبكة التي عملها الكتاب هنا لما استقدموا نقدة من أربع أطراف الوطن العربي ليقوّلوهم مطولات مدح في خربشاتهم وولدناتهم الأدبية.. الأخ مسعود على إطلاع بمجريات ذلك الكرنفال ؟

قال مسعود : «عمي منيب أخبرني بشيء من هذا القبيل على طريقته الضاحكة، ولكنني نسيت لأني أفتقر إلى الاهتمام بمثل هذه الأمور!».

قال منيب ضاحكاً: «مع أنه ليسانس آداب، قسم اللغة الإنكليزية، ولكن الله تعالى نظر في وجهه ووقاه شر الاهتمام بمثل هذه الأمور !».

قالت نعيمة :

- أي إذن اعلم أن كل بنية لم تفقس عنها البيضة ومع ذلك صدر لها إما مجموعتان قصصيتان «جنى» كما يقول منيب، أو ديوانا شعر .. وكل موظف صحة في ديوان الصادرة والواردة سمع من أبيه حكاية حكايتين عن أيام الغوص فأنزلهما في كتاب طبع أحسن طباعة.. أمثال هذين علموا تلك الدربكة التي وصلت أخبارها حتى باريس، إذ دعوا نقدة وأساتذة جامعات آكلين شاربين نائمين على حسابهم.. ليحاضروا في تيار الوعي في قصص فلانة وتأثير جويس في «طروحات» علان وتفجير اللغة والحداثوية في شعر فليتان.. وها هم أولاء يعلنون عن جائزة يرفع ترجمانها النقدي في آخر لحظة من مئتي ألف دولار إلى أربعمئة ألف، يعني أكثر من جائزة نوبل.. ومن كان المحكم الفيصل فيها يا حزرك يا أخ مسعود ؟

- لا أدري ، عمي منيب هو الذي يعلم .

قل منيب ضاحكاً : «قال الشاعر إن كنت تدري فتلك مصيبة، أو كنت لا تدري فالمصيبة أفظع!».

عادت نعيمة تقول :

- ولكني لم أسكت لنجم غير الصالح المحكم الفيصل، اضرب واطرح والدكتور صاحب دار النشر المشهورة في أربعة أطراف الوطن العربي؟ .

قال منيب: «ما قصرت فيه . أيش قلت له ؟» .

- ماذا تريد كاتبة مثلي باس يدها هذه وجهاً وقفاً ستة أشهر متوالية وقام برحلتين إلى باريس حتى تحننت عليه وأعطيته روايتي الأولى؟ قلت له بكل بساطة إنه تاجر. أساساً فيه ناس إذا كبروا في السن ينور وجههم ويصبح مثل وجوه الملائكة، وفيه ناس كلما كبروا، مثل صورة دوريان جراي لأوسكار وايلد، يزدادون شبهاً بتاجر زيت مكرش أشبه ما يكون بكبراء اليهود. قلت له: عيب عليك يا نجم، عيب عليك أنك تتولّ جائزة إنسان جواد، محترم، عذب، لا هدف له إلا تنشيط الإبداع في الوطن العربي، لكتاب أنت خلقتهم! .

- وقال لك ؟

- قال لي : أنا لم أخلقهم وحدهم . خلقت غيرهم الكثير .

- بس ما يكون قال لك إنه خلقني أنا .. أنا والله العظيم خلقة الله. وأما هو فقد طلب مني ألفين وخمسمئة دولار أميركاني لا تنقص نصف بنس لكي ينشر لي رواية صغيرة اعترف هو نفسه أنها ظريفة، ولكن سوق الروايات الصادقة، مثلما تقول: اليومين دول، داقر!.

- وأن السوق واقع على المسرحية ، أليس كذلك ؟

قال منيب في براءة :

- عرضت عليه مسرحيات أيضاً .

- أيش كان جوابه ؟

- السوق واقع على ...

- على النفاق والدرهم والزلفى للأنظمة . اسمع البقية: لما قال لي إنه خلق الكثيرين غير الفائزين سألته: «من تقصد ؟» قال لي بكل وقاحة: «أنت مثلاً !» .

قال منيب: ولم تسكتي له طبعاً. قلت له: «ولا أنت خلقتني؟ ألن تبس يدي هذه..؟ على فكرة صاحبك هذا المتعب، حكايته طويلة ؟

- لا ، ها هو يودع الآخر. خمس دقائق ويكون هنا .. كنت أقول لك إني غسلته ودليته. ما تركت عليه ستراً مغطى. شفِ لي هذا التاجر بالمفرق، قال هو الذي خلقني، قال، العمى، ولك عمل من وراي ثروة. أنا قلتها له إني أنا التي جلست حدبة دار نشره ومجلته مع أني طريدة، شريدة، أعيش من شق قلمي في ديار الغربة التي الأسعار فيها نار والنار حامية.. ولك منيب أليست مسألة تحط العين في الكف وتجعلك مثل سعيد المجنون عندنا في البلد؟

- شوفي يا نونو. أنا أدلك على طريقة تتجنبين بها الجنون وخلافه. أنت أسباب مصائبك كلها عائدة إلى أنك أخذت من غير ملتك. ومن يأخذ من غير ملته يموت في علته.

- تضرب، يعني ؟

- يعني تقومين الآن إلى مكتب الفاكس في الفندق فتبعثين لزوجك الفرنساوي ورقة طلاقه وتأخذينني أنا، ابن حارتك ومن دمك ولحمك.

- اتركني ياه، والله قلبي ما هو مشته شميم الهواء.. كاتبة مثلي..

علّق الاشتباك بينهما وصول الدكتور متعب، رجل سمح الوجه أميل إلى النحافة على صحة وحيوية، بادي الحياء، عذب الابتسامة. قدمته نعيمة، وقدما هما نفسيهما إليه، قال منيب في براءة مدهوشة :

- أنا أتابع بحوثك في اللهجات الخليجية وتاريخ الخليج. أشياء حقاً طريفة ومتعوب عليها. أهنيك. والأمثال الشعبية؟ يا الله كم استمتعت بها. كل مثل كان يحملني على البحث عن شبيهه في لهجتنا. ولكن، قل لي يا دكتور، لماذا لا تشبهك كثيراً الصور التي تنشر لك مع مقالاتك في الصحف؟ (يضحك) يخيل إليّ من ينظر إليها ويقارن وجهك الرضي هذا بها أنها - أعني صورك في الصحف - إنما أخذت لك عندما تبلغ إن شاء الله الخمسين أو الخامسة والخمسين، وأنت عند التصوير في حالة اشمئناط كمل يقول بيرم التونسي..

نعيمة كفت عن أن تكون مشغولة بأناها وفرقعت ضحكة صاخبة:

- منيب خجلتني، أنت تخلط بين متعبي هذا ومتعب الصبر الذي يكتب في هذه الشؤون اللغوية. الدكتور متعب هذا أستاذ فلسفة يا اختيار!

قال منيب: «الله يلعن الشيطان، ولك نعيمة ظهر أني خرفت، وما دخلت دنيا بعد . اسمعي مني زبدة الحكي وخذيني ...» .

* * *

لم يكن بيت الدكتور متعب بعيداً عن الفندق... اتفقوا أن يركب منيب مع الدكتور، وأن يلحق بهما مسعود ونعيمة.. خلال المشوار تكلم الدكتور على صحيفة كانت تصدر في أبو ظبي اسمها «الصباح »، سبق لمنيب، بناء على تكليف من صاحبها، أن تسلم فيها زاوية يومية إضافة إلى إسهام نشيط في تحرير عدد أسبوعي بست عشرة صفحة، لقاء مكافأة - بموجب التكليف الخطي - قدرها ألفان وخمسمئة درهم. وبعد أن كدح مجتهداً سنة وشهراً، أي ثلاثة عشر شهراً شمسياً، أكل عليه صاحب «المغلق» نحو ثمانية عشر ألف درهم إماراتي ..

قال الدكتور متعب :

- أستاذنا ، فلوسك جاهزة .

- أين ؟

- في الحفظ والصون ولكن المشكلة التي سنطرحها عليك الآن ونتعاون في إيجاد مخرج لها كيفية بعث الحياة في هذه الصحيفة لأن صاحبها حقاً ابن حلال، طيب وإلّم يكن ابن صنعة.. يا ليتك تنزل لك نزلة إلى أبو ظبي وترى ما يذهلك. قطيع من أكثر من خمسة وثلاثين مصرياً كلهم يدّعون أن اللوموند والتايمز والواشنطن بوست يبوسون أيديهم لكي يعملوا عندهم، ولكنهم، لوطنيتهم أثروا عليهم العروبة والإسلام !

- وطبيعي أنه يدفع لهم من الجمل أذنه أو لا يدفع لهم مطلقاً.. فإذا تكومت عليه المدفوعات فنّشهم ولم يعطهم ورقة براءة ذمة إلا إذا كتبوا له تنازلاً عن حقهم ومستحقهم .

* * *

كانا قد وصلا، ولم يلبث الآخران أن لحقا بهما وركبوا المصعد إلى شقة الدكتور متعب.. كانت نعيمة قد حسبت حساب منيب ومحبته بطنه فأحضرت معها صرة فيها كبب وفتوش وأفخاذ دجاج وأصناف من النواشف. قال منيب وهو يراقب مسعود الذي كان يفتح الصرة ويرتب المائدة على المنضدة الزجاجية اللامعة، مثل كل شيء في تلك الشقة الجديدة الوثيرة ذات الأثاث الأبيض والموكيت الذي يبدو كأنه الموهير :

- كان الشاعر يقول: وإن مدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم... وأما أنا فسأمد يدي أول من يمد ، ولكن أين القضايا الوطنية يا حكيم ؟ الشرط أملك عليك أم لك .

قال الدكتور ضاحكاً :

- كله لخدمتك يا أستاذ. الآن بمعونة الأخ مسعود، سنسطر لك سفرة ملوكية. استأن في الأكل من فضلك .

قالت نعيمة وهي تمسد بطنها :

- أنا أخاف من السّمن. يظهر أن عندي استعداداً.. في باريس تركت نفسي على هواها وإذا أنا زايدة عشرة كيلو في شهرين! يا لطيف شو ارتعبت. زيادة الوزن شغلة لا أهون منها، أما تخفيفه فهو مشكلة المشاكل. متعب، خلنا نحكي في حكايتنا مع منيب. الرجل يوسف (صاحب الصباح) أمّنّا على المسألة من أساسها ووثق فينا، ومنيب منا وفينا. هات نسخة من الصباح، العدد الأخير، أليس عندك ؟

- بلى .

لم يكن منيب قد رأى الجريدة منذ أكثر من خمس سنوات، فلما بسطتها نعيمة على منضدة الوسط اللماعة، قرب أطباق الطعام، حملق فيها كأنه يراها للمرة الأولى :

- نعيمة ، هل تأملت هذه الوريقة قبل هذه المرة ؟

- ولكن هنا من أجلها. يوسف أرسل إليّ بضعة أعداد بالبريد الجوي إلى باريس قبل أن يدعوني إلى الحضور .

قال منيب متخابثاً :هل تعلمين ما معنى كلمة » يوسف» بالعبرية وأصبحت بالفرنسية «جوزيف» ؟

قالت في نزق خفيف: «الآن وقتها ؟ أيش معناها من فضلك ؟» .

- هذه يا طويلة العمر تعني ، في أحد معانيها «من يزيد» كما يقول «لوي سوغون» وتلفظ «يُسِفْ» وقد تكون من جذر «عسف» أي «يخطف»! ولذلك كان يوسفكما أنت والدكتور متعب إنما «يزيد» في تعليق الآمال على ورقة ملفوفة هذه[1]، ولذلك «خطف» مني ثمانية عشر ألف درهم «جلاها» يوسف الله لا يوفقه !

في هذه الأثناء كانت نعيمة تتصفح الصفحات الكامدة ، سيئة الطباعة والترتيب والورق على نحو مبك . قالت :

- أنا من جهتي لا أعلم بِمَ أنصحه . أنتَ ما رأيك ؟

- مرة كان عندنا في الشام أجير حداد ماشي حاله في الصنعة. فجأة اشتهى أن يصبح أديباً عملاً بالحكمة الشعبية القائلة: «الرزق الداشر يعلم الناس الحرام!» وبما أنه شبه أمي فقد اعتمد على جهالة الناس والقلة (هذه الكلمة أنا ألفت في موضوعها كتاباً كاملاً!)، والقاعدة التي تقول إن خير من استأجرت القوي الأمين، فما كان منه، وهو القوي بقدرته على التحبب إلى السلطة، والأمين على الغنائم التي يسرقها من كتب الأحياء والأموات.. وبما أن لحلحان غلب مطمطان، فقد أصبح كاتب و «آخذ» القصة القصيرة الأول في الشام، ولم يكفه ذلك بل ضربت عينه على العالمية مثل نجيب محفوظ، فعمل حاله مضطهداً، وترك البلد بتأشيرة خروج أصولية، وسكن في لندن حيث كتب في مجلة «النقد الحسن» مقالة أحدثت دورياً في الأوساط الأدبية عن الشعر الحديث زعم فيها أنه ما قرأ مرة شعراً حديثاً إلا اشتهى أن تكون في يده مطرقة حداد (لاحظي هذا الاشتهاء!) لينهال بها على سندان، أي يافوخ الشاعر ناظم هذه القصيدة.. وطبيعي أن أحداً لم يتحدّه أن يقرأ سطراً وحداً من كتاب غير مشكول، وليس بشعر، عدد كلماته أربع عشرة ويرتكب ثماني وأربعين غلطة فقط...

---

(١) الفرنسيون يسمون صحف المحافظات (عدا باريس) ورق ملفوف.

- إذن قلت لي ما فيه فايدة من «الصباح» ؟

- هل قال لك يوسف نورثكليف تايمز أن جريدته، حتى لما تسلمها صحافي مصري شهير يكتب في «المصور» القاهرية لم يرتفع رقم مبيعاتها فوق الصفر بدرهم واحد !

- لا تبالغ منيب .

- ولك أنا نفسي قلت لك إني اشتغلت فيها سنة وشهراً، وكانت تصل إلى الشركة هدايا، فإذا انقطعت وما أكثر ما كانت تنقطع، لأن توزيعها أخو تحريرها التوأم، رحت إلى السوبر ماركت واشتريت حبة ليمون واحدة لكي يعطوني «الصبح» زودة البياع مجاناً.. يا ستي أقول لك أكثر : إنك، في أي سوبر ماركت، يبوسون يدك إذا أخذت كل أعدادها وخلصتهم منها حتى دون حبة ليمون !

- حتى الآن لا يروح من ذهني نجم الصالح اليهودي ذاك. قال هو الذي خلقني ! الحيوان يعلم علم اليقين أن روايتي «الوطن في حشاشة الفؤاد» تدرس في جامعة الرباط بوصفها نموذجاً رفيعاً للأدب النسائي المشرقي.

قال منيب متظاهراً بأنه لم ينتبه إلى هذا التفصيل الجديد :

- أنت تنتقدين كتاب الدولة هنا لأنهم حطوا ما فوقهم وما تحتهم ليستقدموا نقاداً وأساتذة جامعة معروفين على صعيد الوطن العربي يقوّلوهم (على أساس: أطعم الفم تستح العين) المقالات الطوال في مديح خربشاتهم وتقريظ قرزماتهم فينبشون قبور جويس وبروست ودوستويفسكي، ويخرجون أحياء مثل ناتالي ساروت وآلان رويب غرييه ليحضروهم شواهد على أن هؤلاء الزغب (اللاكتاب، حتى لو حكوا في البنيوية وقرؤوا كل أرسطو في لغته الأصلية) إما هم ظاهرة خارقة في الأدب العالمي الحديث.. أي روحي تفرجي على رئيس تحرير إحدى المجلات الأدبية التي تكلف شهرياً (وهي شهرية) خمسين بقرة من بقرات جحا. أي ستي، هذا رأسماله كله أنه ألف مجموعة قصص من سبعين صفحة عنوانها «طاقية الإخفاء» لم تبع غير نسخة واحدة اشتراها هو.. إن نظرة واحدة إلى جبهته الضيقة والمئة

والعشرين كيلو التي يحمل ، إضافة إلى أوزار السادات لأنه كان من أبواقه... يكفي لكي تري إلى تمثال للغباء يعجز تمامه ميكيل آنجلو نفسه ..

الآخران كانا في الكأس الثالثة في حين أن منيب كان في الثانية ونعيمة في أوائل الأولى. وفيما كان هذان غريقي معركة الصحافة وإحياء «الصباح» الميتة راح مسعود يشكو للدكتور معاملة الكلاب التي يلقاها المترجمون على أيدي الشركات العاملة هنا.. فالتقطت نعيمة جملة صدرت عن مسعود تتعلق بهموم العيال والمرة بنت الحلال من ظهر حلال الصابرة على شظف العيش واضطهاد الوافدين، فقال مسعود:

- أحسن من شكواك له تدبر له عروساً شامية حلوة مثلي .

وعادت إلى شأنها مع منيب، وأما مسعود فقد دخل في استجواب للدكتور حول وضعه الأسريّ وسبب انفصاله عن زوجته الفرنسية و.. من لا يأخذ من ملته.. قال منيب:

- احك له عن أخت زينب مرتك. قالوا: اخطب لبنتك. وقالوا: استأصل لبنتك واستدون لابنك .

ضحكت نعيمة :

- أنت حقاً خرف. المثل على العكس استدون لبنتك حتى لا يشوف الزوج حاله عليها، واستأصل لابنك كما فعل زوجي جورج لأن العرق دساس.

قال منيب قافزاً رأسه إلى موضوع الجائزة :

- أنا رأيي أن صاحب جائزة هنا خير من ألفرد نوبل. هذا اخترع الديناميت فعذبه وجدانه، فوقف أموالاً تستثمر وتمنح عائداتها لمن يقدمون إسهاماً مذكوراً لقضية السلام.. وأما صاحب جائزة هنا فلم أسمع عنه إلا كل ذكر معطر. المشكلة كلها في هيئة التحكيم في كلتا الجائزتين. صحيح أن نوبل قد تهودت بعد الحرب العالمية الثانية فأصبحت تمنح لطغمة مجرمة مثل بيغن والسادات وتشرشل وإيلي ديزلي اليهودي الأمّعة الذي يرى أن

الضحايا في فلسطين أكثر ذنباً من جلاديهم لأنهم يضطرونهم إلى قتلهم.. ولكن الأكاديمية السويدية في الأقل لم تمنح جائزتها - فيما عدا أنور السادات - لأناس لا يتقنون لغتهم الأم، وأما جائزة هنا فقد منحت لشخص دعي إلى ملتقى في أبو ظبي ففزّ يخطب لا أراك الله مكروهاً مما ارتكبه في حق اللغة العربية .

تدخل الدكتور متعب :

- لقد حضرت ذلك الملتقى واستمعت إلى محاضرة زميل لي من الكويت هاجم فيها نفاق الأدباء الذين يدّعون التقدمية ومناهضة الأنظمة التوتاليتارية، وإذا الكاتب الحائز على جائزة هنا ينهض ليدافع عن الأدباء المتياسرين وينفي عنهم تهمة النفاق.. كانت القاعة قد تهاتفت ضاحكة من لغة هذا المتياسر الفائز، فلما رد الدكتور الكويتي عليه، بكل دماثة وتهذيب، قائلاً: «ألفت نظر - الزميل - الكريم إلى أني، حين أخذت على الأدباء نفاقهم للسلطة، لم أعمم ... » انقلب التضاحك الخفي الخجول إلى قهقهة.. من حسن الحظ أن الأديب المتياسر ظن الضحك على الدكتور الكويتي...

عاد منيب إلى موضوع الجائزة :

- ولكن أظرف ما في الجائزة « أكاديميتها » ..

قالت نعمية: «لا تقل لي حرفاً واحداً زيادة: من أين استوردوا هذا الأمين العام المساعد للأكاديمية؟ في عمري سمعت أناساً يطربشون اللغة العربية مستخدمين ضروباً من التقنيات، من الحذق ، من المعلمية.. ولمن أخا هذا الأمين العام لم ترعيني ولم تسمع أذني حتى بين مبتدئي المستعربين الفرنسيين في باريس...» .

قال منيب :

- في زماني كنت أستقل الترولي بموسكو مع صاحبة روسية شروى جمالك..

- ماذا تقول؟ شروى جمالي؟ وفي روسيا!

- انتظري حتى أفضي لك بعد الكأس الثالثة. اي ستي، على ذكر طربشة اللغة، كنت أقول لكِ إني كنت أركب الترولي مع أنتيشكا الروسية، وعلى الرغم أنه لم يمضِ عليّ في موسكو أكثر من ثلاثة أشهر فقد أصررت على إدارة الحديث معها بالروسية! وفيم يا حزرك؟ في الأدب الروسي لأجل خاطرك!.. وإذا سيدة عجوز تمس فضل رداء أنتيشكا الواقفة فتنحني هذه عليها لتسمعها تطرح عليها هذا السؤال الذي لن أنساه. قالت لها: «سكاجيتي مينا باجالوستي مليا مايا؟» أي قولي من فضلك يا حبيبتي كيف استطاع صديقك الغريب هذا أن يظفر بكل هذه المهارة في تحطيم لغتنا الروسية المسكينة!.. على ذكر العبارات الخارقة تصدر عن أناس بسطاء، أذكر ...

- أي على مهلك دقيقة، يخرب بيتك لا تقولون إلا ماكينة حكي مزيته. احك بالأحرى لهذين السيدين عن الرسالة التي وردتك من كاتب بلدياتنا في الثناء على رواياتي.. ولك منيب اسمع هذه: على الراعي الناقد المصري الكبير، وهو الآن شيخ كبير، كتب عني مقالة، على غير معرفة، رفعني فيها إلى السماء السابعة وسخر من كثير من الأسماء التي يطبل لها ويزمر لحاجات في نفس يعقوب. وصدرت هذه المقالة التي تطفح حناناً وأنا، يومئذ في مصر. أمسكت سماعة الهاتف من غرفتي في الفندق ...

- الكونتيننتال طبعاً، لأن جثتك متعودة على فروعه ..

كان في أواسط الكأس الثالثة، وقد بدأ أكثر ضوجة من قبل. ولكن نعيمة لم تأبه له. استمرت تقول: «أجابني هو شخصياً، قلت له: أنا تلميذتك نعيمة زعفران، قرأت مقالتك عني وأود أن أزورك لأشـــكرك . رحب بي. رحت أمضيت السهرة كلها عنده »...

- قلتِ لي إنه كبير في السن !

- سألته من بين أسئلة كثيرة من يقصد بالأناس الذين يطبل لهم ويزمر؟ قال: مثلاً بطرس حنين من عندكم ويوسف القعيد من عندنا. هذان، لا تواخذيني يا بنتي، أولهما مزيِّن رجالي والمزيِّن الرجالي، أنتِ تعلمين،

يضرب عشرين ضربة مقص على الفاضي، لكي يضرب واحدة في المليان.. وأما يوسف القعيد فعتليت، لا بد أنه كان يتعاطى المصارعة، ولذلك ترينه يكتب الألف صفحة والألفين من دون أن يقول أخ! (أضافت بعد أن أطلقت ضحكة) هذا صحيح، أنا بعد كتابة عشرين صفحة أحس أن كتفي انهدت ويدي يبست!

كان قد أنهى واجباته مع الكأس الثالثة فعاجله مسعود بالرابعة. فقال له:

- لا تعذب نفسك أنا لن أسكر لأني طبقت مواعظ معلمنا المرحوم شفيق جبري في هذا الباب حين كان يوصينا دائماً بأن: «تباطؤوا في الكأس الأول» وأما أنت يا ابنة البلد فاسمحي لي بكلمتين ورد غطاهما. الأولى موجهة إليكِ وإلى الدكتور متعب، وهو على عكس اسمه ، مريح وكربوج .. أيتها السيدة ويا أيها السيد (Une Fois Pour Toutes) [1]: انزعا من فكركما أن «الصباح» هذا القبر الخرب لا يليق له إلاّي ظنا منكما أني يهودي ميت ... وأما الثانية فأنتِ آخر من يحق له انتقاد بطرس الحلاق...

كانت نعيمة تبتسم كأنها تأخذه على قد عقله أو أنها، لكثرة ما تشربت ذاتها حتى الفهاق والامتلاء، عادت لا تجد ثانية فراغ واحدة تنفقها في الزعل من شيخ خرف مثل منيب. لو أن مُخرجاً رصد حركات وجهها ، ابتسامتها، نظرة الصفح المائلة التي تنظرها نحوه.. لأحدث فتحاً مبيناً في عالم التمثيل الإيمائي الناطق. ولم توقف منيب . كان مثل السيل المحطوط من جبل :

لأن بينك وبين الرجل أرضاً مشتركة. قد تكونين، كاتبة، خيراً من غوركيه وزورباه، فأنا لم أقرأ شيئاً لأي منكما إلا لمحاً على الماشي، ولكنكما كليكما تكادان تفقعان نفخة وغروراً، بعد عمر طويل، وقفي لا تقاطعيني، صحيح أني في الرابعة، ولكن رأسي وازن مثل جبل قاف ومن كل صحوي أحكي معك. هو يصرّح أن ما كتبه حتى الآن كاف لتخليده إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين وأنه مول بالخارق، ويحب أن يُنْتَقَد، وأن

---

(١) مرة واحدة ونهائية.

نجيب محفوظ، الذي اختلط عليه الأمر من فرحته بنوبل.. فرشحه إليها مع أني تأكدت من مصادر لا يرقى إليها الشك أن محفوظ لم يقرأ سطراً واحداً لبطرس.. وأنت يا بنت بلدي، وعرق عيني، إذا ابتعد منك الحديث إصبعين تضيق أخلاقك وهات يا تثاؤب.. اضحكي ضحكات تحتانية تعني بفصيح العبارة أني خرف، وجاهل وأتجنى عليك.. ولكن اعلمي أنكم أنتم الكتّاب الذين تزعمون أن مهمتكم هي تغيير المجتمع لا تفعلون أكثر من تأييد الطغيان و«الستاتيكو» ووأد الحرية واستمرار التخلف والجهالة. لأن هذا هو المناخ الأمثل لكم. لو أن الأنظمة كانت ديمقراطية، لو أن الناس كانوا مبصرين بنور المعرفة الحقيقية، مفتوحة أمامهم المعارف على الثقافات الأخرى لكان أكتبكم لا يستحق أكثر من عرض حالجي. لقد عفى عليكم الزمن. وما دمتم تكتبون أشياء ينشرها أمثال نجم صالح، صديق الأنظمة القائمة كلها، فإنها ضربة لازب أشياء ترضى عنها هذه الأنظمة حتى ولو تبرقعت بالرفض أو التمرد أو المعارضة الضارية، ولذلك أقول أن الزمن قد تجاوزكم، وإن أحداً لا يقرؤكم إلا من تخلعت شروشه من أمته مثلكم. ولك أجيبيني عن هذا السؤال فقط لا غير حتى أهيم عشقاً بك، وأصدق كل كلمة منفخة تقولينها عن نفسك: لماذا استطاعت شعوب أوروبا الشرقية أن تكسر النير عن رقابها ونحن لا يتراءى لنا بصيص أمل في أن نشم نسمة حرية يتيمة تهب على حياتنا القفراء الذليلة ؟ متى نستطيع تقويم كل «الانتصارات» الأسطورية التي يطبل لها إعلام الأنظمة ويزمر فنسمي الأشياء بأسمائها ؟

كان الدكتور متعب قد كف طوال هذه «السَّحبة» عن الشرب، وراح يصغي بكل جوارحه إلى منيب وقد انتبه هذا برغم الكأس الرابعة إلى أن هذا الإصغاء الممركز إنما يعكس رغبة مكبوتة من الرجل أن يقول مثل هذا الكلام لنعيمة، ولكن حياءه العفوي كان يمنعه من مصارحتها على غرار ما فعل الشيخ الذي يبدو وكأنه «بايعها» وأن ما في قلبه على لسانه. وصدق حدس منيب حين قاطع متعب نعيمة التي كانت تتأهب للرد على الشيخ، وقال:

- نعيمة، الأستاذ منيب لم يظلمكم. أنا من باريس كنت أود أن أفاتحك . أنتم الكتّاب اليساريين درج زيُّكم بين بعض الأوساط القارئة، وأنت تعلمين نسبة الأمية في بلادنا ونسبة من يقرأ من الذين تغلبوا على الأمية.. يعني أن الأوساط القارئة أقل من القليل، ومع ذلك كانت تقرؤكم لأنكم شققتم عصا النظم السابقة التي أسميتموها رجعية ومتخلفة وإقطاعية. فلما وثب التقدميون الثوريون إلى السلطة رأى الناس أن هؤلاء لم «يتقدموا» إلا في فنون إذلالهم وقتلهم وزجهم في السجون وسوقهم إلى حروب كالقطعان العجماء التي تجوع حتي تفتقد كسرة الخبز.. ورأوكم أنتم ماتزالون مثل ثور الفلاحة مربوطين إلى خطكم القديم في مهاجمة الرجعية التي ذاقوا منها أقل ألف مرة مما ذاقوا من الثوار عليها.. ورأوا أن دور النشر، حكومية كانت أو خاصة مثل دار نشر صاحبك نجم صالح، الدكتور التاجر، قد كرهتكم نفسها، لأنكم أصبحتم غير ذوي موضوع أو مثلما في التوراة: لأنك لست بحار ولا بارد. لست بحامض ولا حلو تقيأتك نفسي.. لقد أثار ابن بلدك العجيب شيخنا الاستاذ منيب مائل على جانب كبير من الخطر، مسائل مجرد طرحها يوارب ألف كوة على حقيقة الدرك الأسفل الذي انحدرنا إليه. وقد لايكون شيخنا قد ذكرها تحديداً. ولكنها تقفز إلى الذهن حتى ولو لم يشر إليها. مثلاً.....

قاطعه منيب ضاحكاً:

اغفر لي هذه المداخلة بين هلالين ثم استمر.. مثلاً، لماذا أخرج أحد النقاد ولوع شاعر إماراتي حداثوي بكلمة «الحيض» حيث يقول (أحب الحيض الحامض) فما كان من الشاعر - وهو على فكرة أجرودي لا لحية له ولادياً - إلا أن نشر في جريدة «الساحل» الصفحة الثقافية «قصيدة» أخرى، نكاية بالناقد،جعل فيها الشمس تحيض! عدم المؤاخذة يانعيمة، لاحياء في الحداثة! تفضل يا دكتور أكمل، أكرر الاعتذار عن المقاطعة.

قال الدكتور: «بم تفسر هذه الوقائع أن لنا ظاهراً وباطناً على كل صعيد، نسكر ونفسق ونخون في الباطن ونضَّري العامة بتحريض من «الشاعر الوزير» ابن زمرك لتخنق العلامة الشاعر ابن الخطيب في السجن؟

لماذا كان تجول الهيروئين في الأقطار العربية أهون من تجول الكتب؟ لماذا ذاع روسو فاضح المجتمع في الاعترافات وفولتير المقذع في هجاء الكنيسة قبل أكثر من مئتي سنة في أوروبا فطيَّر دولاً وغيَّر أنظمة، وألف محمد شكري المغربي قصة طويلة فضح فيها باطن مجتمعه فلم يعثر على (نجم صالح) عربي واحد ينشرها له إلى أن ترجمها الطاهر بن جلون إلى الفرنسية فذاعت بعشرة آلاف النسخ وترجمت من بعد إلى العربية سراً ولم ينل مؤلفها عليها أي جائزة؟ لماذا كان عند قراء الانكليزية والفرنسية وحتى الالمانية والروسية معارف مكتملة بأدياننا الظاهرة والباطنة وكتب هؤلاء السرية ولا أضرب إلا مثلاً واحداً كتاب دوخويه عن القرامطة الذي ألفه سنة ١٨٦٢.. وكان ممنوعاً عندنا حتى تداوُلُ هذه الكتب بحجة الخوف من الفتن الطائفية التي لم تكف عن الاشتعال بسبب الجهالة والتجهيل وحدهما؟ كيف يحتكر الإعلام، وأحياناً الحكم، رجال دين جهلة يشغلون الشاشات الصغيرة وستوديوهات الاذاعة وصفحات الصحف ليثيروا مشكلات أكل عليها الدهر وشرب منذ أربعة عشر قرناً، حول الالوهية والخلافة حيناً، وحول جواز أو عدم جواز رؤية الخاطب كاحل رجل خطيبته عند خطبتها.. وبينما نرى هؤلاء الدعاة يتأثمون من الكاحل هنا، إذ نجدهم في شركات الأموال وفي كراسي الحكم يحللون ما حرم الله ويقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ويصدرون الفتاوى بل يقيمون علاقات مع أعداء الدين.. وإذا هم يشنقون في السودان شيخاً مهندساً في الثمانين لأنه اجتهد.. وهم يعلمون أنهم أستضعفوه فوصفوه مثلما حكاية ابن بلدكم أبي العلاء! إن العصا من هذه العصية، وكما أن في الغرب تكاملاً بين النظر والعمل، بين البناء الفوقي والسلوك العملي يوجد عندنا هذا التكامل، إذا ما عشى أن ينجب وُعَّاظ، زُعم أنهم أزهريون، ولا يلفظون صحيحةً الأحرف اللثوية حتى وهم يقرؤون القرآن، لأنهم يجهلونها، مثلما يجهلون الأحرف الصافرة والقلقلة والاخفاء والاظهار والادغام بغنة وبغير غنة.. انظرهم مع اقتراب شهر رمضان يتهافتون على البلد كالجراد النجدي شرهين، عُمْيُ البصائر، منضفرة ذواتهم حول الدرهم وحده.. وما عساي أن أسأل أيضاً وأيضاً؟

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. فقال منيب ضاحكاً: «أنا أقول لك ما ينبغي أن تسأل عنه: هذه الفودكا التي أسقيتنا مشكوراً، فشربنا هذه القنينة التي تراها مطروحة، كما يقول أبو نواس، ههنا جسماً بلا روح.. وفض مسعود بكارة الزجاجة الثانية واكتفى.. تساءل الآن إذا كان يدخل في العقل وطبائع حرماننا من الشراب منذ أكثر من شهر: ما عساي أن أصنع بها، والزجاجة الثانية أعني، إلا أن تتفضل فتنهض فتحضر لي كيساً من النيلون غير شفاف خيفة العسس لأخذها معي for roa d (أي عـّـز طريق) وأشربها غداً على هنية ومهل؟ و .. هيا يامسعود!

١٩٩٠/٤/١٥

*   *   *

القسم الثاني : «بعض أخبار البخلاء»

١ - عبد الرزاق
٢ - السكبليت

عبد الرزاق

حدثني حسني الحاج أبو عابد، قال:

لم أر في من عرفت من بدو أو حضر، في ما طوفت من أمصار، منذ أن تركت بلدتي الصغيرة من أعمال حلب قبل نحو عقدين من الزمان، إنساناً مسلحاً بمثل أنف «عبد الرزاق العطار» صاحبنا وابن بلدنا الظريف، أنف - آمنت بالله - مرهف كالسيف اليماني في كل ما يتعلق بالمآدب، وبالمكاسب التي دون رأس مال...

وقد حاولت استنطاقه لمعرفة طريقته الفذة وحيله البارعة التي تهيء له أن يعلم، وهو في «رأس الخيمة» عصراً، أن وليمة ستقام بعد العشاء في أبو ظبي من اليوم نفسه، أو جلسة شراب ستنعقد في «العين» بعد غد.

لم يكن يبوح لي بالسر، ولكنه - شهادة لله - كان يخبرني عن كل كشف جديد حتى ولو كان عرساً متواضعاً في قرية لم تسمع بأي نوع من أنواع المشروبات الروحية، ويأخذني معه بسيارته التي ظفر بها هدية من «حمد الحمد» لقاء بعض الخدمات، سيارة أمريكية تكاد تكون جديدة، غير مشترط علي غير شرط واحد: أن يكون الوقود علي أنا، يضاف إليه بضعة دراهم، عارية لا ترد، بمنزلة هوالك دواليب، كما يقول مازحاً. هذا إذا كانت الحفلة «مُبَلَّمة»، وهذا يعني في لهجة أهل بلدنا أنها «مقتصرة على الأكل وشرب المرطبات»، أي إذا كان صاحب الحفلة «يده ماسكة»، أي أنه لا يفرد كيس نقوده ويدس في يد عبد الرزاق الــ فيه النصيب كما يجب للصحافيين المحترمين من ثلاثين سنة، هذه المهنة التي كانت، سقى الله زمان أول، تتبع

هذا الآيين ولذلك لم يكن المحررون يقبضون أي نوع من أنواع العملة من أصحاب الجرايد.

عبد الرزاق العفريت، استطاع أن يؤبد هذه الأصول في مهنتنا، حتى بعد أن صار للصحفيين رواتب... كنت أقول: إذا كان صاحب المعمعة «كحتة» لم يتعد الشرط هذين الحدين، وأما إذا كانت يده مبسوطة فإنه لا بد داسٍ في يد عبد الرزاق ما فيه النصيب. في هذه الحال يتقاضى صاحبي حق الوقود وحده، دونما قرضة. فإذا قلت له: «يخرب بيتك ما أكحتك! قديش قبضت من الرجل؟ إنه كريم ولا بد أنه أعطاك عطاء ملوك، فلماذا تلح على قبض ثمن الوقود؟» فيقول: «لأن الغُرْمُ بالغنم. أنت أكلت - أنا مشتلق عليك - ما يعادل وقود خمس سفرات مثل هذه السفرة، فلا أقل من أن تدفع من الجمل أذنه. ولا تنس أننا في دولة بترولية، النفط فيها بسعر التراب!».

الشاهد أن أجهزة الاستشعار عن بعد لدى عبد الرزاق اكتشفتْ أن «أحمد العسال» سيقيم مأدبة، ليلة الجمعة الماضية في بيته بجبل علي، لمناسبة عودته من مانيلا حيث رفع رأس العرب عالياً بغزوات موفقة كدأبه كل عيد ميلاد ورأس سنة، وأن الطعام سيكون أولاً، فخذاً مع رز في الفرن، ثانياً، منسفاً على الطريقة الفلسطينية طباخُهُ أبو مؤمن عبد الستار غانم مدير شركة الالكترون في (ديرة دبي) بعد أن حصل على إذن استثنائي من السيدة زوجه، لأنه رئيس مجلس إدارة جمعية «ترمز».. وهي جمعية خيالية ألفها صديق لنا اسمه صهيب أحمد، مزواج مطلاق، تزوج نحو سبع مرات وظل أعزب الروح كما يقول عن نفسه، لأنه أبى أن يكون عضواً في جمعية «ترمز».. وهي الأحرف الأولى من الذين «تصطك ركبهم من زوجاتهم» هي جمعية شفاهية موارة، بمعنى ديمومة تجددها واختلاط رتب أعضائها.

مثلاً، بعد موقف معين وقفه مرة عبد الساتر من السيدة زوجته استحق عليه الترقية إلى «رئيس مجلس إدارة الجمعية».. وأما أحمد العسال، وهذا

مثل آخر، فلم يفكر حتى في أن يكون نصيراً في الجمعية، لأنه، بعد زواج دام أكثر من اثنتي عشر سنة تصرمت في الخناق وضرب زوجته وثلاثة أولاد، حل المشكلة بارسال الزوجة والأولاد إلى عمان والعودة إلى حياة العزوبية والنساء من الجنسيات المتواجدة في دبي كافة، ولعب الورق كلما استطاع عبد الساتر أن يظفر بإذن من «معلمته» الطاغية أم المؤمن.

لما وصلنا، عبد الرزاق وأنا، في أول السهرة، وجدنا الأوضاع على النحو التالي: عبد الساتر وأحمد إلى مائدة اللعب الزجاجية الواطئة. الورق أمامهما يضب ويخلط ثم يفت فتتين يمزمزان في أثنائها من كأسي بيرة، ثم يثبان إلى «المطبخ» وهو قطاع من الغرفة ذاتها مسيج بحاجز عال يتخذ في الوقت ذاته مصطبه ودفة للفرم والتخريط وملء الأقداح يثبان ليقوما بحركة أو حركتين تمهيداً للطبخ.. وأما صهيب أحمد فكان أمامه كأس وسكي لم ينقص أكثر من سانتي واحد، لأن شعاره في الشراب: «تباطؤوا في الكأس الأول فلا تسكروا أصلحكم الله»... قال حين فتحنا الباب:

جئتما في وقتكما. أنتما صحافيان، يعني في الإمكان اعتباركما، مع بعض المغفرة والتجاوز، من رجال الثقافة أو الانتلغنزيا، ولا كذلك هذان (يشير إلى عبد الساتر وأحمد) فهما إما لاعبان أو طباخان. أنا لا أصنع منذ نصف ساعة إلا أن ألاحقهما من هنا إلى هناك لأقرأ لهما هذا النبأ الهام فلا ألقي منهما غير الزجر.

قال عبد الرزاق وهو يهجم على المطبخ:

وأنا أيضاً أغسل يدك مني. حسني، هندزني بكأس واقعد مع صهيب بن رشد واتركني أعمل في المطبخ بأكلي.

قال أحمد:

ابدأ بتقشير البصل ياعبد!

أين هو؟

- في القفص.

- لا أجد غير بصلتين.

- تكفيان، واحدة لزنخة الجميد والأخرى مع مرقة الفخذة.

وكأن عبد الساتر وأحمد اطمأنا إلى حماسة عبد الرزاق فتركاه يتم التجهيزات الأولية، واندفعا، من غير تفاهم معلن، إلى مائدة اللعب. اقترحا علي مشاركتهما فقبلت لأني مللت مما كان صهيب يقرؤه لي في أوراق أخرجها من جيبه مما يقبض القلب:

«وقال باهوغونا، مسؤول حركة تشيكو لحماية البيئة في مؤتمر حماية البيئة المنعقد في لندن هذا العام: سيدي الرئيس، ما عسى أن يستطيع شخص ريفي ساذج مثلي أن يقول في اجتماع معقد كهذا يضم مثل هذا العدد الموقر من العلماء والمتعلمين. أنا معتاد على الكلام مع القرويين والعمل معهم..».

فتَّ لي أحمد. ربحتُ الفتة. نحو خمسين درهم. صهيب ما يزال، يقرأ. عبد الرزاق كأسه أمامه وعيناه تدمعان. فتة ثانية، رسملت، في الثالثة صار قدامي مئة غير رأس مالي. عبد الرزاق أخذ يتحرقص:

أنا أيضاً فتوا لي. حسني، هل تقرضني مئة درهم؟

- لماذا؟ أنت ما معك؟

- تخبير حلال، معي خمسة وثمانون.

كان يكذب، أنا أعلم. قلت:

طيب اخسرها وأنا أقرضك.

قال عبد الساتر: «يخسر؟ قل إذن إنه سينفخها!».

قلت: «إذا خسر الخمسة والثمانين، نعم. وأما إذا خسر المئة التي سأعطيه إياها كانت المسألة جنحة!».

قال عبد الساتر: «نؤجل اللعب الرسمي إلى ما بعد وضع الفخذة في الفرن وتركيب الجميد على البوتاغاز!».

قال صهيب: «ولك دعكم من حكاية اللعب هذه، أنتم أخوة والمثل على أن الصديق المخسِّر عدو مبين. تعالوا أكمل لكم قراءة وقائع مؤتمر حماية البيئة في لندن..».

قال عبد الساتر: «لا تعذب نفسك. البيئة في الحفظ والصون. أنا ربحان حتى الآن أم المئتين واللحم ذبح اليوم من عند الباشا والجميد واصل من عمان اليوم..».

قال صهيب: «خطأ، المسألة مصيرية بالنسبة للحياة على الكوكب. هل تعلمون أن مساحة الأراضي في الكرة الأرضية...».

وهذه أيضاً نحن مطمئنون في صددها. البيت الذي تدفع أجرته الشركة سياح نياح. فيلا. خمس غرف. جنينة يلعب فيها الخيال يومين.. إذن أنا في غير حاجة إلى أراض جديدة.

قال أحمد العسال: «وأما أنا فأحتاج. هل تعلمون هذا القن، غرفة ونصف صار بستة عشر ألفاً...».

بالله؟

- زادوا علي ألفين مرة واحدة.

- الله يجيرنا من الأعظم.

قال صهيب: «طيب، هل عندكم فكرة نظرية الرهان عند باسكال؟ يقول هذا الفيلسوف الذي كان مقامراً كبيراً وتاجراً كبيراً: ينبغي أن نراهن بحياتنا على وجود الله...».

قال عبد الساتر يخاطب عبد الرزاق: «خلصت البصلات؟».ورفعت الطنجرة واللحمة على النار. تعال أحمد دبر الفخذة.

صار الثلاثة في المطبخ. صهيب مستقتل:

هل تعلم يا حسني أن باسكال لم يأت بجديد. لقد سبقه ابن بلدي أبو العلاء المعري حيث يقول:

زعم المنجم والطبيب كلاهما..

قلت أقاطعه: «يدي في زنارك. أنا داخل عليك!»

ولكنه كان، كما يظهر قد حط دمه على كفه.. فلم أجد إلا وسيلة واحدة أتحرر بها منه: وثبت أعاون في المطبخ، ومع ذلك لاحقني ببيت آخر، من مجلسه، كأنه يندهني:

إن صح قولكما فلست بخاسر

أو صح قولي فالخسار عليكما

قال أحمد: «والله ما أحد خسران غيري!»

الفخذة التي يطبخها أحمد توضع عادة في الفرن على نار هادئة تستمر نحو ساعتين تقريباً، وسلق اللحم في مرق الجميد يحتاج إلى وقت حتى «ينزل نيفة» وينجبل مع الرز والخبز المشروح جبلة واحدة. هذا يعني أن في وسع السادة المقامرين، نحن، أن نعود إلى المائدة. عدنا إلا عبد الساتر الذي تفتق ذهنه بغتة عن أن المأدبة لا تكتمل إلا بصحن سلطة حول منضذدة اللعب رضي عبد الرزاق أن يخرج من جيبه ما زعم أنه كل ما يملك، خمسة وثمانين درهماً وأحمد يقول له:

أنا أراهن أن معك قدها عشر مرات.

- أنا!

المرحومة مرتك ماتت عن أربعة أولاد لأنها رأت عزرائيل أكرم منك.

- أي رح انظر لنفسك. أحسن من أن أضربها على الطالعة والنازلة!

أنا عدت لا أضربها!

ضحكنا: «معلوم، من أين تأتي بها وهي على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر لتعمل لها قتلة كل يوم!».

قال عبد الرزاق يهاجمني:

وأحسن من آخرين العين التي تراهم مسافرون لأن عزيمتهم، مثلما تقول...

قلت له: «أي اخرس، تضرب في هذا الشكل. أنت تظن نفسك من الفحول أليس كذلك؟»

أنا قلت شيئاً؟

ارتفع صوت عبد الساتر من وراء الحاجز:

يظهر أنه لم يبقى عندنا بصل.

قال أحمد: «كان فيه، في القفص!»

أنا لا يلزمني إلا بضع قشور لأجل الطعم.

قال عبد الساتر وهو يبحش في الكومة التي على الحاجز:

أنا الذي قشرت البصل؟ لا يمكن أن تكون أنت.

- لماذا؟

- لأني لا أرى غير القشور الصفر، هذا معناه أن عبد الرزاق هو الذي قشر البصل!

ضحكنا حتى صهيب ضحك وتبرع بالذهاب إلى البقالة القريبة لشراء نصف كيلو بصل.

قال عبد الساتر: «عال العالّ هذا يعني أنك تصلح لشيء آخر غير الفلسفة، الخير بتمامه، بعد أن تجيء بالبصل تعال أكمل السلطة حتى أروح ألعب لي فتتين!».

قال صهيب: «أي، الله يكون في عونهم، فضي لهم الفك المفترس!»

كانت نبوءة صادقة من ذلك الدرويش، صهيب: جولة، ثنتين، أربع جولات كان اللعب فيها سجالاً. فجأة أكل عبد الرزاق ضربة

موجعة من عبد الساتر: طارت أم الخمسين. قلت له من خوفي على «صولدي»:

منذ متى وأنت تلعب... الصنعة ما هي صنعتك يا ابني، قم العب بملء هذه الكؤوس لمن يعرف اللعب.

- اعطني مئة. أما وعدتني؟

- وعدتك لما كنت رابحاً. وأما الآن فأنا مرسمل فقط.

- سلفني مئة، أنا متأكد من أني سأعوض وأربح.

- من أين جاءك هذا اليقين؟

- تصبحت صبيحة جعلتني أتفاءل.

- ما هي؟

- كان لي دين على خلفان من سنة. من ستة أشهر وفاه، لكنه نسي. اليوم صباحاً صادفته في شارع الوحدة فاندفع نحوي وهو يقول: «أنا دائماً أنسى الذمة التي علي. يلعن الشيطان!» وسدد للمرة الثانية.

- إذن معك عملة.

- من أين؟

- أما قلت إنه وفاك للمرة الثانية؟

- المبلغ خمسمئة درهم، إن شاء الله أن تريدني أن أحمل مثل هذا المبلغ معي وأروح إلى عزيمة فيها كأس!

على كل حال دبر رأسك، أنا بدأت أخسر..

عاد اللعب فاتراً، ولكنّ «الميز»، الذي كان ما ينفك يزيد على يدي الأهوج أحمد العسال، افترس صولدي. ولا كذلك رصيد عبد الرزاق.. كنت في الكأس الثالثة أو الرابعة فلم أتبين جيداً السر في صمود رصيده: أهو لعبة الحذر أم أنه كان يخطف يده إلى جيبه وينسل ما كان يقوي به

رصيده بعد كل ضربة تنهال عليه من عبد الساتر. وفي اليوم التالي سأعلم من عبد الساتر أن الافتراض الثاني هو الصحيح، وأن خسارة عبد الرزاق، للمرة الأولـــــى في التاريخ، بلغت مئتي درهم، وهذا ما يفسر الأحداث التي وقعت من بعد!

وأفلست أنا من رصيدي الذي كان يتضمن رأس المال والربح الذي بلغ لحظة من اللحظات نحو ثلاثمة. ولكن هذه اللعبة بنت كلب ما فيها أمان. المهم أني نفضت جيوبي ولم يلبث عبد الرزاق أن لحق بي وهو لا يكف عن طلب المئة درهم: «قرضة الله حسنة يا جحش، بكرة أردها لك، ولك هذا دين قمار لا ينبغي أن يبيت أكثر من أربع وعشرين ساعة. مد يدك إلى جيبك واعطني المئة!».. أحمد العسال وحده بقي ينازع رصيده حتى أعطاكم عمرة قبل استواء الطبخة.

لما استوت، واستبدل بالبطانية المنسف والفخذ المحمر، هجم عبد الرزاق على الطعام الذي كان مثل النار لايزال، وأخذ يمزق بيديه لا يبالي بحروقة أو لذع مادام غريمه، اللحم، هو الوحيد الذي يستطيع أن يصب غضبه عليه. وكذلك فعل بالرز والسلطة وقنينة الويسكي وهو صامت لا يزلق كلمة إلا همهمة منذرة تشبه هرير كلب ظفر بعظمة دسمة خطفها من بين عدة رفاق له وانتبذ مكاناً قصياً لنهشها وحده... وكان يجلس على الكنبة بصفي ولكنه كان يتعمد أن يدير لي ظهره ويتحاشى أن ينظر إليّ ولو نظرة جانبية خاطفة.

لما لم يبق في الصينيتين غير العظام وفلول من الرز والمرق وثب عبد الرازق واقفاً، صامتاً دائماً، هاراً هريراً منذراً لا يدري لمن كان يوجهه... واتجه نحو الباب دون «خاطركم» أو كلمة شكر لأحمد صاحب البيت أو لعبد الساتر معلم الطباخ.. قمت ألحق به لأركب معه. ما عساي أن أفعل غير ذلك وبيت أحمد في آخر ما عمر الله على طريق «أبو ظبي» وسيارات أجرة ما

فيه.. وحتى لو وجدت لما رضي السائق بأقل من أربعين خمسين لإيصالي إلى «ديرة».

طوال الطريق الذي يزيد على ثلاثين كيلومتر أصر عبد الرزاق على الخرس. عند رصيف بيتي لست أدري لماذا غلبني الضحك وأنا أنزل من السيارة... عندئذ همر للمرة الأولى ما معناه: «أضحك برص» فنزلت من السيارة وأنا ما أزال أضحك.. نزلت واستدرت من أمام السيارة ووقفت عند نافذته لأودعه فمد رأسه من النافذة، وقذفني بهذا الوعيد الغامض:

أنا أفَرِّجُهُ!

وهدرت السيارة ثم انطلقت في اتجاه الشارقة.

يفِّرج من؟ عبد الساتر؟ ما عسى أن يفرجه وهو إنسان نعرفه جيداً وتعلم أنه جواد، اللقمة التي في فمه ليست له، ولكنه في اللعب نيرون؟ إنه يبرر قسوته تبريراً غاية في المنطق: «ما دمتم رضيتم بلعب القمار فيجب أن تستبعدوا أي أمل في أن أعيد إليكم ما خسرتم. أنا في هذه المسألة لا ألعب!»

مستبعد أيضاً صهيب. وأكثر منه أحمد العسال صاحب البيت، لأنه مني بخسارتين: الطعام الفخم والقمار.

أنا؟ لو كان يقصدني لقال: «أفرجك!» وحتى لو كان يقصدني، فليبلط البحر. ودخلت البيت وأنا أضحك ذهب ظني أنه يهدد الحظ!

يوم الخميس التالي توضحت الأمور. كان عبد الرزاق قد أخبرني أنه مسافر الخميس صباحاً ومعه أولاده الأربعة إلى أبوظبي. لا بد أنها كانت «دعوة» إلى غداء. في المساء هاتفني صهيب:

مررت اليوم بأحمد في بيته. احزر من عنده؟ أنت لا تصدق، منذ العصر جاء هو وأولاده الأربعة. رجعت حليمة لعادتها القديمة. هذه المرة

صرح أن الأولاد يحبون المنطقة وقد قرروا البقاء حتى يوم الأحد صباحاً لأن السبت عطلة.

- يخرب بيته! ألم تقل له إن هذه الزيارات لأحمد في أيام العطل غير مناسبة للأولاد. البنات صرن صبايا..

- هذه آخر همومه. أكثر من هذا أنه صرح مبشراً أحمد بعزمه على تمضية العطل كلها في بيته.. وأنت تعرف أحمد: لا يعرف كلمة لا.. نغمة جديدة ظهرت في كلام عبد الرزاق. احزر ما هي.

- ما هي؟

- الشكوى من أنه، منذ تلك الليلة، على الحديدة!

يا لأحمد المسكين، طقت في رأسه. والفاجع أن المسكين لا أكل ولا شرب وهو يزرب منه الدين وراتبه على قده وفاتح بيتين.

* * *

«السكبليت»

حدثني صهيب أحمد قال: حدثني أخي أبو الفضل وهو من تعرف مائدة بالخيرات مهضومة، وكفاً من البذل مثقوبة، وديوناً تزرب زرباً، وهو لا يحسُّ لها همّاً ولا كرباً، لأنها إنما سطرت عليه، وأثقلت كاهليه في سبيل الغيد الحسان مهما تكن أجناسهن والألوان، قال: علقت ذات مرة امرأة كنازاً رهروهة ولكنها إلى القصر أميل لقول الحجاج بن يوسف: من تزوج منكم القصيرة ولم تعجبه فعليَّ مهرها. وقد تعرفتها في محطة القطار إذ كانت تودِّع زوجها المسافر إلى بعض الأمصار البعيدة حيث يغيب بعض الوقت ويعود جالباً لها، عوداً على بدء، صنوف المقت بما كان شحيحاً كحنة لا يعرف من أسماء الأفعال التي تعدُّ بالمئات إلاّ اسم الفعل «هات» أجل كان، غفر الله له، حلاب النملة، وقد قدمني إلى زوجه قبل رحيل القطار، وأوصاني بها خيراً، وقدمها إليّ وهو يقول: «ابنة عمي لحاً وأم ولدي الوحيد، فكن لها في غيبتي بمنزلة الأخ، لأنها غريبة الدار هنا، وعلى ما ترى من الملاحة والجاذبية والجمال مما يدوخ أعتى الرجال! وكانت قد دوّخت أخاك حقاً وسلبت لبّه صدقاً وهذا ما يسمى يا غشيم بالحب من النظرة الأولى والفرنسيين يسمونه الصاعقة».

ورحل الرجل فأقبلت عليّ المرأة بعد أن اجتذبت ابنها، ابن الخامسة، الذي كان يشيطن غير بعيد، من يده ولزّت عليّ حتى كادت تلتصق بي وهي تصدح:

ألا توصلني إلى البيت وقد أصبحت بتفويض من الـــ... أصيل وليّ أمري؟ وقالت لابنها دون أن تقطع كلامها: «اعط.. لا، بُس عمك أبا الفضل يا سمورة!».

قال الطفل قبل أن يثب إلى عنقي التي وطأتها له: «هل هذا هو بابا الجديد؟!» فتعجبت من قوله ولكني نسيت من عناقه الحار تعجبي. فقد كان يشبه أمه شبهاً كبيراً. ثم أنه أمسك بيدي وشنكلت أمه، أو كادت ذراعها بذراعي فأحسست أن شركة الكهرباء بوشائعها وتوربيناتها قد انتقلت من زقاق الصخر إلى طرفي الأيسر وهات يا تيار كهربائي اشد لا أدري بكم «واتاً» من التيار الذي كانوا يضعونه لنا في المعتقل.. وجاء صداحهما الذي هو أطلى وأعذب من أي كناري وسحائب من شذى أنوثتها الممتزج بعطر نسائي ناعم لم أعرف ماركته لكني عرفت أنه تناغم مع عبق جسدها العبل الرقيق الريان... فكدت أنطرح على طولي قدام دائرة البريد لولا أني وجدت الفرج في حركة سمورة الدائبة وهو ينطنط حوالي أو قربي وهو ممسك بيدي، وفي أسئلته التي لا ينضب لها معين: هل في بيتي سمورة مثله؟ هل أنام عندهم الليلة؟ هل آخذه إلى مدينة الملاهي؟ هل أنا قاعد في الروضة أو أني تخرَّجت منها؟ عمو أبو الفضل شف السرّاية (يقصد السيارة) عمو أبو الفضل أنت تحب الشوكولا؟..

- جاءني هذا الطفل هبة من السماء. داريت به توجسي وأفكاري المحيطة. كنت أقول في نفسي: «عشقت يا أبو الفضل آخر عمرك؟ ومَنْ، أيها الغراب المنتوف المقطّع الموصّل؟ أما عشقت، على سوادك وبراطمك ودنوك من الأربعين، إلا هذه الفراشة القمورة التي تكاد تشف مثل صنف الملائكة...» وكانت حقاً مثلما آباؤنا العائدين من السفربرلك يحكون عن النساء الكرجيات اللواتي إذا شربن قطرة ماء يُرى انسيابها في نحورهن... أي ما لك عليّ يمين هذه كثيرة على رودلف فالنتينو، ولو لم يكن، زوجها ابن عمها، لكان أهلها عملوا اللازم لمجرد قرعه بسقاطة بابهم فكيف يطلب

يدها... مسألة الشفوف، الظرف، الصُّداح... تجلت في أبهى معانيها لما أخذتهما إلى مطعم في شارع الفردوس كان اسمه «البرج الفضي» كأنه قصر فرساي. وتعال ياغرسون وتفضل اسأل السيدة ماذا تريد أن تأكل. وأنت يا حبيبتي يا سمورة؟ والغرسون كان يعرفني ولكنه لم يرني قط مع امرأة فراح يقول لها حفياً.

- أمر سيدة أم الفضل!

تذوقها فرحة: زخني العرق وأخرسني حرج الموقف فلا أنا قادر على أن أقول له إن هذه هي أم سمير، ولا أنا حتى آت من قلبي أن أرفس هذه النعمة حتى ولو كانت خلّبية!

ومر الغداء على هذه الحال وشبع سمورة الذي أكل من الحلوى والفاكهة أكثر مما تذوق من أصناف الطعام الفاخر الذي كنت أبالغ في طلبه وأقول: «عمره ما أحد ورث، إي شو كلّ يوم سيصح لك يا شفاتر أن تتغدى مع قطة إفرنجية كهذه»! وعاد سمورة بعد الغداء ينطنط حوالي وهو يقول:

الثبكي، الثبكي عمو.

قالت أمه على استحياء: «أبوه لا يأخذه إلى أي مكان. أنا، أحياناً أصحبه إلى حديقة السبكي مع أنها غير بعيدة من بيتنا!»

في الحديقة أفلت الطفل وانطلق يلعب مع لداته وجلسنا هي وأنا على مقعد غير بعيد. الظلال وزقزقات الأطفال. وانكسار حدة الحر مع الأصيل، أطلق لسانها بأحاديث من كل واد عصا على عادة النساء الصبايا. كان فيها براءة وعفوية. قالت إن هذه المرة الأولى التي تدخل فيها مطعماً مع رجل.. وأي مطعم! إن المطعم الوحيد الذي يتعامل معه زوجها في السنة السنتين مرّة هو «بوز الجدي» في الشركسية إذا صح أن يسمى هذا الفوّال مطعماً. وقالت إن زوجها أحمد يصنع التسقية بيده لأنها، بعد أن جمع وطرح وضرب وقسّم، يكلف صحنها في البيت ثلاثة فرنكات في حين أن الحرامي، الحمصاني، أي حمصاني حتى ولو كان في حيّ معثر مثل زقاق «القرد الضيع ابنه» لا

يرضى بأقل من نصف ورقة.. وفهمت من كلامها الذي كان ينساب مثلما تتنفس، أنها لا يخطر لها أن تكون الحياة على شكل آخر: أبوها مات وهي صغيرة جداً. أمها نزلت على ضرة هي أمّ أحمد. أبوها، عمها زوج أمها هو الذي علّم ابنه عمل التسقية التي تكلف ثلاثة فرنكات في البيت دفعاً لما هو أعظم عند الحمصاني. وعمها هو الذي ضربت عينه عليها مذ كعّب صدرها كنّة له لأنها لن تكلفه شيئاً. العرس ذاته تخيَّر له وقتاً لا يخطر لإبليس: بعد أسبوع من موت أمه. أم العم أي حماة أمهاهي، حمل العرس حتى يكون بيتوتياً «يقتصر على أقرب الأقارب» لأن الأسرة يا حرام، في حداد على صاحبة الجلالة الملكة الأم. يعني كلّه ما كلف أكثر من جنازة الميتة وكان الله يحب المحسنين.

قال أخي: ولكني في ذلك اليوم لم أعلم ماذا أصابني كأن أحداً كمعني على رأسي بأرزبة صباغ لم انتبه بكل جوارحي إلى غير هذا الحديث الذي ما فيه غير سرد يكاد يكون لاهياً ثرثرة طفولية أقرب إلى المرح. ولذلك لم أضرب ضربتي... بقيت في عين نفسي غراباً أبلق مبرطماً غليظ المنقار، وهي فراشة بألف لون تتطاير في مرج، بالهامة، عند ملتقى نهر يزيد ببردى أيام الربيع... وحتى حينما أوصلتها إلى باب البيت فتشبثت بيدي واستبقتها بين يديها الصغيرتين كأوراق المنثور وهي تقول:

- تعال بكرة. سمورة أحبك جداً. تعال أعرفك بعمي وماما هما أيضاً سيحبانك مثل سمورة.

لم يخطر لي إلا أنها قطة ضيّعت أمها. وعثرت بعد لأي على البديل في أم مرضع أخرى. لا تنس أننا نحن أولاد العرب لا نعرف من النساء إلا المحترفات ومهما نكن مقطعين السابلة تظل المرأة في روحنا عالماً مسحوراً. وأكاد أقول حتى ولو تزوجنا فإننا لا نحصل على افتح يا سمسم هذا العالم الذي يبقى مسحوراً إلى الأبد مثلما عالمنا بالنسبة إليهن..

كان أحمد سيغيب نحو أربعة خمسة أشهر، ولكنه لم يغب غير شهرين، واظبت في أثنائهما على بيته، بيت أبيه الأصح، وأنا أحمل

لسمّورة مختلف الألعاب والحلويات، اشتريت له، تصور قطاراً ميكانيكياً أيام كانت الشام كلها ما فيها ربما أكثر من عشرين قطاراً لعشرين ابن وزير أو مدير جمارك ذمته واسعة، وأما أنا فالله محيي الدين والصحافة التي كنت أعمل فيها أيام لم يكن للمحررين رواتب من أصحاب الصحف وإنما يحيون على قطع الرؤوس ويصطادون لكي يأكلوا... أبو أحمدوأم فاتنة (أم سمورة، روح قلبي) زحل عقلهما. كادا يحطانني في عين ويغلقان علي أربعة العيون..

هذا كان في الزيارة الأولى التي حكمتها بعد نحو أسبوع من لقائنا الأول. بعد بضعة أيام أطرت ما بقي من أبراج - كما يقول أهل مصر - في يافوخ العم والأم: شالة كشمير كلفتني بقرة جحا.. لعمي أبو أحمد مع جلابية (هو يلبس القنباز الفتح والحطة والعقال) من الحرير الخالص وأخرى كوبونه انكليزية.. وأما الأم فقد استنسبت لها طوق ذهب. مكمّل يليق بمن كانت في مثل سنها متصابية في آن معاً.. خُيل إليّ وأنا أرى فرحة الشيخ بما أوتي، على البارد المستهني، أني لو سحبت أم فاتنة من يدها ومضيت بها إلى... لكان أحلى على قلبه من العسل... وأما فاتنة فقد طرأ عليها تحوُّل مذهل كدت لا أتعرف معه فيها إلى فاتنة المحطة والبرج الفضي وحديقة السبكي.. كانت تتصرف على أساس أني أنا رجلها الوحيد، سيدها ومولاها وعبدها أيضاً وأن أهلها لولاها لما كانوا أهلاً لحبتي لقمة القاضي[1] فكيف بصدور الكنافة أم نارين والغاتو من الأوريان بالاس... والأهل أحلى على قلبهم من القشطة أن تتبغدد عليهم وأن تأمر وتنهي وهم فوق الرضى رضى...

وأما أنا فلم يبق عليها إلاّ أن تقضي السهرة وهي في حضني فإذا لم تفعل بالمعنى الحرفي للكلمة فقد لصقت بي على الكنبة التي في صدر غرفة الضيوف ولم ترفع عينيها عني طوال السهرة والأم والعم في السماء

(١) العوامة.

السابعة فرحين بنا كأننا عروس وعريس يجلوان ليلة الدخلة... وأما الشاي واليانسون وشراب التوت والقهوة المرّة فقد كانا من اختصاصهما، العم والأم كليهما، اللذين كانا من أجل كأس ماء تطلبه هي يثبان في آن معاً ويختفيان في المطبخ الملاصق لغرفتنا كأنهما يريدان جلب الماء من الفيجة... ولم تكن «عرق عيني» كاسرة ظهري في حاجة إلى هذه الإشارة الخضراء منهما.. صحيح أنها في غيابهما كانت تأخذ حريتها أكثر قليلاً، كأن تلقي برأسها على كتفي وقد أحكمت إطباق نصف ظهرها على صدري وشلال شعرها الفاحم كما يقول الشاعر يتذرذر على وجهي ويديّ... ولكن. عند عودة الآخرين لم تكن تعنى حتى بتعديل وضعها الهائم... أنا الذي كنت أتضبضب وأبتعد منها فتلحق بي..

مع كل هذا، وعلى الرغم من الشيخ العم في الزيارة الثالثة كاد يطلب صراحة أن أبدل بسجادة الغرفة الحلبية سجادة عجمية من عند اسم الله وما شاء الله، أبو الفضل بك له مئة صاحب من تجار السجاد ينامون كلهم على يديه ولا يغشونه إذا نحن أردنا سجادة عجمية عليها القيمة عوضاً عن هذه المشرشحة.. فقد ازددت تحرجاً من الإقدام على ما يلذعني مثل بصّات الجمر من رغبة وهيجان. وما أكثر ما غرقت في التفكير والبحث عن سر هذاك التعفف آنذاك. لم أكن في الأصل طهرانياً أو أمارس التقوى ولو بفلس. ولم يقع لي ولا مرّة واحدة أن خلوت إلى امرأة ولو كانت في الخمسين إلا جربت حظي غير مبال أقوبلت يدي الممدودة كأنما بحركة آلية إلى الساقين بضربة على قفاها أم كانت الضربة على أم رأسي أو أبيه مع شتائم من تحت الزنار أو عبث مهذب. إذن؟ هل يعود ذلك التصرف المجفجف السلبي إلى كلمة أحمد، وهو يصعد إلى القطار. لفاتنة، أولي، أن أكون لها بمنزلة الأخ؟ لا، أحمد، بقامته القصيرة، وقسماته وبسمته الجاهزة دائماً لإرضاء الآخرين مثل بسمة «الفنانة» المجالسة في الكباريهات أو الغرسون الطامح ببخشيش يردّ الروح من سكير «عاشق»... التفسير يجب أن أبحث عنه في فاتن وفيّ وحدنا. من

جهتي أنا، بدأت حياتي كما تعلم موظف بريد. كنت في الثامنة عشرة لما نجحت في مسابقة لانتقاء «مأمورين» على أساس الشهادة الثانوية. نجحت. التاسع من عشرة فازوا بالمسابقة قبل أن يتسلموا أي عمل، جمعنا مدير بريد الشام ومضى بنا إلى محكمة الاستئناف في العدلية بالمرجة. القاضي قدم إلينا مصحفاً في مغلف من القماش الخشن كالقش الذي تصنع منه القبعات. نص القسم على أن نصون ما نؤتمن عليه وألا نذيع سره وألا نألوا جهداً في إيصاله إلى صاحبه دون أن نفتحه أو نعبث بما فيه! لا تنس أن هذا كان في تلك السن الغضة مثل عرق الحبق الحساسة مثل فلم ماكنة التصوير البكر.. هي أيضاً، هذا الاستسلام المطلق، هذه الطفولة الجديدة التي لا تترعرع وتزدهر وتشق براعمها كافة إلاّ مع بزوغ الحب الأول. من هذه الناحية لم يبق عندي أي شك: فاتنتي لم تحبّ هذا الزوج المتعوب الذي، كما كانت تقول المرحومة «أمك» لا «إذا قام يبين ولا إذا قعد يزيّن» أنا كنت حبّها الأول، زورة الوسمي لمرج ظمي... ولا أدلّ على ذلك من أن انعطافاً فاقع المغزى لم يلبث أن لاحت بوارقه: في الليلة التالية (وقد أمسيت أروح كلّ ليلة زجرت سمير لما تعلق برقبتي، من قبيل الحفاوة بي، وفيما أنا استبقيه محمولاً على ذراعي مدَّ يده إلى جيب سترتي الأعلى ونسل قلم حبري الذهبي وهو يقول، على عادته في تصحيف الكلام والأسماء، من باب الدلع، ربما:

- هذا اللأم أعطاني إياه عمو ضفلو.

(مرة أخرى ندهني ضلوف!)

بعد قليل، لما استقرَّ بنا المجلس عاد عمُّها إلى فتح سالفة السجاد الحلبي والسجاد العجمي الذي، على عكس الأول الذي كأنه منسوج من الخرق والشراطيط، كلما دعست عليه يطيب كما لاحظ أبو الفضل بك من خلال زيارته محلات أصحابه الكثيرين من تجار السجاد العجمي الذين يوم أي يوم لا في بلا العجم، خزيت العين، الله لا يجعلنا من الحاسدين... نبَّت فاتنة في وجهه ساخطة وهي تقول:

عمو، كفاية. أي شو شايف فضّول تاجر سجاد.

قال مثل جرو أكل رفسة:

أي أنا، يا.. كنت.. بس...

- لا كنت ولا بس بكرة يأتي أحمد وتطلب منه..

نظر الزوجان واحدهما إلى الآخر لحظة خاطفة وقد تطلّق وجهاهما عن مشروع ضحكة جذلى نهضا معاً ليكملاها في الدهليز... رجعا بعد غيبة دامت دقائق مديدة، ومعهما دلة القهوة المرّة والفناجين وجلسا كأن شيئاً لم يكن.. ليس «لم يكن تماماً» لأن زجر البنيَّة الحبيبة مثلما تقول أوقع عليه النعاس هو وزوجه فلم يلبثا أن تسلحبا واحداً بعد واحدة وتركانا نحن الاثنين ومعنا رميس (أي سمير) الذي يساهر المطلقة، العفريت... اهتديت إلى طريقة لم يسبقني إليها أحد لدفاعها عني ودفاعي عنها: استنجدت بهذه المنة التي قطع الله رزقي من كل عمل صالح، مربح ووضعه في لساني. اندفعت أحدثها.. بم؟ أأنا أعلم؟ ألا يقع لك أن تراك ينبوعاً ثرثاراً طفح وراح يتدفق في ساقية حصباؤها مثل حبات الؤلؤ الصوت الذي ينساب من القرارة، من التّوق، من كل الأحلام التي قطعنا ليالي سهاد طويل لكي نبنيها مدماكاً فوق مدماك حتى نبني بيتاً لاتزال يلهج بها الطفل والشيخ على حافة قبره... وهي، كنت أعلم أنها، على غرارتها، تفهمني. البارق كان في عينيها المشتعلتين باليقظة وسكون أوصالها كالتمثال. إنها تترشف.

سمير نفسه بدأ رأسه ينود. الحيٌّ كلٌّ نوّم. من جهة مستشفى ابن نفيس قد ينطلق عواء ملتاع ثم يخيم الصمت... عند باب الدار وقفنا قامة لقامة، لصقت أنفها في صدري ولزّت عليّ... همست بكلمات لم ألتقطها شيْ يشبه أن يكون: «ابق»! أو «لا أحد إلا.. نا» لم أنحن على شفتيها المرتفعتين نحو وجهي فعلت ما هو أبعد: طوقتها بذراعيّ وشددت. شددت في حزازة. في قسوة حتى أوجعتني ذراعاي وكتفاي وصدري.. ولم أكد أحس بالوجع حتى تنبهت فأفلتها من بين يدي وانقضضت على رتاج الباب أكاد انتزعه وأقفز إلى الزقاق.

قال صهيب: وددت أن يعود أخي، بعد أن وصل إلى هذه النقطة من حكايته ولاذ بالصمت فترة كأنه يلملم شعثه ويلتقط أنفاسه المبهورة، لو أنه يعود إلى حديث تمزقه في تفسير موقفه المتهيب فيقول لي: أما كان لنشأتنا قبل أن نستقر نهائياً في العاصمة في بلدتنا الصغيرة تلك التي في الشمال، حيث البُنيات يتوارين بالحجاب، حتى عن أولاد عمومتهن وخؤولتهن مذهن في الحادية عشره أو الثانية، فيكن طوال حياتنا لغزاً لنا نتوجس أعظم الخيفة من مجرد محاولة سبر غوره.. أقول أما كان لتلك النشأة المكبوتة الشاذة دور في سلوكه ذلك.. ولكن طلاوة حديثه الذي كان يتدفق به في سلاسة وحرارة جعلتني أحجم.. ولاسيما أن فضولي كان في ذروة نهمه لأن الوقائع التي كان يرويها لي قد حدثت وأنا في فرنسا ولم يكن مرّ على عودتي منها طويل وقت حتى كانت حالنا على حد تعبيره حال من يحتاجون إلى التعارف ببعض من جديد. وهو، لم يكن من النوع الكتوم خصوصاً عني، فلو كنت مزامناً قصته والمرأة لكنت علمت بتسلسلها يوماً بعد يوم وهكذا لما طال صمته وتململي، سألته:

وبعد؟

قال جذلان: «وبعد؟ عاد سبع السبنبع من السفرّ»

قلت وقد انتقلت اليّ عدوى جذله: «واشتلق منذ لحظة، استقبالكما اياه في المحطة»

لا، عاد بالطائرة على جناح الشوق!

.. منذ لحظة دعسه على أرض المطار أشتلق إلى أن الماء يجري من تحته كما كان يقول معلمنا الشيخ محمد خير. فجن جنونه من الغيرة ومدّ يده إلى محفظته فنثر منها الموس الكباس أبا الثماني طـــــقات وهات ياتشريح فيكما إلى أن تركك‍ما جثة أو جثتين هامدتين ... حينئذ شكل في مفرق شعره وردة وقصد أول مخفر قريب من المطار وسلم نفسه لرجال الأمن وهو يقول: «اصبعي عابت فقطعتها!»

قال أبو الفضل ضاحكاً حتى دمعت عيناه.

- لا وأنت الصادق. ماسردته أنت كان فيه شيْ مما وقع حقاً ولكنّ أكثريته مبالغ فيها.

قلت متعجباً: «فيه شيْ مما وقع حقاً؟ أيه؟»

قولك إنه اشتلق منذ اللحظة الأولى..

والبقية؟ أنا أعلم أنه اختلاف مستلهم مما كان يجري في ريفنا عندما يكتشف الأخ أو الزوج أن أصبعه تعيب... ولكن كيف اشتلق وماذا كان ردّ الفعل لديه في الواقع؟

اشتلق. لأنها، لما خرج من قاعة المسافرين واتجه نحونا كانت فاتنة تحاصرني، هي من جهة وسمورة من الجهة الآخرى فبدونا كأننا زوجان وابننا نستقبل معرفة من معارفنا؟

- العمى. وبعد، هل عادت المخاوف؟

- لا، طردها هو.

- هو! كيف؟

- هو الذي جاءني بها إلى حضني.

- أنت تمزح.

- لا تأخذ الكلام على حرف كمن يعبدون الله على حرف، الحكاية وما فيها أننا استأجرنا، يعني استأجرتُ سيارة أجرة ومع وجهنا إلى البيت. الأب والخالة امرأة الأب لم يخرجا إلى استقباله لأن فاتنة قالت لهما إن أبو الفضل بك آت بأحمد ليتغدى عندنا فبقيا في البيت لينظما سُفرة تليق بأبو الفضل بك. السيد أحمد جاء فلم يلتكش به أحد، حتى سمورة كان لايتركني. على المائدة كانت فاتنة مدحوشة فيَّ كالعادة وأمها وعمها مالهما هم إلا أبو الفضل عيونهما طائرة عليه. في لحظة ما مدّ أحمد يده إلى كردوس لحم من جاط الملوخية زجره أبوه: «اترك هذه الفتيلة لأبو الفضل بك ياولد!»

ههنا لابد أن الشرر قدح من عينيه!

هذا بالضبط مالفت انتباهي لأنه كان يجلس هو وأبوه وأم فاتنة إلى طرف المائدة المواجهة للنوافذ ونحن الثلاثة، فاتنة وسمورة ومحسوبك إلى الطرف الآخر الضوء يريني تضاريس وجهه وما كان يطرأ عليها من عوامل وانهيار التربة في وضوح شديد. الله الوكيل كان شرر الزغاريد يشع من عينيه. في عمري لم أره أكثر جذلاً.

- لماذا لايفرح: امرأته كانت في أيدي أمينة.

- وتشبثت بي بعد الغداء وطوال السهرة حين بدأ المسلِّمون يتوافدون. أنت تعرفهم، أولاد حارته: بدر، خيري، اسماعيل، أبو النور، عمر... هؤلاء أيضاً اشتلقوا، وكانوا مشتلقين من مواظبتي على الحارة ولم يبد عليهم أنهم استطعموا أو في الأقل تأففوا كأنهم، لشدة معرفتهم به انبسطوا أن يروا إلى رأسه الصغير وقد نبت فيه أكليل من القرون الثورية.

وضحكت فصبر عليّ حتى فرغت، استمر يقول:

وطبيعي أنهم لم يستنكروا ما كان بمنزلة الضربة القاضية لكل تردد لازمني طوال غيابه: طلب عمر، ربما، كأس ماء بارد فجاءته فاتنة، التي كانت تجلس لصقي حتى في حضورهم، وبعد أن تشاغلت بي حتى اضطر إلى إعادة الطلب، جاءته بالحق من أرض الديار حتى يظل بارداً ومعه قدح. وقالت في اثارة من سخرية: «من براد أرض الديار يابو الخطاب ماركة أبو أحمد!» ... العفريته لم أكن أعلم أنها قادرة على مثل هذا القفش اللماح... وتجاهل أحمد الوخزة أو كان أكثر انشغالاً بالحديث عن بلاد برّة ونسائها اللواتي تسوسحن به ولكنه ظل عفيفاً أميناً لبعلته أم وحيدة، مثلما عاد.. وقد دفق ذلك على رأسه مطراً غزيراً من التعليقات الضاحكة، فانتظرت القطقوطة العفريتة حتى هدؤوا فعادت تقول، دون مواربة هذه المرّة أن الحمصانية والقهوات أمات ثلاثة طاولات وبياعي الألاسكا على الكرّاجات صار عندهم برادات وأنا مرة أحمد بك واضرب واطرح..

أي، وبعدين؟

- بعدين، هبت عاصفة من الضحك وسيل من التعليقات التي لم تعكر عضلة في وجه الأخ الذي انتظر هو أيضاً هدوءاً ليقول لامرأته باسماً، هادئاً: «ودك براد مثل كل أهل الحارة. أنا ما دخلت وخرجت . أساساً أنا الماء البارد يعمل لي التهاب حلق. ودك براد؟ قولي لأبو الفضل!

يالطيف!

أي والله يالطيف يا أخي صهيب. أنا للوهلة الأولى زخني العرق وصرت قد الكمشة. تمنيت لو انشقت الأرض وبلعتني،، ولكن سرعان ماتبين لي أني على الرغم من اقامتي الطويلة في البلد. مازلت أجهل أن كل شيء فيها ممكن: لقد اطلقت كلمة الرجل ضحكاً لم يهدأ تماماً حتى آخر السهرة... حين اغتنمت فرصة سحبة ضحكة جديدة فهمست في أذنها: «تعالي غداً بعد الظهر إلى عندنا في البيتّ».

قلت ضاحكاً: «وهل اشتريت لهم البراد؟»

لن أحكي.

- يدي في زنارك.

-احكي إذا أقرضتني أم الخمسمئة. أنا منتوف وأنت جلدك محشو بالورق السوري. هات إذا أردت أن يطقطق رأسك بالشيب وترخي مفاصلك من الانبساط كأنك آكل إبرة بنج.

- أعطيك، ولكن كمّل حالاً. اشتريت البراد.

- البراد مسألة جنحة.

هل طلب ضرك (على وزن ضرتك) مرناة ملونة.

- ياليت.

- إذن؟

- أصبح هو الضيف العزيز... ياضيفنا لو زرتنا. عاد لايجي بقشة للبيت. أنا ابتليت بكل شيء لم يبق عليّ إلا أن أحمل المبصقة للعم وهو يسعل

من شرب التتن الحموي. قل هذا حكايته هينة ولكن المصيبة في ابن ضرّي، سمورة.

- ولكنك قلت لي أنه ظريف ومهضوم.

- ما اختلفنا ولكنه لزقة بيطارية وفضيحة بجلاجل الـــ ما صار عنده خبر بعلاقتي مع أمه خبَّره هذا الطفل الذي تعشبق بي حتى صار في بعض الأيام ينام عندنا في البيت. وكل يوم ودّه سينما أيش ما كان الفلم لآفاغاردنر، سارق الدراجة.. فلم سارق الدراجة هذا هو الذي جاب خبري. هذا سمير غداً تعرفه، صحيح أنه ابن أربع خمس سنوات ولكن صوته عال ودرش مثل صوت الاختيارية أبناء الستين السبعين وفيه بحة أيضاً ولا يدخل لسانه حلقه. يعلق كأنه سمسار كراجات على كل حركة ويخبرني بها أولاً بأول: «عمو لضوف أمسكته من يده.. عمو ضلوف يوه والله لأقول لأمي.. باثها باثها عمو ضفلو...» وما إن ظهرت الدراجة في الفيلم حتى صرخ من قحف رأسه: «عمو ضلف سكبليت... ولا اترك السكبليت..»ما هي الطريق لتهدئته؟ لا طريقة، مادام السكبليت حاضراً طوال الفيلم تقريباً؟ قلت في نفسي: «مسألة أقدر عليه مستحيلة وفضيحة فضيحة اتركه يأخذ حريته...» خفت في بداية هيجانه السكبليتي أن يقوم علينا أهل اللوج والصالة جميعاً. ولكن الأمر مرّ بسلام بالنسبة إلى أهل الصالة لأنهم بعيدون تحت. وأما أهل اللوج فقد كانوا قلة، أكثرهم من أولاد المدارس لأننا كنا نحضر الثلاث إلى الست. الأطراف أنهم، لولدنتهم انصرف أكثرهم عن الفلم الذي سبقته شهرته قبل وقت طويل من عرضه بوصفه فتحاً جديداً في السينما العالمية تقدّمه السينما الايطالية. أنا أيضاً لم يبق في ذهني منه إلا صور غير متماسكة، لأني بعد أن متُّ من الخوف انقلب مزاجي إلى العكس، إلى الاستطراف فجعلت أنادم سمورة أي باب شفت السكبليت يارميس.. أي نعم باثها وعلى فمها من أجل خاطرك ياسيريم، وهكذا.

- وأمه؟

- ماعسى أن أقول لك؟ المسألة بالغة الدقة تحتاج إلى ناس عظام اعتادوا الابحار في النفس البشرية وأغوارها ولججها وأفلاكها حتى يتيسر لهم مواربةُ زيق ضوء من عوالمها الخفية في البداية كان الضرام الاعصار التبتُّل. كانت لاتصدق أنها قادرة، أنها تستحق، أنها شيء أكثر من بيعة ثروة صفقة لابأس عقدها أغرب لتسلم، سيف هذا المتعس المنتن، القريب هو أيضاً، الأكثر غربة عنها من السحابي فيما بعد لم يبق الحريق بالنسة يشب إلى السحب ولكنه ظلّ جمراً حياً لايلوح عليه أنه قابل للانطفاء. أظن أن هذا مردّه إلى أن المرأة التي فيها قد أنضجها العشق حتى أتت أطيب أكلها. كناية سخيفة. قل إنها وجدت، عرفت لقيت حقيقتها، فداخلها من استجابتي لها وتخييمي عليها وإزرائي بكل محذور فيض من الطمأنينة والوجد وبدت ماذا؟ كأنها تقلع في ريح رخاء وأنَّ كلَّ هذه الهبات الكبرى التي غرتها إلي وحدي يجب أن تكافأ بم؟

- بم؟

- لن أقول

- كرمى الرسول.

- على الرأس ثم العين.

- اذن أقول لك بعد قليل.

- لا، الآن برحمة الوالد في نومته.

- ولك سأقول ولكن بعد مدخل صغير لابد منه

- هات خلصني.

والله يامرحوم البي، أنا من جهتي اتّخذت عاطفتي نحو هذه الإنسانة التي بلا مثيل مساراً آخر: أنا كما تعرفني أفّاق، ابن حبوس تمرمرت وراء القضبان بغير جرم إلا فكري السياسي حتى الذعر من كل ماهو ضيق، قيد، كمبيالة مقسطة ومن عشق كهذا الذي، أنا أيضاً، ما عرفت له شبيهاً أو هكذا خيِّل إليّ. أمسيت مثل «عصفوري يا عصفور» لاينقصني إلا أن أرخي لحيتي حتى سرتي وألبس بسطاراً عسكرياً مثل الشختورة وأحمل

عصا مثل غالب قهوة البرازيل في زمانه وأتشرد في الطرقات.. طبيعي أن شواغلي في الصحافة والإذاعة والندوات كانت تجنبني مثل هذا المصير، بيد أن حبَّ هذه المخلوقة بكلمة خوفني وبما أن من العلم ماقتل فقد تعلمت أن المرء إذا أراد أن يتخلص من حب فما هو بقادر عليه إلا بحب آخر ولكنّ حباً في غرام هذا في أسره وإحكام ربقته عليّ وفي الوقت ذاته في إبلاغي السماوات العلى مثله إنما هو المستحيل الأول والرابع أذن؟ رحت أعوض عن هذا الأوحد بما أضفي عليه أنا نفسي مالا يملكه هو من صفات الأوحدية. هل أهذي أو أنك تفهمني؟

- جداً.

بدأت سلسلة من عمليات الجري وراء التنورات كما يقول أهل فرنسا الذين كنت عندهم. كل أسبوع أسبوعين، قل شهر. تغريزة جديدة، وهواتف بعد منتصف الليل تخبأ في الطرف الآخر، تحت اللحف، وسرقة مفتاح السطح لتتسلل هي بقميص النوم وحده إلى السطح. بعد نوم أهل البيت كافة، وأنط أنا متسللاً من الشارع لألحق بها حيث نحييها حتى قرب طلوع الضوء.. الخلاصة غرق كامل حتى الأذنين..

- وفاتنة!

كنت أهرب منها وهي تلاحقني إلى أن ضبطتني مرة في البيت. كنت أومئ إلى أختك سنية التي فتحت لها الباب أن تقول لها: «ما هو هنا!» ولكن أختك لم تلتقط الإشارة. رحبت وأدخلتها إلى غرفة الضيوف المكتب حيث كنت أعمل.

- سينما!

- تضرب ما أغلظك. إذا أعدتها يصير يلزمني خمسمائة ثانية هاه.

- لا، تبت.

- في منتهي البساطة قالت لي إن محاولاتي لن تفيدني لأنها تعلم ألا شيْ قادراً على أن ينسيني. وأما هي فــ: «أنا لا أقولها لك بهورة أو إغراء لك بالعودة لأنك عائد في غد أو بعد سنة ولكني أقولها لك حتى ترتاح

وأرتاح، ومثل من يفكر بصوت مسموع وهو وحده بين أربعة جدران: منذ أن عرفتك حرم علي الرجال، كل الرجال، وسأظل حتى أضفر الشيب على هذا، فإذا أصررت على هجري استسلمت مثلي دائماً معك ورضيت منك بما خلفته لي مما لايعلو عليه إلاك...» ونهضت ثم توجهت إلى الباب شامخة كأنها ازداد طولها لست أدري كم.. حاولت استبقاءها توسلت إليها، أمرتها، أخذتها بين ذراعي أبقيت رأسها مدفوناً في صدري طويلاً إلى أن تبلج وجهها، وهدأت.. أردت أن أفهم ما هو هذا الذي خلفته لها.. هي تعلم أن ما أنفقته لايخطر لي على بال، ويستحيل أن أسميه عطاء، إذن؟ سألتها، ناورت ولم تجب قالت: «أقول لك متى ماكففت عن حياة التشرد في الحانات وسطوح المنازل والكباريهات!» رضيت. أقمت. عدنا في تلك اللقيا ذاتها.

- وقالت لك؟

- قالت لي إنها ستبر بوعدها غداً... في اليوم التالي جاءت وعلى ذراعها طفلة في شهرها السابع أو الثامن مافيها ذرة شبه لأ با أحمد ولا بها هي. (بعد فترة صمت) بُهتُّ، وأما الطفلة فقد مدّت يدها الصغيرة بلون الفجر وأمسكت بأنفي (صمت جديد) كان هذا أول أمس.

- لما قلت لي خذ أختك سنية وأذهبا إلى أختك أم سامي!

تماماً..

- وقلت لي لما رجعنا في الليل إنك...

- ماعساي أن أفعل. الفجاءة كانت قاصمة!

* * *

القسم الثالث : «طبقات الأطباء»

١ - يفتح.. وتعال يا أديب رجع
٢ - عبود فريشو
٣- كوهين الكحال

١- يفتح.. وتعال يا أديب رجع

التقيته بعد فراق طويل. تعانقنا في حرارة. قال:

تعال نروح إلى أحد الفنادق نجلس جلسة طويلة نشفي فيها غليلنا ونأخذ حظنا من الحكي. هل تتصور أن أكثر من خمسة عشر عاماً فصلت بين آخر لقيا لنا وهذه؟ بعد الغيبات الطويلة مثل هذه يحتاج الأصدقاء ولاسيما إذا كانوا أولاد بلدة واحدة مثلنا إلى إعادة التعارف، ألا ترى رأيي؟

كان طلعت ابن بلدي ورفيقي في المقعد طوال الابتدائية في بلدتنا، ادلب، والثانوية في حلب أيام لم يكن في القطر كله سوى تجهيزين واحد في حلب والآخر في الشام. قلت:

بلى، ولكن، قبل أن نعاود «التعارف» احك لي عن البلد، ما أخباره؟ هل تركته من أمد قصير؟

- منذ مطلع السنة الدراسية حين جئت إلى المنطقة هنا معاراً. وكان معي عنوانك ولكني أضعته.

في لوبي الهلتون الواقع غير بعيد من بيتنا فتحنا جراب الذكريات و - كما سماه طلعت - التعارف المجدد.

قلت له بداية: «أما أنا فقد تركت البلد قبل أكثر من أربعين عاماً، كما تعلم، ولكني أحس أني لم أتزحزح منه قيد أنملة. أخباره عندي دائماً طازجة أو تكاد...».

مثلي. أنا كل أسبوع أتلقى في الأقل رسالة أو اثنتين..

- وأنا كذلك، وإن كانت الرسائل التي أتلقاها أميل إلى إبلاغي ما يجد على الساحة الأدبية..

- لافرق عندك. أنت قادر - كما عرفتك - على الكتابة عن خبازتكم أم الزاكي أربعة وعشرين مجلداً مثل أبي الفرج..

ضحكنا قلت:

على كل حال أنت أقرب عهداً به وبناسه فتكرم علي بآخر أخباره. احك. لاتتركني أفتح فمي على الرغم من جنوني في الحديث قبل أن تفرغ جعبتك على الفطرة.

- أي نوع من الأخبار تريد؟

- ماتشاء، ولكني هذه الأيام، ولوقائع حدثت لي هنا في الخليج مع أطباء ومواطنين لو كتبت بالإبرة على آماق البشر لكانت عبرة لمن اعتبر..

قاطعني طلعت ضاحكاً:

أنت من أكثر من ربع قرن، على حطة يدي، مولع بأخبار الأطباء.. وأذكر أني قرأت لك في الشام أكثر من قصة عنهم هاجية حتى الإقذاع حتى أنك تذكّر القراء بموليير..

- أنا أريد أن أذكرهم بابن أبي أصيبعة الذي كتب في طبقاتهم..

- في طبقاتهم أم في مثالبهم؟

- مثالب أطباء البلاد تكاد تكون بدائية إذا هي قورنت بمثالب الأطباء هنا.

- هات لي نماذج لأرى.

- لا، أنا قلت لك إني أريد أن أسمعك أنت أولاً ياريحة الأهل. قل لي بداية ما أخبار الدكتور نصر نصير؟ هذا كان رفيقي في فرنسا ويفقع خواصرنا من الضحك كلما اجتمعنا بأخبار أهل البلد يرويها بلهجة أهل زقاق الأكتع خاصة. على فكرة إذا سمعت الدكتور نصر يتكلم الفرنسية تظنه دوغول، الانكليزية تخاله تاتشر!.

ما تزال عيادته في زقاق الأكتع في الحارة الغربية لايحبه أحد ولكن المرضى في عيادته الداخل أكثر من الخارج لبراعته ورخص كشفيته وطرافة ممرضه «أديب» الملقب (هو يفتح وتعال يا أديب رَجِّع)!.

طار عقلي لم أفهم ولا كلمة. قلت:

على مهلك لحظة يا طلعت. أيش هذه الـــ (هو يفتح وتعال يا أديب رجع)؟

الآن أشرح لك. هذا أديب ياسيدي قريب للدكتور نصر قربى بعيدة. وهو يفهم في التمريض قد ما أنا أفهم في الذرة. ومع ذلك كان الوحيد الذي تحمل غلاظة الدكتور نصر وقسوته.. ومع ذلك لم يلبث أن فَنَّشَهُ (بمعنى طرده) كما يقول أهل البلد هنا.

- فنشه؟ لماذا مادام يتحمله.

- الدكتور نصر هو الذي عاد لايطيق أديب وبهورته وفشحرته ، فطرده..

- احك، احك لي بالتفصيل أرجوك.

- المهم ليس الحادثة وإنما ماجرى بعدها: أديب هذا أضحى يطوف قهاوي البلد، مجالس وجهائها، ساحة البازار.. يترك هذا ويمسك هذا ويحكي حكايته مع العاق، أسود الرأس، ناكر الجميل الذي كان عمله أن يفتح وتعال يا أديب رجع..

- أنت رايح تجنني ولك طلعت، هل تعلم؟

- لماذا؟

- أيش معنى هذه الألغاز: (يفتح)، (رجع)؟

ألم تفهمها على الطاير؟

- أيش يفهمني إياها؟

- هذا الدكتور نصر كما تعلم ممارس عام، ولكنه اشتهر خصوصاً، جراح.. أنت سيد العارفين بلدنا يرفض الاختصاص. الحلاق نفسه يجب أن يكون جراحاً وطبيب أمراض جلدية وكحالاً (طبيب عيون) ومولداً إذا عزت الدايات..

- أي أوصلني إلى الزبدة.

- يعني أديب بقولته هذه أن نصر لاعمل له غير فتح البطون وإخراج الأحشاء من الجوف ثم... تعال يا أديب رجع كل شيء إلى محله بعد «العملية» أي عملية تنظيف الجوف..

فقعت خواصري هذه المرة من جد، ولكن طلعت لم يمهلني حتى التقط أنفاسي إذ أضاف:

وهكذا ذهبت كلمته مثلاً: إذا أراد أحدهم أن يعيّر الآخر بأفضاله عليه قال: «أيش على بالك أنت يا أبو قلب بارد، أنت تفتح وتعال يا أديب رجع..

* * *

٢- عبود فريشو

قلت لطلعت بعد أن هدأت ضحكاتنا:

مادمنا في سيرة الجراحة، ما أخبار الدكتور عبود الجسري؟

- تقصد عبود فريشو؟

أهل بلدنا مهووسون بالتلقيب: قل أن تجد أحد دونما لقب يطلقه عليه مجهول فلا يلبث أن يستبعد اسمه الأصلي. وهذا الآيين ليس وقفا على أهل «زقاق البوس» كما نظن، حيث القصابون والآلاتية والحميماتية، وإنما يشمل أكثر سكان البلد. وقد أطلق لقب فريشو على الدكتور عبود الجسري للمفارقة الصارخة بين عبودنا والدكتور الجراح الخارق فريشو، المختص بجراحة العظام وقد عرفته بلادنا إذ كان يضع المكوك بين حلب والشام - وربما بيروت - ويجري عمليات كبرى لم تفشل أي منها فأعاد إلى الحياة السليمة مئات إذا لم نقل آلافاً من الذين كانوا لابد يفقدون كل أمل لولاه.. ومن ذلك الطبيب العظيم أنه، لما أجلى بنو قومه عن البلاد سنة ١٩٤٦ آثر البقاء والمضي قدما في رسالته الإنسانية السامية. قلت:

ما أذكى فؤاد أهل بلدنا يا طلعت.

- هذا صحيح، ولكن تلقيبه بفريشو من قبيل الهزو به ظلم لهذا الطبيب الظريف..

- الطبيب الظريف؟

في رأيي، هو ظريف وفذ وأهل الحارة بل أهل البلد كافة كانوا يحبونه لسببين: أولهما أن في قلبه مرحمة للفقير الطفران، ثانياً، لأنه يقدم فرجة مجانية لطيفة كلما كان عنده عملية جراحية في عيادته الواقعة في شارع القوتلي، الطابق الأرضي.. وهذه الملاحظة «الجغرافية» ضرورية لفهم بقية حكايته..

- أنا أعلم «أولاً»، أي أن في قلبه رحمة وعطفاً على الفقراء. وأما «ثانياً» فلدي عنها «طاريش» أخبار تكاد تتمحي حول عملياته الجراحية في ما يشبه أن يسمى الهواء الطلق.

- هذا جداً صحيح. فالعيادة كما قلت لك في الطابق الأرضي ناحية السرايا العتيقة، حيث يوجد أمامها شبه ساحة. النوافذ كلها. بما فيها نوافذ «غرفة القصابة»، أقصد العمليات، تطل على الساحة. وهي نوافذ عريضة جداً. فإذا صادفت العمليات في الصيف، أيام كانت المراوح نادرة في البلد (إما لأن أيها لما ينتشر جداً، أو لأن بلدتنا في الغالب باردة صيفاً وشتاءً).. فيضطر الدكتور عبود إلى فتح النوافذ على مصاريعها في أثناء العملية، فتدخل مع نسمات الهواء، جحافل الذباب وأعين الناس المتفرجين الذين يحتشدون كل دقيقة أكثر منذ أن يشيع الخبر أن الدكتور عبود عنده عملية في غرفة العمليات. فرجة حقيقية يحرص الناس حتى في الحارة الشمالية أو الحاج محمد المحريب على حضورها مؤثرينها حتى على السينما القريبة أم الفسفس منذ افتتاحها قبل بضع عشرة سنة أي لما كانت جديدة من طقة إبرتها.

- هذه لم يسبقه إليها الحلاقون الله الوكيل..

- تصور المنظر الذي يستحيل حدوثه في غير بلد مسكين محروم مأكول مذموم مثل بلدنا.. تصور المريض الذي تعمل له العملية وهو مطروح مصطبةً (لأن العيادة طولها وعرضها خلو حتى من سرير فحص فكيف، من فضلك، بمنضدة عمليات؟) بطنه مفتوح، وأحشاؤه مدلوقة قربه وأسراب

الذباب عانة منقضة عليه ونصف عانة أو ربع عانة مناجية من البطن المفغور..

- فظاعة!

والناس من أقصى البلدة إلى أقصاها يصادف واحدهم الآخر عجلان فيسأله: «إلى أين إن الله يسر؟» فيجيبه وهو مستمر في جريه تعال معي، ضاقت أخلاقي في الدكان وسمعت أن الدكتور عبود عنده اليوم عملية شاهرلية.. تعال نتفرج عليها. مسألة تسلية نصف ساعة زمان أمام شبابيك العيادة.

- وإلى أين انتقل عبود فريشو هذا؟

- إلى حلب.

- كان عليه أن يأخذ معه أديب ممرض الدكتور نصر حتى يستمر هذا (بعد أن أنهى نصر خدماته) في الترجيع والدكتور في فتح البطون للأعين الفضولية والذباب والهواء الطلق.

- ياللطب البائس!

ويا للشعب الذي يغوص حتى مفارق شعر الرأس في بحران ويا غافل لك الله!

*   *   *

٣- كوهين الكحال

قال طلعت جذلان: «هذا مالزم عرفناكم ونحن نحمل لك من البلد - كما يقول كتاب العرض حالات - ألف حمل سلام مكافأة لك على حفاظك بلدتنا الأم، على امتداد مهاجرك منذ نحو نصف قرن في سويداء قلبك دون من أو كلال أو أذى أو ملال.. وقد قلت قبل قليل إن هزوي القديم، إذ أنا في الشام كان تذمراً بسيطاً ونقداً أشبه بالعتاب.. وأما الهجاء المقذع فقد ادخرته لأطباء مغتربك هذا هنا فهات حدثنا حديثك بعد أن تعدنا بغداء ظريف في هذا الفندق أجر سماعنا إياك لأنني أعلم أنك مثل أولئك المطربين القدامى: تعني بدرهم ولا تسكت إلا بدينار. أم ماذا؟

قلت ضاحكاً: «إذا أخذنا بالاعتبار شرطك لسماع أخباري، بوصفي متقدمك في الهجرة إلى هنا، غذاء في هذا الهلتون الفخم.. فإنك أنت الذي يحكي بفنجان قهوة ويصغي ببقرة جحا. أم تحسب أني قاص كاسد؟»

من جهة كاسد لا أظن قاصاً نافقاً إلا كان زلمة حكومة أو حزب. وبما أن الكلام في هذا الأمر ليس وقته لأننا قررنا جلستنا للفرفشة و.. التعارف، ففضها سيرة قولة أهل الشام وهات قصصك الدبوية!

وما أكثرها يامولانا! ولكن أغربها إنما هي حكايتي مع طبيب عيون من البلاد تكتب بالخناجر على رؤوس الحناجر يا طلعت العزيز.

- طبيب عيون قلت لي؟

- وأجدادنا، السلف الصالح، كانوا يقولون له الكحال أو «القداح» تجنباً لاستخدام كلمتين: طبيب وعيون..

- ومن يكون سيادته، أعني الكحال؟

- بل أؤثر، من أجل هذا بالذات، كلمة قداح بالمعنى الذي يعطيه ابن البلد حينما يقول عن بائع غلبه في صفقة: قدح مني ابن الـــ هو ابنهم ألف ليرة زيادة وأما هذا واسمه الدكتور ميم ميم (لأن الله نادى بالستر) فهو بلا قافية يعلق لافتة عرض أربعة أمتار بطول مترين وارتفاع ثلاثة تقول: «زميل الجمعية الملكية لطب العيون في لندن» ولكني بعد الأفاعيل التي فعلها بي وبأختي بنت الثمانين سنة فقد حملت على الظن أن ستي، التي كانت تقرأ وتكبس مرضى الرمد. أفهم منه في العيون لا رعاه الله ولا وفقه!

احك بالتفصيل لأني أعرفه. كان يعمل قبل أن يحصل على أذن بفتح عيادة في ديرة، في أحسن موقع، كان طبيباً يمشِّي الحال في مشفى الكويت الحكومي (بدبي) ولم أسمع عنه أنه أيا مئذ كان..

- شايلوكاً، أو أشر وأدق رقبة. يخرب بيته، والله اليهود أحسن منه .

- احك لي، احك!

هذا يا سيدنا دلنا عليه طبيب ممارس عام اسمه الدكتور خير. ألا تعرفه؟

- كيف لا أعرفه؟ هذا قرص عسل!

ومحب كل سوري ولو كان قطة. انتصحناه في أوجاع كانت تصيب أختي وأخرى تصيبني فنصحني بميم ميم هذا.. ولكن الله منَّ علينا بإيفاد إلى ألمانيا. وفحص أختي أساتذة كبار في جامعة ميونيخ فوجدوا أن معها ماء أزرق (غلوكوما) وتحتاج إلى عملية في كلتا العينين. وأما أنا فكان معي ماء أبيض (كاتركت) لما ينضج بعد فيستوجب العملية.. بلا طول سيرة نجحت عملية أختي ولكنها، بعد بضعة أشهر بدأت تحس بما أسمتها

«دقرة» في إحدى عينيها فتذكرنا ميم ميم وقررنا استشارته. في تلك الأثناء كان الدكتور خير وابني محمد قد لعبا بعقل الكثير من الغرباء والأقربين للذهاب إلى النطاس القداح بعد أن كانت عيادته (هي نصف عيادة، وحتى لما ذهبنا إليه على أثر تلك الدقرة في عين أختي لم نجد في غرفة الاستقبال المشتركة إلا بضعة أشخاص جاؤوا من أجل دار التحاليل..

وأدخلنا إلى عيادته.. كنت قد عرفته في مشفى الكويت معرفة عابرة ولم أتمل قسمات وجهه. هذه المرة فعلت، فلاحظت أن جبهته ضيقة وملامحه لاتنبئ بذكاء وإلَّمْ تكن تخلوا من الحيلة والاستعداد للمداهنة.

رحب بنا وأثنى على الدكتور خير الذي دلنا عليه، وقال إنه - هو - طبيب كحال عالمي. والدكتور خير رجل لابأس به لأنه لايعرف الفضل إلا ذووه.. ثم إنه سألني عن المكان الذي أعمل فيه أهو صحيفة؟ لأنه يعرف أني كاتب. فقلت له: لا، بل التلفزيون.

فقال ممتعضا:

مديركم العام يده ماسكة على ما يظهر.

قلت: «أعوذ بالله. هذا أكرم من حاتم طيِّء. ولكن لماذا تتهمه بهذه التهمة الظالمة؟»

قال: «داوينا له أولاده المصابين، على أثر رحلة إلى عمان، بالرمد الصديدي فقصر علينا بالدفع»

قلت: «ألا اعلم أني أنا الذي دللته عليك وسأسأله عن سر إغضابك».

قال وهو يشير بيده إشارة تعني أنه زاهد في المال:

لا تزعج نفسك. المال وسخ الدنيا. نحن قصدنا أن نخدم. والمهنة كلها لا يجيء بهمها.

(علمت بعد تحقيق دقيق أنه قدح من مديرنا العام نحو سبعة آلاف درهم، الكذاب!).

ثم إنه التفت إلى أختي مستفهماً، فقلت له: إننا جئناه لكي يفحص أختي وينظر في سبب هذه «الدقرة» التي تحس بها في عينيها، وروينا له حكاية سفرنا إلى ميونيخ والعمليتين اللتــين أجريتا لها في مشفى جامعة ميونيخ، على يدي كبار أساتذة طب العيون.

دعاها إلى ركن الفحص حيث عدة النصب بأضوائها الزرق والصفر والقطرات المتعددة الألوان هي الأخرى.. ولم يكد ينظر من الثقب الفاصل بينه وبينها حتى راح يتحول محزوناً، ويصفق يداً بيد:

عليهم من الله ما يستحقون.. قال أساتذة كبار قال! وأين؟ في ألمانيا زيادة في النكاية.

لعب الفار في عبي. ما هذه المناحة؟ قلت له قلقاً:

ما الخبر يا حكيم؟

قال في لهجة درامية كأنه يخطب:

ونسي الإخوان في ميونيخ قطبة في عين خالتي..

وأضاف مخففاً دمه:

الآن يضرب الخطّاب عن التقدم إليها!

استسمجته وقلت له:

أهذا وقت مزاح!

أي أنا أحب أن أنكِّت!

ما العمل الآن؟

- لا يكن لك فكر. أنا أرفعها لها..

ومال علي كأنه يريد أن يفضي إلي بسر خطير:

تحتاج إلى عملية صغيرة ولكنها دقيقة..

- اعملها، ماذا تنتظر؟

- سأعملها حالاً. ولكني أنبهك إلى أننا نأخذ في مثل هذه الأحوال خمسمئة. ومع ذلك، ولأن الدكتور خيري يمون أعط الى يطلع من خاطرك.. حتى ولو أعطيتني مئة!

اعملها والدراهم لاتسأل عنها..

- أي نحن عندنا مئة مثلك؟ تفضلي يا أمي.

وقادها إلى غرفة مجاورة وغابا لا أكثر من دقيقتين أو ثلاث عاد بعدها وهو يقول ربك حميد أننا لحقناها قبل أن.. عليهم من الله مايستحقون!

في الاستقبال سألنا السكرتيرة، بلا قافية:

كم؟

- سفن هاندرد!

العمى سبعمئة درهم يايهودي!

قال طلعت:

لاتظلم اليهود! اليهودي شحيح لغاية دينية وأما قاطع الطريق هذا فمجرم.

- وسكت طلعت لحظة ثم سألني:

والدقرة؟

- أتعدني بألا تتهمني بالمبالغة إذا قلت لك إنها رجعت إلى ما كانت عليه؟!

* * *

الفهرس

الصفحة

الطبعة الثانية / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الفهرس

الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٣٥٠ ل.س أو ما يعادلها